الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
١٩

رواية

أورهان باموق

الحياة الجديدة

ترجمة : سها سامح حسن

مراجعة: دكتورة أماني توما

تقديم: عبد المقصود عبد الكريم

سلسلة الجوائز

تواصل سلسلة الجوائز تجديد نفسها فى الأعداد التالية، ومازالت تحاول جاهدة استيعاب أبرز ملامح المشهد الإبداعى عربيًا وعالميًا، هادفة إلى تقديم أعمال تتميز بالخصوصية والجودة، التى اتفقت عليها لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتاب.

واستنادًا إلى الاحتفاء الذى لاقته السلسلة فى أعدادها العشرة الأولى، ومع تشجيع المثقفين والقرّاء، رأينا أن نعيد نشر بعض الأعمال الأدبية التى نالت جوائز قديمة، والتى شكلت علامة فارقة فى السرد العربى والعالمى. تلك الأعمال التى نالت منذ نصف قرن أو أكثر جوائز عالمية ومحلية، ولكن طبعاتها نفدت منذ فترة، ولم تعد متاحة للأجيال الجديدة؛ ولذا رأينا أن تضاف للسلسلة أعداد خاصة مميزة لإلقاء الضوء على تلك الأعمال وهذه الجوائز من خلال عنوان فرعى هو «ذاكرة الجوائز».

وستكون باكورة هذه الأعداد الخاصة، نشر رواية «الفسكونت المشطور» ١٩٥٢، للكاتب الإيطالى «إيتالو

كالفينو» (١٩٢٣ - ١٩٥٨)، الحاصل على عشرات الجوائز المحلية والعالمية، والتى شكلت ثلاثيته «الأسلاف» إضافة للسرد العالمى. كما نعيد نشر رواية «قرية ظالمة» ١٩٥٤ الحاصلة على جائزة الدولة للأدب عام ١٩٥٧، للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ١٩٠١ - ١٩٧٧.

هذه الرواية شكّلت نقطة مضيئة فى الأدب العربى، وتم الاحتفاء بها حينذاك عربيًا وعالميًا، وترجمت إلى إحدى عشرة لغة، وكانت ومازالت إنجازًا يسعدنا أن نعيد طبعه فى هذه السلسلة.

كما نواصل نشر ماتم ترجمته وإعداده لتقديم المزيد من الأعمال الجديدة الحائزة على جوائز تمتد من نوبل إلى الجوائز المحلية الكبرى فى كل بلدان العالم، لكى يضمن القارئ العربى قراءة عمل متفق على جودته وجديته، ولكى يتسنى له الاطلاع على أحدث الاتجاهات فى الكتابة الأدبية بكلّ أنواعها. ومنها «منزل للسيد بيسواس» للكاتب ف.س.نايبول الحاصل على جائزة نوبل ٢٠٠١ «ثلاثة أيام عند أمى» للكاتب الفرنسى «فرانسوا ويرجان» الحاصل على جائزة الجونكور ٢٠٠٤، «المستبعدون» للكاتبة النمساوية «الفريده يلينك» الحاصلة على جائزة نوبل ٢٠٠٤، «مارتش» للكاتبة الأمريكية «جير الدين بروكس» الحاصلة على جائزة البوليتزر عام ٢٠٠٦، «أسطنبول الذكريات والمدينة» للكاتب التركى «أورهان باموق» الحاصل على جائزة نوبل ٢٠٠٦.

د. ناصر الأنصارى

المقدمة

«اكتشف باموق، فى بحثه عن روح مدينته الحزينة، رموزاً جديدة لتضافر الحضارات وتصادمها».

عن تقرير الأكاديمية السويدية

أورهان باموق، ابن اسطنبول، وأحد أبرز كُتّاب تركيا المعاصرة، غاص فى اسطنبول، الحاضر والتاريخ، واستطاع الاستفادة من موقعه الجغرافى والتاريخى، فقد ولد فى مدينة تقع فى آسيا وأوروبا، مدينة كانت عاصمة بيزنطة وصارت عاصمة للعثمانيين باسم الخلافة الإسلامية، ولد فى تركيا العلمانية بعد سنوات من سقوط تركيا العثمانية، ليكتشف رموزاً جديدة لهذا التضافر الخلاق وتلك الصدامات الدموية بين الحضارات، واستحق جائزة نوبل عن جدارة.

بعد صدور روايته القلعة البيضاء بشر بعض النقاد الغربيين بظهور نجم جديد فى سماء الشرق، وحققت **الحياة الجديدة** أعلى المبيعات فى الرواية فى تركيا. ورواية **اسمى أحمر** واحدة من الروايات التى لا يمكن نسيانها بعد قراءتها للمرة الأولى، رواية من الروايات التى يمكن إعادة قراءتها مرات ومرات بمتعة فنية

نادرة، وأظن أنها جديرة بأن تحتل موقعها بين الأعمال الخالدة فى تاريخ الرواية.

* * *

فى الثانى عشر من أكتوبر ٢٠٠٦ أعلنت الأكاديمية السويدية فوز الكاتب التركى أورهان باموق بجائزة نوبل فى الأدب، ومن لحظتها وسيل الانتقادات والتهم، للجائزة والكاتب، لا ينقطع فى صحافتنا الأدبية. وغير الأدبية، حتى وصل الأمر بأحد الكُتّاب أن يقول إن من حق "فلان"، وهو كاتب مصرى هرم ليس بينه وبين الكتابة الأدبية الحقيقية أية صلة، أن يحلم بجائزة نوبل.

ولعل هذا السيل يذكرنا بسيل مماثل فى الصحافة العربية حين فاز نجيب محفوظ بالجائزة، وكأن قدر الجائزة أن تتهم كلما فاز بها كاتب ينتمى لثقافتنا بشكل أو آخر، وتكون التهمة جاهزة للكاتب فهى دائمًا تبنى سياسات يؤمن بها الغرب ويشجع عليها. وبالتالى يكون الكاتب قد حصل على الجائزة لأسباب سياسية وليس لقيمته فى عالم الإبداع. التهمة فى حالة نجيب محفوظ الموافقة على اتفاقية كامب ديفيد، أو على الأرجح عدم رفضها، وفى حالة أورهان باموق يعزو البعض فوزه بجائزة نوبل إلى تصريحات صدرت عنه يحمِّل فيها بلاده، أو بالتحديد الإمبراطورية العثمانية وهى فى الرمق الأخير، أى جزء من تاريخ تركيا، وهو جزء تخلت عنه تركيا ضمنيًا منذ إعلان الجمهورية،

يحمِّلها المسئولية عن إبادة مليون من الأرمن أثناء الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى ثلاثين ألفًا من الأكراد، وكان الإمبراطورية العثمانية التى لم تكن بريئة فى يوم من الأيام، وربما كانت، فى قوتها وضعفها، من الأسباب الرئيسية لتخلف المنطقة التى نعيش فيها وخلق صورة سيئة عن الإسلام والمسلمين فى عقول الأوروبيين، صارت فجأة كيانًا مقدسًا لا يجوز انتقاده، ويتهم فى إسلامه ووطنيته من ينتقدها، وبالتالى يكافئه الغرب بأرفع جائزة أدبية فى العالم، وكأننا نسينا فجأة أن كل بلد دخلها الأتراك العثمانيون لديها ملفها الخاص من المآسى التى تعرض لها سكانها فى ظل الحكم العثمانى باسم الخلافة الإسلامية. وفجأة يصبح كاتبٌ، فاز بالعديد من الجوائز وترجم إلى أكثر من أربعين لغة منها العربية قبل فوزه بجائزة نوبل، كاتبًا تافهًا لا يستحق القراءة، أو هكذا يرى بعض كُتَّابنا .

الجائزة، بالطبع، وربما كل الجوائز، ليست بريئة من السياسة (هل يمكن أن يبرأ، على هذه الأرض، شىء من جرثومة السياسة، بعد أن ابتلعت السياسة كل شىء؟ رحم الله محمد عبده حين لعن كل ما ينتمى إليها، حتى حرف السين!)، لكنها، أيضًا، لا تمنح لكل من يتفق مع الغرب فى سياساته، ولا لكل شرقى يصرح بجرم ارتكبته بلاده فى حق شعوب أخرى.

عمومًا، لم تكن جائزة نوبل أول اعتراف بمكانة باموق الأدبية، فقد سبق وأن فاز بقائمة كبيرة من

الجوائز المرموقة حتى داخل وطنه (ترد قائمة بمعظم هذه الجوائز فى الصفحات التالية). ويرى البعض أن الإعلان عن فوز أورهان باموق بجائزة نوبل فى الأدب لم يفاجئ أحداً. فقد توقعت مصادر عدة أن يقع اختيار الأكاديمية السويدية فى ٢٠٠٦ على الكاتب التركى الذى أثار قضايا سياسية حساسة فى بلاده. إن أدب أورهان باموق أكثر التباساً وتعقيداً وعمقاً من المعركة السياسية التى تخاض حوله باسم حرية التعبير وإعادة النظر فى الرواية الرسمية للتاريخ التركى، إنه يطرح بأسلوب صعب وشائك، أسئلة فلسفية ووجودية تتخذ من التاريخ مادتها ومن أسطنبول، المدينة التى يحركها الشجن، ديكورها الأسطورى والواقعى فى آن. أسطنبول بإرثها الثقافى المزدوج، وأرواحها الهائمة وخرافاتها الطالعة من أعماق البُستفور.

* * *

أورهان باموق، روائى تركى، ولد فى ٧ يونيو ١٩٥٢ فى أسطنبول لأسرة ميسورة الحال، وترعرع فى حى نيشان طاش، وهو أحد أحيائها الراقية، وفاز بجائزة نوبل فى الأدب ٢٠٠٦، ليكون أول تركى يحصل على جائزة نوبل. يعتبره الكثير من النقاد من كُتّاب ما بعد الحداثة، بدأ الرسم فى الخامسة عشرة من عمره، وفى الثامنة عشرة قرر أن يصبح فنانًا، لكن الرسم وعين الرسّام والذاكرة البصرية، التى أظن أنها تكون

فى أوج تألقها عند الرسامين، بقيت معه فى كل كتاباته تقريبًا. تأثرت شعبية باموق فى وطنه الأم ببعض الأحداث التى جرت فى ٢٠٠٥، حين رفع بعض المحامين الأتراك قضايا ضد باموق بعد أن صدرت منه تصريحات بشأن إبادة جماعية للأرمن على أيدى الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى، فى الفترة من ١٩١٥ حتى ١٩١٧، ومقتل حوالى ثلاثين ألف كردى فى الأناضول، وتم إسقاط التهم فى يناير ٢٠٠٦. وصرح بعد ذلك بأن نيته كانت جلب الانتباه إلى قضايا حرية التعبير. ويتزايد قراء باموق باستمرار فى تركيا حيث تحقق كتبه أعلى المبيعات، وفى جميع أنحاء المعمورة حيث تُرجمت أعماله إلى أكثر من أربعين لغة، منها العربية. وفاز بالعديد من الجوائز الوطنية والدولية.

يصف باموق ميلاده وحياته فى اسطنبول فى الكتاب الأسود وفى جودت بك وأولاده، وبتفصيل أكثر فى مذكراته الشخصية اسطنبول: الذكريات والمدينة. تلقى تعليمه فى روبرت كولج فى اسطنبول، ودرس الهندسة المعمارية فى جامعة اسطنبول للتقنية نتيجة ضغوط عائلية ليصبح مهندسًا أو معماريًا. إلا أنه ترك الهندسة المعمارية بعد ثلاث سنوات ليتفرغ للكتابة، وتخرج فى معهد الصحافة فى جامعة اسطنبول ١٩٧٦، وانتسب إلى جامعة كولومبيا من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٨، وهى الفترة التى كان فيها أيضًا زميلًا زائرًا فى جامعة أيوا Iowa. ثم عاد إلى

اسطنبول ومكث فيها حتى ٢٠٠٦، ثم عاد إلى الولايات المتحدة ليعمل أستاذًا زائرًا فى كولومبيا.

تزوج من ألين تشرجن فى ١٩٨٢، وانفصلا بالطلاق فى ٢٠٠١، له ابنة تدعى رؤيا، أخوه الأكبر شوكت باموق (الذى يظهر أحيانا كشخصية روائية فى أعمال أورهان، شوكت، على سبيل المثال، هو الأخ الأكبر لشخصية تحمل اسم أورهان فى رواية (اسمى أحمر)، مؤرخ معروف عالميًا بأعماله فى تاريخ الاقتصاد. يقوم بالتدريس فى إحدى جامعات اسطنبول.

بدأ باموق الكتابة بانتظام منذ ١٩٧٤، فازت روايته الظلام والنور بجائزة ميليت فى مسابقة الرواية عام ١٩٧٩ مناصفة مع رواية لمحمد إروغلو، وهى الرواية التى طبعت بعد ذلك بعنوان جودت بك وأولاده عام ١٩٨٢، وفازت بجائزة «أورهان كمال» للرواية فى ١٩٨٣. وتحكى قصة ثلاثة أجيال من أسرة ثرية من اسطنبول، تعيش فى حى نيشان طاش، الحى الذى ترعرع فيه باموق، وفاز باموق بعدد من الجوائز عن أعماله المبكرة، منها جائزة مادارالى للرواية فى ١٩٨٤ عن روايته الثانية البيت الصامت، وفازت ترجمتها الفرنسية بجائزة الإبداع الأوروبى فى ١٩٩١، وفازت روايته القلعة البيضاء، المنشورة فى تركيا فى ١٩٨٥، بجائزة الإندبندنت للقصة المترجمة فى ١٩٩٠، وبعدها ذاعت شهرته خارج تركيا، (صدرت ترجمتها

العربية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ضمن سلسلة الجوائز فى ٢٠٠٦- ترجمة إيزابيل كمال).

كتبت نيويورك تايمز بعد صدور الرواية: «ارتفع نجم جديد فى سماء الشرق - أورهان باموق -» وتدور أحداث القلعة البيضاء فى القرن السابع عشر فى اسطنبول، حيث يقع الراوى، وهو عالم إيطالى شاب، أسيرًا فى يد جنود أحد الباشاوات الأتراك، يضعه فى السجن فترة ثم يهديه كعبد، بعد إصراره على التمسك بدينه، إلى خوجة تركى مغرم بالمعرفة، ويندهش الشاب الإيطالى من الشبه الكبير، فى الشكل، بينه وبين الخوجة. يطلب منه الخوجة أن يعلمه كل ما يعرفه من علوم الغرب، ويُصبحُ الخوجة، الذى هو سيده، تلميذه فى الوقت ذاته، ويتعاونان معا فى صناعة الكثير من الآلات واختلاق الكثير من الحكايات المسلية للسلطان، ليتم التزاوج بين الثقافة الغربية والثقافة التركية، وفى النهاية ينتحل الخوجة شخصية الشاب لينقذه من القتل. هكذا يتم تزاوج الثقافات بعد صراع دموى، ولا تكون السيادة دائما لثقافة المنتصر عسكريًا، هذا ما يمكن أن يقوله التاريخ أحيانًا، وهو ما يمكن أن يفهم من القلعة البيضاء.

بعد القلعة البيضاء بدأ باموق تجريب تقنيات ما بعد الحداثة فى رواياته، متجاوزًا النزعة الطبيعية الصارمة التى كانت تتسم بها أعماله المبكرة، ولم

يحقق باموق النجاح على المستوى الشعبي إلا متأخرًا بعض الشيء، لكن روايته الكتاب الأسود (الكتاب) بالعربية في الأصل التركي) أصبحت من أكثر الأعمال شيوعا وإثارة للجدل في الأدب التركي المعاصر، نتيجة لتعقد بنيتها وثرائها، وكتب باموق في ١٩٩٢ النص السينمائي لفيلم الوجه الغامض، عن رواية الكتاب الأسود، وأخرجه المخرج التركي البارز عمر كفور. وفي هذه الرواية يتناول باموق اسطنبول المعاصرة. ويرى البعض أن رؤية باموق لاسطنبول تشبه رؤية جيمس جويس لدبلن، وهي رواية تنتمي لتقنيات ما بعد الحداثة، تَبدأ كقصة لغز، يتعلق بالهوية، والسرد فيها معقد، وبها تناقضات رُوحانية صوفية، وقصص متضمنة في قصص.

وقد أثارت روايته الرابعة **الحياة الجديدة** ضجة في تركيا بمجرد نشرها في ١٩٩٥ وتعتبر من أسرع الكتب مبيعًا في التاريخ التركي. ومنذ ذلك الوقت صار باموق شخصية بارزة في تركيا، وكان باموق في ١٩٩٥ ضمن مجموعة من الكُتّاب حوكموا بسبب كتابة مقالات تنتقد أسلوب تركيا في التعامل مع الأكراد. نشر باموق في ١٩٩٩ كتابه القصصي **الألوان الأخرى**. واستمرت الشهرة العالمية لباموق في الزيادة بعد نشر **اسمي أحمر** في عام ٢٠٠٠، تمزج الرواية بين السري والرومانسي والفلسفي في خلفية تعود بنا إلى القرن السادس عشر في مدينة أسطنبول: حيث تفتح نافذة على عهد السلطان العثماني مراد الثالث

خلال تسعة أيام يتساقط فيها الجليد فى شتاء ١٥٩١، من خلال مجموعة من الرسامين الذى يقومون بإعداد الكتب ورسمها للسلطان، حيث تثار قضية موقف الدين من الرسم والتصوير وتقليد أساليب الرسامين فى الغرب، وتدعو القارئ للاطلاع على التوتر بين الشرق والغرب بشغف شديد، وترجمت اسمى أحمر إلى أكثر من عشرين لغة، من بينها العربية، وفازت فى ٢٠٠٣ بجائزة آى إم بى إيه سى دبلن، وهى أكبر الجوائز الأدبية الدولية، بعد جائزة نوبل، من حيث القيمة المادية، إذ تبلغ قيمتها مئة وسبعة وعشرين ألف دولار. وقد سئل باموق بعد الفوز بها: «ما تأثير الفوز بجائزة آى إم بى إيه سى على حياتك وأعمالك؟» فردَّ: «لاشىء تغير فى حياتى لأننى أعمل طوال الوقت. قضيتُ ثلاثين عاماً فى كتابة القصة. وفى السنوات العشر الأولى كنتُ قلقاً بشأن النقود، ولم يسأل أحدٌ كم كسبتُ من النقود. فى العقد الثانى صرفتُ النقود ولم يتساءل أحد عن ذلك، وقضيت السنوات العشر الأخيرة وكل شخص يتوقع أن يسمع كيف أصرف النقود، ولن أقول».

تتناول رواية باموق ثلج الصادرة فى ٢٠٠٢ (ونشرت ترجمتها الإنجليزية فى ٢٠٠٤) الصراع بين النزعة الإسلامية والنزعة الغربية فى تركيا الحديثة. وقد اختارت نيويورك تايمز ثلج ضمن أفضل عشرة كتب فى ٢٠٠٤، وهى أكثر روايات باموق انشغالاً بالسياسة، ويطرح فيها قضايا التعصب الدينى

والصراع بين النظام السياسى والجماعات الإسلامية، ويتهم النظام السياسى بافتعال الأحداث التى تنسب إلى الجماعات الإسلامية، واختراقها واستدراجها إلى العنف لتبرير أعمال القمع والاعتقال والتوتر. وتحكى الرواية قصة كا، وهو شاعر ولاجئ سياسى، قضى اثنى عشر عاما فى ألمانيا، يسافر إلى بلدة صغيرة فى الأناضول ليدرس موجة من موجات الانتحار بين الفتيات اللائى منعن من لبس الحجاب فى المدرسة. ويلتقى كا أيضا بحبيبته أيام الشباب. تحمل الرواية صورة موحية، الثلج يغطى البلدة وكأنه حجاب على رأسها، ويستعيد كا صوته الشعرى قبل اغتياله.

ونشر أيضًا **اسطنبول - الذكريات والمدينة** فى ٢٠٠٣ (ونشرت ترجمتها الإنجليزية فى ٢٠٠٥. وستصدر قريبا ترجمة عربية لها عن الهيئة المصرية العامة للكتاب - ضمن سلسلة الجوائز - ترجمة الدكتورة أمانى توما). وفاز باموق بخمسة وعشرين ألف يورو قيمة جائزة السلام الألمانية عن أعماله الأدبية التى «تتجاور فيها تركيا الأوروبية والإسلامية». وقد استلم الجائزة، وهى من أهم الجوائز الألمانية، فى كنيسة بولس فى فرانكفورت. وستنشر ترجمة كتابه التالى **الألوان الأخرى** فى المملكة المتحدة فى ربيع ٢٠٠٨ وروايته التالية متحف البراءة.

تتميز كتب باموق بالالتباس أو عدم التحديد الناتجين جزئيًا عن الصراع بين القيم الأوروبية

والإسلامية. إنها غالبًا مزعجة أو محيرة، لكنها تحتوى على حبكات مثيرة ومعقدة وشخصيات عميقة. يفوح من أعماله أيضا أريج المناقشات حول الفنون الخلاقة، كالأدب والرسم، والافتتان بها- رواية اسمى أحمر تدور حول النقش والرسم وتحمل اسم لون، واللون الأحمر أحد رواتها. وكثيرًا ما تتناول أعمال باموق الجذور العميقة للتوتر بين الشرق والغرب والتقاليد والعلمانية.

* * *

الحياة الجديدة:

يقول أورهان باموق عن «الحياة الجديدة» كتابى محاولة لتقديم رؤيا من خلال تجربة الحب، إنه يقدم تأثير الحب على روح المرء بمزاج جاد. تغمر الرغبة الشديدة الراوى فى عالم جديد، فى حياة جديدة، تكاد تنضج بالحب، واصلة إلى درجة عالية من الوعى.. والعنوان مقتبس عن دانتى «الحياة الجديدة» La Vita Nuova. هل يرى باموق فى جنان نظيرة لبتريس Beatrice دانتى؟ يقول باموق: نعم. لكن جنان أقل سذاجة وأقل مثالية. ليست كائنًا خياليًا فى نظر المحب. إنها تجلس بجواره لمسافات طويلة فى الحافلة. يلهوان معًا. ومن الناحية الأخرى، يُقمَع الجانب الجنسى أيضًا.

إعادة قراءة الماضى بعدسة الحاضر والحاضر بعدسة الماضى هى الشغل الشاغل لباموق فى الحياة

الجديدة، تبدأ الرواية بالجملة التالية: «ذات يوم قرأت كتابًا فتغيرت حياتى كلها». هذا ما يعلنه فى البداية عثمان، راوى باموق ابن الاثنين والعشرين ربيعا. وقد دفعه الكتاب وجنان المتألقة، رفيقته الحبيبة، إلى سلسلة من الرحلات بالباصات، تحدث خلالها حوادث مروعة عبر مشاهد طبيعية مهجورة، كان عثمان يسعى إلى اكتشاف رؤية المؤلف المجهول لعالم جديد، وكانت جنان تأمل فى العثور على محمد، حبيبها السابق، الذى اختفى بعد إطلاق النار عليه.

والرواية ثمرة رحلتين قام بهما أورهان باموق إلى الأناضول، يقول عبد القادر عبد اللى، وهو مترجم عدد لا بأس به من أعمال باموق إلى العربية: فى رواية الحياة الجديدة صور باموق رحلتين قام بهما إلى الأناضول. تفصل بين الرحلة الأولى والثانية عشرة سنوات، رصد باموق فى الرحلة الأولى الذين يعملون للمحافظة على الهوية القومية من خلال المحافظة على الأشياء التركية الأصيلة، والأشياء التى دخلت إلى هذه الثقافة، وغدت جزءاً لا يتجزأ منها، ويمكن تسمية هذا الفعل «محافظة مادية». وفى الرحلة الثانية وجد أن تلك الأشياء قد اندثرت، وفُقد أصحابها، وحل محلها شكلانية مختلفة ولوحات الكولا، رمز عصر الاستهلاك الغربى، وفى هذا يصور «التغريب المادى» منتقداً الحالتين. وفى حوار معه يؤكد باموق على الضياع ما بين حالتين قائلاً: تركيا

الواقعة بين الشرق والغرب تنتمى إلى أوروبا جغرافياً، ولكن انتماءها سياسياً ما زال يحمل علامة استفهام.

تحكى الرواية قصة شاب جاد فى الثانية والعشرين من عمره، اسمه عثمان، يدرس الهندسة، ويعيش مع أمه الأرملة فى اسطنبول، يرى الشاب كتابًا غريبًا فى يدى فتاة جميلة فى مطعم الجامعة. وفى ذلك المساء، يلمح الكتاب نفسه، وهو فى طريقه إلى البيت، فى كشك على الطريق. وقد وقع هذا الطالب فجأة تحت سيطرة جمال الفتاة، يشترى الكتاب، ويقرؤه فى جلسة، فتتغير حياته كلها. وبحماس التحول الدينى يحكى عثمان عن تأثير الكتاب عليه بدون أن يقول أى شىء، إلا فيما بعد، عن الكتاب نفسه. نعرف فقط أن الكتاب يلف قارئه بهالة من الضوء الملائكى، ويقدم وعداً بحياة جديدة، وكأن الكتاب لم يكتب إلا له، حتى أنه يكشف له عن معنى وجوده. ولوقت طويل يبقى حتى عنوان الكتاب سرًا. ولا نعرف بالضبط ما يعد به الكتاب الغامض الذى أثر فى عثمان؛ نفهم فقط أنه كتاب خطير. يخترق نوره «الساطع» وعى الراوى حتى وعثمان وجنان يشاهدان آلاف القبل والتصادمات فى فيلم يعرض على شاشات الفيديو فى الباصات التى كانا يستقلانها.

يخلط الشاب بين حبه للكتاب وحبه لجنان؛ وبحثًا عن الحياة الجديدة، يبدأ الاثنان جولات عشوائية

لمسافات طويلة فى الحافلات والمقاهى، وتتسم علاقتهما فى تلك الجولات بعفة تحبط الراوى، لأن قلب جنان مع شخص آخر، مع محمد، الصديق الذى قدم لها الكتاب، وقد اختفى بعد طلقات نارية. حين تختفى جنان هى الأخرى، يبحث عثمان عن محمد، وكان أبوه، دكتور فاين، قد أرسل الكثير من الجواسيس لمراقبة ابنه المتمرد وقتل قرّاء الكتاب، ودكتور فاين هو أحد المحافظين الأتراك الذين يقاومون التأثيرات المدمرة للأدب الغربى.

تدور الأحداث فى زمن مبهم، ربما فى السبعينيات أو الثمانينيات من القرن العشرين، وتتم الجولات بشكل أساسى فى سهول الأناضول، فى بلدة تتمركز فيها تماثيل كمال أتاتورك، بسماواتها الرحبة وأشجار الحور النحيلة، والليالى الباردة والشمس الحارقة. ويرى رونالد رايت، فى قراءة للترجمة الإنجليزية للرواية، أن أكثر المشاهد وضوحًا هى المشاهد الداخلية: كتاب ساحر وعالم سينمائى سوداوى، حيث تظهر صور الحب والموت بشكل لا ينتهى على شاشات الفيديو فى الحافلات المملة، وصور الليالى المخملية، وأغانى البوب المزعجة وحوادث الطرق المرعبة. وتكثر حوادث الاصطدام دون إخلال بالعمل؛ وكأنها نقطة الانطلاق فى فيلم من أفلام هوليود بحثًا عن المزيد من التدمير الهائل للأرواح والممتلكات: فى أرض الوفرة يجب تحطيم الأشياء وتهشيمها، ويتذكر المرء

تلك المهرجانات التى يظهر فيها أصحاب الثروات وهم يشعلون النيران فى ثرواتهم على الملأ.

تتعامل الحياة الجديدة مع مصادر إلهامها بعناية كما لو كانت عملا موسيقيًا فاتنًا ومعقدًا - وهو تشبيه يرد فى نص الرواية. و يثير الكتاب اللغز فى الكتاب سربًا من الأشباح. ويتساءل رونالد رايت: أى كتاب هو؟ هل يمكن أن يكون الكتاب المقدس؟ القرآن؟ حكايات أماديس؟ اليمن فى بلاد العجائب؟ أصل الأنواع؟ البيان الشيوعى؟

وحين تأتى الإجابة تمثل تغيرًا فجائيًا لذيذًا، ومن لحظتها تُستدعى الغرفة ١٠١ لأورپل، كما تستدعى العوالم الجديدة الجريئة لكل من شكسبير وهكسلى، واهتمام ريلكه بالزمن والجوهر، والروحانية الصوفية عند ابن عربى، ضمن تلميحات أخرى لا يمكن حصرها. يبدو أن الكتاب المضىء الذى أحدث كل هذه التغيرات هو كل كتاب يغير العالم باستمرار. يتساءل باموق عن الثمن الذى ينتزع من ثقافة ما حين تحجر القراءةُ والكتابةُ الكلامَ وقبل كل شىء عن الثمن الذى دُفع حين غيرت تركيا الأبجدية، من العربية إلى اللاتينية، تحت حكم أتاتورك فى عام ١٩٢٨.

ويرى رونالد رايت أنه يمكن اقتفاء الخط الخطأ بين البكاء على التقاليد المفقودة والوعد المتبخر بالحداثة فى كل البلاد، ولكن هناك بلادًا قليلة يظهر فيها هذا الخط قريبًا جدًا من سطح القومية كما فى

تركيا. بعد فتح ما تبقى من بيزنطة، سمحت النخبة التركية لنفسها بالوقوع تحت سيطرة إغراءات المواقف الأوروبية، وأوحت بأنها تحقق حضارتها الخاصة. وبعد الحرب العالمية الأولى استخدمت جمهورية كمال أتاتورك ما يفترض أنها الأفكار الليبرالية الغربية لتطلق البلاد من ماضيها. منع اللباس القومى، وتحرك رأس المال، وشلت المؤسسة الدينية، وقمعت النظم الروحية؛ وأكثر هذه الرموز قوة - فى إشارة واضحة إلى تحول جوهرى فى الولاء من الدينى إلى الدنيوى، ومن الماضى الشرقى إلى المستقبل الغربى - كان تحول الكتابة من استخدام الأبجدية العربية إلى استخدام الأبجدية الرومانية.

وأبطال باموق الغارقون فى الحداثة، الذين يقيمون فى بناية شتوية صغيرة فى أسطنبول، هم أحفاد هذه الإصلاحات، إلا أن أسماءهم مازالت تختار من منابع تاريخية عميقة. الراوى، الذى لا نعرف اسمه فى النصف الأول من الرواية، هو عثمان- اسم لكل تركى، فتركيا هى الدولة العثمانية، وصدى لاسم عثمان بن عفان، والشاب الذى قدم الكتاب للفتاة اسمه محمد، وهو لا يستدعى اسم النبى فقط لكنه يستدعى أيضا اسم محمد الفاتح الذى فتح القسطنطينية.

أثناء مغامرات عثمان وجنان، يعلقان على ما فعله وطنهم بنفسه فى القرن العشرين، يرى عثمان أن تركيا أصبحت أرضًا تعانى من داء النسيان، عاجزة

عن قراءة تاريخها. حتى أولئك الذين استفادوا من التقدم- تجار البضائع، على سبيل المثال، الذين يبدو أنهم يشكلون شكلا من أشكال الأخوة الروحية فيما بينهم- يشعرون أنهم حققوا ذلك على حساب أرواحهم. ويقول والد محمد إن أى شخص يعرف أن مواعيد القطارات أعدى أعداء مواعيد الصلوات. ومن صفقة أبرمتها تركيا مع فاوست حصلت على نسختها المشوهة من الحلم الأوروبى؛ فى البلدات التى يمر بها عثمان عمارات خرسانية... تحاصر تماثيل أتاتورك وكأنها جدران سجن.

ويرى رونالد رايت أن الحياة الجديدة التى يبحث عنها محمد وجنان وعثمان ليست مجرد مستقبل فاتن ابتلعته تركيا ولا تستطيع هضمه؛ لكنها أيضًا، وبصورة تنطوى على المفارقة، الذاكرة المشفرة، ذاكرة الماضى. إلا أنه قد يكون من الخطأ قراءة هذه الرواية باعتبارها شكلا من أشكال التعصب القومى، إن باموق كاتب أبرع من أن يقع فى ذلك. إنه يعرف أن الثقافات تستعير من الثقافات الأخرى وتسرق منها باستمرار؛ تكمن المشكلة فى الاختيارات والأساليب. يقول عثمان بأمانة إن هذه اللعبة الجديدة التى تدعى الرواية هى أعظم ابتكارات الثقافة الغربية. ومع أنها ليست من نتاج الثقافة التركية إلا أنه يقرؤها ويكتبها. وباموق هنا ليس سيرياليًا مثل بورخيس أو من كُتّاب ما بعد الحداثة مثل كالڤينو، الكاتبين اللذين سبق أن

قارئة البعض بهما. إنه يلتقي بصورة أفضل بالوقار المازح لامبرتو إيكو.

كتب أورهان باموق هذا الشيء الصعب والنادر: قصة أفكار. وقد حققت الحياة الجديدة نجاحًا غير مسبوق في تركيا ربما لأنها تتناول ببراعة وذكاء العلل الثقافية الفريدة التي تعاني منها البلاد. لكن إنجاز باموق عالمي أيضًا، يجعل القارئ الغربي، خاصة، يفهم أن منطق الخسة والتفاهة والجشع يهدد الحضارة. كل الشباب التركي أغواهم شيطان الشروق، المتنصر الدني، بالخروج في نهاية القرن من ساحة معركة العقائد. (رونالد رايت- ١٩٩٧).

* * *

الأعمال:

- جودت بك وأولاده، رواية، أسطنبول، ١٩٨٢، الترجمة إلى الإنجليزية Cebdet Bey and Sons، فيكتوريا هولبروك. الترجمة العربية، فاضل جتكر، وزارة الثقافة السورية.

- البيت الصامت، رواية، أسطنبول، ١٩٨٣، الترجمة العربية، عبد القادر عبد اللي، دار المدى، ٢٠٠٦.

- القلعة البيضاء، رواية، اسطنبول، ١٩٨٥ الترجمة إلى الإنجليزية White Castle فيكتوريا هولبروك، مانشستر، المملكة المتحدة، دار كركنيت المحدودة للنشر، ١٩٩٠، بالإضافة إلى طبعات أخرى. الترجمة

العربية، إيزابيل كمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، وهناك ترجمة أخرى، عبد القادر عبد اللي، دار ورد للطباعة والنشر، ٢٠٠١.

-الكتاب الأسود (كلمة كتاب بالعربي فى الأصل التركى)، رواية، اسطنبول، ١٩٩٠، الترجمة إلى الإنجليزية The Black Book، جنلى جنّ، نيويورك، ستراوس وجيرو، ١٩٩٤، وصدرت ترجمة جديدة بقلم مورين فريلى فى ٢٠٠٦ (فبر فى المملكة المتحدة)، الترجمة العربية، عبد القادر عبد اللي، دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣.

- الوجه السرى، نص سينمائى، اسطنبول، ١٩٩٢.

- الحياة الجديدة (كلمة حياة بالعربي فى الأصل التركى)، رواية، اسطنبول، ١٩٩٥ الترجمة إلى الإنجليزية The New Life، جنلى جن، نيويورك: فرار وستراوس وجيرو، ١٩٩٧ الترجمة العربية، دار نينوى، ٢٠٠٤.

- اسمى أحمر، رواية، اسطنبول ١٩٩٨، الترجمة إلى الإنجليزية My Name is Red، إردواغ م. جُكنار، نيويورك: ألفرد أ. نوف، ٢٠٠١، الترجمة العربية، عبد القادر عبد اللي، دار المدى، ٢٠٠٠، طبعة ثانية ٢٠٠٦.

- الألوان الأخرى، مقالات، اسطنبول، ١٩٩٩.

- ثلج، رواية، اسطنبول، ٢٠٠٢، الترجمة إلى الإنجليزية Snow، مورين فريلى، نيويورك: ألفرد أ. نوف، ٢٠٠٤.

- اسطنبول: الذكريات والمدينة، مذكرات، اسطنبول، ٢٠٠٣، الترجمة إلى الإنجليزية :Istanbul Memories and the City، مورين فريلي، نيويورك: ألفرد أ. نوف، ٢٠٠٥، الترجمة العربية، عبد القادر عبد اللي، وزارة الثقافة السورية، سلسلة الكتاب

***

الجوائز:

- جائزة مسابقة ميليت الصحفية للرواية، تركيا، ١٩٧٩، مناصفة مع محمد أروغلو، عن روايته الظلام والنور.

- جائزة أورهان كمال للرواية، تركيا ١٩٨٣، عن روايته جودت بك وأولاده.

- جائزة مادارالي للرواية، تركيا ١٩٨٤، عن روايته البيت الصامت.

- جائزة الاندبندنت للقصة المترجمة، المملكة المتحدة، ١٩٩٠، عن روايته القلعة البيضاء.

- جائزة الإبداع الأوروبي، فرنسا ١٩٩١، عن الترجمة الفرنسية لروايته البيت الصامت.

- جائزة أفضل كتاب مترجم، فرنسا، ٢٠٠٢، عن روايته اسمي أحمر.

- جائزة جرينزن كفور، إيطاليا، ٢٠٠٢، عن روايته اسمي أحمر.

- جائزة آى إم بى أيه سى دبلن الأدبية الدولية، أيرلندا، ٢٠٠٣، عن روايته اسمى أحمر.

- جائزة السلام الألمانية للكتاب، ألمانيا، ٢٠٠٥ .

- جائزة Medicis Etranger، فرنسا، ٢٠٠٥، عن روايته ثلج.

- جائزة نوبل، السويد، ٢٠٠٦ .

عبد المقصود عبد الكريم

الفصل الأول

قرأت كتابًا في يوم ما فتغيرت حياتي كلها. منذ الصفحة الأولى تأثرت بقوة الكتاب، فشعرت بجسدي ينأى بنفسه ويبتعد عن الكرسي؛ حيث جلست أقرأ الكتاب الذي كان أمامي فوق المائدة. وبالرغم من شعوري بانعزال جسدي فإن كل إحساسي ظل متوحدًا فوق هذه المنضدة حتى أن تأثير الكتاب لم يكن على روحي وحدها بل كان أيضًا على كل نواحي شخصيتي، كان تأثيراً قوياً لدرجة أن الضوء انبعث من الصفحات وأنار وجهي وغشي تألقه عقلي وتفكيري ولكنه منحه أيضا صفاء الفكر، كان الضوء من النوع الذي من خلاله يمكنني إعادة تشكيل نفسي، ويمكن أن أضل فيه طريقي، فلقد شعرت فيه بالفعل بظلال وجود ما يجب أن أعرفه وأؤمن به، جلست إلى المنضدة أقلب الصفحات وعقلي واع بالكاد بأنني أقرأ وحياتي كلها تتغير وأنا أقرأ الكلمات الجديدة في كل صفحة، وشعرت أنني لست مستعدًا تمامًا لكل شيء كان يحدث لي، وأنني عديم الحيلة حتى أني بعد فترة نأيت بوجهي بعيداً بحركة غريزية كما لو كنت أحمي نفسي من القوة التي تنبعث من الصفحات، أصبحت على وعي - ولكن بخوف شديد - بالتحول الكامل

للعالم من حولى و انتابنى شعور بالوحدة لم أختبره من قبل قط، كما لو كنت تركت فى بلاد حيث لا أعرف معالم الأرض أو اللغة أو حتى التقاليد.

وارتبطت بالكتاب بصورة أكثر شدة فى ظل هذا الإحساس بالعزلة. لا شىء مثل الكتاب يمكن أن يكشف لى ماذا يكون عليه تصرفى الضرورى، ماذا يمكن أن أؤمن به، أو الاحظه وما المسار الذى كانت حياتى تتخذه فى هذه البلاد التى وجدت نفسى فيها، استأنفت القراءة، أقلب الصفحات كما لو كنت أقرأ الآن دليلاً، يرشدنى خلال أرض غريبة موحشة.

ساعدنى، شعرت كأنى أقولها، ساعدنى لأجد الحياة الجديدة، حياة آمنة وسالمة من كل أذى، ولكنى عرفت أن هذه الحياة الجديدة مبنية على كلمات هذا الدليل. فقرأته كلمة.. كلمة، محاولا أن أجد مسارى وفى نفس الوقت كنت - لدهشتى - أتخيل العجائب التى سوف تحيد بى عن الطريق المستقيم.

كان الكتاب أمامى على المنضدة، ضوؤه منعكس على وجهى، ولكنه بدى مشابهًا للأشياء الأخرى فى الحجرة. فى أثناء تقبلى - بكل سرور وعجب - لإمكانية وجود حياة جديدة فى هذا العالم الجديد الموجود أمامى، كنت على وعى بأن هذا الكتاب - الذى غير حياتى بشدة - كان فى الواقع شيئًا عاديًا تمامًا. فلقد قام عقلى بفتح أبوابه ونوافذه تدريجيًا على عجائب هذا العالم الجديد الذى وعدتنى به الكلمات،

وعبثًا حاولت أن أستعيد الصدفة التى قادتنى إلى هذا الكتاب، ولكن هذه الذكرى لم تكن أكثر من صورة سطحية لم تؤثر بشكل كامل فى وعيى. عندما واصلت القراءة، حتى نوع معين من الخوف على عكس هذه الصورة: العالم الجديد الذى كشفه الكتاب، وكان غريباً جداً ومدهشًا لدرجة أنه لكى أهرب من كونى منغمسًا فى هذا الكون، كنت قلقاً من أن أحس بأى شىء متصل بالحاضر.

ماذا لو رفعت عينى من على الكتاب ونظرت حولى فى غرفتى، إلى دولابى، سريرى، أو نظرت عبر النافذة ولم أجد العالم كما عرفته؟ لقد سكننى هذا الخوف.

مرت الدقائق والصفحات الواحدة تلو الأخرى، مرت قطارات على بعد، سمعت أمى تخرج ثم تعود، أنصت إلى صوت المدينة اليومى، رنين جرس بائع الزبادى فى الشارع، محركات السيارات، كل الأصوات المألوفة بالنسبة لى أصبحت كما لو كانت تأتى من خارج الأرض. فى البداية ظننت أن هناك مطرًا شديدًا بالخارج ولكن اتضح أن هذا صوت بعض الفتيات يمارسن نط الحبل، فظننت أن الأمور بدأت تتضح ولكن بعد ذلك سمعت صوت قطرات المطر على نافذتى، قرأت الصفحة التالية والتى تليها وصفحات أخرى بعدها، فرأيت الضوء يتسرب خلال عتبة الحياة الجديدة، ورأيت ما عرفت وما لم أعرفه، رأيت حياتى والمسار الذى سوف تتخذه.

كلما قلبت الصفحات، كلما انتشر عالم - لم أكن أبداً أستطيع تخيله أو إدراكه - فى نفسى وسيطر على روحى، وأصبحت كل الأشياء التى عرفتها من قبل تفاصيل تافهة، ولكن الأشياء التى لم أكن على وعى بها من قبل ظهرت الآن من مخابئها وأخذت ترسل لى إشارات، فلو كنت سُئلت عن كنه هذه الأشياء، لما استطعت الإدلاء بإجابة محددة فيما مازلت أقرأ، وعرفت أننى أحرز تقدمًا بطيئًا على طريق بلا عودة،وعلى وعى بأن اهتمامى وفضولى السابقين للأشياء قد انتهى وانقضى خلفى، ولكنى كنت متحمسًا ومبتهجًا بالحياة الجديدة التى تتفتح أمامى حتى أننى شعرت بأن الكون بأسره يستحق اهتمامى، كنت أُرجع ساقى بشىء من الحماس لهذه الرؤية؛ عندما تتحول كل من الشروة، التعددية، وتعقد الاحتمالات إلى نوع من الرعب.

كنت مرعوبًا من أن أرى - فى الضوء الذى انبعث من الكتاب على وجهى - غرف بالية، حافلات طائشة، أشخاصًا ملوثين بالوحل، خطابات باهتة، مدنًا مفقودة، حيوات مفقودة، أشباحًا. كان المشهد يشتمل على رحلة، لقد كان دائمًا عن رحلة، رأيت نظرة تلاحقنى فى هذه الرحلة، نظرة بدى أنها تظهر فى آخر الأماكن المتوقعة فقط لتختفى، جاعلة نفسها منشودة أكثر لأنها كانت صعبة المراس، نظرة حنونة خالية من الذنب واللوم....... لقد رغبت فى أن أصبح هذه النظرة، رغبت فى أن أكون موجودًا فى عالم يُرى

بهذه النظرة، أردت ذلك بشدة حتى أننى آمنت تقريبًا بوجودى فى هذا العالم، ولم يكن حتى من الضرورى أن أقنع نفسى: فلقد عشت هناك فعلاً. أو لنفترض أننى عشت هناك، فإن الكتاب يجب أن يكون ـ بالطبع عنى. فهناك شخص ما تخيل أفكارى ووضعها بالفعل على الورق.

قادنى هذا إلى أن أفهم أن الكلمات ومعانيها ليست بالضرورة متشابهة. فمنذ البداية عرفت أن الكتاب كُتب من أجلى أنا، ولم يكن هذا بسبب أن هناك عبارات منذرة أو كلمات رائعة حتى أن كل كلمة وكل معنى مجازى قد انتشر فى نفسى، بل لأننى كنت تحت تأثير انطباع بأن الكتاب كان عنى، لم أستطع فهم كيف أننى أصبحت منساقًا لهذه المشاعر، ولكن ربما أكون قد فهمتها فقط لكى أفقدها، محاولاً أن أرى طريقى خلال جرائم القتل، الحوادث، الموت و العلامات المفقودة التى امتلأ بها الكتاب.

هكذا كان الوضع عندما قرأت وجهة نظرى وقد تحولت بواسطة الكتاب، و الكتاب قد تحول بواسطة وجهة نظرى، ولم تعد عيناى المغشيتان تستطيعان تمييز العالم الموجود داخل الكتاب من الكتاب الموجود فى خلال العالم، كان وكأنه عالم واحد، كون كامل بكل ألوانه وأشيائه تم احتواؤه بين الكلمات الموجودة فى الكتاب، وهكذا استطعت أن أقرأ بداخله كل الاحتمالات الموجودة فى عقلى. بدأت أفهم أن كل

شيء همس به الكتاب - في البداية - لي، ثم سحقه داخلي، وفي النهاية أجبرني عليه دون شفقة، كان حاضرًا دائمًا، هناك، راقدًا في عمق روحي. فالكتاب قد وجد الكنز المفقود الذي كان راقدًا تحت السطح لأعوام طويلة وأظهره على السطح. فشعرت أنني أستطيع استخدام ما قرأته بين السطور والكلمات لحسابي. وعندما وصلت إلى مكان ما في الصفحات الأخيرة، أردت أن أقول إنني - أيضًا - أتيت بنفس الأفكار، ولكن جاء هذا متأخرا جدًا، بعد أن أصبحت مأخوذًا كليًا بالعالم الذي وصفه الكتاب حتى أنني رأيت الموت يظهر في الضوء الباهت قبيل الفجر، يشع كالملاك. موتي أنا بالذات.

وفهمت فجأة أن حياتي أثريت خارج نطاق معرفتي. فقداني لهذا الكتاب كان الشيء الوحيد الذي جعلني خائفًا، ولكني لم أعد خائفًا من كوني غير قادر على إدراك ما أخبرني به الكتاب عما في الأشياء العادية المحيطة بي في حجرتي أو في الشارع. أمسكت الكتاب بين يدي وشممت رائحة الورق والحبر الذي فاح من الصفحات، كما كنت أفعل في طفولتي عندما أنتهي من قراءة كتاب كوميدي من أوله إلى آخره. فالرائحة كانت كما هي.

نهضت من على المنضدة وضغطت جبهتي على زجاج النافذة البارد، كما اعتدت أن أفعل عندما كنت طفلا، ونظرت لأسفل إلى الشارع. منذ خمس ساعات

ـ بعد منتصف الليل بقليل حينما وضعت الكتاب على المنضدة وبدأت أقرأ - كانت هناك شاحنة متوقفة عبر الشارع ولكنها ذهبت الآن. تم تفريغ الشاحنة من حمولتها: دواليب بمرايا، مناضد ثقيلة، مشاجب، صناديق، أباجورات وما إلى ذلك، فهناك عائلة جديدة انتقلت إلى الشقة الخالية عبر الشارع، وحيث إن الستائر لم توضع بعد استطعت أن أرى - في ضوء مصباح عار يضيء المشهد - والدين في منتصف العمر، الابن الذي يبدو في مثل عمري، وابنتهما، كانوا يأكلون وجبة المساء أمام التليفزيون، كان لون شعر الفتاة بنيًا فاتحاً، وشاشة التليفزيون كانت خضراء.

شاهدت جيراني الجدد لفترة، وأحببت مشاهدتهم، ربما لأنهم كانوا جدد أو ربما لأن مشاهدتهم تجعلني في مأمن. فلم أكن أريد أن أواجه التحول الكامل لعالم مألوف انقلب رأسًا على عقب، ولكني كنت على وعي بأن حجرتي لم تعد كما هي، والشوارع لم تعد هي نفسها، حتى أصدقائي أو أمي لم يعودوا كما كانوا في السابق. فقد كانوا جميعًا يلمحون بعداء ما، بشيء سيئ ومهدد لم أستطع أن أسميه، تراجعت من أمام النافذة ولكني لم أستطع الرجوع إلى الكتاب الذي يأمرني بالعودة إلى المنضدة.كان الشيء الذي أخذ حياتي من مسارها الطبيعي هناك على المنضدة خلفي، ينتظرني مهما أدرت ظهري له لا يهم، فبداية كل شيء كانت هناك في صفحات هذا الكتاب، ولم أعد أستطيع تأجيل الشروع في هذا الطريق.

كونى انقطعت عن حياتى السابقة أشعرنى بالرعب لدرجة أننى أردت أن أطمئن نفسى بافتراض أن حياتى سوف تستعيد نمطها السابق وأن لا شيء حدث لى كحادثة أو مصيبة، مثل الأشخاص الذين تحولت حياتهم بلا رجعة بواسطة كارثة ما، ولكن وجود الكتاب مفتوحًا خلفى كان محسوسًا وواضحًا جدًا لكل حواسى حتى أننى لا أستطيع تخيل كيف ستكون حياتى إذا رجعت لنظامها القديم.

كنت على هذه الحالة فى غرفتى عندما نادتنى أمى للعشاء، جلست كشخص مبتدئ غير معتاد على مكان جديد، يحاول أن يقيم حوارًا، كان التليفزيون مفتوحًا، وكان أمامنا أطباق من حساء البطاطس وقطع اللحم المطبوخ، وكرات مدمس بارد وسلطة خضراء، وتفاح، ذكرت أمى فى حديثها جيراننا الجدد عبر الشارع، كذلك جلوسى المحمود فى غرفتى «أعمل» فترة الظهيرة بأكملها، خروجها للتسوق، هطول المطر، وأنباء المساء فى التليفزيون ومذيع النشرة. أحب أمى؛ فهى امرأة جميلة لطيفة ومتحكمة فى نفسها ومتعاطفة مع الآخرين، لقد شعرت بالذنب لقراءتى لهذا الكتاب الذى جعلنى غريبًا عن عالمها.

لو كان هذا الكتاب كتب لكل الناس، لما أمكن للحياة أن تتدفق بهذا البطء واللامبالاة؛ ومن ناحية أخرى فلا يعقل لطالب الهندسة المتعقل أن يعتقد أن هذا الكتاب كُتب خصيصًا له، ولكن إذا لم يكن موجهًا

لى ـ ولى أنا وحدى ـ فكيف يمكن للعالم الخارجى أن يستمر كما كان تمامًا؟ وكنت خائفًا حتى أن أعتقد أن الكتاب يمكن أن يكون لغزًا وُضع لأجلى فقط. فيما بعد عندما قامت أمى لغسل الأطباق، أردت أن أساعدها، فمن الممكن للمستها أن ترجعنى للحاضر بدلا من العالم الذى أقحمت نفسى فيه. فقالت: " لا تزعج نفسك، عزيزى، سأقوم بهذا بنفسى." جلست أشاهد التليفزيون لفترة، لعلنى أتمكن من الاندماج فى هذا العالم، أو أشارك فى المشهد على الشاشة، ولكن جهازنا هذا الذى نشاهده، مجرد مصباح ردىء، نوع من المهام المنزلية. لذلك ارتديت سترتى وحذائى وقلت لأمى: "أنا خارج"

– فقالت أمى: "متى تعود؟ هل أنتظرك؟"

– "لا. لا تنتظرينى. فلسوف تنامين أمام شاشة التليفزيون مجددًا."

– "هل أطفأت أنوار غرفتك؟"

هكذا خاطرت بالخروج إلى المناطق التى قضيت فيها طفولتى، حيث عشت لمدة اثنين وعشرين عامًا، مشيت فى الشوارع كما لو كنت فى منطقة خطرة فى مملكة غريبة، لمس هواء ديسمبر الندى وجهى كنسمة خفيفة، مما جعلنى أعتقد أن هناك أشياء قليلة من المحتمل أن تكون قد تسللت من عالمى القديم واخترقت هذا العالم الجديد الذى دخلته. أشياء على

أن أتعارض معها فى الشوارع التى تتكون منها حياتى، فشعرت برغبة فى الركض.

مشيت بسرعة بجانب الأرصفة، متجنبًا صفائح القمامة العملاقة وبرك الطين، أشاهد عالمًا جديدًا يظهر ويتحقق مع كل خطوة أتخذها، أشجار الحور التى عرفتها منذ طفولتى ظلت كما هى، ولكنها كانت محرومة من ارتباطها بذكرى ما، لاحظت هذه الأشجار المجهدة، المنازل المعروفة لى، المبانى السكنية ذات اللون الغامق التى شاهدت بناءها منذ كانت مجرد خليط من الرمل والماء والأسمنت إلى أن تم رفع الأسقف وصبها، وحيث كنت ألعب مؤخرًا أنتقل إلى هنا رفقاء لعب جدد، ولكن هذه الصورلم تبدُ كقطع غير قابلة للتحويل من حياتى، ولكنها بمثابة صور فوتوغرافية لم أستطع أن أتذكر متى تم تصويرها: تعرفت على الظلال، النوافذ المضاءة، الأشجار فى المنطقة، الحروف المكتوبة على الداخل، ولكن الأشياء التى أدركتها لم يكن لها أى تأثير على عقلى، وكان عالمى القديم حولى بأكمله، أمامى فى الشارع، هنا وهناك وفى كل مكان، فى انعكاس الصورة على نافذة واجهة محل البقالة، أضواء الشارع عند ميدان محطة "رينكوى"، أفران المخبز مازالت تعمل، صناديق الفاكهة الخاصة ببائع الخضراوات، عربات اليد، محل "الحياة" للمعجنات، الشاحنات المتداعية، أغطية هذه الشاحنات المصنوعة من القماش المشمع، الوجوه المجهدة الغامضة، جزء من قلبى - حيث كنت أحمل

الكتاب خلسة كما لو كان خطيئة- قد حصن نفسه ضد كل هذه الأشكال التى تتلألأ تحت أضواء المدينة، وأردت أن أركض، أن أهرب من هذه الشوارع المعروفة، أهرب بعيدًا عن حزن الأشجار المبللة بماء المطر، عن لافتات البقال والجزار المضاءة بحروف النيون، المنعكسة على الأسفلت وتجمعات مياه المطر، هبت رياح خفيفة، أسقطت قطرات المطر من على الأشجار، وكان هناك طنين فى أذنى جعلنى أقرر أن هذا الكتاب يجب أن يكون لغزًا وهبت إياه، فحل بى الخوف، وأردت أن أتحدث مع أشخاص آخرين.

وعند ميدان المحطة، قصدت "مقهى الشباب" حيث كان بعض أصدقائى من الجيران يلتقون هناك فى الأمسيات، يلعبون الورق ويشاهدون كرة القدم، أو يقضون وقتهم فقط، كان هناك شخص أعرفه من الجامعة والذى كان يقضى وقته فى متجر والده للأحذية، وشخص آخر من الحى- والذى كان يلعب فى اتحاد هواة كرة القدم- وكانا جالسين على مائدة فى الخلف ينعكس عليهم ضوء أبيض وأسود ينبعث من شاشة التليفزيون وهم يتحدثون. وأمامهم كانت هناك صحف بالية تساقطت فى أجزاء من كثرة قراءتها، وكوبان من الشاى، سجائر وزجاجة بيرة تم شراؤها من البقال وأخفيت فى مقعد الكرسى، كنت بحاجة إلى محادثة طويلة، تستمر لساعات وساعات، ولكنى أدركت سريعاً أننى لن أستطيع التحدث مع الاثنين. ومسكنى حزن وأسف جعل الدموع تتجمع فى

عينيّ للحظة، ولكنى لملمت شتات نفسى بكبرياء. فلم أكن أستطيع أن أبوح بمكنونات روحى إلا لأشخاص مختارين، من بين هؤلاء الذين لهم وجود بالفعل فى العالم الذى لمح له الكتاب.

وهكذا صدقت أننى أملك مستقبلى ملكية تامة، ولكنى أيضاً عرفت أن ما يملكنى فى الحاضر هو الكتاب. فالكتاب لم ينفذ إلى نفسى فقط مثل سر أو خطيئة، ولكن أيضاً جرنى إلى نوع من عدم القدرة على التحدث، التى يختبرها الشخص فى الأحلام. أين هى الأرواح المتشابهة (المتناسخة) التى أستطيع التحدث معها؟ أين البلاد التى أجد فيها الحلم الذى تحدث إلى قلبى؟ أين هؤلاء الذين قرءوا الكتاب أيضاً؟

مشيت عبر قطبان القطار، ورجعت عبر الشوارع، أتعثر فى أوراق شجر الخريف الصفراء الملتصقة بالرصيف، شعور عميق بالتفاؤل أنار بداخلى. لو كان بإمكانى أن أمشى دائماً هكذا، بسرعة وبدون توقف، لو فقط أستطيع الذهاب فى رحلات دائماً، فبدا كأنى سأصل إلى الكون الذى فى هذا الكتاب، تألق الحياة الجديدة الذى شعرت به داخلى، موجود فى مكان ما بعيد، فى أرض يصعب الوصول إليها، ولكنى أحس أن طالما أنا قادر على الحركة فأنا أقترب أكثر، ويمكننى على الأقل أن أترك حياتى القديمة وراء ظهرى.

عندما وصلت إلى الشاطئ، كنت مندهشًا من أن البحر يبدو شديد السواد لماذا لم ألحظ من قبل أن بحر "مرمرة" شديد السواد، شديد الصرامة والقسوة في الليل؟شعرت كما لو كانت الأشياء تتحدث بلغة ما، بدأت أسمعها - ولو حتى في صورة صمت مادي، جذبني إليه الكتاب. للحظة شعرت بوزن البحر المتمايل بخفة مثل ضوء موتى غير المبرر الذي شعرت به أثناء قراءتي للكتاب، ولكن هذا لم يكن إحساس بـ "أن النهاية قد أتت" نتج عن الموت الحقيقي؛ ولكنه كان أكثر منه فضول وإثارة لشخص ما يبدأ حياة جديدة وهذا الإحساس حركني.

مشيت جيئة وذهابًا على الشاطئ، كنت قد اعتدت أن آتي إلى هنا مع أطفال الحي لكي ننظر ونتفحص الأشياء التي يرسلها البحر إلى الشاطئ مثل علب الصفيح، الكرات البلاستيكية، الزجاجات، الأحذية الخفيفة، المصابيح، الدمى البلاستيكية، كنا نبحث عن شيء، تميمة سحرية جاءت من كنز ما، أداة لامعة جديدة، لا نعرف كيف نبدأ في استخدامها وللحظة شعرت أنني إذا ما تفحصت واكتشفت أحد هذه الأشياء من هذا العالم القديم - من وجهة نظري التي وضحت بواسطة الكتاب - فمن الممكن لهذا الشيء أن يتحول إلى القطعة السحرية التي يبحث عنها الأطفال دائمًا، وفي ذات الوقت كنت محاطًا بشعور بأن هذا الكتاب قد عزلني عن العالم، واعتقدت أن البحر المظلم سوف يهيج فجأة ويسحبني لداخله ويبتلعني،

كنت محاطًا بالقلق وأخذت أمشى بسرعة ليس من أجل رصد العالم الجديد وهو يتحقق مع كل خطوة أتخذها، ولكن لأكون وحدى مع الكتاب فى غرفتى فى أقرب وقت ممكن.فكنت تقريبًا أجرى، بالفعل أرى نفسى كشخص خُلق من الضوء المنبعث من الكتاب،مما جعلنى أهدأ.

كان لوالدى صديق حميم فى مثل سنه، وكان يعمل فى السكك الحديدية التابعة للحكومة لسنوات عديدة حتى تمت ترقيته إلى منصب مفتش، وكان يكتب مقالات فى مجلة لمحبى السكك الحديدية. وإلى جانب هذا، كتب قصصًا مصورة للأطفال، وكانت هناك مرات كثيرة كنت أجرى إلى البيت لكى أنغمس فى قراءة إحدى هذه القصص المصورة مثل "بيتر وبرتف"، أو "كامر يزور أمريكا"، التى أعطاها لى العم "رفقى". ولكن قصص الأطفال هذه كانت دائمًا ما تصل إلى النهاية، ويُكتب فى الصفحة الأخيرة كلمة "النهاية"، تمامًا مثل الأفلام. فقراءة هذه الحروف السبعة لا تصل بى فقط إلى نقطة الخروج من البلاد التى أردت البقاء فيها، ولكنها تجعلنى على وعى مؤلم _ مرة أخرى- بأن هذه المملكة السحرية هى فقط مكان إبداع العم "رفقى".. رجل السكة الحديد.

وعلى النقيض، فإن كل شىء فى الكتاب ــ الذى أردت قراءته ثانية ــ حقيقى، ولهذا حملت الكتاب بداخلى، ولم تبد الشوارع المبللة التى اجتزتها حقيقية

ولكنها بدت كجزء من واجب منزلي ممل، كُلفت به كعقاب، وهكذا بدا لي- بعد كل هذا- أن الكتاب كشف لي معنى وجودي.

عبرت طريق السكة الحديد، واقتربت من المسجد وكنت على وشك أن أخطو في بركة وحل فقفزت متفاديًا إياها، فانزلقت قدمي ثم تعثرت فوقعت أرضًا على إحدى ركبتي على الرصيف المليء بالوحل. فرفعت نفسي لكي أقف فورًا وكنت على وشك المضي في طريقي. وإذا برجل عجوز ملتح رآني وأنا أنزلق واقع قال لي: "لقد وقعت وقعة سيئة، يا إلهي، هل تأذيت؟" فقلت له: "نعم. فلقد مات والدي بالأمس، وقمنا بدفنه اليوم، ولقد كان رجلاً سيئًا وسكيرًا. يضرب أمي ولا يريد أن يرانا حوله. ولقد عشت كل هذه السنوات في "فيران باج".

"فيران باج"! من أين أتيت بمدينة بهذا الاسم؟ ربما صدق الرجل العجوز أكاذيبي، ولكن للحظة قصيرة أقنعت نفسي بأنني كنت واثقًا جدًا من مهارتي، ولم أستطع الإجابة على إذا ما كنت أنا الذي أختلق هذه الأكاذيب، أم هو الكتاب، أم أن وجه العجوز المليء بالدهشة هو الذي حثني على الكذب. ولكني أخذت أقول لنفسي: "لا تخف أبدًا، لا تخف. فالعالم الذي في الكتاب حقيقي." ولكني كنت خائفًا. لماذا؟

لقد سمعت عن آخرين قرءوا كتابًا فقط لكي تتحطم حياتهم إلى أجزاء صغيرة. فلقد قرأت تقريرًا

عن شخص قرأ كتابا يسمى "المبادئ الأساسية للفلسفة"، ونظرًا لاتفاقه مع الكتاب- الذى قرأه فى ليلة واحدة - انضم إلى حركة الحماية التقدمية الثورية للبروليتاريا فى اليوم التالى مباشرة، فقط لكى يتم القبض عليه بعد ثلاثة أيام وهو يسرق بنكًا، وانتهى الأمر به بتمضية عشر سنوات فى السجن. وعرفت أيضًا عن هؤلاء الذين سهروا على قراءة كتب - لليلة كاملة - مثل "الإسلام والقيم الجديدة" أو "خيانة الغرب" وبعد ذلك تركوا الحانة وذهبوا إلى المسجد، يجلسون على الأبسطة المرشوشة بماء الورد، وبدءوا فى التحضير للحياة الأخرى التى يتوقعونها بعد خمسين عامًا أخرى. حتى أننى التقيت بشخص ما تأثر بكتب تحمل عناوين مثل "الحب يحررك" أو "اعرف نفسك"، وبالرغم من أن هؤلاء الناس من النوع الذى يؤمن بالنجوم والأبراج، فإنهم أيضًا بإمكانهم القول بصدق: "هذا الكتاب قد غير حياتى بين ليلة وضحاها".

فى الواقع، لم يكن الشىء المخيف فى عقلى هو التغيرات الشديدة فى هذه السيناريوهات، كنت خائفًا من الانعزال، كنت خائفاً من الأشياء التى يمكن لأحمق مثلى أن تنتهى به الأمور لفعلها. مثل الفهم الخاطئ للكتاب، أن أكون سطحيًا أو- كما هو الحال- غير سطحى، أو أن أكون مختلفًا، غارقًا فى الحب، أن أكون على دراية بألغاز الكون وأبدو سخيفًا وأنا أقضى حياتى كلها أشرح هذا اللغز لهؤلاء الذين ليس لديهم

أى اهتمام، أو أن أذهب إلى السجن باعتبارى شخصًا ذا أفكار غريبة ومجنونة وافهم أخيراً أن العالم أشد قسوة مما كنت أتخيل، وكونى عاجزاً عن جعل الفتيات الجميلات يقعن فى حبى. لو كانت محتويات هذا الكتاب حقيقية، لو كانت الحياة حتماً كما قرأت فى الكتاب، لو كان عالم مثل هذا ممكن، إذاً فمن المستحيل فهم لماذا يحتاج الناس إلى الصلاة، لماذا يقضون حياتهم فى المقاهى يثرثرون أو لماذا يضطرون إلى الجلوس أمام التليفزيون فى المساء لكى لا يموتوا مللاً، غير راغبين فى غلق الستائر على الدوام، فقط لكى يشاهدوا ما قد يحدث فى حالة حدوث شىء نصف ممتع فى الشارع مثل مرور سيارة مسرعة، صهيل حصان أو سكير يتمايل.

لا أستطيع أن أحدد كم من الوقت مضى قبل أن أدرك أننى أقف أمام عمارة العم "رفقى" وأنظر محدقًا لأعلى إلى شقته بالطابق الثانى عبر الستائر نصف مفتوحة. وربما أدركتُ ذلك بدون إدراكى له وكنت أقف غريزيًا أرسل له تحياتى فى ليلة ميلاد حياتى الجديدة. وكانت هناك أمنية غريبة فى عقلى، لقد أردت أن ألقى نظرة مقربة على الأشياء التى رأيتها فى منزله عندما قمنا أنا وأبى بزيارته آخر مرة: عصافير الكناريا فى القفص، البارومتر المعلق على الحائط، الإطارات المتقنة لصور قطارات السكة الحديد، عربات السكة الحديد الصغيرة، طبق الحلوى الفضى، خرامة التذاكر الخاصة بالمحصل، ميداليات

خدمة السكة الحديد تحتل نصف واجهة العرض والنصف الآخر يوجد به حوالى اربعين او خمسين كتابًا، وأعلى هذه الواجهة يوجد براد شاى "ساموفار" غير مستعمل، وأوراق اللعب على المنضدة.

موجة من الإصرار اجتاحتنى فجأة من مكان مجهول، دفعتنى إلى أن أقف أعلى الحائط حول الفناء وأن أرى ليس فقط جهاز التليفزيون الذى تشاهده العمة "راتيب" أرملة العم "رفقى" ولكن ايضا أردت أن ارى رأسها، كانت جالسة على الكرسى المريح لزوجها الراحل، بزاوية ميل ٤٥ درجة ناحية التليفزيون وقد انكمش رأسها بين كتفيها، تماما مثلما تفعل أمى حينما تشاهد التليفزيون، ولكن بدلا من ممارسة الحياكة، كانت هذه تدخن كالمدخنة.

لقد مات "ريلمان رفقى" قبل والدى بعام، حيث مات والدى إثر نوبة قلبية العام الماضى، أما العم "رفقى" فلم تكن وفاته طبقاً لأسباب طبيعية، فى هذا المساء كان فى طريقه إلى المقهى- كما يبدو- حيث أطلقت عليه النار وقتل، ولم يتم القبض على القاتل قط، وقيل بعض الكلام عن غيرة جنسية، والذى لم يصدق أبى حرفاً منه خلال السنة الأخيرة من حياته، ولم ينجب هذا الزوج - العم رفقى وزوجته - أى أطفال.

بعد منتصف الليل، بعد أن ذهبت أمى إلى النوم بوقت طويل، جلست بلا حراك على المنضدة محدقاً

فى الكتاب القابع بين مرفقىّ وبدات - تدريجيًا وبحماسة من كل قلبى - أخرج من عقلى كل شىء يعرِّف هذه المنطقة على أنها خاصتى - الأضواء التى تتلفتُ فى المنطقة كلها وفى المدينة، حزن الشوارع الخالية المبللة بالماء، نداء بائع البوظة وهو يدور مرة أخيرة حول المبنى، صياح مبكر لزوج من الغربان، صوت القطار الصبور على القضبان بعد مرور آخر قطار بفترة طويلة - وسلمت نفسى كليًا للضوء المنبعث من الكتاب، وهكذا فإن كل الأشياء التى شكلت وأسعت حياتى وتوقعاتى - الخروج للغداء، الأفلام، زملاء الدراسة والصحف اليومية، المياه الغازية ومباريات كرة القدم، المقاعد والمعدية، الفتيات الجميلات، الأحلام السعيدة، حبيبتى المستقبلية،زوجتى، مكتب العمل، الصباح والإفطار، تذاكر الحافلات، الاهتمامات التافهة، واجب الإحصاء الذى لم ينته، سروالى القديم، وجهى وبيجامتى، الليل، المجلات التى أثارتنى، سجائرى، حتى سريرى المخلص الذى استقبلنى لأكثر الغفلات التى كنت احتاجها - كلها تسربت من عقلى تمامًا، ووجدت نفسى أتجول فى أرض من نور.

الفصل الثانى

لقد وقعت فى الحب فى اليوم التالى، كان الحب مدمرًا تمامًا كالضوء المنبعث من الكتاب على وجهى، مثبتًا لى كيف حادت حياتى كليَّة عن الطريق. بمجرد أن استيقظت فى الصباح،استرجعت كل ما حدث لى فى اليوم السابق، وعرفت فى الحال أن المملكة الجديدة التى ظهرت أمامى لم تكن مجرد حلم يقظة مؤقت، ولكنها حقيقية مثل جسدى وأطرافى. إيجاد آخرين من الذين كانوا فى نفس الورطة مثلى كان بمثابة ضرورة قصوى، لكى أنقذ نفسى من الشعور بالوحدة غير المحتمل الذى داهمنى فى العالم الجديد الذى علقت به.

تساقط الجليد أثناء الليل، وتجمع على حواف النوافذ، وفى الممرات والأسطح. فى الضوء الأبيض البارد القادم من الخارج بدا الكتاب المفتوح على المنضدة هزيلاً وأكثر براءة مما كان عليه، مما أعطاه طابعًا مشئومًا. وبالرغم من ذلك نجحت فى تناول الإفطار مع أمى كالعادة، وأن أشم رائحة الخبز المحمص، تصفحت الطبعة الصباحية لجريدة "ميليت" وألقيت نظرة على عمود "جلال سليق" كما لو كان كل شىء طبيعيًا، تناولت بعض الجبن وابتسمت فى وجه

أمى الحنون، أصوات الفناجين، الملاعق وبراد الشاى، ضوضاء شاحنة الموالح فى الشارع كان يخبرنى أن أثق فى التدفق الطبيعى للحياة، ولكنى لم أخدع. فعندما خطوت إلى الخارج كنت متأكدًا أن العالم تغير كليًا، حتى أننى لم أكن محرجًا من ارتدائى للمعطف البالى وغير المريح لوالدى المتوفى. سرت إلى المحطة وركبت الترام، ثم نزلت من الترام وركبت المعدية، ونزلت عند "كاراكوى" وشققت طريقى صاعدًا السلالم، ثم صعدت إلى الحافلة ووصلت إلى ميدان "تاكسيم" فى طريقى إلى الجامعة. ثم توقفت قليلاً وشاهدت بعض الفجر يبيعون الأزهار على الأرصفة. كيف يمكننى الوثوق بأن الحياة ستستمر كما كانت فى الماضى؟ أو أنسى أننى قرأت هذا الكتاب يومًا؟ للحظة بدا المشهد أمامى مرعبًا جدًا لدرجة أننى شعرت برغبة فى الهرب.

فى محاضرة عن ضغط الميكانيكا، دونت المخطط بجدية، الأرقام والمعادلات المكتوبة على السبورة السوداء. عندما لم يكن الأستاذ - ذو الرأس الأصلع - يكتب شيئًا على السبورة كنت أعقد ذراعىَّ أمام صدرى وأستمع إلى صوته العذب. هل كنت أستمع فعلاً؟ أم أتظاهر فقط بالإنصات مثل كل الحاضرين، لاعبًا دورى كطالب فى قسم الهندسة المدنية فى جامعة التقنية؟ لم أستطع أن أجد إجابة. ولكن بعد برهة، عندما شعرت أن العالم القديم المألوف بلا أمل بشكل غير محتمل، أخذ قلبى ينبض بسرعة، وأخذ

رأسى يسبح كما لو كان هناك مخدر يسرى خلال عروقى، وكنت أشعر بالإثارة بسبب القوة التى تنبعث من الكتاب وتنتشر تدريجيًا من مركزها فى عنقى لتسرى عبر جسدى بالكامل. لقد أبطل العالم الجديد كل الوجود وحول الحاضر إلى ماض. فالأشياء التى رأيتها ولمستها كانت بالية بشكل مثير لـ شفقة.

عندما وقعت عيناى على الكتاب لأول مرة - قبل ذلك بيومين - كان فى يدىْ فتاة من قسم الهندسة المعمارية، كانت تشترى شيئًا من الكانتين فى الطابق الأسفل، واحتاجت أن تخرج محفظتها، ولأنها كانت تحمل شيئًا آخر بيدها الأخرى، فلم تكن قادرة على التفتيش فى حقيبتها. وكان الشىء الذى فى يدها الأخرى كتابًا - ولكى تحرر يدها - كانت مجبرة على وضع الكتاب جانبًا على المنضدة للحظة حيث كنت جالسًا، حدقت فى الكتاب الموضوع على منضدتى للحظة، وكان هذا كل شىء عن المصادفة التى غيرت حياتى. وفى طريقى إلى البيت هذا المساء، عندما رأيت نسخة منه بين المجلدات والكتيبات، بين دواوين الشعر وكتب التنبوءات، وقصص الحب والكتب السياسية التى تُباع على الرصيف، قمت بشراء الكتاب.

هرع معظم الطلاب - فى اللحظة التى قرع فيها جرس الظهيرة - صاعدين السلالم لكى يقفوا فى صف الكافيتريا، ولكنى جلست فقط هناك على

مقعدى. ثم قمت بالتجول فى القاعات.... ذهبت إلى الكانتين.... مررت عبر الملاعب.. تسكعت بجانب المعارض ذوات الأعمدة.... دخلت إلى فصول خاوية، ونظرت عبر النوافذ لأرى الأشجار التى رقد عليها الثلج فى الجراج عبر الشارع. شربت بعض المياه من دورة المياه. مشيت ومشيت. صعودًا ونزولاً حول قاعة "تاسكيسلا". لم أر الفتاة فى أى مكان ولكنى لم أكن قلقًا.

بعد ساعة الظهيرة، أصبحت الممرات أكثر ازدحامًا. مشيت فى الطرقات عبر مدرسة الهندسة المعمارية. دخلت إلى ورش الرسم، وشاهدت العاب العمـالات تلعب على المناضد. فجلست فى زاوية وجمعت جريدة كانت واقعة مبعثرة على الأرض وقرأتها. ذهبت إلى الطرقات مرة أخرى، صعدت وهبطت السلالم. استمعت إلى محادثات عن كرة القدم، السياسة، وما كان على الشاشة ليلة أمس. انضممت إلى مجموعة تسخر من قرار نجمة سينمائية بإنجاب طفل. فعرضت عليهم سجائرى وقداحتى، وكان أحدهم يقول نكتة فاستمعت إليه. ثم ماذا بعد. بينما كنت أفعل كل هذا، كنت أيضًا أجيب بطريقة حسنة على كل من يستوقفنى ويسألنى إذا ما كنت رأيت كذا أو كذا. الآونة التى لم أتمكن فيها من أن أجد مجموعة من الأصدقاء لأمرح معهم، أو لم أجد نوافذ لأنظر منها، أو مسافات لأمشيها، كنت أمشى بسرعة وبإصرار شديد فى اتجاه أو آخر كما

لو كان هناك شيء مهم في عقلي وأنني في عجلة من أمري. ولكن طالما أنه لا هدف معين لدي، فهل أجد نفسي أمام مدخل المكتبة، أو صاعداً السلالم، أو أركض إلى شخص طلب مني سيجارة. قمت بتغيير اتجاهي، ألتحم بالحشد أو أقف لكي أشعل سيجارتي.

كنت على وشك أن ألقي نظرة على إعلان علق حديثاً في لوحة الإعلانات، حيث أخذ قلبي يخفق ثم هوى وتركني بلا مساعدة. كانت هناك - الفتاة التي سبق أن رأيت الكتاب في يدها - تبتعد عني في الزحام ولكنها كانت تبتعد ببطء شديد كما في الأحلام، وبدت - لسبب ما - تدعوني إليها. فقدت عقلي، فلم أعد أنا نفسي، وعرفت هذا لحظتها فسمحت لنفسي أن أتبعها.

كانت ترتدي فستاناً شاحباً وليس أبيض، كانت ألوان الظلال فاتحة فلم أستطع تمييز لونها، لحقت بها قبل أن تصل إلى السلالم، وحين ألقيت نظرة عليها من قريب، كان إشعاع وجهها قوياً، تماماً مثل الضوء الذي ينبعث من الكتاب ولكنه أكثر لطفاً بكثير. كنت في هذا العالم، أتنفس على عتبة الحياة الجديدة، كلما نظرت إلى هالة نور وجهها، كلما فهمت أن قلبي لن يحمل لي أي اعتبار بعد الآن.

أخبرتها أنني قد قرأت الكتاب، وأنني قرأته بعدما رأيته في يدها، وأنه كان لي عالماً قبل أن أقرأ الكتاب ولكن الآن بعد أن قرأته أصبح لي عالم آخر. وقلت

لها إننا يجب أن نتحدث، عن أنني تُركت وحدي كليّة. فقالت: "عندي محاضرة الآن".

هوى قلبي بين قدميّ. فربما خمنت الفتاة ارتباكي، وفكرت فيما قلت للحظة. ثم اتخذت القرار وقالت: "وهو كذلك، لنبحث عن حجرة غير مشغولة ونتحدث."

وجدنا فصلاً في الطابق الثاني غير مستخدم. تعثرت ساقاي وأنا أمشي، لم أستطع إدراك كيف سأخبرها بأنني على وعي بالعالم الذي وعدني به الكتاب، على اعتبار أن الكتاب همس لي، متحدثًا بحرية كما لو كان يبوح بسر. قالت الفتاة إن اسمها "جنان" وأخبرتها باسمي.

سألتني: "لماذا أنت مشدود للكتاب هكذا؟"

جاءتني رغبة مفاجأة أن أقول لها لأنك قرأته يا ملاكي، ولكن كيف جاءتني هذه الكلمة "ملاكي" بأي حال؟كان عقلي في تشتت. عقلي دائمًا ما يتشتت يا ملاكي، ولكن هل من الممكن أن يساعدني شخص ما؟

قلت لها: " لقد تغيرت حياتي كلها بعد قراءة هذا الكتاب. الغرفة، المنزل، العالم الذي عشت فيه توقف عن كونه ملكي، جعلني أشعر بأنني بلا مأوى. لقد رأيت الكتاب أولاً بين يديك، إذًا فلقد قرأته حتمًا، أخبريني عن العالم الذي سافرت إليه ورجعت، أخبريني ماذا أفعل لأضع قدمي في هذا العالم.

أعطنى تفسيرًا لماذا نحن مازلنا هنا. قولى لى كيف يمكن للعالم الجديد أن يكون مألوفًا كبيتى بينما بيتى غريب كأنه عالم جديد."

من يدرى كم من الوقت كنت لأستمر على هذه الوتيرة وبأدق التفاصيل، ولكن عينى بدت للحظة عاشية، كان ضوء ثلج الشتاء واضحًا جدًا ومتواصلاً فى فترة الظهيرة فى الخارج، حتى أن نوافذ الفصل الصغير - المفعم بالطباشير - بدت وكأنها صنعت من ثلج، نظرت ناحيتها، خائفًا من أن أنظر فى وجهها.

سألتنى: "ماذا أنت فاعل لكى تصل إلى العالم الذى فى الكتاب؟"

كان وجهها شاحبًا، ولون شعرها بنياً فاتحًا، ونظراتها لطيفة؛ لو كانت من هذا العالم، فلقد بدت أنها مرسومة من الذاكرة؛ ولو كانت قادمة من المستقبل فهى رمز الخوف والحزن، نظرت إليها دون أن أعى أننى أنظر، كما لو كنت خائفًا من النظر إليها بشدة فيتحول الموقف إلى حقيقة.

قلت لها: "أنا على استعداد أن أفعل أى شىء"

فنظرت إلىّ بلطف، ظهر شبح ابتسامة على شفتيها، كيف يجب أن تتصرف عندما تنظر إليك فتاة ساحرة وذات جمال غير عادى بهذا الشكل؟ كيف تمسك أعواد الثقاب وتشعل سيجارة، كيف تنظر من النافذة، تتحدث إليها، تواجهها، تتنفس؟ إنهم لا

يدرسون هذه الأشياء فى الفصول فقط. الأشخاص أمثالى يتلوون ألمًا دون جدوى، محاولين إخفاء خفقان قلوبهم.

فسألتنى: " ماذا تعنى بأى شىء؟"

قلت: " كل شىء." ثم غرقت فى الصمت، مصغيًا إلى ضربات قلبى. لا أدرى لماذا ولكن جاءتنى فجأة صورة لرحلات طويلة تبدو بلا نهاية: طوفان من الخرافات والأساطير، متاهات وشوارع تختفى، أشجار حزينة، أنهار موحلة، حدائق، بلاد. لوكنت سأصبح مؤمنًا بها فى يوم ما، فيجب أن أخاطر بهذه الأماكن.

– "هل ستكون راغبًا فى مواجهة الموت على سبيل المثال؟"

– "نعم سأكون"

– حتى لو عرفت أن هناك أشخاصًا يمكن أن يقتلوك لأنك قرأت الكتاب؟

حاولت أن أبتسم، وسمعت طالب الهندسة بداخلى يقول: إنه مجرد كتاب بالرغم من كل شىء، ولكن جنان كانت تراقبنى بكل انتباهها، وفكرت بشك أننى لن أحظى بمكان مقرب منها أو من العالم الموجود فى الكتاب إذا ما كنت مباليًا وقلت شيئًا خطأ.

قلت وأنا أتقمص دور شخصية ما لا أعرف لها اسمًا: "لا أعتقد أن شخصًا ما سيقتلنى أو أى شىء

من هذا القبيل، ولكن حتى لو كانت هذه هى القضية، فلن أكون - حقًا - خائفًا من الموت."

لمعت عيناها المسليتان للحظة خاطفة فى الضوء الأبيض الباهت الذى تسلل إلى الغرفة. "هل تعتقد أن هذا العالم موجود فعلاً؟ أم أنه مجرد خيال جاء فى حلم وتمت كتابته فى كتاب؟" قلت: "هذا العالم يجب أن يوجد. فأنتِ جميلة جدًا لأعرف أنك قادمة من هناك."

اخذت خطوتين سريعتين فى اتجاهى، وأمسكتْ برأسى بين يديها، ورفعت نفسها لأعلى ثم قبلتنى فى شفتى. تلكأ لسانها فى فمى لفترة قصيرة، تراجعت للخلف لتدعنى أضم جسدها المرن على طول ذراعى. قالت لى: "أنت شجاع جدًا".

شممت رائحة عطر ما، وخطوت فى اتجاهها كما لو كنت ثملاً، مر من أمام القاعة طالبان صاحبان.

قالت جنان: " انتظر دقيقة واستمع إلىّ من فضلك. يجب أن تخبر "محمد" بكل شىء قلته لى. لقد ذهب بالفعل إلى العالم الذى فى الكتاب ونجح فى أن يعود. لقد جاء مرة أخرى من هناك، وهو يعرف، هل تفهم؟ ولكنه لا يؤمن بأن هناك آخرين يمكنهم أن يصلوا إلى هناك. لقد عاش خلال أشياء رهيبة وفقد إيمانه، فهل تتحدث إليه؟"

- "ومن هو محمد؟"

- "كن أمام حجرة رقم ٢٠١ خلال عشر دقائق، قبل بداية الدرس."

قالت ذلك ثم خرجت فجأة من الباب واختفت. أصبحت الغرفة خالية تمامًا، كما لو كنت غير موجود أيضًا، ووقفت هناك مذهولاً. لم يقبلني أحد هكذا من قبل، ولم ينظر لي أحد هكذا. والآن تُركت وحدي. كنت خائفًا، أفكر في أنني لن أراها مجددًا، ولن أكون قادرًا على الاعتماد على نفسي مجددًا. أردت أن أجري وراءها، ولكن قلبي كان يخفق بسرعة حتى أنني كنت خائفًا من أن أتنفس. لقد غشى الضوء الأبيض الناصع ليس فقط عينيّ ولكن أيضًا عقلي، كل هذا بسبب الكتاب. قلت لنفسي هذا وفورًا عرفت أنني أحب الكتاب وأريد أن أتواجد في عالمه. أريد هذا بشدة لدرجة أنني اعتقدت للحظة أن الدموع سوف تتفجر من عينيّ. لقد كان وجود الكتاب هو الذي يجعلني أستمر وأعرف بطريقة ما أن الفتاة سوف تحتضنني مرة أخرى بالتأكيد، ولكن الآن شعرت أن العالم كله قد توقف وتركني.

سمعت صوتًا ما، فنظرت لأسفل فشاهدت جماعة من طلاب هندسة البناء (المعمار) يقذفون بعضهم البعض بكرات من الثلج بالقرب من حافة المنتزة. فشاهدتهم دون أن أتذكر ما كنت أرى، فلم يعد بداخلي أي شيء من أحاسيس طفل. لقد تخطيت هذه المرحلة.

إن هذا يحدث لكل منا. ففى يوم ما، يوم عادى، عندما نتخيل أننا نقوم بجولاتنا الروتينية فى العالم حاملين بقايا التذاكر وأعقاب التبغ فى جيوبنا، رءوسنا مليئة بموضوعات الأخبار، ضوضاء الزحام، الأحداث المزعجة، وندرك فجأة أننا بالفعل فى مكان آخر، وأننا لسنا فى المكان الذى أخذتنا إليه أقدامنا. لقد تخطيت هذا منذ وقت طويل. لقد ذبت فى لون أكثر شحوبًا من اللون الشاحب الذى صنعه الثلج حيث كنت أقف وراء زجاج النافذة. إذا ما هبطت إلى الأرض أو أى نوع من الواقع، فيجب أن تجد فتاة، هذه الفتاة، تتمسك بها وتفوز بحبها. ما أسرع قلبى فى تعلم كل هذا الهراء! لقد وقعت فى الحب. لقد سلمت نفسى إلى أعمق وأقصى حدود قلبى. نظرت إلى ساعة يدى، بقيت ثمانى دقائق لأذهب.

مشيت كالشبح فى الطرقات عالية الأسقف، واعيًا بشكل غريب بجسدى، بحياتى، بوجهى وبقصتى. هل التقيها صدفة فى الزحام؟ ولو صادفتها، فماذا أقول؟ ماذا كان شكل وجهى؟ لا أستطيع أن أتذكر، ذهبت إلى دورة المياه بجوار درجات السلم، وضعت فمى على صنبور المياه وشربت، نظرت إلى المرآة لأرى فمى الذى تم تقبيله منذ وقت قصير. أمى، لقد وقعت فى الحب، إننى أنزلق، أمى، إنى خائف ولكنى سأفعل أى شىء من أجلها. سأسأل جنان من هو مهمد على أى حال؟ لماذا هو خائف؟ أنا لا أهاب شيئًا. لو أن أحدًا فهم

الكتاب وآمن به - كما فعلت أنا - فمن الطبيعى ألا يخاف من أى شىء.

عدت إلى الزحام، ووجدت نفسى مجددًا أمشى بسرعة كما لو كان لدى عمل مهم، صعدت إلى الدور الثانى ومشيت بجانب النوافذ المرتفعة التى تطل على نافورة الفناء، مشيت ومشيت، تاركًا نفسى خلفى، أفكر فى جنان مع كل خطوة، مررت بجانب زملائى فى الفصل الذين اجتمعوا لحضور الدرس التالى، خمنوا ماذا حدث! منذ فترة قصيرة قبلتنى فتاة جذابة جدًا وكيف! كانت ساقاى تأخذانى بسلاسة إلى قدرى، قدر يشتمل على غابات مظلمة، غرف فى فنادق، أشباح أرجوانية وزرقاء اللون، حياة، وسلام، وموت.

عندما بلغت الحجرة رقم ٢٠١ قبل ثلاث دقائق من بداية الدرس، رأيت محمد وسط الزحام فى القاعة حتى من قبل أن أرى جنان تقف بالقرب منه، كان شاحبًا طويلاً ونحيلاً مثلى، حزينًا، شاردًا، ومنهكًا. كانت لدى ذكرى غامضة بأنى رأيته من قبل فى صحبة جنان، هو يعرف أكثر منى، وخمنت أنه أكبر سنًا بسنتين تقريبًا. كيف عرف من أنا، لا أستطيع القول، ولكنه أخذنى جانبًا، خلف الدواليب.

- "سمعت أنك قرأت الكتاب، ماذا فيه من أجلك؟"

- "حياة جديدة".

- "هل تصدق ذلك؟".

- "نعم أصدق".

بشرته كانت منهكة جدًا لدرجة جعلتني أخاف من الأشياء التي مر بها حتمًا. قال لي: "انظر، استمع إليّ، لقد ذهبت من أجل هذا أيضًا. اعتقدت أنني قادر على إيجاد هذا العالم، كنت دائمًا راكبًا في حافلة ذاهبًا إلى مكان ما، ذاهبًا من مدينة إلى أخرى، معتقدًا أنني سوف أجد هذه الأرض، هؤلاء الناس،هذه الشوارع بعينها. صدقني في النهاية لا يوجد شيء إلا الموت. فهم يقتلون دون رحمة، ومن الممكن أن يكونوا يراقبوننا الآن. قالت جنان: " لا تثير خوفه الآن".

أطبق الصوت، ونظر محمد إليّ للحظة كما لو كان يعرفني منذ سنوات. وشعرت أنني خذلته.

قلت وأنا أنظر إلى جنان: " أنا لست خائفًا" ثم أضفت بطريقة شخصيات الأفلام، تلك الشخصيات التي تلعب دور القوي: "أنا قادر على المضي قدمًا حتى النهاية." كان جسد "جنان" الرائع على بعد خطوات قليلة مني، بيني وبين "محمد". ولكنه كان أقرب إليه.

قال "محمد": "لا يوجد شيء لتمضي فيه قدمًا حتى النهاية، إنه مجرد كتاب. جلس أحدهم وكتبه. كالحلم. لا يوجد شيء تفعله سوى قراءته وإعادة قراءته فحسب".

قالت لي "جنان": " أخبره بما أخبرتني به".

قلت: "هذا العالم موجود." وتمنيت أن أمسك بجنان من ذراعها الطويلة الرشيقة وأسحبها ناحيتي. توقفت ثم قلت: "سوف أجد هذا العالم."

قال محمد: "عالم من هراء، هذا العالم لا وجود له. فكر في الأمر كما لو كان تصرفاً أحمق اقترف في حق الأطفال من قبل شخص كبير مخدوع، اعتقد الرجل الكبير أنه سيكتب كتاباً لتسلية الراشدين بنفس الطريقة التي اتبعها مع الأطفال. ومن المشكوك فيه أن يكون هو نفسه قد فهم ما يعنيه. فهذه القراءة للتسلية ولكن لو أنك صدقتها، فحياتك ضائعة."

"هناك عالم كامل هناك." قلت مثل الرجال الأقوياء - ولكن الأغبياء - في السينما." وأنا أعرف أني سوف أجد سبيلاً لأصل إليه."

"في هذه الحالة، محاولات سعيدة......" واستدار مبتعداً، ونظر إلى جنان نظرة من طراز (ألم أخبرك بهذا). وكان على وشك المغادرة عندما توقف وسأل: "ما الذي جعلك متأكداً جداً من وجود هذه الحياة؟"

- "لأن جاءني انطباع أن الكتاب يحكي قصة حياتي." فابتسم بود ومشى مبتعداً.

قلت لجنان: "لاتغادري، هل هو حبيبك؟" قالت: "لقد أعجبته حقاً، ليس لأجله ولكن لأجلك. فهو يخاف على الأشخاص أمثالك."

"هل هو حبيبك؟ لا ترحلي قبل إخباري بكل شيء."

قالت: "هو يحتاج إلى".

لقد سمعت هذه الكلمات كثيرًا فى الأفلام حتى أننى دعمت جوابى المتحمس بالتلقائية واليقين وقلت: "لو تركتنى أموت".

ضحكت وانضممت إلى الطلاب المتزاحمين فى الحجرة ٢٠١. للحظة جاءتنى نزوة بأن الحق بها وأجلس. عندما نظرت إلى حجرة الدرس من النوافذ الطويلة فى الرواق، رأيتهما جالسين على مقعد وجداه ليجلسا معًا - بين الطلاب الآخرين الذين يلبسون المعاطف الكاكية والثياب الباهتة والجينز الأزرق. كانا ينتظران الدرس بدون حديث. عندما دفعت جنان بشعرها البنى الفاتح بلطف خلف أذنها، جاعلة قطعة أخرى من قلبى تذوب. على النقيض من كيفية وصف الحب فى الأفلام. فلقد شعرت أننى بائس - أكثر من مجرد بائس- ينبع قدميه حيثما تقودانه.

ماذا كانت تعتقد أننى أكون؟ ما لون الحوائط فى بيتها؟ عن أى شيء تتحدث هى وأبوها؟ هل حمامهم يلمع من النظافة؟ هل لديها أخوة وأخوات؟ ماذا تتناول على الإفطار؟هل هما حبيبان؟ وفى هذه الحالة ما الذى جعلها تقبلنى بهذا الشكل؟

كانت حجرة الدرس الصغيرة حيث قبلتنى فارغة. لقد رجعت إلى هناك كجيش مهزوم يتوقع بإخلاص - وبرغم كل شيء - حدوث معركة جديدة. خطوات أقدامى أحدثت صدى فى الحجرة الفارغة. قامت

يداى البائستان الملومتان بفتح علبة سجائر، رائحة الطباشير، الضوء الأبيض المصنوع من ثلج - ضغطت بجبهتى على زجاج النافذة. هل هذه هى الحياة الجديدة التى رأيت نفسى فيها فى بداية هذا الصباح؟ كنت مرهقًا من كل ما حدث داخل عقلى. ولكن مازال طالب الهندسة الذى بداخلى مشغولاً فى ركن ما، يقوم بحساباته: كنت فى حالة لا تسمح لى بحضور درسى. إذاً سوف أنتظرهم إلى أن ينتهوا خلال ساعتين. ساعتين!

ضغطت جبهتى إلى زجاج النافذة البارد، لا أدرى لكم من الوقت، ولكنى كنت مليئاً بشعور من رثاء الذات: لقد أحببت التمرغ فى رثاء الذات واعتقدت أن الدموع ستنهمر من عينىّ عندما بدأت بلورات الثلج تتجرف تحت وطأة الرياح. خلف الشارع المنحدر الذى يؤدى إلى " دولما بهسى"، استطعت أن أرى شجر الدُلب وشجر الكستناء. ما أصلبها! الأشجار لا تعرف أنها أشجار، فكرت فى ذلك. غادرت الطيور الأغصان المغطاة بالثلج. راقبتها بإعجاب.

راقبت بلورات الثلج التى تتساقط فى تجمعات نظيفة، تتلكأ بلا قرار لتلاحق مثيلاتها، غير قادرة على اتخاذ أى قرار عندما تهب رياح خفيفة وترسلهم بعيداً، وأحياناً تتارجح ندفة ثلج وحيدة فى الهواء للحظة ثم تقف، وكأنها غيرت رأيها، ثم تدور وتبدأ فى الارتفاع ببطء باتجاه السماء. ولاحظتُ أن كثيراً

من نتف الثلج تعود إلى السماء قبل أن تستطيع الهبوط في الوحل، في الحديقة، أو على الرصيف أو على الأشجار. هل يعرف أحد ذلك؟ هل لاحظه أحد؟

هل لاحظ أحد من قبل أن النقطة الحادة للمثلث المتكون عند التقاطع- والذى يبدو كجزء من الحديقة- يشير إلى "برج ليندر"؟ هل لاحظ أحد أن أشجار الصنوبر -التى تحت تأثير رياح الشرق لكل هذه الأعوام- مالت على الرصيف فى تناسق مثالى مشكّلة مظلة ثمانية الشكل فوق محطة "الميني باص"؟ عندما شاهدت الرجل الذى يحمل فى يده كيسًا من البلاستيك ورديّ اللون ويقف على الرصيف تساءلت إذا كان أى أحد قد أدرك أن نصف سكان اسطنبول يتجولون حاملين أكياسًا بلاستيكية غير واع تمامًا بهويتك. تساءلت إذا كان شخص ما قد رأى آثار أقدامك- يا ملاكى- فى الآثار المتروكة من قبل الكلاب الجائعة وجامعى القمامة على الجليد والرماد الذى يغطى حدائق المدن الميتة. هل هكذا أرى العالم الجديد، الذى انكشف لى كسر فى هذا الكتاب الذى اشتريته من على الرصيف منذ يومين؟

كان قلبى- وليس عيناى- هو من شعر بوجود جنان فى الضوء الرمادى والجليد العميق على نفس الرصيف، كانت ترتدى معطفًا بنفسجيًا، وبجانبها محمد مرتديًا جاكتًا رماديًا ويمشى على الجليد كروح شريرة لا تترك آثارًا، جاءتنى رغبة ملحة فى أن أركض وراءهما.

توقفا ليتحدثا فى نفس البقعة حيث كان بائع الكتب موجوداً منذ يومين. تاذت جنان وتراجعت عن موقفها، مصاحبة لإشاراتهما العامة دلت على أنهما - بالإضافة إلى الكلام- يتشاجران وكأنهما زوج من العشاق كبار السن اعتادا الشجار.

ثم بدءا يمشيان مجدداً فقط ليتوقفا ثانية. كنت على مسافة بعيدة ولكنى مازلت أستطيع أن أستنتج من لغة جسديهما والنظرات التى يوجهها الناس لهما، أنهما كانا يتشاجران بعنف أكثر الآن.

ولم يستمر هذا الوضع كثيراً، فلقد استدارت "جنان" وبدأت تبتعد عائدة إلى المينى حيث كنت،بينما يتبعها "محمد" بعينيه قبل أن يستمر فى طريقه باتجاه ميدان "تاكسيم". وهوى قلبى بين قدمى، كان هذا عندما رأيت الرجل الذى يقف عند محطة "المينى باص" يعبر الشارع، حاملاً الكيس البلاستيكى الوردى اللون. مركزًا اهتمامى حيث كانت عيناى على القوام الرشيق المغطى بالمعطف البنفسجى، كانوا فى حالة لا تسمح لهم بملاحظة شخص ما يعبر الشارع، ولكن كان هناك شىء ما خطأ فى تصرفات هذا الرجل، على بعد بضع خطوات من أحجار الرصيف سحب الرجل- مسدسًا- من الكيس الوردى، ووجهه إلى محمد، الذى رأى المسدس أيضًا.

فى البداية رأيت محمد يصاب بالطلقة وينتفض، ثم بعد ذلك سمعت الطلقة الثانية وتوقعت أن أسمع

الثالثة بعدها. تعثر محمد ثم وقع. أسقط الرجل كيسه البلاستيكي وقصد الحديقة.

كانت جنان مازالت تقترب، خطواتها المجروحة رقيقة كخطوات طائر صغير، لم تكن قد سمعت طلقات المسدس، مرقت شاحنة مليئة بالبرتقال المغطى بالثلج محدثة جلبة في التقاطع، كما لو كان العالم قد رجعت له الحركة من جديد، لاحظت بعض الاضطراب عند محطة "الميني باص"، كان محمد يحاول الوقوف، على مسافة كان الرجل يجري بدون الكيس البلاستيكي أسفل التل باتجاه استاد "إينونيو"، يجري هاربًا عبر الثلج في الحديقة مثل مهرج مُصر على تسلية الأطفال، وفي صحبته زوج من الكلاب المرحة.

كان يجب عليَّ أن أركض نازلاً السلالم لأقابل جنان في منتصف الطريق وأخبرها بما حدث، ولكني كنت مشدودًا إلى رؤية محمد وهو يتمايل وينظر حوله في تشوش. لكم من الوقت؟ لفترة، فترة طويلة، حتى انعطفت جنان حول ناصية "تاسكيملا" واختفت من مجال نظري.

ركضت هابطًا السلالم واندفعت بسرعة مارًا بجماعة من رجال الشرطة في ثياب مدنية، طلاب، وحراس يقفون في الجوار. عندما وصلت إلى المدخل الرئيسي، لم تكن جنان في أي مكان. بسرعة صعدت إلى أعلى ولكني لم أرها هنا أيضًا. ثم جريت إلى

التقاطع ومازلت لا أرى أى شىء أو أى شخص له علاقة بالمشهد الذى رأيته لتوى. لم يكن هناك أى أثر لمحمد أو للكيس البلاستيكى الذى تخلص منه الرجل ذو المسدس فى أى مكان. كان الثلج حيث وقع محمد قد ذاب وتحول إلى وحل. مر طفل عمره سنتان يرتدى قبعة مع أمه الجذابة حسنة المظهر.

قال الطفل: "ماما، أين ذهب الأرنب؟ أين يا أمى؟"

ركضت فى جنون عبر الشارع باتجاه محطة "المينى باص". بدا العالم مرة أخرى يرتدى صمت الجليد ولامبالاة الأشجار. اندهش اثنان من سائقى الحافلات- يبدوان متشابهين تمامًا- من استفساراتى، ولم يكن عندهما أية فكرة عما أتحدث عنه. والأكثر من ذلك، أن صاحبيهما- ذا المظهر الجاف الذى يحضر لهما الشاى- لم يسمع أيضًا أى طلقات مسدس. بالإضافة إلى أن لا شىء على الإطلاق يثير دهشته، كان المشرف فى المحطة ممسكًا بصفارته، محدقًا فىّ كما لو كنت المجرم الذى ضغط الزناد. وتجمعت الطيور السوداء على شجرة الصنوبر فوق رأسى. حشرت نفسى فى "المينى باص" فى آخر لحظة قبل أن يغادر المحطة وطرحت أسئلتى بقلق.

"رجل وامرأة شابان استدعيا سيارة أجرة هناك ورحلا. كان هذا من فترة قصيرة." قالت هذه الجملة سيدة عجوز، وأشارت بإصبعها نحو ميدان "تاكسيم". وكنت أعرف أن ما أفعله ليس من العقل فى شىء

ولكنى مازلت أجرى فى هذا الاتجاه، فكرت فى أنى وحدى فى هذا العالم وسط البائعين والمركبات، والمحال التى حول الميدان، كنت على وشك التوجه إلى "بيوجلى" عندما تذكرت مستشفى العناية بالطوارئ، فذهبت مسرعًا إلى شارع "سيراسيلفيلر" وعبرت مدخل الطوارئ وسط رائحة المخدر والمطهر كما لو كنت- أنا نفسى- فى حالة صدمة عصبية.

رأيت رجالاً يرقدون فى بركة من الدماء، سراويلهم ممزقة وثنيتها السفلية ملفوفة لأعلى، رأيت وجوهًا زرقاء لضحايا التسمم والقرحة المعدية الذين تم إجراء غسيل معدة لهم، وتم وضعهم على النقالات وتركهم فى الثلج خلف النباتات لكى يتنفسوا الهواء النقى، أرشدت رجلاً عجوزًا، سمينًا وقصيرًا ولكنه لطيف، إلى الطريق، كان يبحث عن الطبيب المناوب من باب إلى باب، كل هذا وهو ممسك بقوة بقطعة من القماش حولها إلى ضمادة لذراعه ليتجنب النزيف حتى الموت، رأيت اثنين من الأصدقاء القدامى اللذين- بعد أن طعنا بعضهما البعض بنفس السكين- كانا الآن يعطيان أوراقهما بأدب ويعتذران للضابط الذى قبض عليهما لأنهما فشلا فى تذكر إحضار السكين- أداة الجريمة، انتظرت دورى ثم علمت من الممرضات أولاً ثم من الشرطة فيما بعد، أنه لم يظهر أى طالب- فى هذا اليوم- يعانى من طلق نارى وتصحبه فتاة ذات شعر بنى فاتح.

توقفت أيضًا عند مستشفى "بيوجلى المحلية"، حيث جاءنى انطباع أننى رأيت نفس الأصدقاء الذين طعنوا بعضهما البعض، نفس الفتيات المنتحرات اللاتى قررن شرب المطهر، نفس المتهنين الذين انحشر ذراعهم فى الآلات أو أصيب أصبعهم تحت الإبرة، نفس الركاب الذين تحطمت أجسادهم بين الحافلة والمحطة، أو بين الرصيف والمعدية، تفحصت تقارير الشرطة بعناية، وقمت بعمل وثيقة رسمية من أجل رجل شرطة أصبح مرتابًا فى ما يريبنى، وفى الطابق العلوى فى قسم الولادة كنت خائفًا من أن تنفجر عيناىّ بالدموع عندما أشم رائحة العطر الذى يسكبه أب جديد مسرور فى أيدينا بسخاء.

كان الظلام يحل عندما رجعت إلى مسرح الجريمة، تجولت بين الحافلات الصغيرة وسلكت طريقى عبر الحديقة الصغيرة؛ حيث تمرق الغربان بغضب فوق رأسى- فى البداية- ثم أخذت تراقبنى وهى تتسلل عبر الأغصان. من المحتمل أننى كنت فى ذروة حياة المدينة، ولكنى سمعت صمتًا مطبقًا فى أذنى كما لوكنت قاتلاً طعن شخصًا ما وتوارى عن الأنظار. على بعد رأيت ضوءًا أصفر باهتًا فى الحجرة الصغيرة حيث قبلتنى جنان، وافترضت أن هناك درسًا قائمًا الآن، نفس الأشجار التى أربكتنى حزنها فى هذا الصباح الباكر، تحولت الآن إلى كومة خرقاء من اللحاء.

مشيت على الثلج بحذائى، اتتبع آثار أقدام الرجل ذى الحقيبة البلاستيكية الضائعة، الذى كان - منذ أربع ساعات مضت- يثب ويتزحلق فى طريقه عبر الثلج كمهرج رائق البال، ولكى أتأكد من أن آثار أقدامه كانت هناك حقًا، ظللت أتبع أثره طوال الطريق وصولاً إلى الطريق السريع، ثم استدرت راجعًا، وأثناء رجوعى لاحظت أن آثار أقدامى وآثار أقدام هذا الرجل- ذى الحقيبة البلاستيكية المفقودة- متطابقة ولا يمكن فصلها. ظهر فى التو كلبان- لونهما أسود- من بين الشجيرات يبدوان مذنبين تمامًا كما أبدو أنا، فقط لكى أرتعب وأهرب، توقفت للحظة وحدقت فى السماء التى كانت سوداء كالكلبين.

تناولت أنا وأمى العشاء أمام التليفزيون. نشرة الأخبار، الوجوه التى تظهر على الشاشة، أعداد جرائم القتل، الحوادث، الحرائق، والاغتيالات كلها بدت بعيدة بالنسبة إلىّ كالأمواج العاصفة على جزء صغير من محيط يمكن رؤيته من بين الجبال. وبالرغم من ذلك، الرغبة فى أن أكون "هناك"، أن أكون جزءًا من هذا المحيط الكئيب على هذه المسافة ظلت تتحرك بداخلى، الصور تتراقص على شاشة التليفزيون الأبيض والأسود، الذى لم يكن الهوائى الخاص به مثبتًا بطريقة صحيحة، ولكن لم يتم التنويه عن طالب تم إطلاق النار عليه.

حبست نفسى فى غرفتى بعد العشاء وكان الكتاب مفتوحًا تمامًا كما تركته على المنضدة، تمامًا كما.....

كنت خائفًا منه. كانت هناك قوة وحشية فى استدعاءات الكتاب لى لكى أعود وأترك نفسى بإخلاص- من كل قلبى- له. بالتفكير فى أنى لن أكون قادرًا على مقاومة هذا النداء، نزلت هاربًا إلى الشوارع مرة أخرى ومشيت فى الثلج والوحل على طول الطريق إلى البحر مرة أخرى. ظلمة المياه أعطتنى قلبًا قويًا.

جلست إلى المنضدة وأنا منشرح، كما لو كنت أسلم جسدى لمهمة مقدسة، عرضت وجهى للضوء المنبعث من الكتاب، لم يكن الضوء قويًا جدًا فى البداية، ولكن عندما بدأت أقلب الصفحات وصل الضوء إلى داخلى بعمق شديد حتى أننى أحسست بكيانى كله يهتز، ورغبة مُلحة لكى أحيا وأجرى تتحرك بنفاد صبر وحيوية فى تجويف صدرى، وأخذت أقرأ حتى الفجر.

الفصل الثالث

قضيت الأيام القليلة التالية فى البحث عن جنان. لم تكن فى المدرسة فى اليوم التالى، ولا اليوم الذى يليه أو الذى يليه. فى البداية بدا غيابها مبررًا، واعتقدت أنها سريعًا ما ستكون هناك، ولكن كما كان الوضع العالم القديم ينسحب تدريجيًا من تحت قدمى، كنت مرهقًا من البحث، المشاهدة والتأمل. فقد كنت غارقًا فى الحب من أخمص قدمى إلى أعلى رأسى، والأكثر أننى ظللت أقرأ خلال الليل وتحت تأثير الكتاب شعرت أننى وحيد كليًا، وكنت واعيًا تمامًا- وبألم- أن هذا العالم متوقف على سلسلة من الإشارات التى يُساء تفسيرها وخليط متغلغل من العادات غير العنصرية، وأن هذه الحياة الحقيقية تقع فى مكان ما إما فى الخارج أو الداخل، إنما حتمًا فى مكان ما داخل هذه الحدود، وأصبحت أدرك أن ملاكى الحارس لا يمكن أن يكون أحدًا غير جنان.

تصفحت الجرائد اليومية، الملحقات المحلية، والمجلات الأسبوعية حيث الاغتيالات السياسية، جرائم القتل العادية التى ارتكبت تحت التأثير، الحوادث المروعة، والحرائق التى كُتبت بكل التفاصيل ولكننى لم أصادف أى مفتاح لهذا اللغز. بعد

قراءة الكتاب طوال الليل، وصلت إلى "تاسكيسلا" عند الظهيرة، على أمل أن أجري إليها في حالة ظهورها. مشيت بتثاقل في الطرقات، أنظر بين الحين والآخر إلى "الكانتين"، أصعد وأهبط السلالم، أتفحص الملعب، أذرع المكتبة، أمر عبر الأعمدة، وأتوقف أمام الحجرة حيث قبلتني. حولت انتباهي بالذهاب إلى فصل أينما استطعت استجماع صبري، فقط لأعيد الكرة من جديد، مجدداً ومجدداً، البحث والانتظار وقراءة الكتاب طوال الليل هو كل ما أستطيع فعله.

بعد مضي أسبوع على ذلك، حاولت أن أدخل في دائرة معارف جنان، بالرغم أنني افترضت أن ليس لها أصدقاء كثيرون، سواء هي أو محمد. اثنان من زملائهما في الفصل عرفا أن محمد يعيش في فندق قريب من "تاكسيم" حيث يقوم بعمل مكتبي بجانب وظيفته كحارس ليلي، ولكن لا أحد عنده فكرة لماذا لم يظهر محمد في المدرسة كشفت لي فتاة عدوانية - كانت تذهب مع جنان إلى المدرسة الثانوية، ولكنها لم تكن صديقتها يومًا- أن جنان تسكن في مكان ما في "نيسانتاسي". واحدة أخرى- قالت إنهما قضيا الليل مرة يضعان خططاً معًا لينتهيا من المشروع قبل الوقت المحدد- أخبرتني أن جنان لها أخ لطيف ووسيم يعمل في مجال عمل والده، ولكنها بدت مهتمة بأخيها أكثر من اهتمامها بجنان، لم أحصل على العنوان من خلالها ولكن عن طريق إخبار مكتب الاستعلامات

أننى أنوى إرسال بطاقة تهنئة بمناسبة العام الجديد لكل زملائى.

قرأت الكتاب خلال الليل كله، حتى طلوع النهار حينما تألمت عيناى وقلت قوة تحملى من قلة النوم. أثناء قراءتى كان الضوء الذى ينعكس على وجهى يبدو أحيانًا قويًا متألقًا جدًا، ففكرت أن ليس فقط روحى ولكن جسدى أيضًا يذوب وهويتى تتحطم فى الضوء المنبعث من الصفحات، ثم تخيلت أن الضوء يتسع ببطء ليشملنى داخله، فى البداية كان مثل ضوء يتسرب من شرخ فى الأرض، ثم يصبح قويًا أكثر فأكثر وينتشر ليشمل العالم كله حيث مكانى أيضًا. للحظة حلمت بهذا العالم الجديد الجسور: مملكة فيها الأشجار الخالدة والمدن المفقودة التى أستطيع بالكاد رؤيتها، حيث أقابل جنان فى الشارع وتحتضننى.

بقى مساء واحد على نهاية ديسمبر، وذهبت أخيرًا إلى حى جنان فى "نيمساناسى". مشيت لوقت طويل بلا هدف فى الشارع الرئيسى؛ حيث كانت هناك امرأة حسنة المظهر تقوم بالتسوق مع أطفالها فى المتاجر المزينة بالأضواء بمناسبة العام الجديد، تفحصت فتارين محلات الطعام الحديثة، بائعى الجرائد، محال الكيك الفرنسى، ومتاجر الملابس.

كان ذلك عندما خف الزحام وبدأت المحال فى إغلاق أبوابها، قرعت جرس باب إحدى شقق المبانى

خلف الشارع الرئيسي. فتحت خادمة الباب. فقلت لها إنني واحد من زملاء جنان. فدخلت الخادمة وكان التليفزيون مفتوحًا على حديث سياسي. سمعت همسًا. جاء والدها إلى الباب- وهو رجل طويل يرتدي قميصًا أبيض ويحمل فوطة مائدة ناصعة البياض في يديه. دعاني للدخول. كانت الأم- التي رسمت على وجهها علامات التساؤل- والأخ حسن المظهر والطلعة يجلسان إلى مائدة العشاء حيث كان الكرسي الرابع فارغًا. أما الأخبار فكانت ما يدور في التليفزيون. أخبرتهم أنني زميل جنان من مدرسة الهندسة المعمارية، وأنها لا تذهب إلى المدرسة وكل أصدقائها يشعرون بالقلق عليها، وبعض منا اتصلوا ولكن لم يتلقوا إجابات مرضية. إلى جانب أن معها واجب الإحصاء غير المكتمل وأنا أحتاجه وأعتذر لاضطراري للسؤال عليه واسترجاعه. كان معطف والدي الباهت اللون معلقًا على ذراعي الأيسر. من المؤكد أنني بدوت كذئب سيئ الطباع متخف في فراء شاحب.

"تبدو شابًا لطيفًا" قالها والد جنان كبداية، ثم أخبرني أنه سيكون صريحًا، وأنه يريدني أن أجيب عن أسئلته في المقابل. هل لدي أي انتماء سياسي؟ هل أنا يميني أم يساري. متزمت أم اشتراكي؟ لا. حسنًا. هل أنا منضم إلى أية منظمة سرية خارج الجامعة؟ لا. أنا لست منضمًا إلى أية منظمة.

كانت هناك فترة من الصمت. ارتفع حاجبا الأم فى تأييد وتعاطف، انحرفت عينا الأب- العسلية اللون كعيون جنان- إلى شاشة التليفزيون وتحولت للحظة فى أرض الأحلام، ثم عادت مرة أخرى إلىّ بقرار حاسم.

جنان تركت المنزل. اختفت. حسنًا، ربما كان الاختفاء ليس بالكلمة الصحيحة فهى تتصل بالمنزل كل يوم تقريبًا من مكان ما بعيد، إذا كان لثبات خط التليفون أى دلالة. فهذا يخبرهم بألا يقلقوا، فهى بخير. متجاهلة استجوابات أبيها الملحة وتوسلات أمها فهى ترفض قول أى شىء أكثر وتغلق الخط. وتصورًا لهذا الموقف، فإنهم كانوا منصفين فى ارتيابهم فى أن ابنتهم تُستغل من قبل منظمة سياسية لتقوم بعمل قذر. لقد أخذوا فى الاعتبار الذهاب إلى الشرطة، ولكنهم توقفوا لأنهم على ثقة فى ذكاء ابنتهم ومقتنعين أنها تستطيع دائمًا إخراج نفسها من أى مأزق. أما الأم- التى أجرت جردًا على مظهرى بدءًا من شعرى نزولاً إلى حذائى، حتى تذكار والدى (معطفه) الذى تركته معلقًا على ظهر الكرسى الشاغر- طلبت منى بصوت ملىء بالدموع أن أتكلم إذا ما كنت أعرف أى شىء يمكن أن يلقى الضوء على الموقف.

أبديت اندهاشًا على وجهى وقلت إنه لا فكرة لدى، سيدتى، لا فكرة على الإطلاق. للحظة كنا جميعًا

مأخوذين بالتحديق في طبق كبير من "بوريك" وسلطة الجزر المبشور على المائدة، اعتذر الأخ حسن الطلعة الذي كان يدخل ويخرج من الحجرة، موضحًا أنه لم يستطع إيجاد كشكول واجباتي غير المكتمل فلمّحت بأنني أستطيع تحديد موقعه في حجرة جنان بنفسي، ولكن بدلا من إرشادي إلى حجرة نوم ابنتهم المفقودة، أشاروا لي بلا اهتمام إلى مكانها الخالي على مائدة الطعام. كنت عاشقًا ذا كبرياء، فرفضت. ولكن رؤية صورتها ذات الإطار على البيانو عندما هممت بالمغادرة، جعلتني أندم على قراري. كانت الصورة لجنان وهي في التاسعة من عمرها وشعرها في جديلتين على جانبي رأسها، وكانت ترتدي زي الملاك الذي كان -كما أعتقد- لمسرحية مدرسية، والذي اقتبست تفاصيله حتى الجناحين الصغيرين من الغرب، وتقف بين والديها وتبتسم بخفة من خلال ملامح الوجه الحزينة الخاصة بالطفولة.

كم كان الليل عدائيًا ومريرًا في الخارج! كم كانت الشوارع كئيبة بلا رحمة! أدركت لماذا تحشر الكلاب الضالة نفسها في بعضها البعض بكل هذا الحرص في الشوارع. أيقظت أمي بحنان، التي غلبها النعاس أمام التليفزيون، ألمس عنقها الشاحب وأشم رائحتها، وأتمنى أن تحتضنني. ولكن بمجرد أن دخلت إلى حجرتي شعرت بكل شيء بقوة أكثر بأن حياتي الحقيقية سوف تبدأ.

فى هذه الليلة قرأت الكتاب مرة أخرى، أستسلم له، وأتوسل لكى أتحطم. قرأته بإعجاب، مملكات جديدة، مخلوقات جديدة، وصور جديدة ظهرت أمامى، تراءت لى سحب من نار، محيطات من ظلام، أشجار بنفسجية، أمواج قرمزية. ثم كما يحدث فى الصباح فى الربيع عندما تشرق الشمس فى بعض الأحيان فورًا بعد سقوط الأمطار فجأة رأيت فى مقابل اقترابى الواثق المتفائل الانسحاب من المبانى السكنية الكريهة، ممرات ملعونة، نوافذ خربة، الصور الفوضوية فى عينى وعقلى اتضحت، وأصبح الحب واضحًا فى هالة رائعة من اللون الأبيض، تحمل طفلا بين ذراعيها، كان هذا الطفل هو الفتاة التى رأيت صورتها فى الإطار على البيانو.

نظرت الفتاة إلىّ وهى تبتسم، ربما كانت على وشك قول شىء ما، أو ربما كانت قد تكلمت بالفعل ولكنى لم أكن قادرًا على سماعها، شعرت بأنى غير ناجح، كنت على اتفاق أليم مع صوت داخلى يخبرنى أننى لن أكون قط جزءًا من هذه الصورة الجميلة، وطغى علىّ شعور بالندم. ثم لاحظت لخوفى العميق كلاهما يرتفع، متصاعدان فى أسلوب غير معتاد، ثم يختفيان.

أيقظت هذه التخيلات رعب فى داخلى حتى أننى فعلت تمامًا كما فى اليوم الأول عندما قرأت الكتاب، حركت وجهى بعيدًا بخوف كما لو كنت أهرب من

الضوء الذى أنبعث من الصفحات. كنت متألمًا لرؤية جسدى هنا، فى هذه الحياة الأخرى، متروكًا بلا حياة فى صمت حجرتى، السلام الذى توفره منضدتى، ثبات ذراعى ويدى، متعلقاتى، علبة سجائرى، مقصى، كتبى الدراسية، الستائر، سريرى.

تمنيت أن جسدى- الذى كان شاعرًا بى من خلال دفئه ونبضه- من الممكن أن يتنازل عن هذا العالم، إنما فى الوقت نفسه كنت على وعى بأن سماع هذه الأصوات من المبنى، الصياح البعيد لبائع "البوظة"، والسهر ليلاً لقراءة كتاب كانت مظاهر مقبولة لكونى موجودًا داخل هذه اللحظة. استمعت فقط إلى أصوات السيارات البعيدة، نباح الكلاب، النسيم الخفيف، اثنين يتحدثان فى الشارع (يقول أحدهما، لقد جاء الغد بالفعل)، وصخب واحد من هذه القطارات المخيفة التى تغلبت فجأة على كل الأصوات التى فى الليل. بعد فترة طويلة، عندما بدا كل شيء يختفى تحت تأثير الصمت المطبق، ظهر سبح أمام عينىّ، وفهمت كيف أن الكتاب تشعب بعمق فى روحى. عندما عرضت وجهى مرة أخرى للضوء المنبعث من الكتاب الراقد مفتوحًا على المنضدة أمامى، كان الأمر كما لو كانت روحى صفحة بيضاء نقية من كراسة. من المؤكد أنه هكذا تم بث محتويات الكتاب داخل روحى.

ذهبت وفتحت درجًا وسحبت منه كراسة حقيقية، ذات مربعات للرسم البيانى والخرائط، كنت قد

اشتريتها لمادة الإحصاء منذ أسابيع قبل أن يجيء الكتاب في طريقي ولكني لم أكن قد استخدمتها بعد، قلبت أول صفحة واستنشقت رائحتها النظيفة البيضاء، أخرجت قلمي الحبر وبدأت أكتب كل ما أضافه الكتاب لي، جملة.... جملة، في الكراسة، بعد كتابة كل جملة من الكتاب، كنت أذهب إلى الجملة التالية ثم التي تليها، وعندما يبدأ الكتاب فقرة جديدة، أبدأ أنا أيضًا فقرة جديدة، وأدركت بعد فترة أنني كتبت بالضبط نفس الفقرة كما هي في الكتاب. كيف أعدت تحريك كل شيء أضافه الكتاب لي، فقرة بعد فقرة، ولكن بعد فترة رفعت رأسي لأتفحص الكتاب ثم الكراسة. لقد كتبت بالفعل ما كان في الكراسة، ولكن المحتوى كان مثل ما في الكتاب بالضبط، كنت مسرورًا جدًا بهذا لدرجة أني بدأت أكرر نفس العملية كل ليلة حتى أولى ساعات النهار.

لم أعد أحضر محاضراتي. أجوب الطرقات مثل شخص هارب من روحه. ليس لدي غالبًا أدنى اهتمام بأين أو متى تعقد المحاضرات، ولا أسمح لنفسي بلحظة سلام، طفت بالكانتين، ثم بالمكتبة، الفصول، فقط لأنتهي مجددًا في الكانتين، وكل مرة ألاحظ أن جنان لم تكن موجودة في أي من هذه الأماكن يتملكني ألم عميق في أحشائي يجعلني أعاني بشدة.

عندما مر الوقت، أصبحت معتادًا على هذا الألم ونجحت في التعايش معه و- إلى حد ما- إبعاده عني،

ربما كان المشي بسرعة فائقة أو التدخين يساعد ولكن الأكثر حسمًا كان إيجاد طرق صغيرة لشغل نفسي، مثل قصة يحكيها شخص ما، قلم الرسم البنفسجي الجديد، هشاشة الأشجار التي أراها من النافذة، وجه جديد أراه صدفة في الشارع. كل هذه الأشياء كان بإمكانها أن تريحني- حتى ولو لفترة قصيرة- من الإحساس بالم الغضب والوحدة الذي يشع من معدتي لكل جسمي. حين أذهب إلى مكان ما حيث يمكنني مصادفة جنان- مثل الكانتين- فإنني لا أستهلك كل الاحتمالات في التو بتفحص المكان بتعجل، لكني أنظر أولاً إلى ركن حيث تتحدث بعض الفتيات المدخنات اللاتي يرتدين الجينز الأزرق- وفي نفس الوقت- أتخيل أن جنان تجلس في مكان ما ورائي مباشرة. وكنت أبدا في تصديق هذه التخيلات كليًا حتى أنني أكره الالتفات والنظر للوراء خوفًا من أن تختفي. وبدلا من ذلك، أقضي وقتي أتفحص الفراغ بين هؤلاء الطلاب الذين يقفون أمام خزينة الكانتين وهؤلاء الجالسين إلى المنضدة حيث كانت جنان- منذ وقت ليس بطويل- تضع الكتاب أرضًا أمامي، وبذلك أكسب لحظات إضافية قليلة من السعادة في دفء وجود جنان الذي يتحرك من خلفي بخفة. وانتهى بتصديق الرؤى أكثر من ذي قبل. ولكن- عندما أدير رأسي ولا أرى جنان ولا علامة من حضورها حولي في أي مكان- هذه الرؤية التي تسري في عروقي كمادة حلوة تتحول إلى سم يحرق معدتي.

لقد قرأت وسمعت مرات كثيرة أن الحب هو معاناة عذبة. كان هذا أثناء الفترة حينما كان كثيرًا ما يقع في طريقي هذا النوع من الهراء، غالبًا في كتب عن قراءة الكف، أو في صفحات البيت وأسلوب المعيشة في المجلات- بجوار قراءة الطالع، وصور السلطات، ووصفات كريمات الوجه، بسبب الألم الفظيع في معدتي، الوحدة والغيرة اليائسة التي شعرت بها قد فصلتني بالكامل عن البشرية وجعلتني بلا أمل على الإطلاق لدرجة أنني رجعت ليس فقط إلى علم الفلك وحب الراحة، ولكن أيضًا إلى الإيمان الأعمى بعلامات معينة مثل: إذا كان عدد الدرجات التي تقود لأعلى فرديًا، إذًا فجنان في الطابق العلوي؛ لو كان أول شخص يخرج من الباب أنثى، فهذا يعني أنني سأرى جنان في هذا اليوم؛ إذا رحل القطار عندما أنتهي من العد لسبعة، فسوف تجدني وسنتحدث؛ إذا كنت أول شخص ينزل من المعدية، فاليوم هو يوم مجيئها.

كنت أول شخص ينزل من المعدية، لم أخطُ على شقوق الرصيف، أحصيت بطريقة صحيحة وكان عدد أغطية الزجاجات التي على أرض المقهى عددًا فرديًا. تناولت الشاي مع عامل لحام متدرب يرتدي سترة بنفسجية اللون تتماشى مع معطف طويل، كنت محظوظًا حتى أكون قادرًا على إيجاد حروف اسمها من الحروف التي على لوحات أرقام أول خمس سيارات أجرة صادفتها، نجحت في الذهاب من طرف

ممر "كاراكوي" تحت الأرض إلى الطرف الآخر وأنا كاتم انفاسي. عددت إلى الرقم تسعة آلاف من دون أن أتحرك من مكاني بينما أحدق في نافذة منزل أسرة جنان في "نيسانتاسي". ابتعدت عن أصدقائي غير المدركين أن اسمها لا يعني فقط "توءم الروح" ولكنه أيضًا يدل على (يمثل) الإله. آخذًا الإلهام من حقيقة أن بين اسمينا سجع، فقمت بطبع دعوات زفافنا في خيالي، وقمت بتجميلها بكلمات مسجوعة ذكية مثل التي تأتي مع حلوى الكرامل من نوع "حياة جديدة". نجحت في توقع عدد النوافذ المضاءة التي ظللت أعدها لمدة أسبوع كامل في الثالثة صباحًا، بدون أن أتخطى حد الخطأ بنسبة خمسة في المائة، تلك النسبة التي سمحت لنفسي بها. رددت بيت الشعر الشهير للشاعر "فوزيلي": "جنان يوك إس جان جيركمز" على مسمع تسعة وثلاثين شخصًا، جابرًا إياهم على فهم تفسيري: "لو أن توءم الروح غائب فلا حاجة للروح ذاتها." اتصلت بها وسألت عنها تحت ثماني وعشرين هيئة مختلفة، مستخدمًا في كل مرة نبرة صوت مختلفة، ولم أكن لأذهب إلى البيت قبل أن أردد اسم جنان تسعًا وثلاثين مرة، مكونًا اسمها في خيالي من الأحرف التي استخرجها من لوحات الإعلانات، الملصقات، اللافتات ذات أضواء النيون، في واجهات عرض الصيدليات، محلات الكباب والياناصيب. ومازالت جنان لم تأت بعد.

كنت عائدًا إلى البيت فى منتصف ليلة ما، وكنت قد فزت بصبر فى ألعاب الحظ والأرقام التى لعبتها- لأضاعف مكسبى أو أخسر كل شىء - والتى قربت جنان منى قليلا فى أجمل أحلامى، عندما لاحظت أن الأضواء مضاءة فى غرفتى. إما أن تكون أمى قلقة لأنى تأخرت، أو أنها كانت تبحث عن شىء، ولكن ظهرت فى عقلى صورة مختلفة تمامًا.

تخيلت نفسى جالسًا إلى المنضدة، فى غرفتى بالأعلى حيث شاهدت الأضواء. تخيلتها بعاطفة وقوة إرادة حتى أننى ظننت أنى أستطيع تقريبًا أن أرى - للحظة قصيرة - رأسى فى وهج ضوء مصباحى البرتقالى الواهى، فى مواجهة الجزء الصغير من الحائط الأبيض المتسخ الذى كان مرئيًا بالكاد من بين الستائر الثقيلة المفتوحة. فى نفس اللحظة، أعلن شعور مذهل من الحرية عن نفسه فى صورة الإحساس المثير الذى اختبرته حتى أننى كنت مندهشًا. لقد كان الأمر بسيطًا على الدوام، قلت لنفسى: الرجل الذى رأيته فى الحجرة بعينىّ رجل آخر يجب أن يظل هناك فى هذه الحجرة. أما أنا- من ناحية أخرى- فيجب أن أهرب من البيت، من الحجرة، أهرب من كل شىء، بما فى ذلك رائحة أمى، سريرى، سنوات عمرى الاثنان والعشرون التى عشتها. حياة جديدة يمكن أن تبدأ بمجرد مغادرتى لهذه الحجرة؛ فلو أننى سأظل أترك هذه الحجرة فى

الصباح فقط لكى أعود إليها فى الليل، فلن أستطيع أن أصل إلى جنان ولا لهذه الأرض.

عندما دخلت إلى حجرتى، نظرت إلى سريرى كما لو كنت أرى متعلقات شخص آخر. الكتب التى تكومت فى ركن واحد من منضدتى، المجلات الخليعة التى لم أمسها منذ رأيت جنان، علبة السجائر التى تجف على المدفأة، العملات المعدنية التى أحتفظ بها فى طبق، سلسلة مفاتيحى، دولابى الذى لم ينغلق بطريقة صحيحة؛ وبالنظر لكل أشيائى التى تربطنى بعالمى القديم، وفهمت أنه يجب على أن أنجح فى الهرب.

فيما بعد، عندما كنت أقرأ وأنقل الكتاب، شعرت أن ما كنت أكتبه يشير إلى اتجاه معين فى هذا العالم. فبيدو أننى لا يجب أن أكون فى مكان واحد ولكن فى كل مكان وفى نفس التوقيت، كانت غرفتى فى مكان ما، وكان هذا مكانًا واحدًا، لم تكن فى كل مكان. سألت نفسى: "لماذا أذهب إلى تاسكيلا فى الصباح، عندما لن تكون جنان هناك؟" كانت هناك أماكن أخرى لم تكن جنان فيها أيضًا. أماكن كنت أذهب إليها بلا جدوى ولكنى لن أذهب إليها بعد الآن، سوف أذهب فقط حيث يأخذنى النص، حيث يجب أن تكون جنان والحياة الجديدة. أثناء ما أنا أكتب كل ما أضافه الكتاب، تحركت داخلى تدريجيًا معرفة الأماكن التى يجب على الذهاب إليها، وكنت راضيًا أننى أصبح تدريجيًا شخصًا آخر. بعد ذلك بكثير، عندما

كنت أراجع الصفحات التى ملأتها مثل رحالة راضيًا عما حققه من تقدم، استطعت أن أرى بوضوح الإنسان الجديد الذى كنت أتحول إليه.

كنت أنا الشخص الذى وجه نفسه على الطريق المؤدى إلى الحياة الجديدة التى وجدها عن طريق الجلوس وكتابة الكتاب جملة... جملة ونقله إلى كراسته، كنت الشخص الذى قرأ كتابًا غير حياته كلها، وقع فى الحب، وجاءه شعور بأنه يتقدم فى الطريق إلى حياة جديدة، كنت الشخص الذى طرقت أمه باب حجرته وقالت: "أنت تجلس طوال الليل تكتب، ولكن على الأقل لا تدخن من فضلك." كنت أنا الشخص الذى قام من على المنضدة بعد ساعة الصفر فى الليل عندما لم يكن مسموعًا فى الناحية إلا أصوات عواء الكلاب من على بعد، وألقى نظرة أخيرة على الكتاب الذى قضى ليالى طويلة فى استذكاره والصفحات التى ملأها تحت تأثيره، كنت الشخص الذى أخرج مدخراته من درج جواربه - ودون أن يطفئ أضواء حجرته - ووقف عند باب حجرة نوم أمه يستمع بحب إلى صوت تنفسها، كان هذا الشخص هو أنا - يا ملاكى - الذى تسلل من منزله بعد منتصف الليل مثل غريب هلوع وامتزج بظلمة الشوارع، كنت الشخص الذى على الرصيف، عيناه مثبتتان على نوافذ حجرته المضاءة كما لو كان يتأمل بالدموع والرثاء حياة شخص آخر ضعيفة وواهية،

كنت أنا الذى أجرى إلى حياتى الجديدة بحماس، مستمعًا إلى أصداء وقع أقدامى فى صمت الليل.

كان الضوء الوحيد الذى مازال مضاءً فى الحى هو الوهج الباهت فى نوافذ منزل العم رفقى رجل السكة الحديد. وفى لحظة كنت أقف عند حائط الحديقة وأنظر بين الستائر غير المغلقة تمامًا لأرى تحت الضوء الواهى زوجته، العمة "راتيب"، وهى تجلس وتدخن فى إحدى قصص العم رفقى للأطفال، كان هنالك بطل جسور - مثلى - لجأ إلى الشوارع الحزينة لطفولته فى البحث عن أرض الذهب، مستمعًا إلى نداء الأماكن الغامضة، صخب البلاد البعيدة، وصوت هدير فى الأشجار التى ظلت غير مرئية. مرتديًا على ظهرى المعطف الذى تركه لى والدى الراحل الذى أقيل على المعاش من هيئة السكك الحديد، مشيت فى قلب الظلام.

قام الليل بإخفائى، حفظنى وأرشدنى للطريق. توجهت إلى الأجزاء الداخلية من المدينة التى تهتز بشيات، طرقها الثابتة قاسية مثل شرايين مريض الشلل، شوارعها المضاءة بالنيون تتردد فيها أصداء عويل الشاحنات المزعجة المحملة باللحم، اللبن والأطعمة المعلبة، أعلمت صفائح القمامة التى تتجشأ النفايات فى أجوافها لتخرجها على الرصيف المبتل الذى يعكس الأضواء؛ سألت الأشجار المعذبة التى لا تقف ثابتة قط على الاتجاهات؛ رمشت بعينى لأرى

مواطنين رجال في المتاجر كثيبة الإضاءة، مازالوا جالسين عند موظفي الخزينة لمراجعة حساباتهم! بقيت بعيداً عن رجال الشرطة الذين يقومون بعملهم أمام منطقة مراكز الشرطة؛ ابتسمت بأسى للسكارى، للمشردين، المتشككين، المنبوذين الذين ليس لديهم أخبار عن حياة جديدة متألقة، تبادلت نظرات سوداء مع سائقي الأجرة التابعين لشركة "تشيكر"، الذين يتسحبون من حولي مثل المذنبين غير القادرين على النوم في جو الأضواء الحمراء المتراقصة؛ لم أنخدع في النساء الجميلات المبتسمات لي على لوحات إعلانات الصابون، ولم أضع ثقتي في الرجال الوجهاء على إعلانات السجائر، ولا حتى تمثال "أتاتورك"، أو الطبعة الأولى لجرائد الغد التي تم العبث بها من قبل السكارى والمصابين بالأرق، أو رجل اليانصيب الذي يشرب الشاي في مقهى يعمل طوال الليل، ولا حتى في صديقه الذي لوح لي وناداني قائلاً: "هون عليك أيها الشاب". قادتني الرائحة العميقة للمدينة الفاسدة إلى موقف الحافلات الذي يفوح برائحة البحر والهامبرجر، الحمامات العامة والعادم، رائحة الجازولين والقاذورات.

محاولاً أن أتجنب أن أصبح ثملاً بواسطة الحروف البلاستيكية على قمة مكاتب خطوط الحافلات التي توعدني بمواقع جديدة لحدوث جريمة ما، قلوب جديدة، حيوات جديدة، ومئات المدن المزدهرة

بالألوان، أخذت نفسى إلى مطعم صغير. هناك، ابتعدت عن معجنات القمح، الحلوى والسلطات المعروضة فى ثلاجة العرض الواسعة، متسائلاً فى أى معدة وعلى بعد كم من مئات الأميال سيتم هضم هذه الأشياء. الآن هى تقف فقط هناك فى صفوف مرتبة مثل الأحرف البلاستيكية لأسماء المدن وشركات الحافلات. ثم نسيت من كنت قد بدأت أنتظره. ربما كنت أنتظرك - يا ملاكى - لتأخذينى بعيدًا، تحذرينى بلطف وطيبة، وتضعيننى على الطريق الصحيح، ولكن لم يكن هناك أحد فى المطعم إلا أم تحمل طفلها واثنان من المسافرين الفظين يأكلان بشراهة ووجوههما ناعسة. كانت عيناى تبحث عن علامات الحياة الجديدة عندما رأيت لافتة على الحائط تحذر: "ممنوع العبث بالأضواء." ولافتة أخرى تقول: "هناك رسوم لاستخدام المرافق." وواحدة ثالثة تعلن بحروف صارمة متعمدة: "ممنوع تقديم المشروبات الكحولية." جاءنى انطباع بأن الغربان السوداء كانت تطير عبر نوافذ عقلى؛ ثم بدا أن لدى احساسًا داخليًا بأن حتفى سياتى من نقطة الرحيل هذه. تمنيت أن أستطيع أن أصف لك- يا ملاكى- الحزن المخيم على هذا المطعم الذى ينعلق ببطء على نفسه، ولكنى كنت متعبًا جدًا؛ حيث سمعت عويل القرون يطن فى أذنى مثل الغابات التى لاتنام، أحببت الروح المضطربة التى تقرقر فى محركات الحافلات الباسلة التى تذهب كل واحدة منها إلى مكان آخر، سمعت جنان تناديني من

مكان بعيد حيث كانت تبحث عن نقطة الدخول التى ستأخذها إلى البداية، ولكنى كنت صامتًا، كنت مشاهدًا سلبيًا على أمل أن يشاهد - نظرًا لعطل فنى- فيلمًا بدون الصوت لأن رأسى كان يقع على المائدة وغرقت فى النوم.

نمت ولم أعرف كم من الوقت. عندما استيقظت كنت ما أزال فى نفس المطعم ولكن فى حضور زبائن آخرين، وشعرت أننى أصبحت قادرًا على أن أشرح الآن للملاك نقطة الرحيل إلى رحلة عظيمة سوف تأخذنى إلى خبرات فريدة، كان هناك أمامى ثلاثة شباب يسددون نقودهم وحسابات أجرة الحافلة فى صخب، ورجل وحيد تمامًا وضع معطفه وحقيبته البلاستيكية على المائدة بجانب طبق الحساء الذى كان يقلب ويشم فيه رائحة حياته الحزينة؛ ونادل يقرأ الجريدة ويتثاءب فى الجزء ذى الإضاءة الخافتة من المطعم حيث اصطفت الموائد فى صفوف. وكان بجانبى الحائط الزجاجى المتجمد الممتد من السقف نزولا إلى الواح الأرضية المتسخة، خلف هذا الحائط الزجاجى كان الليل الأزرق الداكن، وفى الظلام كانت محركات الحافلات تدور داعية إياى لمملكة أخرى.

ركبت إحداها بعشوائية فى ساعة غير محددة، لم يكن الصباح قد جاء بعد ولكن اليوم بدأ أثناء ما نحن نتقدم، أشرقت الشمس، وعيناى كانتا مملوءتين بالضوء والنعاس، ثم- بدا أننى- غرقت فى النعاس.

صعدت إلى حافلات، ونزلت من حافلات، تسكعت فى مواقف الحافلات فقط لأصعد على متن المزيد من الحافلات، نائمًا فى مقعدى، تتحول أيامى إلى ليال، أرسو وأقلع فى مدن صغيرة، مسافرًا فى الظلام، وقلت لنفسى: الرحالة الصغير كان مصممًا بشدة على إيجاد المملكة المجهولة، سمح لنفسه بالتنقل بلا توقف فى الطرقات التى سوف تأخذه إلى البداية.

الفصل الرابع

كانت ليلة شتاء باردة، يا ملاكي، وقد كنت مسافرًا لأيام، كنت على متن إحدى الحافلات العديدة التي استقلها كل يوم، دون أن أعرف من أين أرحل وإلى أين أتوجه، أو حتى معدل السرعة التي كنت أسير بها. كنت جالسًا في حافلة متعبة ومزعجة، في مكان ما في الخلف على الجانب الأيمن في داخل الحافلة المظلم، نصف نائم ونصف مستيقظ، وأحلم أكثر مما أنام، وأقرب إلى الأشباح التي بالخارج في الظلام من أحلامي. استطعت أن أرى من خلال جفوني نصف المفتوحة شجرة ضامرة وحيدة في سهل لا نهائي خالٍ من الأشجار مضاء بواسطة الضوء العالي للأضواء الأمامية المصابة بالحول، صخرة طبيرة ومطبوع عليها إعلان عن عطر، قطبي القوة، الأضواء المهددة للشاحنات التي نصادفها بغير انتظام، ولكني كنت أشاهد الفيلم أيضًا على شاشة الفيديو الموضوعة أعلى مقعد السائق. حينما تتكلم البطلة تأخذ الشاشة لونًا بنفسجيًا كلون جاكت جنان الشتوي، وعندما يعود البطل سريع الكلام المندفع برده اللاذع، يتحول لون الشاشة إلى أزرق كئيب ينفذ بين الحين والآخر إلى داخل عظامي ونخاعي بشكل ما، وكما يحدث غالبًا،

كنت أفكر فيك وأتذكرك، عندما يأتي اللون البنفسجي والأزرق الكئيب معًا في نفس الإطار ولم يتبادلا القبلات بعد.

كان هذا في ذات اللحظة، في الأسبوع الثالث من رحلتي أثناء ما كنت أشاهد الفيلم، حيث تذكرت كوني متأثرًا - بشكل مذهل - بشعور قوي بعدم الاكتمال، من التوقع والترقب، كنت أنفض رماد سيجارتي في المنفضدة، التي كنت أغلق غطاءها بضربة حادة وحاسمة من جبهتي، تصاعد نفاد الصبر الغاضب بداخلي بسبب عدم قدرة العاشقين على اتخاذ القرار- اللذان لم ينجحا بعد في تقبيل بعضهما البعض- وهي تتحول إلى شعور من التوتر أعمق وأكثر أهمية. جاءني إحساس بأن شيئًا عميقًا وأصيلاً يقترب، ها هو يأتي، الآن! مثل الصمت الساحر الذي يخيم على كل شخص شاملاً المتفرجين في اللحظة التي تسبق تتويج الملك. في هذا الصمت يكون الصوت المسموع فقط هو خفق أجنحة زوج من اليمام يطير عبر المشهد الملكي. ثم سمعت الرجل العجوز بجانبي يتأوه، واستدرت نحوه، كانت رأسه الصلعاء تتأرجح في الظلام بسلام، ترقد على النافذة المتجمدة، هي نفس الرأس التي تحتوي على الآلام المتواصلة التي سبق أن وصفها لي منذ مائة متر وقبل مدينتين باشستين كانتا نسختين متطابقتين من بعضهما، خمنت أنه ربما يكون الطبيب الذي يذهب إليه في المستشفى قد نصحه عندما ذهب إليه هذا الصباح بأن يضغط

رأسه على ألواح زجاجية باردة كالثلج كعلاج لورم مخه؛ ولكنى أدرت عينى راجعًا إلى الطريق المظلم، اجتاحتنى موجة من الفزع لم أشعر بمثلها منذ أيام. ماذا كان هذا التوقع العميق الذى لا يقاوم؟ لماذا يجتاحنى الآن هذا التعجل نافد الصبر؟

اهتززت بقوة من جراء صوت اصطدام قوة ملحوظة انتزعت أحشائى الداخلية. أُلقيت من على مقعدى وكنت على وشك الوقوع على المقعد الذى أمامى عندما اصطدمت بمكونات من صلب، صفيح، الومنيوم وزجاج، تصطدم كلها بغضب واصطدم أنا بها فأجرح وأتحطم. وعلى الفور، سقطت راجعًا مرة أخرى إلى نفس مقعد الحافلة كشخص مختلف تمامًا.

لم تعد الحافلة أيضًا هى نفس الحافلة بعد ذلك. واستطعت أن أرى من خلال ضباب أزرق- من حيث كنت جالسًا فى ارتباك- أن كابينة السائق بالإضافة إلى المقاعد التى تليه مباشرة قد انسحقت وتحولت إلى فتات واختفت.

من المؤكد أن هذا ما كنت أبحث عنه. هذا ما كنت أريده. كم كنت واعيًا لما اكتشفته فى قلبى! السلام، النوم، الموت، الوقت! كنت هنا وهناك فى نفس الوقت، كنت فى سلام وأشن حربًا دموية، مصابًا بالأرق كشبح قلق وأيضًا أشعر بالنعاس بشكل غير محتمل، حاضرًا فى ليلة أبدية وأيضًا فى زمن يتدفق بدون عائق. وهكذا دخلت فى الحركة البطيئة- تمامًا كما فى

الأفلام- وقمت من على مقعدي، أدور حول جثة متعهد الحافلة الشاب الذي سافر إلى أرض الموت، ومازال ممسكًا بزجاجة في يده. خرجت من الحافلة عبر الباب الخلفي وخطيت إلى حديقة ظلام الليل.

كانت نهاية هذه الحديقة الجدباء غير المحدودة هي الطريق الأسفلتي المغطى الآن بشظايا الزجاج، أما النهاية من الناحية الأخرى فكانت مملكة لا رجوع منها. تقدمت بلا خوف إلى داخل الليل المخملي، مقتنعًا بأن هذه هي الأرض السعيدة التي داعبت مخيلتي برقة وكأنها الجنة. كان الأمر كما لو كنت أمشي أثناء نومي، ولكني كنت مستيقظًا، ماشيًا ولكن بقدمين لا تلمسان الأرض. ربما لم يكن لي قدمان، لكن ربما لم أعد أتذكر منذ كنت وحيدًا تمامًا، كنت هناك بنفسي وكنت وحيدًا بنفسي، بجسدي المخدر وضميري، كنت مليئًا بكياني الخاص.

جلست في مكان ما بجانب صخرة في ظلمة هذه الجنة وتمددت على الأرض، النجوم هنا وهناك فوقي وبجانبي صخرة حقيقية، لمستها باشتياق، شاعرًا بسرور لا يصدق من لمسة كانت حقيقية. ذات مرة، كان هناك عالم حقيقي فيه اللمسة لمسة، الروائح كانت روائح، والأصوات حقيقية. هل من الممكن – أيتها النجمة- أن يكون الزمن الآخر قد أعطى الزمن الحاضر لمحة منه؟ أستطيع أن أرى حياتي الخاصة في الظلام. لقد قرأت كتابًا ووجدتك. إذا كان هذا

الموت. فلقد ولدت من جديد. أنا هنا في هذا العالم، مخلوق جديد تمامًا بلا ذاكرة وبلا ماض، أنا مثل نجم تليفزيوني جديد جذاب يظهر في مسلسل جديد، أو مندهل بشكل طفولي مثل هارب يرى النجوم لأول مرة بعد سنوات من كونه مسجونًا في قبو، سمعت نداء الصمت، الذي لم أختبر مثله من قبل، وظللت أسأل: لماذا الحافلات، الليالي، المدن؟ لماذا كل هذه الطرق، الكباري، الوجوه؟ لماذا الوحدة التي مثل نسر يتغلب على الليل؟ لماذا الكلمات التي تؤخذ بالمظاهر؟ لماذا الوقت الذي يذهب بلا عودة؟ استطعت سماع صوت طرقعة الأرض وتكتكة ساعة يدي. الزمن هو صمت ثلاثي الأبعاد. هكذا قال الكتاب. إذًا قُضي لي أن أموت بدون أدنى فهم للأبعاد الثلاثة، بدون إدراك الحياة، العالم، والكتاب. وبدون حتى أن أراك مرة أخرى، ياجنان. هكذا كنت أتحدث إلى النجوم، هذه النجوم الجديدة تمامًا، عندما جاءني بشكل طفولي فكر طفولي: أني سأظل طفلاً حتى الموت، وبشعوري بدفء الدم الذي يقطر من جبهتي على يدي، شعرت بسعادة اكتشاف- مرة أخرى- الخصائص الملموسة، المرئية، والتي لها رائحة للأشياء، نظرت إلى هذا العالم، وأنا سعيد وأحبك يا جنان.

رجعت حيث تركت الحافلة المنكوبة في الموقع حيث صدمت شاحنة أسمنت بكل قوتها، وخيم على المحتضرين سحابة أسمنت مثل مظلة خارقة، ضوء أزرق عنيد كان يتسرب من الحافلة. كان الركاب سيئي

الحظ الذين ظلوا على قيد الحياة والآخرون الذين لن يظلوا أحيـاء طويلاً يخـرجـون من البـاب الخلفي للحافلة، بحذر كما لو كانوا يخطون على سطح كوكب غريب، أمي، أنت مازلت هناك، ولكني خرجت، أمي، أمي، الدم يملأ جيوبي كالعملات المعدنية، تمنيت أن أتواصل معـهـم، مع الرجل ذي الطابع الأبوي يزحف على طول الأرض، وقبعته على رأسه، وفي يديه حقيبة بلاستيكية؛ الجندي المتأفف الذي انحنى يتفحص بعناية التمزق في بنطاله؛ السيدة العجوز التي تركت نفسـهـا لمحادثة مليئة بالفرح الآن حيث إنها ضمنت الفرصـة لتوجه الحديث للرب مباشرة، تمنيت أن أغرس أهمية هذا الوقت الفريد والخالي من الخطأ إلى مندوب التأمين الخبيث الذي كان يعد النجوم، إلى الابنة المذهولة التي تتوسل أمها إلى السائق الميت، على الرجال ذوي الشوارب الغرباء عن بعضهم البعض الذين يشبكون أيديهم ويرقصون فرحًا بأنهم أحياء، يتمايلون بخفة مثل أشخاص وقعوا في الحب من أول نظرة، تمنيت إن استطعت إخبارهم بأن هذه اللحظة الفريدة هي سعـادة نادرًا ما تمنح لمخلوقات الله من أمثالنا، قائلاً إنك - يا ملاكي - سوف تظهري فقط مـرة واحـدة في العـمـر في هذا الوقت الرائع تحت المظلة الخـارقـة من تراب الأسـمنت، وأسـألهم لماذا نحن- كلنا- سعـداء هـكذا الآن بالذات، كنت أنت - الأم والابن اللذان تمسكا ببعضهما البعض بشدة مثل زوج من العـشـاق الجسـورين وانتـحـبا بحرية للمرة

الأولى في حياتهما. أنت- المرأة الجميلة التى اكتشفت أن الدم أكثر حمرة من طلاء الشفاه، وأن الموت أكثر رحمة من الحياة، أنت- الطفل الناجى الذى يقف عند جسد أبيه الميت يعتصر دميته ويشاهد النجوم، إنى أسألك: من الذى منحنا هذا الرضا، هذه القناعة، هذه السعادة؟ أعطانى الصوت الذى بداخلى كلمة واحدة كإجابة: الرحيل... الرحيل. ولكنى كنت قد فهمت بالفعل أنه لم يحن موعد موتى بعد، سألتنى السيدة العجوز التى كانت ستموت عن قريب عن مكان كابينة المساعد لتخرج حقائبها من مكانها حالاً لأنها- بالرغم من أن وجهها كان أحمر اللون من الدماء- تأمل أن تذهب إلى المدينة القادمة حيث تلحق بالقطار فى الصباح، تُركت ممسكًا بتذكرة القطار، تلك المبتلة بالدماء الخاصة بها.

صعدت الحافلة عبر الباب الخلفى لأتجنب النظر إلى ركاب الصف الأول الذين التصقت وجوههم الميتة بالزجاج الأمامى، أصبحت واعيًا بصوت المحرك الدائر، مذكرًا إياى بصخب المحركات الفظيع فى كل الحافلات التى ركبتها! ما سمعته لم يكن صمت الموت ولكن أصواتًا حية تختلط مع ذكريات، رغبات، وأشباح، مساعد الحافلة كان مازال ممسكًا بنفس الزجاجة وبطفل نائم بسلام لامرأة دامعة العيون. كان الجو باردًا بالخارج، جلست أنا أيضًا، شاعرًا بالألم فى ساقى. أما جارى فى المقعد ذو الرأس المتألم فقد فارق هذا العالم مع الحشد المتسرع من ركاب

الصفوف الأمامية، ولكنه كان مازال يجلس فى صبر، كانت عيناه مغلقتين أثناء ما كان نائمًا، أما الآن فعيناه مفتوحتان من الموت. ظهر رجلان خارجان من مكان ما فى الأمام، يحملان بغلظة جثة مغطاة بالدماء فوق أكتافهما، حملاها إلى الخارج فى البرد.

كان ذلك فيما بعد أن أصبحت واعيًا بالمصادفة الأكثر سحرًا على الإطلاق أو الحظ الذى لا تشوبه شائبة: كانت شاشة التليفزيون فوق مقعد السائق مازالت سليمة وكان العاشقان على شريط الفيديو بين ذراعىّ بعضهما البعض أخيرًا، مسحت الدم من على جبهتى ووجهى وعنقى بمنديلى، وفتحت غطاء المنفضة الذى كنت قد أغلقته بجبهتى بعنف منذ القليل؛ وأشعلت سيجارة برضا وبدأت أشاهد الفيلم.

تبادلا القبلات مجددًا ومجددًا، يمتصان طلاء الشفاه والحياة. تعجبت لماذا فى طفولتى اعتدت أن أحبس أنفاسى أثناء مشاهد القُبل، لماذا اعتدت أن أزوجج ساقىّ وأركز على نقطة على الشاشة فوق العشاق بقليل. آه. القبلة! كم استعدت جيدًا ذكرى المذاق الذى لمس شفتى فى هذا اليوم فى الضوء الأبيض الآتى من خلال زجاج النافذة المغطى بالثلج. قبلة واحدة فقط فى حياتى كلها. بكيت بالدموع مرددًا اسم "جنان".

عندما انتهى الفيلم، لاحظت أولا الأضواء الأمامية ثم الشاحنة نفسها وهى تقف بإجلال فى حضور

المشهد الحزين حيث الجثث الباردة ترتجف أكثر من قبل البرد في الخارج. كيفما اتفق، كانت هناك محفظة مكتظة في جيب جاري في المقعد، الذي كانت عيناه الفارغتان مازالتا مثبتتين على شاشة التليفزيون المظلمة، كان اسمه "محمود"، ولقبه "ماهلر"، أوراقه الرسمية، صورة لابنه الجندي الذي يشبهني، وقصاصة مهترئة بها خبر عن مصارعة الديوك ثم قصة من "بريد دينزلي" ١٩٦٦. النقود التي ستدعمني لعدة أسابيع مقبلة، وثيقة الزواج أيضًا يمكن أن تكون ذات نفع، وشكرًا.

تم نقلنا- نحن الناجين المستقلين- إلى المدينة ممددين كالجثث الخنوع التي بجانبنا، محاولين البقاء دافئين من البرد في سرير الشاحنة، متأملين النجوم. ابقوا هادئين، بدا وكأن النجوم تقول لنا، كما لو كنا غير هادئين! انظر كيف كنا ننتظر الوقت المناسب. أثناء اهتزازي في توافق مع الشاحنة حيث كنت راقدًا أشاهد بعض السحب المسرعة والأشجار القلقة التي تحول بيننا وبين الليل المخملي، اعتبرت أن هذه العربة المتحركة، المضاءة بكآبة التي تم فيها حجز الأحياء في حضن قوي مع الأموات كانت مشهدًا يليق بفيلم سينمائي ممتاز، فيه ملاكي العزيز- الذي أتخيل كونه مرحًا وفرحًا- تنزل من السماء وتكشف لي أسرار حياتي وقلبي؛ إلا أن المشهد الذي اقتبسته من إحدى قصص العم "رفقي" المفضلة فشل في أن يتجسد. هكذا، كنت متروكًا وحيدًا مع النجم

الشمالى، الدب الأكبر، وهذا الرمز _ أعد أقطاب الكهرباء المظلمة وأغصان الأشجار التى تسرى فوقنا.
ثم جاءتنى فكرة بأن هذه ليست اللحظة المثالية بعد كل ذلك، أن هناك شيئًا مفقودًا، لكن طالما أننى أملك روحًا جديدة فى جسدى، حياة جديدة أمامى، رزم من النقود فى جيبى، وهذه النجوم المنثورة فى السماء. فلماذا أهتم؟ سوف أبحث عن العنصر المفقود.

ما هذا الذى يجعل حياة الإنسان غير مكتملة؟

ساق مفقودة، أجابت الممرضة ذات العيون الخضراء التى وضعت بعض الغرز فى ركبتى. قيل لى ألا أقاوم. حسنًا، هل تتزوجيننى إذًا؟ لا يوجد كسور أو شروخ طفيفة فى الساق أو القدم. حسنًا، إذًا، هل تمارسين الحب معى؟ قليل من الغرز الرهيبة على جبهتى أيضًا. دموع الألم فى عينى. عرفت ما كان الخطأ منذ البداية؛ كان يجب أن أدرك وأرى الخاتم فى بنصر الممرضة. من المحتمل أن تكون وعدت شخصًا ما بالزواج يعمل فى ألمانيا. كنت مخلوقًا جديدًا، ولكن لست جديدًا تمامًا، كنت فى هذه الحالة عندما غادرت المستشفى والممرضة الناعسة.

وصلت إلى فندق "الضوء الجديد" فى نفس الوقت الذى أذن لصلاة الفجر، وطلبت من الموظف الليلى أفضل غرفة فى الفندق. قمت بإثارة نفسى بالنظر إلى عدد قديم من مجلة "حورييت" وجدتها فى الخزانة المغبرة فى الغرفة. كان ملحقًا ملونًا لطبعة

يوم الأحد وفيها صورة لصاحبة مطعم "نيسانتاسى" فى اسطنبول وقد كشفت أجزاء من جسدها للكاميرا، بالإضافة إلى قطتيها المخصيتين وكل الأثاث الذى طلبته من ميلانو. ثم استغرقت فى النوم.

كانت المدينة تدعى "سيرينير" حيث مكثت حوالى ستين ساعة، قضيت منها ثلاثا وثلاثين ساعة نائمًا فى فندق "الضوء الجديد"، الذى كان مكانًا ساحرًا كاسمه. ١- محل الحلاق: حيث وضع على المكتب الأمامى صابون للحلاقة من نوع "أو بى" فى غلاف من الألومنيوم. ٢- غرفة القراءة للشباب: يفندون أوراق اللعب المصنوعة من الورق الناعم، يشاهدون تمثال "أتاتورك" فى الميدان حيث رجل عجوز مشتت الذهن يتسكع، مشاهدون أيضًا الجرارات التى تمر وشخصى الذى يعرج قليلاً- بالإضافة إلى التليفزيون، الذى يدار باستمرار، بغض النظر عن النساء، هناك لاعبو كرة القدم، جرائم القتل، أنواع الصابون، مشاهد القبلات. ٣- عند كشك بائع السجائر الذى يحمل علامة سجائر "مارلبورو": بجانب السجائر، يوجد شرائط الكراتيه والأفلام الأباحية الخفيفة، ورق لليناصيب القومى وتذاكر لرياضة "توتو"، قصص رخيصة، سم فئران، وتقويم على الحائط عليه جميلة تبتسم ذكرتنى بجنان. ٤- المطعم: حبوب الفاصوليا، كرات اللحم: الصالحة للأكل. ٥- مكتب البريد: اتصلت بالبيت. أمى لا تستطيع أن تفهم، وتبكى. مقهى المدينة: جلست ومرة أخرى بدأت أقرأ بسرور

عناوين الأخبار فى "حوريت" عن حادث الطريق السعيد التى كنت أحملها بداخلى (اثنا عشر قتيلاً!) الذى صرت أحفظه الآن، عندما اقترب منى - من الخلف مثل الظل - رجل فى منتصف الثلاثينيات أو أوائل الأربعينيات وقد بدا وكأنه خليط من قاتل مأجور وشرطى متخف؛ وقرأ لى ماركة الساعة التى سحبها من جيبه "زينيت". وأنشد:

إذا غفر الخمر للحب فى قصيدة مجنونة،

ألا يلائم الموت نفس النظرية؟

سكير من خمر المجادفة،

أنت ظمآن مثل الصقر.

لم ينتظر جوابى ولكن خرج من المقهى، تاركًا وراءه رائحة مركزة من صابون "أو بى" للحلاقة.

فى أثناء سيرى الذى يأخذنى دائمًا بلا صبر إلى موقف الحافلات، تعجبت لماذا كل مدينة صغيرة لطيفة يجب أن يكون لها رجل مجنون مضحك سكير خاص بها. كان صاحبنا المولع بالخمر والشعر موجودًا فى إحدى الحانتين الموجودتين فى المدينة حيث بدأت أشعر بعطش مُسكر فاثت ذكره بنفس عمق أفكار حبك، يا جنان. سائقون ناعسون، حافلات مرهقة، مساعدون غير حليقى الوجه! خذنى إلى هذه المملكة المجهولة حيث أريد أن أذهب! خذنى إلى باب الموت، غير واع وجبهتى تنزف دمًا. إذًا يمكن أن أصبح

شخصًا آخر! كانت هذه حالتي العقلية عندما تركت المدينة التي تدعى "سيرينير" وأنا جالس في الصف الأخير الطويل لحافلة خربة، وهناك عدة غرز في جسدي ومحفظة ممتلئة لرجل ميت في جيبي.

ليل! ليلة طويلة، طويلة جدًا وعاصفة. قرى مظلمة وحظائر أغنام أكثر ظلمة، أشجار خالدة، محطات خدمة مثيرة للشفقة، مطاعم خالية، جبال صامتة، وأرانب قلقة تجري من خلف المرآة المظلمة لنافذتي. في بعض الأحيان كنت أفحص ضوءًا بعيدًا يتلألأ وراء النجوم، وأتأمل نوع الحياة الذي أتخيل وجوده لحظة بلحظة تحت هذا الضوء. كنت أجد مكانًا لنفسي ولجنان فيه؛ وعندما أسرعت الحافلة مبتعدة عن الضوء المتلألئ، تمنيت لو كنت تحت هذا السطح بدلاً من الجلوس في مقعدي المهتز غير المريح. أحيانًا تنظر عيناي إلى الركاب في الحافلات التي نصادفها في محطات الخدمة، استراحة الحافلات، مفترقات الطرق حيث الأشجار تنتظر بعضها البعض في احترام، أو على الكباري الضيقة، وأتخيل أنني رأيت جنان تجلس بينهم؛ مأخوذًا بتخيلاتي أتخيل أنني ألحق بالحافلة الأخرى، وأصعد إليها، وآخذ جنان بين ذراعي، ولكن أحيانًا أشعر بأنني فاقد الأمل ومجهد جدًا حتى تمنيت لوكنت الرجل الذي رأيته- من خلال الستائر نصف المغلقة- جالسًا على منضدة ويدخن عندما مرقت حافلتنا الغاضبة خلال الشوارع الضيقة لمدينة ما منعزلة في منتصف الليل القائظ.

لكنى مازلت أعرف أننى أريد حقًا أن أكون فى مكان آخر، فى زمن آخر غير هذا الزمان، مثل اللحظة المناسبة حينما يكون الشخص لم يختر بعد بين الحياة والموت: هناك وسط الأموات الذين ماتوا فى ثورة المصادفة المثيرة للشفقة...... قبل الصعود إلى السموات السبع، محاولاً أن أعود عينى على الرؤية الغامضة ببرك الدماء وشظايا الزجاج المكسورعلى عتبة هذه المملكة التى لا رجعة منها. فربما أقوم بالتفكير بسرور إذا ما كنت سأدخل أم لا. هل يجب أن أتراجع؟ أو أتقدم؟ ما شكل الصباح فى هذا العالم الآخر؟ ماذا سيكون عليه الأمر لو هجرت هذه الرحلة كليًا وفقدت نفسى فى هذا الليل عميق الأغوار؟ كنت لأرتجف وأنا أفكر فى الوقت الفريد فى هذه المملكة؛ حيث يمكننى التخلص من كيانى وربما الاتحاد مع جنان، وكنت أشعر بالإلحاح فى ساقى وغرز جبهتى لأحقق السعادة غير المتوقعة التى سوف تأتى تباعًا.

آه، يا من يركب فى حافلات الليل! أخوتى المتواضعون! أنا أعرف أنكم أيضًا تبحثون عن لحظة انعدام الجاذبية. آه، لتكون لا هنا ولاهناك! لتصبح شخصًا آخر وتجوب الحديقة الهادئة التى بين العالمين! كم أعرف جيدًا أن مشجع كرة القدم الذى يرتدى سترة جلدية ليس منتظرًا المباراة لتبدأ ولكنه يترقب ساعة الخطرعندما ينزف بغزارة فيصبح البطل الأحمر اللون كالدم. وأعرف أيضًا أن المرأة

العجوز التى لا تكف عن أخذ شىء ما من حقيبتها البلاستيكية وتدسه فى فمها فى الحقيقة لا تريد بشدة أن تعيد الشمل مع أخواتها وبناتهن ولكن تريد الوصول إلى عتبة العالم الآخر، وماسح الأراضى الذى ينظر بعين إلى الطريق وبالعين الأخرى إلى أحلامه لا يخمن مساحة أراضى مجلس المدينة ولكنه يفكر فى النقطة التى على مفترقات الطرق حيث تصبح كل المدن تاريخًا، وأنا واثق أن تلميذ المدرسة الثانوية ذا الوجه الباهت الذى ينعس فى مقعده لا يحلم بتقبيل حبيبته ولكنه يحلم بالتصادم القوى عندما يقبل زجاج نافذة الحافلة بعاطفة وقوة مشاعر. أو ليست هذه هى نفس الأفراح التى تهاجمنا كلنا بالرغم من كل شىء؟ حينما يضغط السائق على الفرامل أو يزيد من سرعة الحافلة وسط الرياح، نفتح أعيننا فورًا لنحدق فى الطريق المظلم، محاولين اكتشاف إذا ما كانت ساعة الصفر قد جاءت، لا، ليس بعد!

قضيت تسعًا وثمانين ليلة فى مقاعد الحافلات بدون سماع ولو لمرة رنين هذه الساعة المبهجة فى روحى، هناك مرة واحدة عندما توقفت الحافلة فجأة واصطدمت بشاحنة دواجن، لكن ولا واحدة من الدجاجات المرتبكة التى تمت إصابتها تركت واحدًا من الركاب الناعسين فى حالهم. وليلة أخرى، كانت الحافلة تنزلق بسعادة على الطريق السريع المغطى بالثلج عندما نظرت إلى الخارج من نافذتى المتجمدة وشعرت بالإشعاع الناتج عن مواجهة الله وجهاً لوجه.

وكنت على وشك اكتشاف العنصر الوحيد المشترك مع كل الوجود، الحب، الحياة، والزمن، ولكن الحافلة الطائشة تعلقت بحافة الفراغ المظلم، وتوقفت.

قرأت في مكان ما أن الحظ ليس أعمى، ولكن فقط جاهل، انغمست في التفكير بأن الحظ هو مسكن لهؤلاء الذين لا يعرفون الاحتمالات والإحصاء. كان الباب الخلفي حيث نزلت إلى الأرض، وحيث عدت إلى الحياة: الباب الخلفي حيث قابلت الحياة الصاخبة في استراحات الحافلات: مرحبا، بائعو حبوب محمصة، بائعو شرائط كاسيت، رجال كبار يحملون حقائب، سيدات عجائز بحقائب بلاستيكية. أهلاً! ولكي لا أترك المسألة للحظ، بحثت عن أقل الحافلات أمناً، اخترت الطريق الأكثر وعورة، واستفتيت مقاهي الموظفين لأعرف السائق الأكثر حرماناً من النوم. وخطوط الحافلات التي تحمل أسماء على غرار "الطريق الآمن" "الطريق الآمن الحقيقي، الطريق الآمن السريع، الطريق الآمن الطائر، أسرع من البرق". مساعدو الحافلات يسكبون زجاجات العطر في يدي، ولكن ليس هناك واحدة منها لها عطر الوجه الذي أبحث عنه. أحضروا بسكويتاً من نوع ما على أطباق فضية زائفة، ولكن مذاقها لم يكن مثل الذي تقدمه أمي مع الشاي. أكلت شيكولاتة منزلية صنعت بلا كاكاو حقيقي، لكن ساقي لم تتشنج مثلما اعتادت أن تفعل عندما كنت طفلاً. أحيانا كان المساعد يقدم كل أنواع الحلوى والكراميل

فى سلال، ولكن وسط أنواع مثل "جولدن"، "مايل"، "فروتو"، لم أصادف قط أيًا من الأنواع التى كان العم رفقى يحبها، نوع يدعى كراميل "حياة جديدة". عددت الأميال فى نومى وحلمت وأنا مستيقظ، تكورت فى مقعدى، وانكمشت وتحولت إلى شىء مجعد، حشرت ساقىّ فى المقعد. حلمت أننى أمارس الحب مع جارى فى المقعد. عندما استيقظت، وجدت رأسه الأصلع على كتفى، ويده المثيرة للشفقة فى حجرى. كل ليلة ألعب فى البداية دور الجار المتحفظ على بعض الركاب سيئى الحظ، ثم دور الشخص الماهر فى التحدث، لكن مع الصباح نكون قد أصبحنا على وفاق تام وأكون الشخص محل الثقة الذى لاغبار عليه. سيجارة؟ إلى أين أنت ذاهب؟ ما مجال عملك؟ فى حافلة كنت مندوب تأمين متنقلاً؛ وفى أخرى- حيث كان الجو باردًا لدرجة التجمد- أدعيت أننى سوف أتزوج قريبًا من ابنة عمى التى هى حب حياتى. متصرفًا كشخص يشاهد أطباقًا طائرة، كشفت لرجل يبدو كالجد أننى أترقب ملاكًا؛ ومرة أخرى قلت إن مديرى وأنا سنكون سعداء لتصليح كل ساعات يدك التى بها عطل. ساعتى من نوع "موفادو". قال الرجل العجوز ذو السِّنة الصناعية: لا تخلف الوقت قط. بينما كان مالك الساعة نائمًا وفمه مفتوح، اعتقدت أننى سمعت تكتكة الساعة التى تعطى دائمًا الوقت المضبوط. ما الوقت؟ حادثة! ما الحياة؟ وقت! ما

الحادثة؟ حياة، حياة جديدة! بالخضوع إلى هذا المنطق البسيط - الذى كنت مندهشًا أن لا أحد وصل إليه من قبل - قررت أن أترك استراحات الحافلات، يا ملاكى، وأن أذهب إلى مواقع الحوادث.

شاهدت ركابًا فى المقاعد الأمامية طُعنوا بقسوة عندما اصطدمت حافلتهم بإهمال وخيانة بمؤخرة شاحنة تحمل قضبانًا من الصلب أطرافها موجهة للخارج، رأيت سائقًا - فى محاولة جاهدة لتفادى قطة - قاد حافلته المتهورة إلى داخل واد شديد الانحدار، كانت جثته مشوهة بشدة، ولم يستطع أحد التعرف عليها، رأيت رءوسًا تحطمت إلى أجزاء، أجسادًا تم تمزيقها، أيادى انسحقت؛ رأيت سائقين أخذوا عجلة القيادة إلى داخل أحشائهم، أمخاخ انفجرت مثل رءوس الكرنب، آذان دامية مازالت ترتدى الأقراط، نظارات محطمة وأخرى سليمة، مرايا، أمعاء حمراء تم وضعها بعناية على ورق جرائد، أمشاط، فاكهة تم سحقها، عملات معدنية، أسنان مكسورة، زجاجات للأطفال، أحذية من كل الأنواع والروح التى تم التضحية بها بحماسة فى سبيل لحظة الحقيقة.

فى صباح أحد أيام الربيع الباردة كنت قد تلقيت سرًا خبرًا من قبل ضباط المرور ولحقت بحافلتين اصطدمت مقدماتهما ببعضهما فى صمت السهل الخالى من الأشجار، كانت قد مرت نصف ساعة منذ

لحظة التصادم المتحمس السعيد الذى تفجر فى صخب، لكن السحر الذى يجعل الحياة محتملة وذات معنى كان مازال معلقًا فى الهواء، كنت أقف بين العربات التى تخص الشرطة ورجال الشرطة الفرنسيين، الذين يفحصون الإطار الأسود لإحدى الحافلتين اللتين انقلبتا. عندما أخذت شهيقًا مبهجًا من الحياة الجديدة والموت، ارتجفت ساقى والمتنى الفرز فى جبهتى، شققت طريقى للأمام بإصرار كما لو كنت على موعد مهم، مخترقًا جموع الناجين المرتبكين فى الغسق الملىء بالندى.

صعدت إلى الحافلة - كان الوصول إلى مقبض الباب صعبًا بطريقة ما - وكنت أمر مخلفًا كل المقاعد خلفى، أشعر بالرضا لكونى أخطو على نظارات، أشياء من الزجاج، سلاسل، والفاكهة التى خضعت للجاذبية ووقعت على السقف. عندئذ بدا أننى تذكرت شيئًا، ذات مرة اعتدت أن أكون شخصًا آخر، وأن شخصًا ما اعتاد أن يرغب فى أن يصبح أنا. لقد حلمت بحياة حيث الوقت مركز ومضغوط وحيث الألوان تتدفق فى عقلى كالشلال، أليس كذلك؟ جاء على بالى الكتاب الذى تركته خلفى على منضدتى، وتخيلت أن الكتاب يحدق فى السقف مثل الميت الذى يحدق فى السماء بفم مفتوح، تخيلت أمى محتفظة بالكتاب على منضدتى بين كل الأشياء التى تركتها فى حياتى السابقة التى انقطعت، كنت أتخيل نفسى أقول: انظرى أمى، إن ما أبحث عنه وسط شظايا

الزجاج، قطرات الدماء، والأموات هو عتبة نوع آخر من الحياة، عندما لمحت محفظة، كان هناك جسد قد صعد فوق المقعد- قبل أن يموت - واتجه نحو النافذة، لكنه رقد فى سلام عند نقطة التوازن، وعرض مشهداً كاملاً للمحفظة التى فى جيبه الخلفى.

أخذت المحفظة ووضعتها فى جيبى بخفة، ولكن لم يكن هذا ما استدعيته منذ لحظة واحدة وادعيت أننى لا أتذكره. ما كان فى عقلى هو الحافلة الأخرى؛ حيث وقفت أنظر خلال الزجاج المحطم والستائر الصغيرة التى ترفرف بخفة على النوافذ، قرأت الحروف الحمراء والزرقاء القاتلة على الحافلة الأخرى التى تقول "الطريق الأكثر أمناً".

قفزت خارجًا من إحدى إطارات النوافذ التى تحطم زجاجها تمامًا وبدأت أركض، أخطو على قطع من الزجاج المنثور بين الجثث الأخرى التى لم يحملها رجال الشرطة بعيدًا بعد، لم أكن مخطئًا، الحافلة الأخرى كانت حقًا نفس حافلة "الطريق الأكثر أمناً" التى حملتنى بأمان من مدينة تافهة إلى مدينة غامضة، صعدت على متن هذا الصاحب القديم وجلست فى نفس المقعد حيث كنت راكبًا منذ ستة أسابيع، وبدأت أنتظر مثل راكب صبور لديه ثقة متفائلة فى هذا العالم. ما الذى كنت أنتظره؟ ربما كنت أنتظر رياحًا ما، ساعة محددة، أو ربما أنتظر

رحالة. بدأ نور الشفق يوهن، شعرت بوجود أرواح أخرى لأحياء أو أموات جالسين مثلى على المقاعد، وسمعتهم ينادون على بعض الأرواح المجهولة؛ كانوا يشهقون كما لو كانوا يتحدثون إلى الجميلات فى كوابيسهم أو- فى أحلامهم عن الجنة- كانوا يتشاجرون مع الموت. ثم أحست روحى المتحفزة بشىء ما أكثر عمقًا؛ ركزت على كابينة السائق حيث اختفى كل شىء ما عدا الراديو، حيث - بجانب الشهقات والبكاء - كانت هناك موسيقى مغلفة بهالة غاية فى الجمال.

أطبق الصمت للحظة قصيرة، ولاحظت أن الضوء يصبح أكثر كثافة. فى الندى رأيت أشباحًا سعيدة لأموات ومحتضرين. لقد ذهبت إلى أبعد ما يكون، أيها الرحالة! لكن أعتقد أنك يمكن أن تذهب لأبعد! فأنت تتمايل فى الترقب ببهجة، لا تعرف إذا ما كان هناك باب آخر وحديقة سرية أخرى حيث الحياة والموت، المعنى والحركة، الوقت والصدفة، الضوء والسعادة كل ذلك يجتمع معًا. وفجأة ارتفعت نفس الرغبة الملحة مرة أخرى من أعمق أعماقها وأحاطت جسدى بالكامل، الرغبة فى أن أكون هنا وهناك معًا. بدا وكأنى سمعت عدة كلمات، ارتجفت، وكان بعد ذلك، يا جميلتى، أنك آتيت من الباب- يا جنان، مرتدية نفس الرداء الأبيض الذى كنت ترتدينه فى ممر ساحة "تاسكيسلا" حيث رأيتك لآخر مرة. كان وجهك مغطى بالدماء.

لم أسألك، "ماذا تفعلين هنا؟" وأنت يا جنان، لم تسأليني أيضا ماذا أفعل هنا. كنا نعرف.

أخذتك من يدك وأجلستك بجانبي، في المقعد رقم ٣٨، ومسحت الدم عن وجهك وجبهتك بمنديلي الكاروهات الذي اشتريته من "سيرنير". ثم، يا حبيبتي، أمسكت يدك، ولفترة جلسنا في صمت. كانت الدنيا تضيء أكثر؛ وصلت عربات الإسعاف. وعلى راديو السائق الميت كانوا يذيعون ويغنون أغنيتنا.

الفصل الخامس

لحقنا بالحافلة الأولى التى غادرت المدينة بعد أن تلقت جنان أربع غرز فى جبهتها، حيث مشينا بطول حوائط الحديقة المنخفضة، المبانى الحزينة، الشوارع الخالية من الأشجار، الواعية بالحركة الميكانيكية لرفع وهبوط أقدامنا على الرصيف، أتذكر نوعًا ما المدن الثلاث التى تلت: واحدة كانت عاصمة مداخن المصانع، والثانية عاصمة حساء العدس أما الأخيرة فهى مدينة الذوق السيئ، لكن بعد ذلك، أثناء ما كنا تتنقل من مدينة إلى مدينة، نغفو ونفيق فى الحافلات، كل شىء تشوش واختلط ببعضه، رأيت حوائط وقد بلى الجص من عليها، حيث تركت الملصقات من قبل الشباب منذ عهد العازفين القدامى وكانت لاتزال معروضة؛ رأيت كبارى دمرتها الفيضانات، ولاجئين من أفغانستان يبيعون مصاحف القرآن بحجم أصبع الإبهام، من المؤكد أننى رأيت أشياء أخرى بجانب شعر جنان البنى الفاتح الملقى على كتفيها، مثل عامة الناس فى موقف الحافلات، الجبال الأرجوانية، لوحات الإعلانات البلاستيكية اللامعة، الكلاب المرحة التى تطارد حافلتنا بمرح إلى خارج المدينة، باعة متجولين ينادون على بضاعتهم الصغيرة فى الحافلة، فى إحدى الاستراحات غير

المعروفة عندما فقدت جنان الأمل فى العثور على أى مفتاح لما اسمته "تحرياتها"، وضعت وجبات فى حجورنا من مواد غذائية اشترتها من هؤلاء الباعة، مثل البيض المسلوق الجامد، فطائر اللحم، الخيار المقشور، وبعض المياه الغازية المحلية التى لا اسم لها. ثم كان الصباح، ثم ليل، ثم صباح ذو غيوم، الحافلة تغير السرعات، ثم ليلة كاحلة أكثر من الظلمة من حولنا، وشاشة الفيديو فوق مقعد السائق تشع ضوءًا أحمر برتقاليًا بلون طلاء الشفاه الرخيص، عندما بدأت جنان تستعيد قصتها.

بدأت "علاقة" جنان بمحمد (على حد قولها) منذ عام ونصف العام. كان لديها إحساس مبهم أنها ربما رأته من قبل فى "تاسكيسلا" يتجول بين طلاب الهندسة وطلاب المعمار، ولكن المرة الأولى التى شاهدته فيها فعلاً كان فى حفل عُقد من أجل قريب لها عاد من ألمانيا فى فندق فى تاكسيم. عند منتصف الليل، كانت هى ووالداها قد ذهبوا إلى ردهة الفندق، حيث ترك الشاب الشاحب، الطويل، النحيل الواقف خلف مكتب الاستقبال انطباعًا فى ذهنها قالت جنان موجهة لى ابتسامة حنون، ولكنى عرفت أن هذا لم يكن الموضوع: "ربما لأننى لم أستطع إدراك أين وسبق أن رأيته."

عندما بدأت الدراسة فى الخريف، رأته مجددًا فى طرقات "تاسكيسلا"، وفورًا بعد ذلك "وقعا فى

الحب". كانا يمشيان فى نزهات طويلة معًا فى شوارع اسطنبول، يذهبان إلى السينما، يترددان على الكانتين والمقاهى الخاصة بالطلاب. قالت جنان - مستعملة الصوت الذى احتفظت به للتفسيرات الجادة: "فى البداية لم نكن نتحدث كثيرًا عن الأشياء." ولكن لم يكن هذا لأن محمد كان خجولاً أو لا يحب الكلام. كلما عرفته أكثر، كلما أشركته أكثر فى حياتها، وكلما لاحظت كم يمكنه أن يكون اجتماعيًا، مثابرًا، معبرًا، وحتى عدوانيًا. "كان صمته يأتى من حزنه." قالت جنان ذلك، وهى غير ناظرة إلىّ ولكن إلى مشهد المطاردة على شاشة التليفزيون، ثم أضافت- وشبح ابتسامة يلوح على شفتيها- "كان يأتى من حزن شديد." أسرعت سيارات الشرطة التى كانت تطير فوق بعضها البعض ومن فوق الكبارى لتسقط فى أنهار، تصطدم الآن ببعضها البعض وتتشابك فى عقدة.

حاولت جنان جاهدة أن تحل عقدة حزنه وأسفه، ونجحت إلى حد ما فى النفاذ إلى الحياة التى ترقد وراء هذا الحزن، وكان محمد من البداية قد أتى على ذكر حياة سابقة عندما كان شخص آخر يعيش فى مقاطعة ما. أثناء ما كانت جرأته تزداد، قال إنه ترك هذه الحياة خلفه، وأنه راغب فى حياة جديدة. وأن ماضيه لا يعنى شيئًا بالنسبة له، كان هو فى مرة شخصًا آخر، ثم منى نفسه بأن يصبح شخصًا آخر. وحيث إن جنان عرفت فقط نفسه الجديدة، نصحها

بأن تتعامل فقط مع شخصيته الحالية وتترك شخصيته الماضية. أما الأهوال التى صادفها خلال بحثه فلم تكن جزءًا من وجوده السابق ولكن جزءًا من حياته الجديدة التى كان- ذات مرة- يبحث عنها بحماسة. كانت هذه هى الحياة..... الحياة التى صادفها فى الكتاب." قالت جنان ذلك لى فى أحد مواقف الحافلات الكئيبة القذرة حيث كنا نتشاجر -فى جو من الصداقة والمرح- على أى حافلة نستقلها ونحن جالسون إلى مائدة عليها علبة طعام عمرها عشر سنوات، نجحنا فى التقاطها من على رفوف بقالة ما غزتها الفئران فى هذه المدينة البالية، بالإضافة إلى حركة الساعة التى اكتشفناها فى محل قديم لتصليح الساعات وقصص كوميدية للأطفال على الرفوف المغبرة فى محل رياضيات "توتو".

كانت هذه المرة الأولى التى ذكرنا فيها الكتاب فى التسعة عشر يومًا بعد أن جرينا إلى بعضنا البعض فى الحافلة المنكوبة، أخبرتنى جنان أن جعل محمد يناقش الكتاب كان صعبًا بنفس درجة جعله يتحدث عن أسباب حزنه غير المبرر والحياة التى تركها خلفه. كان هناك مرات عديدة عندما كانا يمشيان فى شوارع اسطنبول بإحباط، أو يتناولان الشاى فى أحد المقاهى فى "البوسفرس"، أو يستذكران معًا، عندما طلبت منه الكتاب، سائلة إياه عن هذا الشىء السحرى، ولكنه كان يرفض بوضوح ووقاحة، مخبرًا إياها بأنه ليس من الصواب لفتاة مثل جنان حتى أن تتخيل أرض

العقاب الأبدى، تحطيم القلب، وسفك الدماء لأن فى هذه الأرض الخادعة التى يضيئها الكتاب، يتسكع كل من الموت، الحب، والرعب مثل أشباح سيئة الحظ فى هيئة رجال مضطهدين، محطمى القلوب ذوى وجوه جليدية يحملون بنادق محشوة بالرصاص.

كان الأمر من خلال مثابرتها واعتراضاتها على القلق حتى أن جنان أصبحت قادرة على اجتذاب محمد، ولو بشكل متواضع. قالت: "ربما كان يريد منى أن أقرأ الكتاب وأن أنقذه من تأثيره الحلو والمر فى نفس الوقت، ويجب أن أذكر، أننى كنت واثقة فى ذلك الوقت من أنه يحبنى." ثم، حينما كانت حافلتنا تنتظر بصبر- عند تقاطع طريق السكة الحديد- قطارًا بدا أنه ليس فى عجلة من أمره، أضافت: "أو ربما، كان يتمنى بلا وعى أن نتمكن من الدخول معًا إلى هذه الحياة التى مازالت حية فى ركن ما من عقله." مرت بجانب نافذة حافلتنا سلسلة من عربات قطار البضائع المُحملة بالقمح، الآلات، والزجاج المحطم، واحدة بعد الأخرى، مثل أشباح من بلدة أخرى مخالفة للقانون وتم تهذيبها، وهى تحدث جلبة مثل القطارات التى تصرخ محركاتها خلال منطقة سكنى القديمة.

تحدثنا - أنا وجنان - قليلاً عن التأثير الذى مارسه الكتاب علينا، كان التأثير قويًا جدًا، غير قابل للجدال، وصحيحًا جدًا لدرجة أن الكلام عنه سيحول محتويات الكتاب إلى نوع من الثرثرة الطفولية، لغو

عقيم، كان الكتاب شيئًا ما، ضرورته غير قابلة للجدل في حياة كلينا حتى أنه يوجد بشكل ملموس بيننا، أساسي مثل ضوء الشمس والماء. لقد بدأنا رحلتنا على الطريق استجابةً للضوء الذي انبعث من صفحات الكتاب على وجوهنا، وحاولنا التقدم على هذا الطريق باتباع غرائزنا، ولكن دون أن نتمنى بالضرورة معرفة أين كان هذا الذي يوجهنا.

وبالرغم من أننا غالبًا ما كنا نتجادل طويلاً وبصورة شديدة حول أية حافلة نستقلها، كانت هناك حقيقة واحدة عندما أعلن الصوت المعدني عن موعد الرحيل و المكان المقصود عبر مكبر الصوت في استراحة الركاب (التي كانت واسعة جدًا على مدينة بهذا الصغر)، غرست في جنان شعورًا بالشوق للذهاب إلى هناك حتى أنني- بالرغم من اعتراضي- رضخت لرغبتها. وفي مرة أخرى تتبعنا شاب صغير يحمل حقيبة من البلاستيك إلى الحارة المخصصة للحافلات، ترافقه أمه الدامعة العينين وأبوه الذي ينفث دخان السجائر، فقط لأن حجم الشاب وانحناءة كتفيه الخفيفة ذكرتها بمحمد، وصعدنا على متن حافلته- حيث أخبرتنا علامة بأن الخطوط الجوية التركية هي المنافس الرئيسي لخطوط الحافلات- فقط لكي نلاحظ أن الشاب قد غادر من ثلاث مدن ونهرين قذرين وشق طريقه إلى بعض المباني المخصصة للجنود المحاطة بسور من الأسلاك الشائكة وأبراج المراقبة، حيث الأحرف على الأبواب تعلن أن

"السعادة هى أن تكون تركيًا". ركبنا حافلات كثيرة ومتنوعة ذهبت إلى قلب السهوب، وأحيانًا، فقط لأن جنان انجذبت إلى حافلة ما لونها أحمر طوبى وأخضر، أو أى شىء آخر، انظر! كيف أصبح حرف "ر" فى (أسرع من البرق) مسحوبًا من الاهتزازات والسرعة، متعرجًا مثل شعاع البرق. عندما أثبتت تحريات جنان عدم جدواها فى موقف الحافلات القذر والأسواق الناعسة فى المدن المغبرة حيث وصلنا، كنت أسألها لماذا ولأى مكان نحن مسافران؛ مذكرًا إياها بأن النقود التى سرقتها من جيوب الركاب الموتى كانت تتناقص، كنت أدعى أننى أحاول فهم المنطق غير المنطقى لتحدياتنا.

لم تفاجأ جنان على الإطلاق عندما أخبرتها عن تطلعى من النافذة فى غرفة الدرس فى "تاسكيسلا" ورؤيتى لمحمد وقد أطلق عليه الرصاص. بالنسبة لها، كانت الحياة مليئة بنقاط التلاقى الملحوظة والمقصودة، التى يسميها بعض الحمقى بطيئى الفهم "مصادفات". بعد أن أصيب محمد بوقت قصير، أحست جنان بأن شيئًا غير عادى قد حدث من تحركات الرجل الذى يدير كشك الهامبرجر عبر الشارع، وتذكرت أنها سمعت طلقات نارية. أدركت جنان بحاستها ما حدث وجرت إلى محمد، الذى رقد مجروحًا. إذا ما أرجعنا الأمر إلى الآخرين، فربما يعتبرون وجود سيارة أجرة فى نفس النقطة التى أصيب فيها محمد مصادفة، وحقيقة أخذهم إلى

مستشفى "كاسيمباسا" العسكرى كانت معتمدة على حقيقة أن سائق الأجرة قد أنهى خدمته العسكرية مؤخرًا فى الأسطول البحرى، لم يكن الجرح فى كتف محمد خطيرًا جدًا، وكان سيخرج من المستشفى فى خلال يوم أو يومين، لكن عندما وصلت جنان إلى المستشفى فى الصباح التالى، وجدت أنه رحل واختفى.

"ذهبت إلى الفندق، والقيت نظرة سريعة على تاسكيسلا، وتوقفت عند أماكنه المفضلة التى يتردد عليها، ثم انتظرت فى البيت اتصاله الهاتفى، بالرغم من أننى عرفت أن كل هذا كان دون جدوى." قالت جنان ذلك بوضوح تام تركنى مملوءًا بالإعجاب. "لكنى أدركت أنه قد رجع إلى هناك، إلى هذه المملكة؛ فهو لم يرجع إلى الكتاب منذ وقت طويل."

كنت أنا "رفيق دربها" فى رحلتها إلى هذه المملكة؛ كنا نساند بعضنا البعض فى إعادة اكتشاف هذا المكان، لم يكن من الخطأ أن نعتقد أن عقلين "أفضل" من عقل واحد فى بحثنا عن الحياة الجديدة، لم نكن مجرد رفيقى سفر ولكن توءمى روح؛ كنا لبعضنا البعض بمثابة دعم غير مشروط؛ كنا مبدعين تمامًا مثل مارى وعلى اللذين أشعلا نار المعسكر باستخدام النظارات؛ وهكذا كنا لمدة أسابيع جالسين بجانب بعضنا البعض فى الحافلات الليلية نضغط جسدينا فى بعضهما.

فى بعض الليالى، بعد أن ينتهى الفيلم الثانى فى جهاز الفيديو بوقت طويل مرددًا أصداء الضوضاء الصاخبة لطلقات الرصاص والطائرات الهليوكبتر المنفجرة. فترة طويلة بعد أن أدركنا التعب ورحل الركاب الثابطو الهمة إلى أرض الأحلام، استسلمت أنفاسنا إلى الموت فى رحلتنا التى بلا احة أثناء ما كنا جالسين على الإطارات المهتزة، كنت أهتز مستيقظًا لمرور الحافلة على مجرى مائى، أو فرملة مفاجئة، وكنت أحدق طويلاً وبشدة إلى جنان وهى نائمة مثل الطفل بجانب النافذة، رأسها مستلق على الستائر القصيرة التى ضمتها معًا لتصنع منها وسادة، شعرها البنى الفاتح يصنع غيمة جميلة على هذه الوسادة ويسقط على كتفيها. أحيانا كانت ذراعاها الطويلتان الجميلتان يصلان ناحية ركبتىّ الشغوفتين مثل زوج من أفرع الأشجار الهشة المتوازية؛ وأحيانا كان ذراع واحد يثبت اليد التى تستند عليها رأسها كوسادة ثانية، واليد الأخرى تمسك مرفق الذراع الثابتة بانسيابية. عندما نظرت إلى وجهها رأيت ألمًا يذوى حاجبها، أحيانًا ما كان حاجباها البنيان ينعقدان حتى تظهر علامات استفهام فى منتصف جبهتها وتملأنى بالخوف. ثم أرى شعاعًا فى بشرتها الشاحبة، وأحلم بجنة مخملية حيث الأزهار متفتحة والسناجب تقفز مرحة فى وقت الغروب، داعية إياى إلى بلاد العجائب حيث تلتقى عظمة وجنتها بمقدمة رقبتها الرشيقة، أو لو انحنى رأسها إلى الأمام، فى

نقطة صعب الوصول إليها حيث يسقط شعرها على مؤخرة عنقها، كنت أنظر إلى الملكة الذهبية فى وجهها- لو نجحت فى الابتسام ولو حتى قليلاً خلال نومها- وعلى شفتيها الممتلئتين للغاية والشاحبتين للغاية، والمشققتين قليلا أحيانا؛ لأنها غالبًا ما تعض هاتين الشفتين، وكنت أقول لنفسى: أنا لم أتعلم هذا فى المدرسة، ولم أقرأ عنه فى أى كتاب، لكن كم من الجميل- يا ملاكى- مشاهدة المحبوب وهو نائم!

تكلمنا بالفعل عن الملاك وأيضًا عن الموت الذى يبدو وكأنه الأخ غير الشقيق ذى الكرامة والكئيب للملاك، ولكننا فعلنا ذلك من خلال كلمات كانت هشة وضعيفة مثل الأشياء سهلة الكسر التى ساومت عليها جنان عند أكشاك السوق، محلات الأدوات المنزلية، أو متاجر الناعسة للأقمشة والملبوسات و- بعد أن لعبنا بها لفترة قصيرة- تركناهم خلفنا فى مقاهى المحطة أو على مقاعد الحافلات، كان الموت فى كل مكان، وخصوصًا هناك لأنه يشع خارجًا من هذا المكان، كنا نبحث عن إشارات لنصل إلى هناك ونجد محمد، لكن تركنا آثار خلفنا. لقد تعلمنا كل هذا من الكتاب - تمامًا كما علمنا عن اللحظات الفريدة للحوادث، البداية حيث يكون العالم الآخر مرئيًا، عند مداخل السينما، حلوى "الحياة الجديدة". الأشخاص الذين اغتالوا محمد وربما حتى نحن، عن مخيمات الفنادق حيث كانت خطواتى مسموعة، عن الصمت المستمر، عن الليالى والمطاعم سيئة الإضاءة، يجب أن أرتب

الأمور بهذا الشكل: بعد كل ما قيل وتم، صعدنا على متن حافلة ما مرة أخرى: بعد كل ما قيل وتم، بدأنا رحلتنا على الطريق مرة ثانية: أحيانًا حتى قبل حلول الليل، يكون مساعد الحافلة يتفحص التذاكر، والركاب يتعارفون، والأطفال والركاب الأكثر قلقًا يشاهدون الطريق الجبلي الأسفلتي الناعم كما لو كانوا يشاهدون شاشة الفيديو، عندها تظهر ومضة مفاجئة في عينيّ جنان وتبدأ الحديث.

قالت في إحدى المناسبات: "عندما كنت صغيرة، كنت أحيانًا ما أستيقظ في منتصف الليل، وأفتح الستائر وأنظر خارجها، يكون هناك رجل يمشي في الشارع، رجل سكير، أحدب، سمين، رجل الحراسة الليلي، دائمًا رجل ..... كنت خائفة، وأحببت سريري، ولكن تمنيت أن أكون في الخارج هناك أنا أيضًا."

فيما بعد في هذه الليلة، قالت: "تعلمت من الأولاد وأنا ألعب "الاستغماية" مع أصدقاء أخي في منزلنا الصيفي، أو في المدرسة الإعدادية، وأنا أشاهدهم ينظرون إلى شيء ما أخرجوه من مكاتبهم. أو عندما كنت أصغر كثيرًا، عندما كنا في منتصف اللعب وفجأة يكونون في حاجة لقضاء حاجتهم، الطريقة التي كانوا يحركون بها سيقانهم.

وفيما بعد تحدثت أكثر: " كنت في التاسعة من عمري، سقطت على شاطئ البحر وجرحت ركبتي، صرخت أمي بفزع وبكت، ذهبنا لزيارة طبيب الفندق.

فقال لي يا لك من فتاة جميلة، يا لك من فتاة لطيفة. غسل جرحي بمطهر البروكسيد، قائلاً إنني فتاة ذكية، الطريقة التي نظر بها إلى شعري، جاءتني فكرة أن الطبيب أحب النظر إليّ، كان يملك عينين ساحرتين نظرتا لي من عالم آخر، كانت جفونه ثقيلة قليلاً، جاعلة إياه ربما يظهر بمظهر ناعس، ولكنه مازال يراني ويرى كل شيء حولي بوضوح."

وفي ليلة أخرى، كنا نتكلم عن الملاك مرة أخرى. قالت جنان: "إن عيني الملاك في كل مكان، على كل شيء، دائمًا حاضرة، إنما البشر البائسون مثلنا، مازالوا يعانون من غياب هذه العيون.هل هذا بسبب أننا كثيرو النسيان؟ بسبب ضعف إرادتنا؟ أم أننا لا نستطيع أن نحب الحياة؟ أعرف أنني سأنظر خارج نافذة الحافلة يومًا ما، أو ليلة ما على الطريق، وأنا ذاهبة إلى مدينة أخرى، وستلتقي عيناي بعينيّ الملاك، يجب أن أتعلم كيف أنظر، لكي أتمكن من الرؤية. لدي إيمان في الحافلات. لدي إيمان أيضًا في الملاك..... أحيانًا...... لا، بل دائمًا. نعم، دائمًا. حسنًا، أحيانًا.

"الملاك الذي أبحث عنه جاء خارجًا من الكتاب. هناك بدا الملاك وكأنه فكرة شخص آخر، مثل ضيف من نوع ما، لكني مازلت متعاطفة معه. أنا واثقة أن اللحظة التي سأراه فيها، سيصبح لغز الحياة واضحًا بالنسبة لي، شعرت بحضوره في مواقع الحوادث

وأيضًا راكبًا فى الحافلة. كل شيء قاله محمد أصبح حقيقة. أينما يذهب محمد، يشع الموت من حوله بزهو، هل تعلم؟ ربما الأمر كذلك لأنه يحمل الكتاب بداخله، لكنى أيضًا سمعت عن ضحايا حوادث يذكرون الملاك وهم لا يعرفون شيئًا البتة عن الكتاب أو الحياة الجديدة. فأنا أتبع خطاه. أصل الإشارات التى يتركها خلفه بعضها البعض.

"فى ليلة ممطرة، أخبرنى محمد بأن الأشخاص الذين يريدون قتله موجودون فى كل مكان. من الممكن أن يكونوا فى أى مكان على الإطلاق، ومن الممكن حتى أن يكونوا يستمعون إلينا فى هذه اللحظة. لا تأخذ كلامى على محمل الخطأ، ولكن أنت نفسك يمكن أن تكون واحدًا منهم. فى مرات كثيرة يفعل الشخص عكس ما يعتقد تمامًا، أو يعتقد أنه يفعل. أنت على الطريق إلى هذه المملكة، لكنك تتجه إلى الداخل، أنت تعتقد أنك تقرأ الكتاب، ولكنك تعيد كتابته. عندما تتخيل أنك تساعد فأنت تزرع الأذى. معظم الناس لا يريدون حياة جديدة ولا عالمًا جديدًا. لذلك فهم يقتلون مؤلف الكتاب".

كان هذا كيف جاءت جنان على ذكر الكاتب لأول مرة، أو الرجل العجوز الذى كانت تذكره بأنه "المؤلف". محدثة إياى بلغة لم تكن واضحة تمامًا ولكنها تقال بأسلوب أثارنى، ليس بسبب محتواها ولكن بسبب أن ما قالته له ميزة الغموض، كانت تجلس على واحد من

مقاعد الصف الأمامى فى حافلة جديدة نسبيًا، وكانت عيناها مثبتتين على الخط الأبيض المتلألئ فى منتصف الطريق الأسفلتى؛ لكن- لسبب ما غريب- ما كان غائبًا فى هذا الليل الأرجوانى هو الأضواء الأمامية القادمة التى تنتمى إلى الحافلات الأخرى، الشاحنات، والسيارات.

"أعرف أنه عندما تحدث محمد والكاتب العجوز، فهما كل شىء فى عيون بعضهما البعض. كان محمد يبحث عنه وقد وجده والتقاه بالفعل. عندما التقيا، لم يتحدثا كثيرًا، كانا هادئين؛ تجادلا قليلاً ثم صمتا. فقد كتب الرجل العجوز الكتاب أيضًا عندما كان صغيرًا أو كما يدعى الوقت الذى كتب فيه بشبابه. كاتب شاب صغير، قال ذلك بحزن. فيما بعد، "هم" قد أرهبوا الرجل العجوز وجعلوه يتنصل مما كتبه بأم يده، وهو ينظر فى أعماق روحه. لا شىء يدعو للمفاجأة فى ذلك. ولا حتى "أنهم" قتلوه فى النهاية.... ولاحتى أن دور محمد قد حان حيث إن الرجل العجوز قد مات.... لكن نحن سنجد محمد قبل أن يجده القتلة.... ما المهم فى ذلك: أن هناك آخرين قد قرءوا الكتاب ويؤمنون به. لقد التقيت بهم يجوبون المدن، مواقف الحافلات، المحلات؛ أنا أعرفهم، أتعرف إليهم من أعينهم، كما ستفهم فى يوم ما، وربما أنت تفهم بالفعل. إذا فهمت اللغز الغامض، وإذا حققت تقدمًا نحوه، فالحياة رائعة.

لو كنا فى مطعم مـحـبـط وملىء بالذباب فى استراحة منعزلة عندما كانت جنان تخبرنى بكل هذا، كنا ندخن السجائر مع الشاى المجانى الذى قدمه لنا نادل ناعس، ونقلت حلوى الفراولة المطبوخة التى لها طعم البلاستيك. أما لو كنا نهتز فى المقاعد الأمامية لحافلة متهالكة، كانت عيناى مثبتتين على شفتى جنان المكتنزتين وفمها السخى، لكن كانت عيناى مثبتتين دائمًا على الأضواء غير المنتظمة للشاحنات التى تمر بنا من آن لآخر. ولو كنا فى موقف حافلات مزدحم وسط جموع العامة الذين يحملون أكياسًا بلاستيكية، حقائب من الكارتون، وأجولة، لكانت جنان أنهت ما كانت تقول فجأة! وتجرى بسرعة من على المائدة وتختفى، تاركة إياى باردًا كالثلج ووحيدًا فى زحام الناس.

أحيانًا كنت أعد الدقائق لساعات بلا توقف، فقط لأجدها فى محل من محلات الدرجة الثانية فى الحارة الخلفية لمدينة ما حيث كنا ننتظر وصول الحافلة؛ تفحص مكواة ثياب مكسورة أو واحدًا من هذه الأفران القديمة التى تعمل بالفحم، ولم يعد يتم تصنيعها. أحيانًا كانت تستدير نحوى بابتسامة غامضة على وجهها وجريدة محلية غريبة فى يدها، وتقرأ لى أمر البلدية الذى وضع ليمنع الماشية من استخدام الطريق العام فى طريقها للبيوت فى المساء، أو الملاحظة التى وضعت من قبل شركة الهلال للغاز، معلنة عن ابتكاراتها الجديدة فى المتجر المحلى التى

أحضروها من اسطنبول. غالبًا ما أجدها تتحدث بحميمية مع أشخاص في الزحام؛ وقد تكون في محادثة عميقة مع سيدة مسنة ترتدي منديلا على رأسها، أو تُقبل مرارًا فتاة لها وجه شبيه بالبطة على حجرها، أو تستنفد معرفتها الخاصة المدهشة بخطوط الحافلات ونهايات الخطوط لكي تساعد غرباء كريهين تفوح منهم رائحة صابون الحلاقة "آو بي". عندما آتي إليها بتردد ومقطوع الأنفاس تمامًا. فكانت تتصرف وكأننا على الطريق فقط لكي نحل مشاكل الناس الآخرين. كانت تخبرني: " هذه المرأة العزيزة كانت ستقابل ابنها هنا بعد أن تم تسريحه من قبل الجيش، لكنه لم يكن على متن الحافلة القادمة من "فان". كنا نسأل عن مواعيد الحافلات بالنيابة عن أناس آخرين، نستبدل لهم تذاكرهم، نهدئ من روع أطفالهم الباكين، نحرس لهم حقائبهم وأغراضهم عندما يذهبون إلى دورة المياه. " فليكافئك الرب" قالت ذلك ذات مرة سيدة عجوز ممتلئة الجسم ذات سن ذهبية، ثم التفتت ناحيتي، ورفعت حاجبيها وأضافت: " أنت فعلاً تعرف أن زوجتك جميلة جدًا، أليس كذلك؟

ذات مرة انطفأت شاشة الفيديو المشعة بعد منتصف الليل، وتوقفت كل الحركات في الحافلة ماعدا الدخان الذي تصاعد مرتعشًا من سجائر أكثر الركاب حزنًا وقلقًا، تحركت أجسادنا تدريجيًا معًا في مقاعدنا المتأرجحة بخفة. شعرت بشعرك على وجهي،

جنان، ويديك الرشيقتين على ركبتى و - على رقبتى - أنفاسك التى تفوح برائحة النوم. الإطارات تدور ومحرك الديزل مستمر فى تكرار أنينه المستمر، والزمن ينتشر فى الفراغ بيننا مثل سائل قاتم، دافئ، وثقيل، حساسية وليدة لهذا الوقت الأولى فى عظام سيقاننا المخدرة، والخاملة، والمتخشبة أثارت أجسادنا بالرغبة.

أحيانًا، عندما يحترق ذراعى فجأة لأقل لمسة من ذراعها، أبقى منتظرًا طوال الليل أن تقع رأسها على كتفى (داعيًا الله أن يدعها تسقط)، أحيانا أكون متصلبًا فى مقعدى خوفًا من أن أزعج خصلات شعرها التى على رقبتى، أعد أنفاسها بمهابة وإجلال، متسائلاً عن معنى الحزن الذى يمر سريعًا بحاجبها. عندما كان وجهها - الشاحب فى وميض ضوء مفاجئ- يفزع مستيقظًا تحت نظرتى، كم كنت فرحًا أنها لم تنظر من النافذة فى ارتباكها المبدئى لترى أين كانت، ولكنها نظرت فى عينىّ المطمئنتين، وابتسمت. بقيت ساهرًا طوال الليل، حريصًا على جعل رأسها لا يميل على زجاج النافذة البارد كالثلج ويتجمد، خلعت الجاكت البنى القاتم الذى اشتريته فى "إرزدينجان" ووضعته على ركبتيها. عندما كان السائق يقود متمايلاً بطيش هابطًا الطريق الجبلى، أقوم أنا بحراسة هيئتها النائمة الملتوية، فى حالة انتُزعت من مقعدها وتأذت. وبالرغم من ذلك أحيانًا- فى مكان ما فى عمق يقظتى- وأنا أستمع إلى صخب

المحركات، تنهدات الركاب ورغباتهم الحزينة فى الموت، تتركز عيناى على نقطة ما بين بشرة رقبتها الناعمة وتعاريج أذنها الرقيقة، وأفقد نفسى فى حلم يقظة من أحلام الطفولة بركوب القارب أو بمعركة بكرات الثلج التى تذوب بعد ذلك لتتحول إلى أحلام السعادة الزوجية التى ستكون عليها حياتنا يومًا ما.

بعد ذلك بساعات، عندما أمرنى بالاستيقاظ شعاع شمس لعوب كان باردًا ومنكسرًا كالزجاج المنحوت، أدركت أن الحديقة المثيرة التى تفوح برائحة اللافندر التى تهدهد رأسى كانت طوال الوقت رقبتها؛ وبعد أن بقيت هادئًا لفترة أطول بين النوم واليقظة هناك، طرفت بعينى أحيى النهار المشرق بالخارج، الجبال باهتة الزرقة والعلامات الأولية للحياة الجديدة، فقط لأنظر بحزن كيف كانت عيناها بعيدتين جدًا عنى.

"الحب" بدأت تتحدث فى مساء ما كأنها راوٍ متمكن غير مرئى، نافحة النار فى الكلمة التى علقت فى حلقى مثل قطعة الفم الساخن. "الحب يشير إلى الطريق، يفرغ منك الأشياء التى صنعت منها الحياة، يحملك فى النهاية إلى غموض الخلق. لقد فهمت ذلك الآن. نحن على الطريق إلى هناك".

أكملت حديثها، غير منتبهة لصورة "كلنت إستوود" التى تحدق فيها على غلاف مجلة قديمة تُركت على مائدة فى موقف حافلات فى مكان ما. "اللحظة التى رأيت فيها محمد، عرفت أن حياتى كلها سوف تتغير.

فقبل أن أراه كانت لى حياة، ولكن بعد أن عرفته،حياتى تحولت، كان الأمر كما لو كان كل شىء من حولى قد غير لونه وشكله - البشر، الأفرشة، المصابيح، المناضد، الشوارع، السحب، المداخن، كل شىء بمعنى كل شىء. كنت - بكل تقدير وإعجاب - قد بدأت الرحلة لكى أكتشف هذا العالم الجديد.

اشتريت الكتاب وأنا أفكر أننى لم أعد فى حاجة إلى كتب أو قصص خيالية، لكى أعرف العالم الذى انفتح أمامى حقًا. فيجب على أن أقوم بالبحث، برؤية كل شىء بأم عينى، لكن عندما قرأت الكتاب نفسه، فهمت على الفور ما يرقد خلف كل شىء يجب أن أراه. شجعت محمد- الذى كان قد رجع حزينًا من البلاد حيث كان قد ذهب فى البحث عن الحياة الجديدة- وأقنعته بأننا معًا سوف نصل إلى هناك.

رجوعًا إلى هذه الأيام، قرأنا الكتاب مجددًا مرات ومرات، لكن كل مرة بعيون جديدة. أحيانًا كنا نقضى أسابيع فى فقرة واحدة، وأحيانًا أخرى يكون كل شىء واضحًا كالجرس فور قراءته. ذهبنا لمشاهدة أفلام، قرأنا كتبًا وجرائد أخرى، مشينا عبر الشوارع، والأوقات حينما كان الكتاب فى عقولنا- عندما حفظناه عن ظهر قلب - لمعت شوارع اسطنبول ببريق غير عادى حتى تخيلنا أن المدينة أصبحت تنتمى لنا. كانت لنا طريقة لمعرفة أن الرجل المسن الذى رأيناه على ناصية الشارع يقف مائلًا على عصاه يخطط ليضيع وقته فى المقهى حالما يحين الوقت ليحضر

حفيده بعد المدرسة، عرفنا أن أنثى الحصان التى تجر العربة الأخيرة من بين الثلاث عربات التى مرت كانت أم الحصانين الهزيلين اللذين يجران العربتين الأخريين، عرفنا لماذا أكثر الرجال الآن يرتدون جوارب زرقاء؛ عرفنا كيف نفك رموز جدول مواعيد القطارات بقراءته من أسفل لأعلى، أو أن الحقيبة التى يحملها الرجل السمين كثير العرق الذى ركب الحافلة كانت مليئة بملابس داخلية قد أخذها من المنزل الذى سرقه لتوه، كنا نذهب إلى مقهى ونقرأ الكتاب مرة أخرى ثم نقوم بمناقشته لساعات، كان هذا هو الحب، أحيانًا كنت أعتقد أن الحب هو الطريقة الوحيدة لفهم عالم بعيد- كما فى الأفلام- ولتنتقل إلى هناك.

قالت فى ليلة ممطرة دون أن تخفض عينيها عن مشهد القبلات على الشاشة: "لكن بعد ذلك، كان هناك أشياء لا أعرف عنها شيئًا، أشياء لم أكن أبدًا لأعرفها." وبعد أربعة أو خمسة أميال من الطريق الزلق عندما كان مشهد القبلات قد حل محله مشهد حيث كانت حافلة تشبه حافلتنا تسافر عبر مناظر ساحرة مختلفة تمامًا، أضافت: "الآن نحن ذاهبون إلى هذا المكان غير المعروف بالنسبة لنا."

عندما كانت الملابس التى نرتديها جافة وخشنة من القذارة والغبار، وتاريخ كل الشعوب التى أثارت الغبار على هذه الأرض منذ أيام الحروب الصليبية قد استقر طبقة فوق أخرى على جلدنا، كنا نذهب للشراء

بعشوائية من مدينة عشوائية قبل أن نغير الحافلات. تشترى جنان لنفسها بعضًا من هذه التنانير القطنية الطويلة التى تجعلها تبدو كمعلمة محلية حسنة النية، وأشترى أنا نوعًا من القمصان كانت ترتديها نسخ باهتة من أنفس قديمة. فيما بعد إذا ما نجحنا فى أن ننظر إلى ما بعد مبنى مجلس البلدية، تمثال "أتاتورك"، وكالة أدوات "أرسليك"، الصيدلية والمسجد، ملاحظين الخط الأبيض الدقيق الذى تركته طائرة ما فى السماء الصافية الزرقة، يمكن رؤيته من وراء اللافتة المصنوعة من قماش الكتان بمدرسة القرآن وحفل الختان الذى كان يقترب، كنا نتوقف حيثما كنا، حاملين فى أيدينا حقائبنا البلاستيكية واللفافات، ولدقيقة كنا ننظر لأعلى إلى السماء قبل أن نسأل بيروقراطيًا شاحبًا يرتدى ربطة عنق باهتة عن الطريق إلى الحمام العام للمدينة.

وبما أن الحمامات تكون مخصصة للنساء فى الصباح، فقد كنت أقضى الوقت فى الشوارع والمقاهى؛ وعندما أمشى بجوار فندق المدينة، أحلم بإخبار جنان أننا بحاجة إلى قضاء ليلة واحدة على الأقل فى أرض ثابتة، فى فندق- على سبيل المثال- بدلا من ركوب الإطارات مجددًا والنوم فى الحافلات. وفى بعض الأمسيات عندما أنجح فى إخبارها بما كنت أحلم به، كانت جنان تعرض على ثمار التحقيقات التى أجرتها فى وقت الظهيرة بينما كنت أنا فى الحمامات: مجلد لأعداد من مجلات رومانسية

للصور، قصص كوميدية للأطفال والتي كانت هي الأقدم، عينات من لبان البالون لا أتذكر أنني تناولته قط، ودبوس شعر لم تكن أهميته واضحة بشكل مباشر. "سأخبرك ونحن في الحافلة." كانت تقول لي، معطية إياي هذه الابتسامة الخاصة التي تظهر على وجهها عندما تكون قد رأت الفيلم الذي يُعرض على جهاز الفيديو من قبل.

في ليلة- بدلا من عرض فيلم الفيديو المبتذل الذي كان يعرض عادة في حافلتنا- ظهر مذيع جاد ومهذب على شاشة التليفزيون لكي يعلن عن بعض الملاحظات عن الوفيات، قالت جنان: "إنني أشق طريقي لأصل إلى حياة محمد الأخرى، لكنه لم يكن محمد، كان شخصًا آخر في هذه الحياة الأخرى." انعكست أضواء نيون حمراء واهنة على وجهها أثناء ما سرنا بسرعة بجانب محطة للوقود.

"لم يصرح محمد بالكثير عن الشخص الذي اعتاد أن يكون، فضلاً عن ذكر أخواته، منزله الكبير، شجرة التوت، وأنه اعتاد أن يحمل اسمًا آخر وهوية أخرى، ذات مرة أخبرني كيف أنه في طفولته كان يحب قراءة مجلة تصدر بانتظام تدعى 'مجلة الأطفال الأسبوعية'. هل سبق لك أن قرأتها؟" تحركت أصابعها الرشيقة على الإصدارات المصفرة لمجلد للمجلة الأسبوعية العالق بين سيقاننا والمنضدة، وهي تشاهدني أقلب خلال الصفحات دون أن أنظر إليها،

قالت: "السبب فى أننى أجمع هذه هو أن محمد ادعى أن كل شخص سوف يعود فى النهاية إلى مكان ما بين هذه الصفحات، هذه الصفحات تشتمل على طفولته.فهى التى صنعت الكتاب. هل تفهم؟" لم أفهم تمامًا، وأحيانا لم أكن أفهم على الإطلاق، لكن جنان توجهت إلىّ بطريقة شعرت معها أننى فهمت حقًا.

قالت جنان: "مثلك، محمد أيضًا قرأ الكتاب وفهم أن حياته كلها سوف تتغير؛ ودفع بفهمه لآخر مدى إلى نهايته المنطقية. لقد كان يدرس الطب، ولكنه تركه لكى يكرس كل الوقت للحياة التى فى الكتاب. لقد فهم أنه يجب أن يهجر ماضيه كليًا لو كان سيصبح مخلوقًا جديدًا كليًا؛ ولذلك قطع كل علاقاته مع والده وعائلته.... لكن لم يكن من السهل أن يصبح حرًا وبمعزل عنهم. أخبرنى أنه قد حقق بالفعل الحرية للمضى قدمًا إلى حياته الجديدة بواسطة حادثة طريق. صحيح: الحوادث عبارة عن تحولات، والتحولات هى الحوادث. فالملاك يصبح مرئيًا فى لحظة التحول السحرية، وعندها إذًا ندرك المعنى الحقيقى للفوضى التى تدعى الحياة. عندها فقط نستطيع أن نعود إدراجنا إلى الوطن."

عند سماع هذه الكلمات، كنت أضبط نفسى حالمًا بأمى التى تركتها خلفى، حجرتى، أشيائى، فراشى؛ وأشعر بأننى متسرع بشكل غادر ومذنب، كنت أشيد خيالات تربط ما كان فى أحلامى سويًا مع أحلام جنان بالحياة الجديدة.

الفصل السادس

جهاز التليفزيون دائمًا ما يكون موضوعًا فى مكان ما فوق مقعد السائق، وفى بعض الأمسيات لم نكن نتحدث ولكن تظل أعيننا معلقة فوق الشاشة؛ ولأننا لم نكن قد قرأنا الصحف منذ أشهر، فقد كان التليفزيون- الذى يكون مليئًا بالصناديق، مفارش المائدة، ستائر مخملية، أساس خشبى مطلى بلمع الخشب، تمائم، عيون حاقدة، ملصقات، تحف، ويرتفع إلى حالة المذبح الحديث- هو النافذة الوحيدة التى نملكها فى هذا العالم، فضلاً عن نوافذ الحافلة. شاهدنا أفلام الكراتيه حيث الأبطال سريعو البديهة يركلون ويلقون فى آن واحد وجوه مئات المشردين السكارى، وكذلك الأفلام المقلدة المحلية بطيئة الحركة التى صنعت باستخدام ممثلين خرقاء، رأينا أيضًا أفلامًا أمريكية مثل الفيلم الذى فيه البطل الأسمر الذكى والجذاب يخدع الشرطة كما يخدع أيضًا أفراد العصابة، أو أفلام الطائرات، حيث يقوم شباب حسنو الطلعة بأداء حركات بهلوانية انتحارية بطائراتهم، وأفلام الرعب حيث الفتيات الصغيرات الجميلات خائفات للغاية من مصاصى الدماء و الأشباح. فى الأفلام المحلية، التى كانت فى المعظم عن أناس أثرياء

لم يستطيعوا النجاح فى إيجاد أزواج مخلصين ومناسبين لبناتهم اللاتى يتصرفن كسيدات. كل الأبطال- سواء كانوا رجالاً أو نساء - بدوا وكأنهم قد أمضوا وقتًا كانوا فيه مطربين فى مرحلة ما من حياتهم، وهم باستمرار يسيئون فهم بعضهم البعض بشكل كامل حتى أن سوء الفهم هذا يتحول فى النهاية إلى نوع من الفهم. لقد أصبحنا معتادين على رؤية نفس الوجوه و الأجسام فى أدوار نمطية مثل رجل البريد المريض، المغتصب القاسى، الأخت طيبة القلب لكن بسيطة المظهر، القاضى رخيم الصوت، المرأة المتزوجة الغبية أو الذكية ، حتى أننا عندما نرى فى استراحة المحطة الأخت الطيبة القلب جالسة مع المغتصب القاسى ويتناولان سويًا حساء العدس الأحمر بهدوء مع باقى الركاب الليلين الناعسين فى "مطعم ممر الذكريات" حيث تم وضع صور لمساجد، لأتاتورك، لمصارعين، و نجوم السينما على الحوائط، نكون على قناعة بأننا قد خدعنا . بينما تتذكر جنان على مهل أيًا من الممثلات الشهيرات فى الصور التى على الحائط قد لعبت دور الضحية التى تعرضت للتحرش من قبل مغتصب فى الأفلام التى قد رأيناها، تذكرت أننى نظرت إلى الرواد الآخرين فى المطعم المبهرج، مفكرًا أننا جميعًا ركاب على سفينة غامضة نتناول الحساء فى حجرة الطعام الباردة والمضيئة ونبحر نحو الموت.

رأينا مشاهد مشاجرات كثيرة جدًا على الشاشة، نوافذ كثيرة، زجاج، أبواب كلها محطمة، سيارات وطائرات كثيرة اختفت عن الرؤية واحترقت عن آخرها، منازل كثيرة، جيوش، عائلات سعيدة، رجال سيئون، خطابات غرامية، ناطحات سحاب، كنوز ابتلعتها النيران المستعرة، رأينا كل الدماء التى تتدفق من الجروح، من الوجوه، من الرقاب المذبوحة، وشاهدنا مشاهد مطاردات لاحصر لها حيث مئات وآلاف السيارات تجرى مسرعة وراء بعضها البعض، تتخطى المنحنيات بسرعة كبيرة ثم تصطدم ببعضها البعض بسعادة، شاهدنا عشرات الآلاف من الانتحاريين، رجالاً ونساء، أجانب ومن البلد، بشوارب وبدون شوارب، يطلقون النار على بعضهم البعض بدون توقف. "لم أعتقد أن الرجل يمكن أن ينخدع بسهولة." كانت جنان تقول بعد أن ينتهى شريط الفيديو الأول وقبل أن يبدأ الآخر. وبعد أن ينتهى الشريط الثانى و يفسح الطريق للبقع السوداء على الشاشة الفارغة، كانت تضيف: "مازالت الحياة جميلة إذا كنت على الطريق إلى مكان ما." أو "لا أصدق أى شىء من هذا، لم أنخدع ولكنى مازلت أحبه." أو- تظل النهاية السعيدة للفيلم على وجهها لفترة- كانت تتمتم وهى بين النوم واليقظة: "سأحلم بالسعادة الزوجية."

عند نهاية الشهر الثالث من رحلتنا، كنت أنا وجنان قد شاهدنا حتمًا أكثر من ألف من مشاهد القبلات.

مع كل قبلة، يطبق الصمت على المقاعد. لا يهم إلى أي مدينة صغيرة أو مدينة معزولة تتوجه إليها الحافلة، لا يهم من يكون الركاب، هل هم من النوع الذي يسافر بسلال البيض أو بيروقراطيون يحملون الحقائب؛ كنت واعيًا، لبدى جنان، على ركبتيها أو حجرها، وللحظة أرغب في أن أفعل شيئًا مهمًا يكون قويًا وعنيفًا بعمق. حتى نجحت في ليلة صيف ممطرة في عمل شيء لم أكن واعيًا تمامًا أني أريد فعله، أو فعل شيء ما قريبًا منه.

كانت الحافلة المظلمة نصف ممتلئة؛ وكنا نجلس في مكان ما في المنتصف؛ وعلى شاشة الفيديو كانت السماء تمطر في مشهد استوائي بعيد وأجنبي للغاية. كنت قد قربت وجهي- بغريزية- بالقرب من النافذة، وبذلك أصبحت قريبًا من جنان، ولاحظت أنها تمطر بالخارج. كانت جنان تبتسم لي عندما قبلتها على شفتيها كما يفعلون في الأفلام والتليفزيون، أو هكذا تخيلت أنهم يفعلون؛ قبلتها بكل قوتي وهي تقاوم، بكل رغبتي، وغضبي، ودمي المتدفق.

قالت لي: "لا يا عزيزي، لا! أنت تشبهه كثيرًا ولكنك لست هو. هو في مكان آخر."

هل كان الوهج الوردي على وجهها انعكاسًا للافتات النيون لشركة البترول التركية الأكثر عزلة، والأكثر لعنة؟ أو انعكاسًا لفجر مذهل يشرق في العالم الآخر؟ كان هناك دم على شفتي الفتاة. الكتب تخبرنا

بما يحدث فى مثل هذه المواقف، والأبطال فى الأفلام يردون بقلب الموائد، تحطيم النوافذ، وتحطيم سياراتهم بالاصطدام بالحوائط، توقعت مذاق القبلة على شفتى، ولكنى كنت متأزمًا. ربما كانت فكرة خلاقة جاءت إلى ذهنى: أنا لست هنا، أخبرت نفسى؛ إذا لم أكن هنا، ما الفرق الذى سيصنعه وجودى؟ لكن بعد ذلك بدأت الحافلة فى الاهتزاز بحماس متجدد وشعرت أننى على قيد الحياة أكثر من أى وقت مضى، الألم الذى بين ساقى تفاقم وأصبح حادًا، مما جعلنى راغبًا فى إجهاد نفسى، أن أنفجر، ثم أتراجع. ثم أصبحت الرغبة حتمًا أعمق؛ فيجب أن تكون شملت العالم كله، عالم جديد. توقعت هذا بدون معرفة ما يمكن أن يحدث؛ كنت أنتظر، عيناى رطبتان، جسدى يعرق: كنت أسعى إلى شىء دون معرفة ما هو، عندما انفجر كل شىء بسلام، ليس بسرعة جدًا، ولا ببطء جدًا، ثم خفت واختفى.

سمعنا أولاً الضوضاء الرائعة ثم لحظة الصمت الهادئ الذى يتبع الحادثة، أدركت أيضًا أن جهاز التليفزيون قد انفجر متحولاً إلى شظايا هو والسائق معًا؛ وعندما بدأت الصيحات والأنات، أخذت جنان من يدها وقدتها بحنكة وأمان هابطًا بها إلى وجه الأرض. واقفين فى المطر الغزير، أدركت أن الحافلة لم تعان من الدمار الكامل، كان هناك اثنان أو ثلاثة من الضحايا بالإضافة إلى سائقنا أما الحافلة

الأخرى التى تتبع شركة تدعى بـ"الطريق السريع"، فقد انثنت إلى نصفين على جسد سائقها الميت وتدحرجت فى حقل من الوحل، وكانت مملوءة بالموتى والمحتضرين. كما لو كنا نخطو هابطين إلى مركز الحياة، نزلنا تدريجيًا إلى حقل الذرة حيث تدحرجت الحافلة، واقتربنا منها شاعرين بأننا مسحورون.

عندما اقتربنا، رأينا فتاة تكافح لكى تخرج من نافذة انفتحت بعد أن انفجرت متحطمة؛ كانت تشق طريقها بقدمها أولاً؛ كان سروالها "الجينز" الأزرق مغطى بالدماء، ظل ذراعها ممتدًا إلى داخل الحافلة حيث كانت تمسك بيد شخص ما- مددنا رأسينا للداخل لنرى أن هذه اليد تنتمى إلى شاب يبدو عليه الإعياء لدرجة أنه لا يقدر على التحرك. حررت الفتاة ذات الجينز الأزرق نفسها بمساعدتنا، لكنها لم تدع يده من يدها ولو للحظة واحدة. ثم انحنت على اليد وظلت تشدها، وهى تكافح لتسحب يد الشاب إلى الخارج، لكن استطعنا أن نرى أنه كان منحشرًا بين الكروم والمعادن المطلية التى انسحقت معًا كالورق المقوى. كان الفتى فى وضع مقلوب، ناظرًا إلينا وإلى الكون المظلم والممطر عندما مات.

غسلت مياه الأمطار الدماء من على شعرها الطويل، ومن على عينيها ووجهها. كانت تبدو فى مثل عمرنا. كان وجهها - الذى انتعش من ماء المطر-

يحمل تعبيراً طفولياً باستثناء نظرة شخص قابل الموت وجهاً لوجه. أيتها الفتاة المبتلة، نحن آسفان جداً من أجلك. في الضوء القادم من حافلتنا، نظرت الفتاة للحظة إلى الشاب الميت وهو جالس في مقعده.

قالت: "أبي .... أبي سيغضب جداً الآن". تركت يد الشاب الذي مات، ثم أخذت وجه جنان بين يديها، وأخذت تهدهده كما لو كانت أختاً بريئة تعرفها منذ مئات السنوات. قالت: "أيتها الملاك، لقد وجدتك أخيراً، هنا في النهاية، بعد كل هذه الرحلات في المطر". أدارت وجهها الجميل المغطى بالدماء باتجاه جنان، وهو يتوهج بالإعجاب، بالاشتياق، والسعادة. قالت: "النظرة التي تلاحقني دائماً، التي تبدو وكأنها تظهر في آخر الأماكن المتوقعة فقط لكي تختفي، والتي تجعل نفسها منشودة لتختفي أكثر، كانت من البداية وكل هذا الوقت نظرتك، أنت تعرفين كيف بدأنا رحلتنا على الطريق بالحافلة وسافرنا من مدينة إلى أخرى، ونحن نقرأ الكتاب مجدداً، فقط لكي نلتقي بنظرتك، أيتها الملاك، فقط لننظر بالمقابل في عينيك".

ابتسمت جنان قليلاً، كانت مندهشة قليلا، غير متأكدة قليلا، لكنها فرحة وحزينة بسبب الهندسة المختفية في اعتقاد الفتاة الخاطئ.

"استمري في الابتسام لي" قالت الفتاة المحتضرة ذات الجينز الأزرق. (لقد فهمتُ أنها ستموت حتماً.

يا ملاكى) " ابتسمى لى لأستطيع أن أرى فى وجهك ولو لمرة إشراقة العالم الآخر؛ فإنه يذكرنى بدفء المخبز فى يوم ملىء بالجليد حيث توقفت عندما مررت من أمامه بعد المدرسة بحقيبة ظهرى فى يدى واشتريت فطيرة بالسمسم؛ يذكرنى بسعادة القفز من على مصدات الأمواج إلى البحر فى يوم صيف حار. تذكرنى ابتسامتك بقبلتى الأولى، العناق الأول، أشجار الجوز التى تسلقتها بنفسى إلى أن وصلت إلى قمتها، ليلة الصيف حينما سموت فوق نفسى، الليلة التى كنت فيها سَكْرى بسعادة، الشعور بأننى تحت لحافى، عيون الولد الجميل الذى نظر إلىّ بحب، كل هذه الذكريات توجد فى المملكة الأخرى حيث أرغب فى أن أكون، ساعدينى لكى أقبل بسعادة روحى وهى تتناقص مع كل نفس آخذه."

ابتسمت جنان لها بلطف.

قالت الفتاة، وهى واقفة فى حقل الذرة الذى يردد أصوات صرخات الموت والذكرى. " آه، أنتم الملائكة! كم أنتم مرعبون! كم أنتم قساة بلا شفقة، وبالرغم من ذلك كم أنتم جميلو الطلعة! بينما كل كلمة، كل شىء، كل ذكرى تمتصنا تدريجيًا وتحولنا إلى تراب، فكل شىء تلمسونه أنتم وإشعاعكم الذى لا يفنى يظل بسلام خارج الزمن. ولذلك، منذ أن قرأنا أنا وحبيبى المنحوس الكتاب، ونحن نبحث طويلاً عن نظرتك من نوافذ الحافلات. الآن أرى أنها نظرتك، أيتها الملاك،

هى اللحظة الفريدة التى وعد بها الكتاب، هذه لحظة العبور بين المملكتين؛ الآن وأنا لست هنا ولا هناك، أفهم ماذا كان يقصد بالرحيل؛ والآن كم أنا سعيدة بفهمى لمعنى السلام، الموت، والزمن. استمرى فى الابتسام لى- يا ملاك- ابتسمى".

لم أستطع تذكر ما حدث بعد ذلك لوقت ما.. ما حدث لى كان شيئًا كان تفقد راسك فى نهاية نوبة مبهجة من السُكر والشراب، وفى الصباح تقول، "وعند هذه النقطة انقطع الفيلم". أتذكر أن الصوت انقطع أولاً، واستطعت تقريبًا أن أرى كيف كانتا- الفتاة وجنان- تنظران إلى بعضهما البعض. من المؤكد أن الصورة انقطعت كما انقطع الصوت؛ لأن ما رأيته فيما بعد فشل فى أن يصبح جزءًا من ذكرياتى، وتبخر دون أن يُسجل بأى أثر للذكرى.

أتذكر بغموض الفتاة ذات الجينز الأزرق وهى تذكر شيئًا عن الماء، لكنى لا أستطيع استرجاع كيف عبرنا حقل الذرة لنصل إلى ضفة النهر، أو إذا ما كان نهرًا فى الواقع أم أنه مجرد جدول مائى مليء بالوحل، ولم أستطع تحديد مصدر الضوء الأزرق الذى استطعت أن أرى فيه قطرات المطر تسقط على جسم من ماء مكونة دوائر متحدة المركز.

رأيت الفتاة بعد فترة تأخذ وجه جنان مرة أخرى بين يديها، كانت تهمس بشيء ما إلى جنان، لكنى لم أستطع أن أسمع، أو أن الكلمات التى همست بها كما

لو كانت فى حلم لم يصل لى، شعرت بالذنب، فكرت فى أننى يجب أن أترك الفتاتين بمفردهما، أخذت خطوتين باتجاه النهر، لكن غاصت قدمى فى الأرض المنخفضة المليئة بالوحل، وأصابت خطواتى غير الثابتة فريقًا من الضفادع بالفزع فقفز فى الماء مصدرًا صوتًا مميزًا، طفت علبة سجائر متجعدة على الماء ببطء متجهة نحوى؛ كانت علبة من نوع "مالتيب"، وهى تتمايل هنا وهناك بواسطة قطرات المطر الصغيرة التى تضربها على الجانبين؛ ثم- بفخر وثقة- تقدمت بزهو إلى أرض الاحتمالات، لم يكن هناك أى شىء آخر يُرى بوضوح فى مجال رؤيتى الغامض فضلاً عن علبة السجائر وظلال جنان والفتاة التى اعتقدت أننى أستطيع رؤيتها تتحرك. أمى، أمى، لقد قبلتها ورأيت نفسى أموت، كنت أقول هذا لنفسى عندما سمعت نداء جنان.

قالت: "ساعدنى، أريد أن أغسل وجهها لكى أمنع والدها من أن يرى الدماء."

وقفت خلفها ومسكت الفتاة لأعلى، كان كتفاها ضعيفين، وإبطاها دافئين، شاهدت ما يكفينى من اهتمام ورحمة الأمومة فى إيماءات جنان، وهى تغسل وجه الفتاة، تسكب الماء بملء يدها من البركة حيث رأيت علبة السجائر تبحر، تنظف بحنان الجرح الذى فى جبهتها؛ لكن جاءنى إحساس بأن نزيف الفتاة لن يتوقف، قالت الفتاة إنها عندما كانت صغيرة، كانت

جدتها تحممها بهذا الشكل؛ اعتادت أن تخاف من الماء لفترة ما، لكن الآن عندما أصبحت أكبر أحبتها، لكنها كانت تحتضر.

قالت: "هناك أشياء يجب أن أخبركما بها قبل أن أموت، ساعدانى لأصل إلى الحافلة".

كان هناك زحام بلا قرار، مثل هؤلاء الذين تراهم فى نهاية ليلة جامحة ومرهقة من ليالى المهرجانات، يتجولون حول الحافلة التى انقلبت وانثنت حول نفسها، كان هناك شخصان يتحركان ببطء فى الجوار بدون أى هدف واضح، ربما كانوا ينقلون الجثث مثل الحقائب. فتحت امرأة تحمل حقيبة بلاستيكية مظلتها ووقفت تنتظر كما لو كانت تنتظر حافلة أخرى، كان الركاب على حافلتنا القاتلة- وكذلك بعض الركاب من الحافلة التى تم تدميرها- يحاولون سحب بعض الأحياء الذين تم احتجازهم وسط الحقائب والجثث فى الحافلة المتحطمة إلى الخارج فى المطر. اليد التى كانت تمسكها الفتاة- التى كانت ستموت سريعًا- مازالت هناك كما تركتها تمامًا.

بدت الفتاة تقترب من الحافلة بدافع من الشعور بالواجب والضرورة أكثر منه شعور بالحزن. قالت: "لقد كان حبيبى، كنت أنا من قرأ الكتاب أولاً، وكنت منبهرة وخائفة، كان من الخطأ أن أعطيه الكتاب ليقرأه، كان هو الآخر منبهرًا أيضًا، لكن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة له؛ أراد أن يذهب إلى هذه الأرض.

ظللت أخبره بأنه مجرد كتاب، لكنه لم يكن مقتنعًا. كنت أحبه. لذلك انطلقنا على الطريق، مسافرين من مدينة إلى أخرى، ملتمسين مظاهر الحياة، باحثين عما يختبئ تحت ألوان الحياة، نبحث عن الحقيقة ولكن لا نجدها. عندما بدأنا في التشاجر، تركته لتحرياته ورجعت إلى البيت إلى والدي وانتظرت، رجع محبوبي لي في النهاية، لكن بعد أن أصبح شخصًا آخر. أخبرني أن الكتاب قد ضلل أناسا كثيرين. أخذ أشخاص كثيرين سيئي الحظ من المسار الطبيعي لحياتهم، وأنه مصدر لكثير من الشرور. الآن لقد أخذ عهدًا على نفسه بأن يأخذ بثأره من الكتاب لكونه السبب في كثير من الإحباط وكثير من الحيوات المحطمة. أخبرته أن الكتاب بريء، موضحة له أن هناك كتبًا كثيرة تشبهه. قلت له إن المهم هو استيعابك أنت، لما تقرؤه داخل الكتاب. لكني لم أستطع أن أجعله ينصت. فلقد كان يتقلب بالفعل في غضب حاقد يهاجم سيئي الحظ الذين يتم خداعهم. أثار موضوع دكتور "فاين" لامسًا معاناته مع الكتاب، ضد الحضارات الأجنبية التي تحطمنا، ضد الأشياء العصرية عديمة النفع التي تأتي من الغرب، ومعركته الكاملة ضد الأشياء المطبوعة، أتى على ذكر كل أنواع الساعات، والتحف، أقفاص الكناريا، المطاحن اليدوية، الأدوات اليدوية، لم أفهم أي شيء من هذا، لكني كنت أحبه، كان محاطًا بشعور غريب من الاستياء، لكنه كان لايزال حب حياتي. لهذا السبب كنت أتبعه إلى مدينة

تدعى "جيودل" حيث قال إن هناك مؤتمرًا سريًا يعقد من قبل التجار المتحدين تحت شعار "أهدافنا". يفترض أن تابعه المخلص كان سيحدد مكاننا ويأخذنا إلى دكتور "فاين". لكن الآن يجب عليكما أن تذهبا إلى هناك بدلاً منا، أوقفا خيانة الحياة والكتاب، دكتور "فاين" ينتظرنا - تاجران شابان يبيعان المواقد وهبا نفسيهما للكفاح، أوراق هويتنا في جيب القميص الخاص بحبيبي، الرجل الذي سيأتي ليأخذنا ستفوح منه رائحة صابون الحلاقة "أو بي".

أغرقت الدماء وجهها من جديد؛ قبلت وداعبت اليد التي كانت تمسكها، وبدأت تنتحب، أمسكت جنان بكتفيها.

قالت الفتاة: "أنا من يقع عليها اللوم أيضًا، أنا لا أستحق حبك. لقد أقنعني حبيبي بأن أتبعه، لقد خنت الكتاب. لقد كتب عليه أن يموت دون أن يراك لأنه يقع عليه اللوم أكثر، سيكون أبي غاضبًا جدًا، لكني سعيدة أنني أموت بين يديك."

طمأنتها جنان بأنها لن تموت، لكننا كنا نريد أن نصدق في الحقيقة موتها، مفترضين أن المحتضرين لم يكشفوا قط عن موتهم الموشك في كل الأفلام التي شاهدناها. في دورها كملاك، ضمت جنان يد الفتاة إلى يد الشاب الميت كما يحدث في هذه الأفلام، ثم ماتت الفتاة، يدًا في يد مع حبيبها.

تدعى "جيودل" حيث قال إن هناك مؤتمرًا سريًا يعقد من قبل التجار المتحدين تحت شعار "أهدافنا". يفترض أن تابعه المخلص كان سيحدد مكاننا ويأخذنا إلى دكتور "فاين". لكن الآن يجب عليكما أن تذهبا إلى هناك بدلاً منا، أوقفا خيانة الحياة والكتاب، دكتور "فاين" ينتظرنا - تاجران شابان يبيعان المواقد وهبا نفسيهما للكفاح، أوراق هويتنا في جيب القميص الخاص بحبيبي، الرجل الذي سيأتي ليأخذنا ستفوح منه رائحة صابون الحلاقة "أو بي".

أغرقت الدماء وجهها من جديد؛ قبلت وداعبت اليد التي كانت تمسكها، وبدأت تنتحب. أمسكت جنان بكتفيها.

قالت الفتاة: "أنا من يقع عليها اللوم أيضًا. أنا لا أستحق حبك. لقد أقنعني حبيبي بأن أتبعه. لقد خنت الكتاب. لقد كتب عليه أن يموت دون أن يراك لأنه يقع عليه اللوم أكثر. سيكون أبي غاضبًا جدًا. لكني سعيدة أنني أموت بين يديك."

طمأنتها جنان بأنها لن تموت. لكننا كنا نريد أن نصدق في الحقيقة موتها، مفترضين أن المحتضرين لم يكشفوا قط عن موتهم الموشك في كل الأفلام التي شاهدناها. في دورها كملاك، ضمت جنان يد الفتاة إلى يد الشاب الميت كما يحدث في هذه الأفلام، ثم ماتت الفتاة، يدًا في يد مع حبيبها.

الفصل السابع

بعد فترة من الأمطار الصيفية التى لا نهاية لها، بعد مدينتين مختلفتين، وثلاث حافلات، وصلنا إلى المدينة التى تدعى "جيودل". كنا قد غادرنا لتونا موقف الحافلات المليء بالوحل، وكنا نقترب من الأرصفة الضيقة فى حى التسوق عندما نظرت لأعلى إلى السماء ورأيت شيئًا غريبًا، لافتة من القماش تناشد الأطفال الالتحاق بالمدرسة الصيفية للقرآن،فى نافذة العرض الخاصة بمحلات الاحتكارات وتوتو للأدوات الرياضية، تم وضع زجاجات الخمر المبهرجة وبينها كان هناك ثلاثة من دمى الفئران تبتسم كاشفة عن أسنانها، كانت الصور التى تم وضعها على باب الصيدلية تشبه النوع الذى يرتديه المعزون على ياقاتهم فى الجنازات التى تقام عقب الاغتيالات السياسية، يُكتب عليها تاريخ الميلاد والوفاة الخاصة بالمجنى عليه تحت الوجوه التى ذكرت جنان بشخصيات الطبقة العليا المتحفظة فى الأفلام المحلية القديمة، دخلنا إلى متجر واشترينا حقيبة بلاستيكية وقمصانًا من النايلون، على أمل أن نعبر عن أنفسنا كائنين من التجار صغار السن المحترمين، كانت أشجار الكستناء بطول الرصيف الذى أخذنا إلى

الفندق قد زرعت فى صفوف متساوية بشكل مدهش. قرأت جنان لافتة تحت إحدى هذه الأشجار تعلن: "عمليات الختان تؤدى بالطريقة القديمة السليمة، وليس بواسطة الليزر". وقالت: "إنهم ينتظروننا". أبقيت أوراق المرحوم "على كارا" والمرحومة "افسون كارا" جاهزين فى جيبى، لكن موظف الفندق القوى البنيان قليلاً وذا شارب هتلر ألقى نظرة عابرة على وثيقة الزواج.

قال: "هل أنتما هنا لحضور مؤتمر التجارة؟ الجميع فى مبنى المدرسة الثانوية لعقد الجلسة الافتتاحية. هل معكما أمتعة أخرى بجانب هذه الحقيبة؟"

قلت: "أمتعتنا احترقت فى حريق فى الحافلة، وكذلك أمتعة بقية الركاب. أين هذه المدرسة الثانوية؟"

قال الموظف: "الحافلات لها طريقة ما فى الاحتراق، يا سيدى. الصبى سيأخذكما إلى المدرسة".

تحدثت جنان إلى الصبى بطريقة لطيفة لا تستعملها معى قط. "ما قصة هذه النظارة السوداء؟" أغاظته قائلة: "إنها تجعل العالم أسود، أليس كذلك؟"

قال الصبى: "النظارة لا تفعل ذلك، لأن أنا "مايكل جاكسون"".

قالت جنان: "ماذا تقول أمك عن هذا؟ انظر ما أجملها من سترة شغلتها لك؟"

قال الصبى: "لا دخل لأمى فى كل هذا!"

بوصولنا إلى المدرسة "كين إفرن" الثانوية- التى كُتب اسمها على لافتة بأضواء النيون- كنا قد جمعنا بصعوبة هذه الحقائق المتعلقة بالموضوع من "مايكل جاكسون": كان فى الصف السادس؛ والده يعمل فى مسرح دار العرض الذى ينتمى إلى نفس مالك هذا الفندق، لكنه كان مشغولا بالمؤتمر؛ كل المدينة مشغولة بالمؤتمر؛ كان هناك بعض الأشخاص ضد كل هذه الأعمال؛ بالرغم من ذلك، أكد حاكم المقاطعة على شىء مثل: "لن أسمح للخزى أن يرتبط بأية مدينة أكون فيها الحاكم!"

هناك- فى المعارض التى أُقيمت فى "كافيتريا" مدرسة "كين إفرن" الثانوية- رأيت عروضًا لجهاز يخفى الوقت، عدسة سحرية تحول الأبيض والأسود إلى ألوان، أول جهاز تركىّ الصنع يتتبع ويكشف لحم الخنزير فى أى منتج كان، مرطب بعد الحلاقة بدون رائحة، مقص يقص أوتوماتيكيًا الكوبونات من الجرائد، مدفأة تعمل حينما يخطو صاحب المنزل إلى منزله، ساعة زنبركية تقدم حلاً لمشكلة النداء للصلاة، وهى: هل يجب أن تذاع بمكبرات الصوت أم يؤذن المؤذن للصلاة من المئذنة بما تتسع به رئتاه، هذه الساعة تضع حدًا من تلقاء نفسها لقضية "الحضارة الغربية مقابل الحضارة الإسلامية" من خلال جهاز عصرى: بدلاً من طائر الكوكو المعتاد، تم تعيين شخصين آخرين، إمام صغير يظهر فى الشرفة السفلى فى الوقت المحدد للصلاة ليعلن ثلاث مرات

أن "الله أكبر!" ودمية رجل صغير يرتدي رابطة عنق لكن بلا شوارب يظهر في الشرفة العليا كل ساعة، مؤكدًا أن "السعادة هي كونك تركيًا، تركيًا، تركيًا".

عندما رأينا موديل ما من كاميرا، وجب علينا أن نوافق على الارتياب في أن هذه الاختراعات يجب أن تكون بالضرورة عمل طلاب المدارس الثانوية المحلية في المنطقة، على الرغم من أن الآباء والأعمام، والمعلمين الذين يتجولون في الزحام من الضروري أن يكونوا قد وضعوا أيديهم أيضًا في خلق هذه المشاريع العلمية. مئات من مرايا الجيب تم وضعها في صفوف مقابل بعضها البعض في الفراغ بين إطار السيارة الداخلي والخارجي، وبهذا تقوم بعمل متاهة من الانعكاسات. عندما انغلق الغطاء عن الضوء القادم من الأشياء الخارجية التي تدخل من ثقب في متاهة المرايا، كانت صورة الضوء المحبوس قد أجبرت على أن تدور وتدور، وتنعكس على المرايا إلى ما لا نهاية. ثم، في أي وقت تشعر أنك تريد أن تفعل ذلك، يمكنك النظر خلال هذا الثقب وترى الصورة الحقيقية التي تم سجنها هناك في الحجرة. لتكن شجرة، أو معلمة عصبية تفهم المعرض العلمي، تاجر الأجهزة الكهربائية السمين، طالب ذو وجه ملىء بحب الشباب، الأوراق الرسمية لأرض ملقاة بإهمال تحت كأس من عصير الليمون، صورة لوجه الجنرال "إفرن"، ساعي بلا أسنان يبتسم للجهاز، شخصية غير شريفة، عينك ذاتها، وحتى جنان الجميلة الفضولية

بذكاء والتى ظلت بشرتها منتعشة على الرغم من رحلاتها على الحافلات.

لاحظنا أشياء أخرى فضلاً عن هذه الأجهزة، على سبيل المثال، الموظف المحترم الذى يرتدى جاكت كاروهات ويلقى كلمة، كان الزحام يتكون من جماعات صغيرة كانت تلقى علينا- كما تلقى على بعضها البعض- نظرات متفحصة، كانت هناك فتاة صهباء تضع شريطًا حريريًا فى شعرها تردد مكررة القصيدة التى ستلقيها حالاً، مستكينة على تنورة أمها التى تضع إيشاربًا، اقتربت جنان منى، كانت ترتدى تنورة مطبوعة لونها أخضر بلون الفستق كنا قد اشتريناها فى "كاستمونو". أحببتها-أيتها الملاك- لقد أحببتها جدًا، كما تعرفين جيدًا، ابتعنا مشروب زبادى مثلج من كشك ووقفنا على حافة الزحام فى ضوء الظهيرة المغبر فى الكافيتريا، شاعرين بالتشوش، التعب، والنعاس، فقط تقوم بفهم المشهد. ما كنا نشاهده بدا كأنه يخلق نوعًا من موسيقى الوجود، أو علم الحياة. ثم رأينا جهاز تليفزيون من نوع ردىء اقتربنا لنفحصه عن كثب. "هذا التليفزيون الفريد يفترض أنه مشاركة "دكتور فاين" فى المعرض." قال رجل يرتدى رابطة عنق فراشية الشكل. هل كان ماسونيًا؟ لقد قرأت فى الصحف أن الماسونيين يرتدون أربطة عنق فراشية الشكل. قال وهو يتفحص جبهتى بعناية، ربما لتجنب التحديق فى جنان أكثر من اللازم: "من الذى أتشرف بمقابلته؟"

- قلت: "على وافسون كارا".

- "أنتما حديثا السن جداً! إن هذا يعطينا الأمل في رؤية أشخاص من الشباب مثلكما وسط كل رجال الأعمال المحبطين هؤلاء".

- "نحن لسنا محبطين، نحن نملك إيماناً حقيقياً". قالها شخص ضخم، رجل مرح ذو طابع أبوي، مناسب بما يكفى كى تسأله فتاة مدرسة ثانوية عن الوقت.

وهكذا انضممنا إلى المجموعة. ألقت الفتاة ذات الشريط في شعرها قصيدتها، غمغمت خلال القصيدة مثل نسمة صيف خفيفة. كان الشاب الوسيم- بشكل كاف ليلعب دور المطرب في فيلم محلي- يتحدث عن المنطقة التي يسكنها رجل عسكري متأفف دوماً، يتحدث عن مئذنة "سلجوك"، طيور اللقلق، محطة الكهرباء الجديدة التي تحت الإنشاء، والإنتاج الوفير لحليب الأبقار المحلية. أثناء ما كان الطلاب يشرحون مشاريعهم التي وضعت على موائد الكافيتريا، وقف آباؤهم أو معلموهم بجانبهم ينظرون إلى الحضور بفخر. قابلنا الأشخاص الآخرين الذين كانوا في الحجرة وكانوا يشربون إما الزبادي أو عصير الليمون، يلتقون صدفة ببعضهم البعض ويتصافحون. التقطت أنفي نفحة من رائحة كحول، وصابون الحلاقة "أو بي". لكن من أين تأتي تلك الرائحة، أو ممن؟ ألقينا نظرة أخرى على تليفزيون دكتور فاين، كان الحديث يدور معظمه حول

دكتور فاين هذا، لكنه-هو نفسه- لم يكن فى أى مكان فى الجوار.

عندما حل المساء، تركنا جميعًا مبنى المدرسة الثانوية، الرجال يقودون النساء، قاصدين المطعم. إحساس ضمنى بالعداء كان ملموسًا فى الشوارع خلال المدينة، كنا قد لاحظنا من قبل أبواب محلات الحلاقين ومتاجر البقالة التى كانت لاتزال مفتوحة للعمل، المقهى حيث التليفزيون مفتوح، ونوافذ مبنى الحكومة المضاءة، واحد من طيور اللقلق التى ذكرها الرجل الوسيم كانت تشاهدنا ندخل المطعم من البرج الذى فى الميدان حيث تجثم. هل كان هذا بدافع الفضول؟ أم بدافع من العداء؟

كان المطعم مكانًا مناسبًا فيه حوض للأسماك وأصص للزهور، كان معلقًا على الحوائط صور لمشاهير الأتراك، الغواصة التاريخية التى غاصت تحت الماء فى شرف، لاعبى كرة القدم ذوى رءوس مائلة، ثمار تين بنفسجية، كمثرى ذهبية، وخراف مرحة. عندما امتلأ المكان بسرعة بالتجار وزوجاتهم، طلبة المدرسة الثانوية والمدرسين، وكل الذين أحيونا ولديهم إيمان بنا، شعرت كما لو كنت أتوقع هذا التجمع والإعداد لليلة كهذه طوال كل هذه الشهور. بدأت أشرب مع الآخرين لكن انتهى الأمر بأن شربت أكثر من أى واحد آخر، جلست مع الرجال، نضرب كئوس "الراكى" مع هؤلاء الذين ظلوا يتوافدون

ليجلسوا بجانبي، متحدثين بجوع عن الشرف، المعنى المفقود للحياة، عن الأشياء التى فقدت.

حسنًا، كان ذلك لأنهم أثاروا الموضوع أولاً، لكنى وجدت نفسى على اتفاق تام مع رجل ودود حتى أن كلينا كان مندهشًا بشدة؛ كان قد سحب علبة من أوراق اللعب من جيبه وأرانى بفخر الورق الذى عليه وجوه رسمها عليه بيديه- محولاً الشايب إلى "شيخ" والولد إلى تابع "حوارى"- وشرح بالتفصيل لماذا جاء الوقت المناسب الذى يجب أن تنشر فيه هذه الأوراق فى المائة وسبعين ألف مقهى حيث تُمارس ألعاب الورق فى بلدنا على حوالى مليونى ونصف مائدة للعب الورق.

كان الأمل بيننا فى هذه الأمسية. ولكن هل كان الأمل هو الملاك؟ إنه شكل من أشكال الضوء، قالوا ذلك. قالوا: نحن نتناقص قليلاً مع كل نفس نأخذه. قالوا: نحن ننبش الأشياء التى سبق ودفناها، عرض أحدهم صورة لموقد. رجل آخر قال: هذه دراجة تناسب حجمنا تمامًا. عرض علينا الرجل ذو رابطة العنق الفراشية الشكل زجاجة بها سائل: له نفس تأثير معجون الأسنان. ندم رجل عجوز على أنه أُجبر على ترك الشرب لكنه أخبرنا بحلمه: يقول لنا، لا تخف قط؛ فإنك لن تختفى. من هو؟ لم يكن دكتور فاين المطلع على سر الأمور صعبة الفهم قد ظهر على الساحة بعد. لماذا لم يكن هنا؟ قال صوت: لو للحقيقة

أن تقال، لو كان دكتور فاين قابل هذا الشاب الجميل، لكان أحبه مثل ابنه. صوت من هذا؟ كان صاحب الصوت قد اختفى بمجرد أن استدرت حولي. هشش! قالوا: لا تشر اسم دكتور فاين حولك! عندما يظهر الملاك آجلاً أو عاجلاً على شاشة التليفزيون، ستكون هناك مشاكل جدية. قالوا: كل هذا يفعله حاكم المنطقة، كل هذا الخوف؛ لكنه أيضًا ليس ضدنا كلية. أغنى رجل في تركيا، "وهبي كوس" بنفسه، استطاع أن يصل إلى هنا كضيف مدعو. لم لا؟ علق أحدهم: "كوس" بالرغم من كل شيء هو ملك علينا نحن التجار.

أذكر أنهم قبلوني على الخدين، وهنئوني على كوني صغير السن، وبعد أن شرحت لهم عن شاشات التليفزيون، الألوان، والوقت، احتضنوني لكوني صريحًا جدًا. فقط أنتظر، قالها الرجل المرح الذي يدير متجر هيئة الاحتكارات؛ شاشة التليفزيون الخاصة بنا ستكون الستارة الأخيرة لهؤلاء الذين سيأتون من بعدنا؛ الشاشة الجديدة تعني- على كل حال- حياة جديدة. ظل الناس يأتون ليجلسوا إلى جانبي؛ أنا أيضاً أخذت أغير مكاني وأخبر الناس بكل شيء عن الحوادث، الموت، السلام، الكتاب، وهذه اللحظة... شعرت أنني تماديت كثيراً عندما بدأت أقول: "الحب..." وقفت لأرى جنان حيث تجلس ويستجوبها معلمو المدرسة وزوجاتهم. جلست وقلت: "الزمن هو حادثة؛ فنحن هنا في هذا العالم بالمصادفة." نادوا على مزارع يرتدي جاكتًا جلديًا،

قائلين لى إن هذا هو الشخص الذى يجب أن أسمعه، بعد أن رأوا كم أنا مهتم بالوقت. قال الرجل: "أنتم تبالغون فى مديحى،" وهو يتنفس كرجل عجوز بالرغم من أنه لا يبدو كبيرًا فى السن، وأخرج من الجيب الداخلى لسترته اختراعه "المتواضع". كان مجرد ساعة للجيب، لكنها حساسة للسعادة؛ فهى تتوقف عندما تكون سعيدًا لدرجة أن الساعة التى تكون سعيدًا فيها يمكن أن تستمر للأبد؛ وعلى النقيض: عندما تكون فى حالة يأس، يسرع عقرب الثوانى والدقائق، ويجعلك تلاحظ كيف مر الوقت بسرعة وكيف انتهت أحزانك فى غمضة عين. ثم فى الليل أثناء نومك بسلام، تقوم الساعة- هذا الشىء الصغير الذى يتكتك بصبر فى راحة يد الرجل، الذى كان كبيرًا فى السن إلى حد ما- بتعديل الوقت بخصمه من وقت حياتك، وعندما تستيقظ فى الصباح مثل كل شخص آخر، تكون لم تكبر فى السن.

"الوقت،" قلت وحدقت للحظة فى السمكة التى تسبح فى الحوض بخفة وبطء، شخص ما جاء لى مثل الظل. قال: "إنهم يتهموننا، بكوننا معادين للثقافة الغربية. فى الواقع، هذا ليس صحيحًا. هل عرفت - على سبيل المثال - أن الصليبيين المتبقين قد عاشوا فى مساكن محفورة فى الصخور فى "كابادوشيا"؟" من كان المتحدث الذى تحدث إلىّ بينما كنت أتحدث لمجرد سمكة؟ عندما استدرت حولى، كان قد ذهب. فى البداية قلت لنفسى كان هذا مجرد ظل، ثم شعرت

بالخوف عندما شممت نفحة من هذه الرائحة المهيبة: صابون الحلاقة "أو بى".

حالما غصت فى مقعدى، بدأ رجل ذو طابع أبوى وشارب ضخم يستجوبنى، وهو يلف سلسلة مفاتيحه حول أصبعه بقلق: من هم أهلى، كيف أدليت بصوتى، ما الاختراع الذى أثار انتباهى، ما الذى سيكون عليه قرارى فى الصباح؟ كنت مازلت أفكر فى السمكة وكنت ساعرض عليه كأساً آخر من "الراكى" عندما سمعت أصواتاً، أصواتاً، أصواتاً. ظللت ساكناً ثم وجدت نفسى بجانب تاجر الاحتكارات الطيب القلب. أخبرنى أنه لم يعد يخاف من أى كان، ولا حتى من حاكم المنطقة الذى لديه مشكلة بشأن دُمى الفئران فى واجهة عرض متجره. لماذا هناك شركة واحدة فقط تبيع المشروبات الكحولية فى هذه البلدة، هذه حالة احتكار؟ تذكرت شيئاً ما جعلنى أخاف، وجعلنى الخوف أقول أول شىء خطر على بالى. قلت: "إذا كانت الحياة رحلة، فلقد كنت على الطريق لستة أشهر، وتعلمت شيئاً أو اثنين- وبعد إذنك- أحب أن أضيفها." لقد قرأت كتاباً، ولقد فقدت عالمى كله. لقد بدأت الطريق لأجد عالماً جديداً. فماذا وجدت؟ شعرت وكأنك على وشك القول- ياملاكى- ما هذا الذى وجدته، غرقت فى الصمت للحظة وغرقت فى التفكير، لكنى لم أعرف ما كنت أقول عندما انزلق لسانى: "ملاك". وبدأت- كما لو كنت استيقظت من حلم- أبحث عنك فى الزحام، فجأة بعدما تذكرت :

الحب. ها هى هناك بين تجار الأجهزة وزوجاتهم. الرجل ذو رابطة العنق الفراشية الشكل وبناته. كانت جنان ترقص مع طالب ثانوى فائر الجسم متعال على موسيقى من مذياع فى مكان ما بينما المدرسون وحالات الشيخوخة المسنة تتفرج بثقة.

جلست ودخنت سيجارة. كنت أعرف كيف أرقص فقط..... مثل العريس والعروس فى الأفلام. تناولت بعض القهوة. طبقًا للساعة التى تقيس السعادة فمن المؤكد أن الوقت يمر بسرعة كبيرة للأمام. سيجارة أخرى. تصفيق حاد وإعجاب بالأزواج الراقصة. المزيد من القهوة. رجعت جنان ثانية لتكون مع النساء. المزيد من القهوة بعد.

ضغطت نفسى قريبًا من جنان فى طريق العودة للفندق مثل كل الناس وتجار المقاطعة الذين أخذوا بأذرع زوجاتهم. من كان فى المدرسة الثانوية هذا؟ كيف تعرف عليك؟ من المؤكد أن طائر القلق يشاهدنا من البرج حيث حُشرت. كان الموظف الليلى قد أعطانا مفتاحًا للغرفة رقم ١٩ كما لو كنا زوجا وزوجة حقًا. عندما بدا شخص ما كانه يعرف ماذا كان يفعله وكان أكثر إصرارًا من أى شخص آخر على أن يقحم جسده الضخم العرقان بيننا ويقطع علىّ طريقى.

قال: "سيد كارا، لو تسمح لى بلحظة...."

شرطة! فكرت؛ إنه قادم لنا لأننا ورثنا تحقيقات شخصية ووثيقة الزواج من ضحايا حادثة طريق.

تابع الرجل: "أتساءل إذا ما كان بإمكاننا أن نتحدث؟" كان يتصرف وكأنه يريدنا أن نتحدث رجلاً لرجل، كم تركتنا جنان برقة بمفردنا، كم كانت رشيقة في تنورتها المطبوعة، صاعدة الدرج وفي يدها مفتاح الغرفة رقم ١١٩.

لم يكن الرجل من سكان مدينة "جيبودل" الأصليين، لكني نسيت اسمه بمجرد أن ذكره؛ فلنقل إن اسمه "السيد بومة"، ارتكازا على حقيقة أنه كان يتحدث إلى في وقت متأخر من الليل، لكن ربما كانت البومة ترتبط في ذهني بطيور الكناريا التي في القفص في ردهة الفندق التي كانت تقفز لفوق وتحت وعلى الأسلاك عندما بدأ "السيد بومة" في التحدث.

قال: "إنهم يضيفوننا ويقدمون لنا الطعام والخمر الآن، لكن غداً سيطلبون منا الإدلاء بأصواتنا. هل فكرت في ذلك؟ استفتيت الليلة ليس فقط تجار المقاطعة ولكن أيضًا كل شخص قد جاء من أنحاء البلد كلها، ستتفتح أبواب الجحيم غداً، لذلك أريدك أن تفكر في الأمر الآن. هل فكرت جيداً في كل شيء؟ أنت التاجر الأصغر سنًا بيننا. لمن ستعطي صوتك؟"

"لمن تعتقد أنني يجب أن أعطي صوتي؟"

"ليس لدكتور فاين، هذا من المؤكد! صدقني ياأخي- لو كان لي أن أدعوك أخي- أن كل هذا ليس إلا سوء حظ. هل يمكن أن يقال على الملائكة إنهم يرتكبون الخطيئة؟ هل من الممكن أن نتعامل مع كل

المصاعب التى تزعجنا؟ من المستحيل أن نكون أنفسنا بعد الآن. هناك حقيقة هى حتى الكاتب المعروف "جلال ساليق" قد أدرك _ وهذا ما قاد إلى انتحاره: أن شخصًا آخر هو الذى يكتب عموده تحت اسمه. تحت كل صخرة ترفعها، تجدهم هناك. أنهم الأمريكان. بالطبع الأمر محزن أن تكتشف أننا لن نكون أنفسنا مرة أخرى، لكن ربما يتمكن تقويم ناضج من إنقاذنا من الكارثة. هكذا لم يعد أبناؤنا وأحفادنا يفهموننا بعد الآن، إذًا ماذا بعد ذلك؟ حضارات تأتى وحضارات تذهب. ماذا تنوى أن تفعل؟ تؤمن بأنك ثابت بينما تكون حضارتك على أهبة التحرك؟ ثم، عندما تبدأ الأشياء فى التناقص والتحرك، تمسك مسدسك مثل طفل ثرثار؟ من سوف تقتل عندما يكون كل الناس يتخذون هيئة مختلفة؟ كيف يستطيع الملاك أن يكون أداة مساعدة فى الجريمة؟ إلى جانب ذلك، من هو الملاك على أية حال؟ ما هذا العمل الذى يتخصص فى جمع المواقد القديمة، الفرجار، مجلات الأطفال، مشابك الغسيل؟ لماذا من الواضح أن الملاك ضد الكتب والمطبوعات؟ كلنا نحاول أن نحيا حياة ذات معنى، لكننا- كلنا- نتوقف عند نقطة ما. من منا يمكن أن يكون نفسه؟ من هو الشخص المحظوظ الذى يسمع همس الملائكة؟ إن كل هذا مجرد رجم بالغيب، كلمات فارغة تهدف إلى خداع غير الحذرين. الأمور تخرج عن نطاق التحكم. هل سمعت؟ يقولون إن كوس" فى طريقه إلى هنا، "وهبى كوس". لن تدع

السلطات هذا يحدث. سيعانى البرىء طويلاً من الإحساس بالذنب. لقد تم تأجيل عرض جهاز التليفزيون الخاص بدكتور فاين إلى الغد. لماذا فى رأيك هو يتلقى معاملة خاصة؟ دكتور فاين هو الشخص الذى قادنا إلى هذا الحظ العاثر. يقال إنه سيشرح موضوع "الكولا"؛ هذا جنون؛ إن هذا ليس ما جئنا من أجله إلى هذا المؤتمر".

كان على استعداد لأن يقول المزيد، لكن جاء رجل يرتدى رابطة عنق حمراء إلى المكان، الذى لا يستحق أن يسمى بهوًا. قال السيد بومة: "سيقضون طوال الليل الآن، ينقلون الأشياء الثقيلة." ثم رحل. رأيته يتبع تاجرًا آخر إلى الخارج فى الليل المظلم.

وقفت على أولى درجات السلم حيث صعدت جنان إلى أعلى. شعرت أننى محموم قليلاً، كانت ساقاى ترتعشان؛ ربما كان من تأثير الخمر أو القهوة، لكنى كنت أعانى من اضطراب فى ضربات القلب، وكان هناك عرق على جبهتى، لم أصعد لأعلى لكنى جريت إلى كابينة الهاتف فى الزاوية، طلبت الرقم، الخط كان مشغولاً، أدرت الرقم مرة أخرى، اتصلت بالرقم الخطأ، طلبت رقمك يا أمى: "أمى، سوف أتزوج يا أمى، هل تسمعيننى؟ سوف أتزوج الليلة، بعد فترة قصيرة، الآن، فى الواقع نحن متزوجان بالفعل، أنها فى الغرفة بالأعلى، هناك سلم، لقد تزوجت ملاكًا، أمى، لا تبكى، أقسم إننى سوف أعود إلى البيت، لا تبكى يا أمى، سوف أعود ومعى ملاك فى ذراعى".

لماذا لو أدرك من قبل أن هناك مرآة خلف قفص الكناريا مباشرة؟ لقد كان من الغريب أن أراها وأنا أصعد الدرج.

الغرفة رقم ١٩، كانت الغرفة حيث فتحت جنان الباب، حيتى وهى تمسك سيجارة فى يدها، ثم عادت أدراجها إلى النافذة المفتوحة حيث كانت تشاهد ميدان المدينة؛ بدت الغرفة وكأنها الوطن الأم لشخص آخر والتى قد أصبحت فجأة مرحبة بنا. هادئة. دافئة. إضاءة خافتة. فراشان متماثلان.

جاء ضوء المدينة الحزين عبر النافذة المفتوحة، محدداً عنق جنان الطويل وشعرها، وحلقات من دخان السيجارة النافد الصبر والقلق (أو أنه فقط بدا كذلك؟) ترتفع خارجة من فم جنان- الذى لم أستطع رؤيته- لأعلى باتجاه نوع من الظلمة الحزينة التى قضى مرضى الأرق، النائمون القلقون، والموتى فى مدينة "جيودل" سنوات عديدة يتنفسونها فى السماء. ضحك سكير أسفل الدرج؛ شخص ما- ربما تاجر- أغلق باباً بقوة، رأيت جنان تلقى سيجارتها بإهمال من النافذة دون أن تطفئها، ثم مثل طفل شاهدت طرف السيجارة البرتقالى يقوم ببعض القفزات بينما يسقط، أنا أيضاً ذهبت عند النافذة ونظرت لأسفل إلى الشارع وميدان المدينة، لكن دون أن أرى أى شىء، ثم نظر كلانا خارج النافذة لفترة طويلة كما لو كنا نتأمل غلاف كتاب جديد.

قلت: "أنت أيضًا كنت تشربين، أليس كذلك؟"

- "كنت أشرب" قالت جنان بسرور.

- "كم من الوقت سيستمر هذا؟"

- قالت جنان بخفة "هل تعنى الطريق؟"، مشيرة إلى الطريق المؤدى من ميدان المدينة إلى المقابر قبل أن يصل إلى موقف الحافلات.

- "أين تعتقدين أنه سينتهى؟"

- قالت "لا أعرف، لكنى أريد أن أذهب إلى أبعد ما يكون. أليس هذا أفضل من الجلوس والانتظار؟"

- قلت "لقد نفدت كل النقود تقريبًا".

كانت الأركان المظلمة على الطريق الذى أشارت إليه جنان منذ دقيقة مضاءة الآن بالكامل بواسطة الأضواء الأمامية القوية لمركبة ما سارت إلى ميدان المدينة وتوقفت فى مكان خال.

- قلت "لن نذهب إلى هناك قط".

- قالت "أنت سكران أكثر منى".

كان الرجل الذى خرج من السيارة قد أغلق الباب ومشى باتجاه الفندق دون أن يصبح واعيًا بوجودنا؛ خطى أولاً فوق عقب سيجارة جنان مثل شخص يسحق حياة شخص آخر بلا مشاعر، ثم دخل فندق "ترامب".

أطبق على مدينة جيودل صمت مستمر، كما لو كانت هذه المدينة الصغيرة الساحرة مهجورة تمامًا.

تبادلت بعض الكلاب النباح من على مسافة، ثم عاد الصمت يطبق على كل شيء مرة أخرى، تحركت أوراق أشجار الكستناء التى فى الميدان مع النسيم من حين لآخر، لم يكن هناك صوت حقيقى. من المؤكد أننا وقفنا فى صمت عند النافذة لوقت طويل، ناظرين للخارج مثل أطفال يتوقعون شيئًا ما سيكون مسليًا. كان وهم محسوس من نوع ما، على الرغم من أنى كنت واعيًا بكل ثانية لم أستطع القول إذا ما كان الوقت يمر أو إذا ما كان ساكنًا.

كان بعد ذلك بوقت طويل عندما قالت جنان: "لا! من فضلك لا تلمسنى! فأنا لم أكن مع رجل من قبل."

كما يحدث أحيانًا فى الحياة الحقيقية أو عند تذكر الماضى، شعرت للحظة كأن الموقف والمدينة التى أراها من النافذة لم تكن حقيقية لكنها من وحى خيالى. ربما كانت مدينة جيودل الصغيرة التى أراها أمامى ليست حقيقية، ربما كنت أنظر فقط إلى صورة لمدينة على طابع بريد، مثل الطابع الذى أصدرته إدارة خدمة البريد فى سلسلتها الخاصة بالموطن الأصلى. تمامًا كما فى المدن على هذه الطوابع، الميدان جعل مدينة جيودل تظهر وكأنها هدية تذكارية عن كونها مكانًا له شوارع للسير فيها، حيث يمكنك شراء علبة سجائر أو فحص نوافذ مغبرة.

المدينة الخيالية، فكرت؛ المدينة التذكارية. عرفت أن عينىّ كانتا تبحثان عن هذين الشيئين الحقيقيين

المرتبطين اللذين لا يمحيان لذكرى مريرة لا يمكن نسيانها قط، التى تطفو على السطح من مكان ما عميق جدًا وتصل بإرادتها الحرة، نظرت إلى الفراغ المظلم تحت الأشجار التى بجانب الميدان، رفرف الجرارات التى تلمع فى الضوء القادم من مصدر مجهول، الحروف فى أسماء الصيدلية والبنك المختفية جزئيًا عن الأنظار، ظهر رجل مسن فى الشارع، وبعض النوافذ بالتحديد. ثم، مثل شخص ما متحمس لصناعة السينما الذى حدد موقع الضوء المثالى للكاميرا والمصور الذى يصور فيلمًا عن ميدان المدينة، بدأت أرى صورتى الخاصة تنظر من نافذة فى الطابق الثانى من فندق "ترامب". كنت أقف هناك وأنظر من النافذة إلى الخارج فى هذا الفندق المنعزل البعيد، وكنت أنت تتمددين على الفراش بجانب النافذة. عندما اقتربت بالكاميرا من الصور التى فى عقلى، بدءًا بالريف، الطريق الذى سافرناه، المدينة، ميدان المدينة، الفندق، النافذة، كلانا _ تمامًا كما تفعل الكاميرا فى المشاهد الخارجية للأفلام الأجنبية التى رأيناها فى الحافلات، تقترب مركزة على المدينة أولاً، ثم الحى، ثم الفناء، فمنزل، نافذة. بدا الأمر كما لو كانت كل المدن، القرى، الأفلام، محطات الوقود، والركاب الذين تخيلتهم وتذكرتهم- بلا كفاءة- تمت إذابتهم وخلطهم بالألم والشوق الذى شعرت به فى مكان ما عميق بداخلى، لكنى لم أستطع تحديد إذا ما

كان حزن المدن، الأشياء المعطلة، والركاب هو الذى أصابنى بالعدوى، أم أنا الشخص الذى نشر الأسى فى قلبى فى كل أنحاء البلاد التى على الخريطة.

ذكرنى ورق الحائط البنفسجى حول النافذة بخريطة، كان الاسم التجارى للسخان الكهربائى فى الزاوية هو "فيزوف"، فقد قمت بمقابلة التاجر المحلى الموزع له فى وقت مبكر من المساء، كان صنبور المياه فى الحوض الذى فى الحائط أمامى يقطر، كانت المرآة على باب الدولاب من الداخل مواربة، تعكس المنضدة بين الفراشين والمصباح الصغير الموضوع فوقها، تدفق الضوء القادم من المصباح بنعومة على شكل جسد جنان النائم، الذى رقد على مفرش الفراش المزدان بالأوراق الأشجار البنفسجية دون أن تخلع ملابسها المغبرة.

تحول شعرها البنى الفاتح بشكل ما إلى بنى محمر، كيف لم ألاحظ من قبل هذه الخصل الحمراء؟

ثم فكرت أن هناك أشياء كثيرة جدًا ما زال على أن ألاحظها، أضاء عقلى مثل المطاعم التى فى استراحة المحطات حيث نزلنا لتناول بعض الحساء، لكن عقلى كان أيضًا - فى نفس الوقت - فى تشوش تام، أفكار منهكة اخترقت ارتباك عقلى، تغير السرعات، اللهاث مثل أشباح الشاحنات الناعسة التى ظلت تمر بواحد من هذه المطاعم، واستطعت فى الحال سماع فتاة أحلامى تتنفس ورائى فيما هى تحلم بشخص آخر.

تمدد بجانبها ولفها بذراعيك! بعد كل هذا معاً، لا تستطيع الأجساد إلا أن تشتاق الواحد للآخر. من هو دكتور فاين هذا بأى حال؟ عندما لم أعد أستطيع تحمل الموقف واستدرت لأنظر إلى ساقيها الجميلتين، تذكرت الأخوة (أخوة، أخوة!)، وأنهم يتآمرون بالخارج فى سكون الليل، قابعين فى انتظارى. تسللت فراشة للداخل من الصمت الذى فى الخارج وأخذت تدور حول ضوء المصباح، وتفقد نفسها فى أجزاء صغيرة فى ألم. قم بتقبيلها بعمق وعنف حتى تنفجر أجسادنا بالنار. هل سمعت صوتاً موسيقياً؟ أم كان عقلى يعزف المقطوعة الموسيقية التى تدعى "نداء الليل" التى طلبها كل المستمعين؟ مثلى مثل أى شاب فى سنى التى تظل حاجته الجنسية غير مشبعة يعرف كل هذا جيداً. نداء الليل لا شىء فى الحقيقة أكثر من أن تجد نفسك فى ممر ضيق مظلم كئيب وتعوى بمرارة بصحبة زوج من الشخصيات اليائسة فى نفس الموقف المحرج، وينزلون بكلامهم اللاذع على الآخرين ويصنعون القنابل التى ستنسفهم، و - فلترحمنا، أيتها الملاك - يلعنون هؤلاء الذين يتاجرون فى المؤامرة العالمية التى أقحمتنا فى هذا الوجود البائس. أعتقد أن القيل والقال من هذا النوع يدعى "تاريخ".

راقبت جنان وهى نائمة لمدة نصف ساعة، ربما خمس وأربعين دقيقة، حسناً، حسناً، لمدة ساعة على الأكثر، ثم فتحت الباب وخطوت خارجاً، أغلقت

الباب، ووضعت المفتاح فى جيبى. بقيت جنان فى الداخل. وأنا، أنا نُفيت للخارج.

امش إيابًا وذهابًا فى الشارع، ثم ارجع واحتضنها. قم بتدخين سيجارة، ارجع واحتضنها. قم بإيجاد مكان ما يفتح أبوابه، اسكر، كن شجاعًا، ارجع واحتضنها.

رآنى المتآمرون وقفزوا إلىّ أثناء نزولى على السلالم. قال أحدهم: "إذًا أنت "على كارا"، تهانىّ لك، لقد قطعت كل هذا الطريق إلى هنا، وأنت حديث السن." "انضم إلينا" قالها بلطجى آخر فى نفس السن، نفس الطول، ويرتدى بخشونة نفس رابطة العنق الرفيعة ونفس السترة السوداء، ونحن سنجعلك تعرف ما الذى يحدث عندما تبدأ المعركة غدًا، كانوا يمسكون بسجائرهم وكأن أطرافها الحمراء بنادق موجهة إلى جبهتى، وابتسموا فى وحشية، أضاف الأول: "لا نقصد إخافتك أو أى شىء آخر، لكننا نريد أن نحذرك فقط." استطعت أن أرى أنهم يعقدون نوعًا من جلسات النميمة فى منتصف الليل، يرقصون لكى يمسكوا بالذين اهتدوا.

خرجنا إلى الشارع حيث لم يعد طائر اللقلق يرقبنا، ومررنا على نافذة عرض المحل الذى به زجاجات الخمر ودمى الفئران، ذهبنا إلى حارة خلفية حيث كنا قد خطونا عدة خطوات فقط عندما فُتح باب وأصبحنا وجهًا لوجه مع حانة مزدحمة تفوح منها

رائحة "الراكى". جلسنا إلى مائدة مغطاة بقماش مهترئ وفى تتابع سريع جرعنا كأسين من "الراكى" - بدلا من الأدوية، لو سمحت! - وسريعًا تعلمت أشياء قليلة عن معارفى الجدد كما عرفت أيضًا عن موضوع الحياة والسعادة.

كان الشخص الذى اعترض طريقى أولاً- لنطلق عليه اسم السيد "صدقى"- يعمل كبائع بيرة من "سيريسهير" والذى أخبرنى بقصته عن لماذا ليس هناك تعارض بين مهنته ومعتقداته لأنه كان من الواضح جدًا- لو فكرت فى الأمر- أن البيرة ليست فى الحقيقة مشروبًا كحوليًا مثل الراكى، طلب زجاجة من البيرة من نوع "أفسوس" وصبها فى كأس ليرينا أن الفقاعات كانت لا شىء سوى ثانى أكسيد الكربون. أما صديقى الثانى فكان يعطى القليل من الانتباه إلى مثل هذه المعضلات، الأحاسيس، والاختلافات، ربما لأنه كان تاجر ماكينات حياكة، فبدلا من أن يندفع مباشرة إلى قلب الأشياء مثل سائقى الشاحنات السكارى الناعسين الذين يلتقون بأقطاب القوة الكئيبة فى منتصف الليل.

هنا كان السلام؛ السلام يوجد هنا، فى هذه المدينة الهادئة، هنا فى هذه الحانة الصغيرة، كنا هنا والآن، ثلاثة أصدقاء مخلصون فى قلب الحياة، يتشاركون فى مائدة. عندما فكرنا فى كل شىء حدث لنا والذى يمكن أن يحدث غدًا، كنا واعين جيدًا كم

هى قيمة هذه اللحظة الفريدة التى توجد بين ماضينا المنتصر ومستقبلنا الأليم البائس. أقسمنا أن نخبر بعضنا البعض بالحقيقة دائمًا. تبادلنا الأحضان والقبل، ضحكنا حتى قفزت الدموع من أعيننا. امتدحنا أهمية العالم والحياة، رفعنا كئوسنا عاليًا على شرف حزب التجار الماجنين وجماعة مترابطة من الهدامين ذوى الآراء الذين كانوا فى الحانة. كانت هذه هى الحياة على طبيعتها؛ لم يكن شىء واحد ولاشىء آخر، ولا فى الجنة ولافى الجحيم، كانت هنا الآن، فى الوقت الحالى، فى هذه اللحظة، الحياة بكل مجدها. من هو ذلك المجنون الذى تواتيه الجراة بأن يخالفنا؟ أين هو ذلك الأحمق الذى يمكن أن يحبطنا؟ من لديه الحق أن يلقبنا بالقمامة البائسة المثيرة للشفقة؟ لم تكن لدينا أية رغبة فى العيش فى اسطنبول، ولافى باريس أو نيويورك. فلتدعهم يتعمون بالمراقص والدولارات، بناطحات السحاب ووسائل مواصلاتهم الأسرع من الصوت. فلندعهم يملكون إذاعاتهم وتليفزيونهم الملون.يا هؤلاء، نحن لدينا بعضنا، أليس كذلك؟ لكننا نملك شيئًا لا يملكونه هم: قلب، نحن نملك قلبًا. انظر، انظر كيف يتسرب ضوء الحياة إلى أعماق قلبى!

تذكرت أننى استجمعت جرأتى للحظة، يا ملاكى، وتساءلت لماذا، إذا كان علينا جميعًا أن نشرب هذا الترياق ضد التعاسة، إذًا لماذا لايشربه كل شخص؟ فى خارج الحانة وفى قلب ليلة الصيف مع الأصدقاء

المقربين، ضل الشخص الذى يمشى تحت الاسم المستعار "على كارا" يسأل: لماذا كل هذا الألم، كل هذا الأسى والبؤس؟ لماذا.... لماذا؟

فى الطابق الثانى من فندق "ترامب" يعكس المصباح الذى بجانب الفراش أضواء حمراء على شعر جنان.

ثم تذكرت كونى سحبت إلى داخل الأشياء المحيطة بالجمهورية، أتاتورك، والطوابع القانونية. كان مبنى الحكومة، حيث ذهبنا إلى المحراب الداخلى، المكتب الذى يخص حاكم المقاطعة، الذى قبلنى على جبهتى. كان واحدًا منا. أخبرنا بأمر فرمان تم إرساله من "أنقرة"، وأنه لن يصاب أحد بشىء غدًا. لقد اختارنى بالفعل، فهو يثق بى، ولو أننى شعرت بذلك، فيمكننى أن أذهب مباشرة وأقرأ الخطاب الذى كان مازال رطبًا من آلة الطباعة الجديدة تمامًا.

"سكان مدينة "جيودل" المحترمون، السادة المهمون، الأخوة، الأخوات، الأمهات، الآباء، أعضاء مدرسة "الخطيب الإمام" المتدينون الصغار. من الواضح أن بعض الناس غير واعين بحقيقة أنهم فى مدينتنا على أنهم ضيوفنا. ما الذى يريدونه؟ هل هم هنا لكى يهينوا كل شىء مقدس فى مدينتنا؟ تكريس حياتنا واهتمامنا بالدين، رسولنا، شيوخنا، وتمثال "أتاتورك" الذى يوجد بوفرة فى مساجدنا وفى أجازاتنا المقدسة، لسنا فقط نرفض شرب الخمر، لن

نستسلم لشرب "الكوكاكولا". نحن نعبد الله، ليس الصليب، أو أمريكا، أو إبليس، نحن لا نستطيع فهم لماذا اختيرت مدينتنا الهادئة لتكون موقعًا لمؤتمر لهؤلاء المجانين رسميًا، نسخ مقلدة من ماري وعلي، والعميل اليهودي "ماكس رولو"، الذي هدفه فقط هو تحقير المارشال "فيفزي ساكماك" الخاص بنا. من هو الملاك؟ ومن الذي لديه تعجل لكي يجعل من الملاك مثار سخرية على التليفزيون؟ هل نحن لنجلس ونشاهد بكسل بينما الوقاحة وعدم الاحترام تُرتكب ضد رجال الإطفاء الملتزمين الخاصة بنا والحاج "ستورك" الذي يشاهد مدينتنا طوال العشرين عامًا الأخيرة؟ هل الأمر كذلك لأن أتاتورك قد طارد الجيش اليوناني خارج البلاد؟ فلو لم نضع هؤلاء الوقحين الذين ندعوهم "ضيوفنا" في مكانهم الصحيح، إذا لم نلقن المشردين المسئولين عن دعوة هؤلاء الناس الدرس الذي يستحقونه، فكيف سنواجه أنفسنا غدًا؟ ستكون هناك مقابلة سياسية في العاشرة في ميدان "فاير هاوس". نحن نفضل الموت على الحياة بدون شرف".

قرأت الإعلان مرة أخرى. لو قُرأت من البداية للنهاية،أو لو أُعيد ترتيب الحروف في أول الكلام لكونت كلمات أخرى. هل يحصل الفرد على نسخة مختلفة تمامًا؟ من الواضح أن لا. قال حاكم المقاطعة إن شاحنات الإطفاء قد امتلأت بالماء من المجرى

المائى منذ الصباح. كان هناك إمكانية - ولكنها صغيرة - أن تخرج الأشياء عن نطاق التحكم غدًا، ويمكن للنار أن تخرج عن نطاق السيطرة، وفى الحرارة ليس من السهل منع الحشد بواسطة ضغط المياه فى خراطيم الحريق . لقد أكد لمؤيدينا أن مكتبه سوف يوفر كامل التعاون، ووحدات الشرطة (البوليس الفرنسى) القادم من العاصمة المحلية كان سيضع حدًا قاطعًا لأى نوع من الشغب الذى يمكن أن يحدث. قال حاكم المقاطعة: "عندما تهدأ الأمور ويظهر أعداء الجمهورية والأمة على حقيقتهم، فدعنا نرى من الذى بقى ليشوه إعلانات الصابون والنساء على لوحات الإعلانات، لنرى من يمشى متفاخرًا وهو خارج من محل الترزى سكرانًا، يلعن الحاكم بكل الأشكال، بدون ذكر طائر اللقلق."

كان من المقرر أننى يجب أن أراقب محل الترزى، أنا الشاب المخلص، بعد أن جعلنى الحاكم أقرأ لائحة المعارضة التى كتبها اثنان من مدرسى المدرسة اللذان كانا عضوين نصف سريين فى اللجنة التنظيمية لحركة الترويج لحضارة حديثة، نادى على ساع ليرافقنى، وأخبره أن يأخذ الشاب الصغير لمحل الترزى. قال الساعى - الذى يعرف باسم عم حسن - بمجرد أن أصبحنا فى الشارع: "الحاكم دائمًا ما يدفعنا لنعمل وقتًا إضافيًا." كان اثنان من أعضاء البوليس السرى منشغلين بتمزيق اللافتات القماشية

الخاصة بمدرسة القرآن، ويعملون بهدوء مثل اثنين من اللصوص فى ظلام الليل الأزرق. "نحن كلنا نكد فى عملنا لمصلحة الأمة والدولة."

فى محل الترزى، كان هناك جهاز تليفزيون على حامل وجهاز فيديو تحته، يشارك الفراغ مع ماكينات الحياكة، أثواب الأقمشة، والمرايا، كان هناك رجلان أكبر منى قليلاً يعملان فى هذا الجهاز، ممسكان بمفكات، أسلاك وأشياء من هذا القبيل. جلس رجل فى الزاوية على مقعد بنفسجى يشاهدهم، كما تفعل صورته فى مرآة كاملة الطول أمامه مباشرة، نظر لى من أعلى لأسفل أولاً ثم استدار بعينيه المتسائلتين إلى الساعى. قال العم حسن: "إن حاكم المقاطعة المبجل قد أرسله. إنه يترك هذا الشاب فى رعايتك."

كان الرجل الجالس على المقعد البنفسجى هو نفس الشخص الذى ركن سيارته أمام الفندق قبل أن يخطو فوق عقب سيجارة جنان، ابتسم لى بود ودعانى للجلوس. بعد نصف ساعة شد نفسه ليدير جهاز الفيديو.

ظهرت الصورة على شاشة التليفزيون، كانت هناك صورة لشاشة أخرى. ثم رأيت ضوءًا أزرق، شيئًا ما ذكرنى بالموت، لكن عند هذه المرحلة كان الموت حتمًا على مسافة بعيدة نوعًا ما تجول الضوء الأزرق بلا هدف عبر السهب الواسع الخالى من الأشجار حيث كنا نركب على متن الحافلات. ثم كان الصباح، اخترق

الفجر المشهد الذي كان يشبه المشاهد التي على نتائج الحائط (الروزنامه). من الممكن أن تكون المشاهد ترجع إلى فجر الخلق. كم كان رائعًا أن تسكر في مدينة غير معروفة و- بينما حبيبتي غرقت في النعاس سريعًا في غرفة فندق- أن تجلس مع أشخاص غامضين في محل ترزي ما، وبدون أن تضطر للتساؤل عن معنى الحياة، تشاهده وهو يتكشف فجأة عبر هذه المشاهد.

لماذا يحدث أن يفكر المرء خلال الكلمات، لكنه يعاني من خلال المشاهد؟ "أريد! أنا أريد." قلت ذلك لنفسي دون أن أعرف إطلاقًا ما هذا الذي أريده. ثم ظهر على الشاشة ضوء أبيض، ربما أدرك الرجلان الشابان اللذان كانا يعملان على الجهاز مظهره من رؤية إشعاعه الذي انعكس على وجهي؛ وواجها الشاشة بنفسيهما، ورفعا الصوت. الآن قد تحول الضوء إلى الملاك.

قال الصوت: "أنا بعيد جدًا، أنا بعيد جدًا حتى أنني دائمًا بينكم، استمعوا إليّ في صورة صوتكم الداخلي. حركوا شفاهكم بنفس الوتيرة مع شفتي."

غمغمت، محاولاً أن أبدو طبيعيًا، مثل ممثل صوت غير محظوظ يقول الدوبلاج الخاص بترجمة غير متقنة لشخص آخر ويضعها في جزء الصوت المسجل.

قلت متحدثًا مثل هذا الصوت: "الوقت لا يمكن أن أتحمله، أثناء ما كانت جنان نائمة، أثناء ما كان

الصباح يقترب. لكنى استطعت أن أظل مصرًا وأتحمله."

ثم كان هناك صمت. بدا الأمر كما لو كنت أستطيع رؤية ما فى ذهنى على الشاشة؛ لذلك لم يكن مهمًا إذا ما كانت عيناى مفتوحتين أم مغلقتين طالما أن المشاهد فى عقلى وفى العالم الخارجى متماثلة. الآن تكلمت ثانية.

"خلق الله الكون عندما تمنى أن يرى انعكاسًا لصفاته الأبدية. أعاد خلق صورته الخاصة التى يراها فى مرآته. إذًا فالقمر - الذى يخيفنا عندما يشع فى الغابة - يتجسد على الصور التى نراها بوفرة على التليفزيون وشاشة السينما مثل طلوع الصباح على السهب، السماء اللامعة، الماء خالص النقاء وهو يغسل الشواطئ ذات الصخور، كان القمر وحيدًا تمامًا عندما عاد إلى السماء المظلمة مثل جهاز التليفزيون الذى يعمل لنفسه فى غرفة المعيشة عندما يرجع التيار الكهربى بعد انقطاعه بينما العائلة تغرق فى النعاس فى الليل، رجع القمر وكل الخلق إلى الوجود، لكن لم يكن هناك أحد ليشاهدهم. مثل مرآة غير عاكسة ينقصها اللجين الذى فى ظهرها، كانت الأشياء خالية من الروح. أنت تعرف ماذا يشبه هذا، من خلال مشاهدتك للكثير من هذا القبيل. الآن ألق نظرة أخرى على هذا الكون الخالى من الروح فمن الممكن أن يكون درس جديد لك."

قال الرجل الذى يمسك بالمثقاب: " هاك يا رئيس، هذا بالضبط عندما تنفجر القنبلة"!

استنتجت من محادثتهم أنهم زرعوا قنبلة فى جهاز التليفزيون. هل يمكن أن أكون مخطئًا؟ لا، كنت محقًا؛ كان نوعًا من قنابل المشاهد التى تتفجر عندما يظهر إشعاع الملاك الذى يغشى العيون على الشاشة. عرفت أننى محق لأنه بجانب الفضول كان لدى التفاصيل الفنية الخاصة بقنبلة المشهد، شعور بالذنب أرهق عقلى. من ناحية أخرى، ظللت أفكر، "يجب أن يكون الأمر على هذا النحو" ربما يسير الأمر هكذا: فى الصباح عندما يكون التجار ضائعين تمامًا فى المشاهد السحرية على الشاشة ومنغمسين فى مناقشات حول الملاك، الضوء، والوقت، ستنفجر القنبلة بلطف ودفء لما فى حوادث الطريق؛ وسيمتد الوقت- الذى تدفق فى هؤلاء الناس الذين كانوا شغوفين للحياة، للشجار، وللتآمر- بعنف على المشهد ويجمد الإطار، أدركت بعد ذلك أننى لا أرغب فى الموت بواسطة قنبلة أو أزمة قلبية، ولكن فى حادثة طريق حقيقية. ربما اعتقدت أن الملاك سيظهر لى فى لحظة التفجير ويهمس فى أذنى بسر الحياة. متى... متى، يا ملاك؟

مازال بإمكانى رؤية بعض المشاهد على الشاشة. نوع ما من الضوء الذى ربما كان ينقصه اللون، أو ربما كان الملاك، لكنى لم أستطع أن أقول بالضبط، كن

قادرًا على عواقب القنبلة كان مثل تقييم الحياة بعد الموت، كنت متحمسًا جدًا للاستفادة من ميزة هذه الفرصة الفريدة لدرجة أنني ضبطت نفسي أمد الصورة التي على الشاشة بالكلمات. هل كنت أردد فقط ما قاله شخص آخر؟ أو كانت هذه لحظة تعاطف وفهم كما يحدث في اتحاد الأرواح في الحياة التي بعد الموت؟ هاهو ما كنا نقول:

"عندما نفث الله من روحه في الخلق، رأت عين آدم هذا. فيما بعد رأينا المادة في هيئتها الحقيقية، نعم، تمامًا كما يحدث للأطفال. لكن ليس في المرآة غير العاكسة التي نراها الآن، كنا أطفالاً مرحين في ذلك الوقت، نسمى ما نراه ونرى ما نسميه! رجوعًا إلى هذا الوقت، كان الوقت وقتًا، كانت المجازفة مجازفة، والحياة كانت حياة، كانت حالة من السعادة الحقيقية، لكن الشيطان كان غير راض عن سعادتنا: والشيطان هو الذي فكر بالمؤامرة الكبرى، واحد من أتباع المتآمر الأعظم كان رجلاً يدعى " جتينبرج"- يُعرف بأنه يشتغل بالطباعة ويتم محاكاته بواسطة الكثيرين- والذي يعيد إنتاج الكلمات بطريقة تتفوق على الأيدي العاملة، الأصبع الصبور، القلم المتأفف: والكلمات، الكلمات، الكلمات تنساب مثل حبات عقد وتتبعثر بعيدًا وفي كل الاتجاهات. مثل الصراصير الجائعة والهائجة، غزت الكلمات أغلفة قطع الصابون، كراتين البيض، غزت أبوابنا وبالخارج في الشارع. إذًا الكلمات والمادة، التي كانت قديمًا لا

تفصل، الآن انقلبت ضد بعضها البعض، وعندما سالنا ضوء القمر ما الوقت، الحياة، الحزن، القدر، الألم، كنا مرتبكين مثل طالب يقضى الليل بطوله قبل الامتحان يستذكر دروسه بالحفظ والاستظهار، على الرغم من أننا كنا نعرف الإجابات ذات مرة عن ظهر قلب. قال أحمق، الوقت هو ضوضاء. قال آخر، الحادثة هى قدر. قال ثالث، الحياة هى كتاب. كنا مرتبكين- كما ترى- منتظرين الملاك أن يهمس بالإجابة الصحيحة فى آذاننا".

قال الرجل الجالس على المقعد البنفسجى مقاطعًا: "على، يابنى، هل تؤمن بالله؟"

فكرت فى الأمر بعمق.

قلت: "حبيبتى جنان تنتظرنى، فى غرفة الفندق".

قال الرجل: "الله هو توأم الروح لكل شخص. إذًا اذهب إلى حبيبتك. ولكن احلق ذقنك فى الصباح. فى صالون "فينوس" للحلاقة".

خرجت إلى ليل الصيف الدافئ. قلت لنفسى، مثل الحادثة، القنبلة أيضًا سراب؛ لن نعرف قط متى سوف تظهر، كنا فاشلين بائسين، كان من الواضح أننا قد فقدنا المقامرة التى تدعى تاريخًا: الآن نحن مجبرون على تفجير بعضنا البعض لقرون كثيرة ستأتى، على أمل أن نقنع أنفسنا أننا فائزون وأننا نتذوق طعم النصر، مفجرين أرواحنا وأجسادنا لنصل للسماء العليا بواسطة قنابل نضعها فى أغطية

التروس، الكتب، مجلدات القرآن، وفى صناديق الحلوى المصنوعة من أجل الله، الكتب، التاريخ، والعالم، كنت أفكر فى أن هذا ليس سيناريو سيئًا عندما رأيت ضوءًا فى غرفة جنان.

دخلت إلى الفندق وصعدت إلى الغرفة. أمى، أنا فعلاً سكران، رقدت بجانب جنان وغرقت فى النوم، مصدقًا أننى أحضنها بين ذراعىّ.

عندما استيقظت فى الصباح، راقبت جنان فى نومها وهى بجانبى، كان على وجهها نفس القلق والانتباه التى كانت عليه وهى تشاهد شاشة الفيديو عندما كانت جالسة فى الحافلة: رفعت حاجبيها الكستنائيين اللون كما لو كانت تترقب تسلسل حلم مدهش، كان الصنبور فى الحوض مازال يقطر، تسلل شعاع مغبر من ضوء الشمس إلى الداخل من خلال الستائر، وأصبح فى لون العسل حيث سقط على ساقيها، وغمغمت جنان بسؤال فى نومها. عندما تقلبت، غادرت أنا الغرفة بهدوء.

شعرت بالصباح البارد على جبهتى وأنا فى طريقى إلى محل الحلاقة الذى يدعى "فينوس"، حيث شاهدت الرجل الذى قابلته ليلة أمس، نفس الرجل الذى خطى على سيجارة جنان، كان يحلق ذقنه، وجهه ملىء برغوة الصابون، شممت رائحة كريم الحلاقة عندما جلست أنتظر، تعرفت على الرائحة فى قلق. التقت أعيننا فى المرآة، ابتسمنا لبعضنا البعض. من الواضح أنه كان الرجل الذى سيوصلنا بـ"دكتور فاين".

الفصل الثامن

في طريقنا إلى دكتور "فاين"، جلست جنان في المقعد الخلفي لسيارة من طراز "شيفروليه"، تهوي لنفسها بنسخة من مجلة "بريد جيودل" وكأنها أميرة إسبانية متعالية، بينما جلست أنا مستقيمًا أحصي أشباح القرى.. الكبارى البالية... المدن المنهكة. لم يكن سائقنا- الذي تفوح منه رائحة صابون الحلاقة "أو بي"- ثرثاراً، أحب أن يعبث بالراديو ليستمع إلى نفس الأخبار مجدداً وتقارير الطقس التي تتناقض مع بعضها البعض: الأمطار الخفيفة متوقعة على وسط "أناتوليا"، أو لا.. هناك عواصف رعدية مصحوبة بسيول تنتشر على منطقة "إجين"، أو أنها ملبدة بالغيوم، أو مشمسة.. ظللنا على الطريق لست ساعات تحت السماء الملبدة بالغيوم جزئياً، نقود خلال الأمطار المشئومة التي جاءت من أفلام القراصنة وأرض الخرافات، بعد نزول الأمطار الأخير الذي ضرب سطح السيارة بلا رحمة، وجدنا أنفسنا فجأة في مكان جديد بالحكايات وكان مختلفاً تماماً.

انتهى الإيقاع الكئيب لمساحات الزجاج، كانت الشمس في هذه الأرض الخالية رائعة وكانت تدخل من خلال فتحة التهوية للنافذة اليسرى.. أيتها المملكة

النقية كالكريستال، الواضحة والهادئة، سلمى كل أسرارك لنا! كانت الأشجار التى على أوراقها قطرات المطر يبدو واضحاً أنها أشجار، مر بطريقنا طيور وفراشات مثل طيور وفراشات هادئة وعاقلة بلا أى نية فى الطيران والدخول من زجاج السيارة، كنت على وشك أن أسأل أين يتوارى عملاق القصة فى هذا المكان الذى يوجد خارج الزمان؟ خلف أية شجرة توجد الأقزام الوردية اللون والساحرة البنفسجية؟ كنت على وشك أن أشير إلى غياب العلامات أو الحروف فى أى مكان، عندما مرقت بانسيابية شاحنة عليها لافتة تقول: "فكر قبل أن تعبر الطريق" على الطريق السريع المشرق مررنا عبر مدينة صغيرة، ثم انعطفنا إلى اليسار وسلكنا طريقًا حجريًا: صعدنا تلالاً، مررنا بقرية مفقودة أو اثنتين تم ردمها بالكامل بالغبار، ألقينا نظرة على غابات مظلمة، وأخيراً توقفنا أمام منزل دكتور "فاين".

كان عبارة عن بناء من الخشب الذى بدا مثل واحد من هذه العزب المحلية التى تم تحويلها إلى حانات تحمل أسماء مثل "القصر المرحب"، قصر السماء، قصر البهجة، أو قصر الراحة عندما تتفكك العائلة الكبيرة التى تعيش هناك نتيجة للوفاة.. لسوء الحظ، أو الهجرة، لكن لم تكن هناك أية علامات لعربات إطفاء محلية يحتفظون بها حول هذا المكان، ولا أى جرارات معبرة، أو مطعم ما يدعى "مشويات المدينة" العزلة فقط.. كان هناك أربع نوافذ بالطابق العلوى

بدلاً من الست نوافذ المعتادة فى مثل هذه البيوت، وكان الضوء فى النافذة الثالثة يلقى وهجًا برتقاليًا على الفروع الدنيا للأشجار التى أمام المنزل، كانت الحدود الخارجية لشجرة التوت مرئية بالكاد فى الظلام، وكانت هناك حركة فى الستائر، صوت ارتطام نافذة، وقع خطوات، جرس، ظلال تتحرك، فُتح الباب، وكان الشخص الذى رحب بنا هو دكتور "فاين" بنفسه.

كان طويلاً، حسن الهيئة، فى أواخر الستينيات أو أوائل السبعينيات، ويرتدى نظارة، كان وجهه من النوع الذى لا تستطيع فيما بعد فى حجرتك تذكر إذا كان يرتدى النظارات أم لا، كما لا تستطيع تذكر إذا كان بعض الرجال الذين تعرفهم جيداً لديهم شوارب أم لا. كان لديه حضور عظيم.. فيما بعد فى حجرتنا، قالت جنان.. "أنا خائفة" لكنها بدت لى فضولية أكثر منها خائفة.

تناولنا العشاء مع الأسرة كلها على مائدة طويلة للغاية على ضوء مصابيح الكيروسين التى تلقى ظلالاً طولية، كان لديه ثلاث بنات.. الابنة الصغرى وتدعى "روزياد"، كانت حالمة وفرحة لكنها مازلت غير متزوجة بالرغم من أنها كانت فى الوقت المناسب للزواج، بدت الابنة الوسطى "روزابل" أشبه لزوجها الطيب- الذى جلس أمامى وهو يتنفس من أنفه بصوت مزعج- منها إلى أبيها، أما الكبرى الجميلة "روزامند" فقد طُلقت منذ وقت ما، كما استنتجت من

المحادثة بين ابنتيها حسنتى السلوك اللتين كانتا فى السادسة والسابعة من العمر. كانت أم الوردات الثلاث امرأة صغيرة تمارس الضغط العاطفى: ليس فقط عيناها ولكن سلوكها العام كان يقول: احذروا.. إذا ما كدرتمونى! فسوف أنفجر فى البكاء، وعلى الجانب الآخر للمائدة جلس محام من المدينة - لم أستطع التقاط اسم المدينة - الذى حكى قصة عن تنازع الأراضى الذى يعتمد على التنظيمات، السياسة، الرشوة، والموت، وكان فرحاً تماماً عندما حقق له دكتور "فاين" توقعاته بسماعه قصته بفضول، فعيناه تؤيد المحامى برغم أنهما يستنكران ويرفضان الأحداث. كان جالساً بجانبى واحد من هؤلاء الرجال المسنين السعداء بكونهم يقضون سنواتهم الأخيرة من حياتهم وهم يشهدون الحالة النشطة للشئون فى صدر عائلة كبيرة قوية ولها احترامها، لم يكن من الواضح ما هى علاقة الرجل الكبير بالعائلة، لكنه ضاعف سعادته براديو صغير وضعه بجانب طبقه. لقد وضع أذنه مرات عديدة على الراديو مباشرة ليسمع - ربما كان يعانى من ضعف فى السمع - ثم استدار ناحية دكتور "فاين" وإلى ناحيتى مبتسماً ليكشف عن سنته الصناعية ويقول: "لا أخبار من جيودل"، ثم - كما لو كان استنتاجاً طبيعياً لعبارته - يضيف: "إن الدكتور يحب المناقشات الفلسفية، ويعشق الأفراد حديثى السن مثلك.. فمن المذهل كم تشبه ابنه!"

أطبق الصمت لفترة طويلة.. اعتقد أن الأم ستنفجر فى البكاء، وأدركت الغضب الذى يلمع فى عينى دكتور فاين. دقت ساعة الجد التى فى مكان ما خارج حجرة الطعام لتعلن الساعة التاسعة، مذكرة إيانا بأن الوقت والحياة أشياء عابرة لا تدوم.

أدركت ببطء فيما مرت عيناى على المائدة.. الحجرة والأشياء.. الأشخاص والطعام، إن هنا بالتحديد بيتنا فى هذا المنزل؛ هناك علامات وآثار لحلم ما أو ما شابه لحياة نشعر بها بعمق وذكريات، أثناء هذه الأمسيات التى قضيناها أنا و"جنان" فى الحافلة، بعد أن يضع المساعد شريط فيديو ثان فى الجهاز بإصرار من بعض الركاب الأكثر حماسًا، كنا لبضع دقائق نكون مأخوذين بالسحر الذى كان متهالكًا مترددًا، أو شعور بعدم القدرة على اتخاذ القرار الذى كان حادًا لكنه بلا هدف، تاركين أنفسنا للعبة لا نستطيع فهم معناها تمامًا بالنظر إلى عواقبها وضرورتها؛ ومرتبكين لكوننا نعيش نفس اللحظة ونحن على مقعد مختلف ومن وجهة نظر مختلفة، شعرنا أننا على وشك اكتشاف سر الهندسة المتوارية والمتغيرة التى تدعى الحياة: وبالضبط أثناء ما كنا نحاول بحماس فهم المعنى العميق الكامن وراء ظلال الشجرة، الصورة الكئيبة للرجل ذى المسدس، التفاح الأحمر على الفيديو، والأصوات الميكانيكية على الشاشة، كنا ندرك أننا- يا إلهى- قد رأينا هذا الفيلم بالفعل!

صاحبنى نفس الشعور حتى بعد العشاء.. استمعنا لفترة إلى راديو الرجل العجوز، الذى كان على المحطة نفسها التى لم أكن لأفوتها قط فى طفولتى، جلبت لنا "روزباد" حلوى من العهد الفائت، حلوى "الأسد" بجوز الهند وحلوى كرامل "حياة جديدة" فى طبق فضى مماثل للطبق الذى فى منزل العم "رفقى". قدمت "روزابل" لنا القهوة، أما الأم فسألت إذا كنا نريد شيئًا آخر. كان هناك على المناضد الجانبية وعلى الأرفف التى فى ظهرها المرايا نسخ من الصور الرومانسية التى تباع فى كل البلاد، وسواء كان دكتور "قاين" يشرب قهوته أو يحرك الساعة على الحائط، فقد كان فى صورة الأب العطوف فى العائلة المثالية على تذاكر اليانصيب القومى، كانت علامات معينة لرقة أبوية وترتيب منطقى لا يمكن تسميته بسهولة يملأ كل الأشياء التى تزين الحجرة، مثل الستائر ذات الإطارات المطرزة بالأزهار والتيوليب، مواقد الكيروسين العتيقة ومصابيح الكيروسين التى كانت متهالكة تمامًا مثل الضوء الذى ينبعث منها، أخذنى دكتور "قاين" من يدى ليرينى "بارومتر" على الحائط، وطلب منى أن أنقر ثلاث مرات على الوجه الكريستالى الرقيق، عندما نقرت عليه وتحركت الإبرة قال بأبوة: "غدًا سيكون الجو عاصفًا وعنيفًا مرة أخرى".

على الحائط بجانب البارومتر- كان من الواضح أن هناك صورة قديمة فى إطار كبير- وجه شاب صغير،

الذى ذكرته "جنان" عندما عدنا إلى حجرتنا، لكنى لم أتذكر... سألتها لمن هذه الصورة التى شاهدناها فى الإطار؟ سألتها مثل شخص غير عاطفى هربت حياته بعيدًا عنه، مثل شخص ينام وسط الأفلام ويقرأ الكتب بلا اهتمام.

قالت جنان: "لمحمد" كنا نقف فى ضوء مصابيح الكيروسين التى أعطوها لنا لنحضرها إلى الحجرة- "أمازلت لا تفهم؟ دكتور فاين هو والد محمد..."!

أتذكر سماع أصوات ارتطام فى عقلى التى كانت مثل تليفون عام مشئوم تأبى العملة المعدنية أن تسقط فيه ثم جاء كل شىء مصادفة وشعرت بالغضب أكثر مما شعرت بالدهشة، مدركًا الحقيقة الحتمية التى كانت مثل عاصفة تنحسر عند طلوع الفجر.. لقد حدث لأكثرنا فى وقت أو آخر، عندما نجلس ونشاهد فيلمًا لمدة ساعة معتقدين أننا نعرف ما يجرى قبل أن ندرك أننا كنا الحمقى الوحيدين فى دار العرض الذين لم يدركوا الأمر، فنصبح غاضبين.

"إذًا، ماذا كان اسمه الآخر؟"

"ناهيت" قالتها، وهى تطرق برأسها بدراية مثل شخص لديه إيمان بعلم الفلك... "هذا الاسم يعنى نجم السماء، من الواضح.. كوكب الزهرة".

كنت على وشك القول إنه لو كان لى اسم كهذا وأب يتوافق مع الاسم؛ لأردت أيضًا أن أتخذ هوية مختلفة، عندما أدركت أن الدموع تنهمر من عينى "جنان".

إننى حتى لا أريد أن أتذكر بقية الليلة، كان دورى هو تعزية "جنان"، التى كانت تنتحب لأجل "ناهيت" الذى يعرف بـ"محمد"، وربما لم يكن كثيرًا جدًا لأسأل، لكنى كنت مجبرًا على أن أذكّر جنان أننا عرفنا بالفعل أن "محمد- ناهيت" لم يمت حقًا فى حادثة طريق؛ هو فقط جعل الأمر يبدو كذلك. كنا متأكدين من إيجاد "محمد" وهو يمشى فى الشوارع الجميلة فى مكان ما فى قلب السهب، ويكون قد حول الحكمة التى استنبطها من الكتاب إلى وجوده فى المملكة الرائعة حيث الحياة الجديدة ممكنة.

بالرغم من أن هذا الاعتقاد كان أقوى عند "جنان" منه عندى، خلق القلق عواصف عنيفة فى نفس جميلتى الحزينة. هكذا كنت مجبرًا أن أفسر لها طويلاً لماذا أظن أننا على الطريق الصحيح... انظرى كيف نجحنا فى التسلل بعيدًا عن مؤتمر التجار دون الدخول فى أية مشكلات! وانظرى أيضًا كيف نجحنا فى اتباع منطق داخلى الذى اتضح أنه مجرد مصادفة، وانتهى بنا المطاف إلى هذا المنزل؛ حيث قضى الشخص الذى نبحث عنه طفولته، فى هذه الحجرة بالذات المليئة بآثاره. القارئ الذى يشعر بالسخرية فى لهجتى ربما يدرك أن الميزان قد سقط من عينى، أن السحر الذى غزا كيانى كله وأضاء روحى - كيف لى أن أخمده - قد غير الاتجاه، بينما كانت "جنان" حزينة لمجرد أن "محمد- ناهيت" قد تم

افتراض أنه مات. كنت يائسًا لأننى فهمت الآن أن رحلاتنا على الحافلات لن ترجع لسابق عهدها.

بعد تناول إفطار من الخبز، العسل، الجبن الإيطالى (ريكوتا) والشاى مع الأخوات الثلاث، رأينا المتحف الردىء فى الطابق الثانى الذى أهداه دكتور "فاين" إلى ذكرى طفله الرابع وابنه الوحيد، الذى احترق حتى الموت فى حادث طريق. قالت "روزاموند" وهى تضع مفتاحًا كبيرًا بسهولة مدهشة فى ثقب صغير "والدى يرغب فى أن ترى هذا".

أسرع قلبى تحت وطأة تأثير شديد وكان ينبض بعنف... همست "روزاموند" لتشير إلى تقارير مدرستى ناهيت الابتدائية والثانوية، وشهادات التقدير الخاصة به. بنبرة منخفضة: كل درجاته كانت ممتازة.. حذاء "ناهيت" الرياضى الذى مازال عليه الوحل، سرواله القصير ذو الحمالات يابانى الصنع الذى أُرسل فى طلبه من متجر فى أنقرة يدعى "جونكويل". فى الحجرة سيئة الإضاءة، أثناء عثورى على مراسلات ترجع إلى طفولته جعلنى أرتجف، وشعرت بالخوف تمامًا كما قالت "جنان" إنها تشعر، عندما سحبت "روزاموند" الستائر جانبًا وهمست أنه أثناء سنوات دراسته فى كلية الطب اعتاد أخوها العزيز أن يسهر طوال الليل يقرأ ويدخن حينما يكون فى البيت، ثم فى الصباح كان يفتح هذه النافذة لينظر على شجرة التوت.

كان هناك صمت. ثم سألت "جنان" ما الكتب التى كان يقرؤها "ناهيت" فى أثناء تلك الفترة؟ اجتاحت الأخت الكبرى موجة من الحيرة وعدم القدرة على اتخاذ القرار. قالت: " لم يعتقد أبى أنه من المناسب أن تُحفظ هذه الأشياء خارج المنزل". ثم ابتسمت كما لو كانت تعزى نفسها. "لكن يمكنكما أن تلقوا نظرة على هذه الأشياء التى قرأها فى طفولته".

كانت تشير إلى مكتبة الكتب التى بجانب الفراش، التى كانت مليئة بمجلات الأطفال والقصص المصورة. لم أشأ أن أقترب أكثر من المكتبة؛ لأننى تمنيت تجنب التعاطف المبالغ فيه مع الطفل الذى قرأ ذات مرة هذه المطبوعات، فضلاً عن خوفى من أن "جنان" قد تصبح عاطفية وتتفجر فى البكاء فى هذا المتحف الذى أفقدنا شجاعتنا؛ لكن مقاومتى انهارت عندما وصلت يدى بإرادتها الحرة لتلمس صورة على غلاف واحدة من المجلات الموضوعة بعناية فى المكتبة، كانت الألوان على كعب الكتاب تبدو مألوفة إلى حد ما بالرغم من أنها بشكل ما باهتة.

أظهرت الصورة على الغلاف طفلاً فى الثانية عشرة من عمره يتشبث بيد واحدة بجذع شجرة ضخم- والتى رسم عليها الأوراق بعناية ولكن نظراً للطباعة السيئة خرج اللون الأخضر عن الحدود- بينما قبض بيده الأخرى على يد طفل أشقر فى نفس عمره، منقذاً إياه فى اللحظة الأخيرة قبل أن يسقط

فى هاوية لا قرار لها. كانت علامات الرعب على وجه كلا الطفلين البطلين. كان هناك فى الخلفية مشهد أمريكى من الطبيعة ملونًا بدرجات الرمادى والأزرق، وهناك عُقاب يحوم فى ترقب لكارثة أو دماء مسفوكة.

قمت بتهجى مقاطع العنوان كما اعتدت أن أفعل عندما كنت طفلاً: "تيبى فى نبراسكا". تصفحت خلال القصة المصورة، التى كانت من المجهودات المبكرة للعم رفقى، متذكرًا المغامرات التى حدثت خلال تلك الصفحات.

تم اختيار الصغير "تيبى" من قبل السلطان ليمثل الأطفال المسلمين فى معرض شيكاغو العالمى. وهناك، اخبر طفل يدعى "توم" اتضح أنه هندى أمريكى "تيبى" عن مشكلته، وهكذا ذهبا معًا إلى نبراسكا ليحلاها. كان الرجال البيض الذين يضعون أعينهم على الأراضى- حيث قام أسلاف "توم" باصطياد الجاموس على مدى قرون- يشجعون قبيلة "توم" الهندية على أن يصبحوا مدمنين للكحول. يعطون البنادق بالإضافة إلى زجاجات الويسكى لشبان القبيلة برغبة فى السلوك السيئ. كانت المؤامرة التى سلط عليها "توم" و"تيبى" الضوء بلا رحمة تمامًا: جعل الهنود السالمين يسكرون بما يكفى لكى يثوروا، ثم جعل الجيش الفيدرالى يسحق المتمردين ويطردونهم من الأرض. مالك الحانة والفندق الثرى الذى يحاول دفع "توم" إلى الهاوية المنحدرة يقع فيها

بنفسه ويموت، وهكذا ينقذ أطفال القبيلة من الوقوع فى المكيدة.

كانت "جنان" تتصفح قصة "مارى وعلى" لأن العنوان بدا مألوفًا لديها؛ كانت عن مغامرات صبى من اسطنبول ذهب أيضًا إلى أمريكا.. يصل "على" إلى مرفأ بوسطن على متن سفينة بخارية أبحر بها من "جالاتا" للبحث عن مغامرة؛ عند رصيف المرفأ يقابل "مارى"، التى تنتحب بشهقات عنيفة وتنظر إلى المحيط الأطلنطى لأن زوجة أبيها طردتها من منزلها؛ ويبدأ الطفلان رحلتهما على الطريق غربًا للبحث عن والدها الغائب... مرا خلال "سانت لويس"، التى تبدو مثل الصور فى القصص المصورة "توم ميكس"؛ شقا طريقهما وسط الغابات البيضاء "لوا" حيث رسم العم "رفقى" ظلال الذئاب فى الجوانب المظلمة؛ ووصلا إلى جنة تحت أشعة الشمس، تاركين خلفهما رعاة البقر الضالين السارقين المسلحين الذين يهاجمون عربات السكك الحديدية، والهنود الذين يحيطون بعربات القطار، فى الوادى الأخضر المشرق، تفهم "مارى" أن السعادة الحقيقية ليست إيجاد والدها، لكن فهم مميزات الصوفية من سلام، استسلام، والصبر الذى تعلمته من "على"؛ وأن تعطى اهتمامًا للشعور بالواجب، ترجع هى لتكون مع أخيها فى "بوسطن".

أما بالنسبة لـ"على"، فيفكر فى نفسه، "عندما تفكر فى الأمر، الظلم والشر موجودان فى كل مكان فى العالم"؛ وينظر للخلف إلى أمريكا من على سطح

السفينة التي صعد على متنها شاعرًا بالحنين إلى اسطنبول، قائلاً: "المهم هو أن تعيش بحيث تبقى الطيبة بداخلك سليمة".

بدلا من أن تصبح "جنان" أكثر يأسًا كما تخيلت، أشرقت أكثر وهي تقلب الصفحات ذات رائحة الحبر التي ذكرتني بليالي الشتاء المظلمة والباردة في طفولتي، قلت لها إنني أيضًا قد قرأت نفس القصص المصورة حين كنت طفلاً... افتراضًا بأنها لم تدرك السخرية في كلماتي، أضفت أن هذا شيء آخر نشترك فيه أنا و"محمد" الذي يُعرف بـ"ناهيت".

افترضت أنني أتصرف كعاشق مهووس يعتقد أن كون حبه غير متبادل فإن حبيبته حتمًا بلا مشاعر، لكنني لم أشعر بالرغبة في أن أخبرها أن الكاتب والرسام الذي أبدع هذه القصص كان شخصًا اعتدت أن أدعوه بالعم "رفقي". أخبرتها فقط بمثال واحد عندما شعر المؤلف أنه يريد إخبار القراء بما دفعه لخلق شخصيات قصصه المصورة.

لقد وضع العم "رفقي" ملاحظة مختصرة في مقدمة أحد كتبه قائلاً: "الأطفال الأعزاء، أينما أراكم بعد المدرسة، سواء كنتم في عربات الترام أو شوارع منطقتي المتواضعة، أراكم دائمًا تقرءون مغامرات "توم ميكس" أو "الطفل بيلي" في مجلات رعاة البقر، أنا أيضًا أحب رعاة البقر الشجعان والشرفاء ورجال شرطة "تكساس".. ففكرت أنني إذا حكيت لكم قصة

طفل تركي وسط رعاة البقر الأمريكان فلربما أحببتموها، بجانب أن بهذه الطريقة ستتعرفون ليس فقط على الأبطال المسيحيين، لكن من خلال مغامرات مواطنين أتراك شجعان سيفضي بكم الأمر إلى أن تهتموا بالأخلاقيات والقيم القومية التي أورثنا إياها إسلامنا، من المثير بالنسبة لكم أن يستطيع طفل من حي فقير في اسطنبول أن يسحب المسدس بنفس السرعة التي يسحب بها الطفل بيلي مسدسه أو أن يكون شريفًا وصادقًا مثل "توم ميكس"، فقط انتظروا حتى تقرءوا مغامرتنا المقبلة".

بصبر.. بحرص، وبهدوء تمامًا مثلما تأمل "ماري وعلي" العجائب التي صادفتهم في الغرب الجامح، قمت أنا و"جنان" بدراسة الأبطال الذين رسمهم العم "رفقي" في عالم من الأبيض والأسود، الجبال الجميلة، الغابات الموحشة، المدن المليئة باختراعات وعادات غريبة... في مكاتب القانون، في المرافئ المليئة بالسفن، في محطات القطار البعيدة، ووسط الباحثين عن الذهب، التقينا بالمغامرين الذين يرسلون التحية إلى السلطان والأتراك، الزنوج الذين تحرروا من الاستعباد واعتنقوا الإسلام، الطهاة الهنود الذين استشاروا المشعوذين الذين كانوا أتراكًا من وسط آسيا بخصوص طريقتهم لعمل "اليورت"، بالإضافة إلى الفلاحين وأطفالهم ذوي الطبيعة الطيبة والنقية مثل الملائكة، بعد قراءة بعض صفحات من مغامرة دموية حيث حاملو البنادق يقتلون بعضهم البعض مثل

الذباب، حيث يمتزج الخير والشر فى الأبطال بتغيير الأماكن بتكرار، أو حيث أخلاقيات الشرق تقارن بمنطقية الغرب، واحد من الأبطال الشجعان والطيبين يصاب بالرصاص فى الظهر من قبل طلقة خائنة، وفورا أثناء احتضاره عند طلوع النهار جاءه تلميح أنه على وشك مقابلة ملاك، لكن العم "رفقى" لم يضع الملاك على الصفحة.

جمعت الأعداد التى تحوى سلسلة من مغامرات تحكى كيف سريعًا ما أصبح "برتف" من اسطنبول و"بيتر" من بوسطن أصدقاء وقلبا أمريكا رأسًا على عقب، وأريت "جنان" مشاهدى المفضلة: يمنع "برتف" الصغير بمساعدة "بيتر" مقامرًا غير شريف يسرق مدينة وهو أعمى بمساعدة نظام من المرايا قام هو بتجميعها ووضعها معًا؛ ثم يطارد المقامر إلى خارج المدينة بمساعدة رجال المدينة الذين يقسمون إن يقاطعوا البوكر والقمار. عندما تدفق الزيت الخام من وسط كنيسة وأهل المدينة- المنقسمون على أنفسهم- على استعداد أن يتشاجروا ويقعوا فى مصيدة الاختيار بين مليونيرات الزيت أو مستغلى الورع والتقوى، أنقذ "بيتر" الموقف بأن أعطى حديثًا عن العلمانية بأسلوب "أتاتورك"، مضاء ببعض أفكار عن تأثير الغرب التى تعلمها من "برتف". ليس هذا فقط، يقترح برتف الصغير فكرة الكهرباء الأولية التى تقود إلى اكتشاف المصباح الكهربى بواسطة "اديسون"- الذى قابله عندما كان "اديسون" الصغير يعيش على

بيع الجرائد فى عربات السكك الحديدية- بإخبار "اديسون" أن الملائكة خُلقت من ضوء، أن الملائكة تملك نوعاً من الكهرباء الغامضة.

لكن فيما بعد ومن بين كل أعماله، كان "أبطال السكك الحديدية" العمل الذى عكس بقوة طموحات ورغبات العم "رفقى" فى هذه القصة نرى "برتف وبيتر" يدعمان بناء خط سكة حديدية من الشرق إلى الغرب عبر أمريكا، كان هذا الخط الذى سيصل أدنى البلاد بأقصاها مسألة حياة أو موت بالنسبة لأمريكا، كما كان بالنسبة لتركيا فى فترة الثلاثينيات، لكن كان هناك أعداء كُثر لهذه الجهود، مثل شركة "ولز فارجو" أو الأتباع المطيعين لشركة "موبيل" للبترول، رجال الدين الرافضين أن يتركوا السكة الحديدية تمر عبر أراضيهم، أو المنافسين العالميين مثل روسيا، التى تدمر الجهود الحكيمة لرجال السكة الحديدية عن طريق إثارة الهنود، أو بدء إضراب العمال، وتشجيع الشباب على تخريب مقاعد عربات السكك الحديدية بالشفرات والسكاكين، كما كان يحدث للقطارات فى اسطنبول.

"لو فشلت اتفاقية السكك الحديدية" كان "بيتر" يقول بقلق فى واحد من البالونات: "التنمية فى بلدنا سوف تتدهور، وما يدعوه الناس حادثة سوف يصبح مسألة قدر.. يجب أن نحارب حتى النهاية، يا "برتف"!"

كم اعتدت أن أحب علامات التعجب الكبيرة التى تتبع الصيحات المكتوبة بخط أسود عريض التى تملأ البالونات! "احذر" كان "برتف" ليصيح فى "بيتر"، محذرًا إياه ليتفادى السكين قبل أن يطعنه مجرم ما حقير فى ظهره. "وراءك!" هكذا كان يصرخ "بيتر" الذى- دون أن يزعج نفسه بالنظر للخلف- يطوح بقبضته، التى تضرب ذقن أحد أعداء السكك الحديدية. أحيانًا كان العم "رفقى" يتدخل مباشرة، واضعًا وسط الصور لافتات صغيرة كتب عليها حروفًا وكلمات واهنة تمامًا مثل ساقيه على غرار "فجأة" أو "الآن ماذا؟" و"على حين غرة"، واضعًا لهم علامات تعجب ضخمة فى نقطة ما، وليدة تجربتى الخاصة، كان "محمد" الذى "يدعى" بـ"ناهيت" يكون مرسومًا فى القصة.

كنت أنا و"جنان" نبحث عن الجمل ذات علامات التعجب عندما قرأنا هذه الجملة: "الأشياء المكتوبة فى الكتاب تركت ورائى الآن!" قيل هذا من قبل شخصية أهدت نفسها للحرب ضد الجهل وقيلت لـ"بيتر وبرتف" عندما قاما بزيارته فى كوخه حيث عزل نفسه، محبطًا من حياته الفاشلة.

تمالكت نفسى عندما أدركت أن "جنان" أصبحت تنفر من هذه الصفحات، حيث كان كل الأمريكان ذوى النفوس الطيبة شقرًا وعندهم نمشى، وكل الأشرار أصحاب فم ملتو، حيث كل فرد يشكر الآخر على كل

عمل ضئيل، حيث العقبان دائمًا ما يجمعون كل الجثث من الأشلاء، وحيث عصارة الصبار تنقذ حياة الناس الذين يموتون من العطش.

بدلا من أن أحلم بإمكانية حياة جديدة كـ"ناهيت" آخر، قلت لنفسي سيكون من الأفضل أن أحرر "جنان" من أحلامها المزيفة، كانت قد أصبحت عاطفية وهى تنظر إلى تقارير مدرسة "ناهيت" الإعدادية الخاصة بـ"ناهيت" وصورته على تحقيق شخصيته. ثم جاءت "روزباد" إلى الحجرة فجأة، كما يأتى العم "رفقى" ليساعد شخصياته المحاطة بالحظ السيئ والمشكلات عن طريق وضع اللافتات التى تقول: "فجأة! أخبرتنا "روزباد" بأن أباها ينتظرنا.

لم تكن لدى أدنى فكرة عما يمكن أن يحدث لنا بعد ذلك، ولالدى أدنى فهم لأى شىء، سأضع حساباتى لكى أقترب من "جنان". عندما خرجت من المتحف المهدى إلى فترة "ناهيت" من حياة "محمد"، جاءتنى فكرتان غريزيتان: أردت أن أغادر هذا المشهد، أو أردت أن أصبح "ناهيت".

الفصل التاسع

فيما بعد عندما ذهبنا - نحن الاثنين - فى نزهة طويلة فى عزبته، عرض على دكتور "فاين" بكرم الاختيار بين حياتين بديلتين، كلتيهما أريد... إن الأمر مصادفة بحتة عندما يبدو الآباء على معرفة- كما لو كانوا آلهة فى حيازتهم ذاكرة لانهائية وكتب للتسجيل- بالأفكار التى تدور فى أذهان أبنائهم.. فى الحقيقة، هم بكل بساطة يمارسون رغباتهم غير المحققة فى أبنائهم، أو فى غرباء مثاليين يذكرونهم بأبنائهم... هذا كل ما فى الأمر...!

لقد جعلونى أفهم بمجرد أن شاهدت المتحف، أن دكتور "فاين" يرغب فى أن نذهب سويًا فى نزهة ونتحدث.. مشينا بطول حدود الحقول حيث يتمايل القمح مع هلول النسائم؛ عبرنا أرضًا تم حرثها؛ فيها عدد من الماشية والأبقار تحك أنفها فى العشب القليل تحت شجر التفاح الذى كانت ثماره صغيرة وغير ناضجة.. أرانى دكتور "فاين" البيوت التى حفرها حيوان الخُلد فى الأرض؛ لفت انتباهى إلى الطرق التى صنعتها الخنازير البرية، وشرح كيف أن طيور السُمنة التى تطير من الضواحى الجنوبية للمدينة متجهة إلى أشجار الفاكهة يمكن أن تعرفها من

خفقات أجنحتها غير المنتظمة، فسر لى إلى جانب ذلك أشياء كثيرة للغاية، متحدثًا فى صوت تعليمى، صبور، وليس بعيدًا عن كونه عطوفًا.

لم يكن فى الحقيقة طبيبًا؛ أطلق عليه أصدقاؤه اسم "دكتور" عندما كان يؤدى الخدمة العسكرية لمجرد أنه على دراية بالتفاصيل المفيدة بالنسبة للإصلاحات الصغيرة، مثل الصمولة المناسبة لنوع معين من المسامير أو سرعة قرص الهاتف، لقد عُرف بهذا الاسم؛ لأنه أحب المعدات، وكان يتمتع بالاهتمام بها، ولأنه أدرك أن اكتشاف الخصائص الفريدة لكل غرض أو شىء ينتهى إلى أعلى جودة، لم يدرس الطب ولكنه درس القانون انصياعًا لرغبة والده، الذى كان نائبًا فى البرلمان، واستمر فى ممارسة القانون فى المدينة؛ لكن عندما توفى والده وورث عنه كل الأشجار والأراضى التى أشار إليها بسبابته، قرر أن يعيش كما يحب.. فقط كما يحب! وسط منتجات اختارها بنفسه، منتجات اعتاد عليها، منتجات عرفها بنفسه، لقد قام بفتح متجر فى المدينة وهذا الهدف فى ذهنه.

كنا نصعد التل الذى كان دافئًا إلى حد ما بسبب ضوء الشمس المتردد قليلاً، عندما كشف دكتور "فاين" لى أن الأشياء لها قدرة على التذكر.. مثلنا تمامًا، الأشياء أيضًا لديها القدرة على تسجيل ما يحدث لها وتحتفظ بذكرياتها، ولكن معظمنا ليس على وعى

بهذا. "المواد تسأل عن بعضها البعض، تتفق، تهمس لبعضها البعض، تبدأ بعزف مقطوعة موسيقية، مكونة الموسيقى التى نسميها العالم." قال دكتور "فاين". "فقط الأشخاص المنتبهون يسمعونها، يرونها، ويفهمونها." يمكنه أن يقول إن طيور الحقول كانت تبنى عششها حول المكان بالنظر إلى البقع الجيرية على الغصن الجاف الذى قام بالتقاطه؛ وبدراسته للعلامات على الوحل، شرح لى كيف انكسر الغصن فى عاصفة ما منذ أسبوعين.

يبدو أنه كان يبيع بضائع سبق واشتراها ليس فقط من اسطنبول وأنقرة ولكن أيضًا من تجار من كل مكان فى "أناتوليا"، مثل الأحجار لسن السكاكين التى لا تبلى أبدًا، سجاجيد مصنوعة يدويًا، أقفال صنعت من الحديد المطروق، فتيل عذب الرائحة لمواقد الكيروسين، موديلات بسيطة للثلاجات، قلانس مصنوعة من صوف ناعم الملمس، "رونسون" ماركة حجر صوان، مقابض للأبواب، مواقد صنعت من براميل الجازولين المعاد تصنيعها، أحواض صغيرة لأسماك الزينة - أى شىء على الإطلاق يعنى له شيئًا، أو أى شىء له معنى، كانت السنوات التى قضاها فى المتجر حيث كل أنواع الحاجات الأساسية للبشر يتم عرضها فى طريقة آدمية أسعد أيام حياته، عندما حباه الله بابن بعد أن أنجب بناته الثلاث، اكتملت سعادته.. سألنى عن عمرى، فأخبرته.. قال عندما توفى ابنه كان فى نفس عمرى.

جاءتنا أصوات من مكان ما وراء التل لأطفال غير مرئيين بالنسبة لنا، عندما اختفت الشمس خلف السحب الكثيرة المظلمة التى تصر على أن تسافر بسرعة. استطعنا أن نرى عن بعد الأطفال يلعبون كرة القدم على ملعب عار، كان هناك فارق زمنى بين رؤية الكرة وهى تُركل ولحظة سماع الصوت. قال دكتور "فاين" إن هناك البعض وسط الأطفال يقومون بسرقات زهيدة، وأن سقوط الحضارات العظيمة وتحطم ذكرياتها يشار إليه أولاً بالتداعى الأخلاقى للصغار. فالصغار لديهم القدرة على نسيان القديم بلا ألم وبنفس سرعة تخيلهم للجديد. أضاف أن الأطفال يعيشون فى المدينة.

عندما كان يتحدث عن ابنه، شعرت بالغضب.. لماذا يكون الآباء يملؤهم الفخر؟ كيف يمكنهم أن يكونوا فى منتهى القسوة بلا وعى؟ أدركت أن عدسات نظارته تجعل عينيه تبدو صغيرة على غير العادة. تذكرت أن ابنه أيضًا كان لديه العينان نفسهما.

كان ابنه ذكيًا جدًا- فى الواقع عبقرى- ليس فقط لأنه بدأ القراءة فى سن الرابعة والنصف، واستطاع أن يكتب الحروف ويقرأ الصحف حتى عندما تكون مقلوبة ووضع قواعد للعب الأطفال التى اخترعها؛ كان يهزم والده فى الشطرنج: التزم فورًا بحفظ قصيدة صعبة بعد أن قرأها مرتين فقط.. أدركت أن هذه كانت فقط قصص أب قد فقد ابنه لكنه هو

نفسه لم يكن لاعب شطرنج ماهرًا، لكنى رضخت وقبلت هذه القصص، عندما أخبرنى كيف كان هو و"ناهيت" يركبان الخيول، تخيلت نفسى أنا أيضًا أركب الخيول معهما؛ عندما تحدث عن العبادات الدينية المتشددة التى مارسها "ناهيت" خلال سنوات دراسته فى المدرسة الإعدادية، تخيلت الاستيقاظ خلال رمضان مع الجدة العجوز فى قلب الليل وتناول السحور قبل بدء الصيام من طلوع النهار حتى غروب الشمس؛ بنفس الطريقة التى تصرف بها "ناهيت" وأخبرنى بها والده، أنا أيضًا تألمت، وكنت غاضبًا فى وجه الفقر، الجهل، والغباء الذى كان حولى من كل ناحية، نعم.. فعلت ذلك! باستماعى لدكتور "فاين"، تذكرت كيف أننى أنا أيضًا كنت شابًا- بالرغم من خصاله الرائعة- مازال لديه حياة عميقة فى داخله مثل "ناهيت". نعم.. أحيانًا عندما كان الآخرون يدخنون ويشربون فى تجمع ما، ومنشغلين بمحاولة خلق الدعابات وجذب الاهتمام الذى كان مختصرًا جدًا، كان ينسحب إلى ركن ويشرد فى أفكار رقيقة تخفف من التعبير الخطير فى عينيه.. نعم كان يحس بالخصلة غير المتوقعة فى شخص ما يمكن أن يشجعه ويقيم صداقة معه، فليكن هذا الشخص ابن الساعى فى المدرسة الثانوية، أو الشاعر الأحمق الذى يعمل كمشغل أفلام فى السينما الذى دائمًا ما يخلط لفائف الأشرطة، لكن هذه الصداقات لا تعنى أنه تخلى عن عالمه؛ فبالرغم من كل شىء، كل شخص أراد أن يكون

صديقه، صديقه المفضل، أو نوعًا من صاحبه المقرب. كان شريفًا ووسيمًا، وكان يحترم الأكبر منه سنًا، والأصغر منه أيضًا........

ظللت أفكر في "جنان". كنت موجهًا نفسي إلى "جنان" مثل جهاز تليفزيون مضبوط على القناة نفسها باستمرار، لكني الآن كنت أفكر في جلوسها في نوع مختلف من الكراسي، ربما لأني كنت أرى نفسي في ضوء مختلف.

"ثم فجأة، انقلب ضدي، لمجرد أنه قرأ كتابًا ما." قال دكتور "فاين" عندما وصلنا إلى قمة التل.

كانت أشجار السرو على قمة التل تتحرك مع الرياح التي كانت باردة وخفيفة لكنها لا تحمل أية رائحة، وراء هذه الأشجار كانت هناك مجموعة من الصخور والأحجار.. في البداية اعتقدت أنها قبر، لكن عندما وصلنا إليها وبدأنا نمشي وسط الأحجار الكبيرة المغطاة بعناية، شرح لي دكتور "فاين" أنها أطلال حصن "سلوقي". وأشار إلى المنحدرات التي أمامنا، وتل مظلم مغطى بأشجار السرو الذي كان في الواقع قبرًا، كل الحقول لونها ذهبي لأنها مغطاة بالقمح، والمرتفعات متوارية خلف السحب الممطرة حيث تهب الرياح بشدة، وقرية بأكملها بالإضافة إلى ذلك.. كل هذا أصبح ملكه الآن، بما فيه القلعة.

لماذا يدير شاب صغير ظهره لكل هذه الأرض التي تموج بالحياة، كل هذه الأشجار، أشجار السرو

وأشجار الحور، أشجار التفاح وأشجار الصنوبر، كل الطعام الذى وفره أبوه له، بالإضافة إلى مخزون البضائع الذى يتفق مع كل ما ذكر أعلاه؟ ما الذى يجعل شابًا يكتب لوالده أنه لا يريد أن يراه مجددًا قط، مخبرًا إياه ألا يرسل أحدًا وراءه، أو يتبعه؟ لماذا يريد أن يختفى؟ كانت هناك نظرة محددة تظهر فى بعض الأحيان على وجه دكتور "فاين"، ولم أستطع أبدًا أن أحدد إذا ما كانت تعنى أنه يريد غرس إبرة فى وجهى، أو فى وجه أشخاص مثلى، أو فى العالم بأسره، أو أنه رجل محبط وبائس أعلن تخليه عن هذا العالم الملعون.. قال: "إن الأمر كله مؤامرة" هناك مؤامرة خطيرة ضده، ضد طريقته فى التفكير، المنتجات التى كرس حياته لها، ضد كل شىء حيوى فى هذه البلد.

طلب منى أن أستمع بعناية لما سيقوله، يجب أن أتأكد أننى لن أعتقد أن الأشياء التى يجب أن يقولها هى كلام غير معقول يصدر عن رجل عجوز مصاب بالشيخوخة تم احتجازه فى مدينة بعيدة معزولة، أو خيالات منبعثة من الألم الذى يشعر به أب فقد ابنه.. قلت إننى متأكد، استمعت بعناية، بالرغم من أننى شردت بعيدًا كما يمكن لأى شخص أن يفعل عندما يذهب عقله بعيدًا، مفكرًا فى ابنه و"جنان".

ناقش لفترة ذاكرة الأشياء؛ كما لو كان يتحدث عن شىء ملموس، شرح باقتناع شديد مبدأ الوقت المثبت

بقوة بداخل المادة، تم تنفيذ المؤامرة الكبرى تقريبًا فى الوقت نفسه الذى وصل فيه لأول مرة للمبدأ السحرى، الضرورى، الشاعرى للوقت الذى ينتقل إلينا من الأشياء عندما يحدث اتصال باستخدام أو لمس شىء ما بسيط مثل ملعقة أو مقص.. للتحدث بالتحديد حدث الأمر فى الوقت الذى كانت فيه الأرصفة المعتادة مليئة بالباعة الذين يبيعون شيئًا ما كثيًا ومسطحًا يعرض فى متاجر بلا رائحة، ولا لون.. فى البداية لم يعر أى اهتمام سواء لتاجر "غاز الهلال" الذى يبيع الغاز المعبأ الذى يمد أفران الغاز بالطاقة- هذه الأشياء ذات المقابض- أو للتاجر الذى يبيع ثلاجات بيضاء كالثلج الصناعى. لكن عندما- بدلاً من الزبادى الجميل الناعم الملمس الذى نعرفه جميعًا- بدأ الباعة إحضار نوع من الزبادى يدعى "بيرت" (قالها كما لوكان يقول كلمة "ديرت/ قمامة")، أو بدلا من مشروب اللبن الرايب التقليدى البارد أو شربات الكرز اللاذع، أصبح السائقون الذين يرتدون قمصانًا مفتوحة العنق يشترون- على شاحنات نظيفة وبراقة- الشىء المقلد الذى يدعى "تورك كولا" الذى تم استبداله فى الحال بالكوكاكولا الحقيقية التى يبيعها سادة شرفاء يلبسون رباط عنق حول رقابهم، نبوعًا من نزوة غبية ما فكر فى أن ينشئ تجارة لنفسه، مثل الصمغ "يو- اتش- يو" المرخص تحت ماركة مسجلة ألمانية وشعارها بومة صغيرة توعدك أن يمكن لهذا الصمغ لصق أى شىء تريد لصقه، بخلاف

أنواع الصمغ الخاصة بنا المصنوعة من المادة الصمغيةلأشجار الأناناس، أو مثلا شىء آخر يأخذ مكان صابون الطمى خاصتنا مثل صابون البشرة "لوكس"، الذى له رائحة ملوثة مثل الصناديق التى يعبأ فيها، لكن بمجرد أن وضع هذه الأغراض فى متجره الذى كان هادئًا ومسالمًا لدرجة أنه بدا موجودًا فى الزمن الماضى، أدرك أنه ليس فقط لم يعد يستطيع أن يقول الوقت، ولكنه أيضًا لم يعد يعرف ما هو الوقت، ليس هو فقط ولكن أيضًا بضاعته قد تم الضغط عليها- مثل العنادل التى انزعجت من الطيور الوقحة التى فى القفص المجاور- من قبل وجود تلك الأشياء الوقحة المفتقرة للخيال؛ ولهذا السبب ترك فكرة التجارة، كان غير واع أن فقط المسنين والذباب هم الذين يعرجون على متجره، استمر فى عرض هذه المنتجات فقط التى كانت متاحة طبقًا لتقاليد أجداد أجداده.

مثل هؤلاء الناس الذين يفقدون عقولهم من شرب الكوكاكولا لكنهم لا يدركون ذلك، وبافتراض أن عامة الناس قد أصبحوا مهووسين بشرب الكوكاكولا، هو أيضًا يمكن أن يكون تجاهل أو حتى قبل المؤامرة الكبرى؛ فبعد كل شىء، هو لديه تعاملات وصداقات مع بعض التجار الذين يعملون لحساب المتآمرين. ليس هذا فقط، قاومت بضاعته مؤامرة التجار، ربما كان السبب هو التناغم السحرى الذى أنشأته الأشياء بين بعضها البعض، لتشمل كل شىء فى متجره، كلها

من أشيائه المفضلة _ المكواة المسطحة، ولاعته، المواقد التى بلا رائحة، أقفاص الطيور، منافضه الخشبية، دبابيس الملابس، المراوح، وكل الأشياء من هذا القبيل.. كان هناك آخرون مثله اتحدوا ضد المؤامرة، مثل الرجل الأسمر المهندم من كونيا، جنرال متقاعد من "سيفاز"، تجار من "ترابزون" كسرت قلوبهم ولكنهم مازالوا مؤمنين بحق و- أنت تقول- حتى من طهران، دمشق، إدرين، والبلقان، جميعهم انضموا إليه فى تكوين منظمة التجار المحبطين الذين نظموا الأنواع المحددة لبضاعتهم، لقد تلقى فى الوقت نفسه تلك الخطابات من ابنه الذى كان يدرس الطب بعيدًا فى اسطنبول. "لا تبحث عنى؛ لا تجعل أحدًا يتبعنى؛ فلقد قررت الابتعاد." أعاد دكتور فاين بسخرية الكلمات المتمردة لابنه المتوفى، الكلمات التى أغضبته.

لقد فهم على الفور أنه عندما لم تستطع عناصر القوى التى تورطت فى المؤامرة الكبرى أن تتصارع مع متجره، أفكاره، وذوقه، حاولوا أن يسلكوا طريق الانتصار على ابنه لكى يدمروه هو.. قال بكبرياء: "يدمرونى أنا... دكتور "فاين"!" وهكذا قام بفعل ما طلب ابنه منه فى خطابه ألا يفعله، آملاً فى أن يقلب كل شىء لحسابه. فقام بتعيين شخص ليتعقب ابنه، وطلب منه أن يبقى "تاهيت" تحت المراقبة وأن يكتب تقارير عن سلوكه وتصرفاته، ثم بعد أن أدرك أن جاسوسًا واحدًا ليس بكاف، أرسل شخصًا ثانيًا من

اتباعه وراء ابنه، ثم أرسل ثالثًا، هما أيضًا كتبا تقاريرهما. كما فعل الآخرون الذين أرسلهم في أثره، أثناء قراءته للتقارير، اقتنع مرة أخرى بحقيقة المؤامرة الكبرى، التي تنمو بواسطة هؤلاء الذين يريدون تدمير بلدنا وهويتنا، ويتخلصون نهائيًا من ذاكرتنا الجمعية.

قال: "عندما تقرأ التقارير بنفسك، سترى ماذا أعني.. كل شيء وكل شخص متورط معهم يجب أن يتم تعقبه، لقد أخذت على عاتقي العمل الذي كان يجب أن يتم بطريقة صحيحة من قبل الحكومة- فأنا لها- أنا الآن لدي أشخاص متواطئون، أفراد كثيرون محبطون وضعوا كامل ثقتهم في شخصي."

كان باستطاعتنا رؤية المشهد الذي أمامنا الآن كبطاقة جميلة- والذي كان كله من ممتلكات دكتور "فاين"- مغطاة بالسحب الرمادية الكثيفة، بدءًا من عند التل حيث مكان القبر، كان المنظر الرائع الصافي يختفي داخل نوع من التذبذب الشاحب، البرتقالي اللون.. قال دكتور "فاين": " إنها تمطر هناك، لكنها لن تمطر هنا." قال ذلك وكأنه إله يقف على جبل وينظر للكون الذي يتحرك بإرادته هو، لكن في الوقت نفسه كان في صوته نبرة سخرية، أو حتى عدم رضا عن الذات، التي دلت على أنه واع تمامًا بالطريقة التي كان يتحدث بها.. قررت أن ابنه لا يملك ولو كمية قليلة من هذا النوع من الحس المرهف، كنت قد بدأت أحب دكتور "فاين".

كانت ألسنة البرق الرفيعة الواهنة تضيء وتومض ثم تختفي في السحاب عندما كرر دكتور "فاين" مرة أخرى أن ما قلب ابنه ضده كان كتابًا، فلقد قرأ ابنه كتابًا في يوم ما واعتقد أن عالمه كله قد تغير.. قال لي: "علي.. يا بني، أنت أيضًا ابن تاجر، وأيضًا في أوائل العشرينيات من عمرك. أخبرني، هل هذا ممكن في هذه الأيام وهذا العهد؟ هل يستطيع كتاب أن يغير حياة شخص بأكملها؟" ظللت صامتًا، أنظر إليه من ركن عيني.. "بأية قوة يمكن لسحر قوي مثل هذا أن ينعكس على هذا اليوم وهذا العهد؟ لم يكن ببساطة يحاول أن يقوي اعتقاده الخاص، ولكن للمرة الأولى كان يريد حقًا إجابة مني.. ظللت صامتًا من الخوف، للحظة اعتقدت أنه كان قادمًا ناحيتي بدلاً من السير ناحية أطلال القلعة، لكنه فجأة توقف والتقط شيئًا من على الأرض.

"تعال وانظر ماذا وجدت.." قال ذلك وأراني ما في راحة يده.

قال وهو يبتسم: "نبتة ذات أربع وريقات."

لكي يواجه الكتاب والأدب عمومًا، قام دكتور "فاين" بتقوية علاقاته مع الرجل المهندم من كونيا، الجنرال المتقاعد من سيفاس، السيد الذي يدعى "هاليس" في ترابزون، وأصدقاؤه الحزاني الآخرون الذين جاءوا من دمشق، ايدرين، ومن البلقان. ردًا على المؤامرة الكبرى، بدءوا يتاجرون فيما بينهم حصريًا

ويأتمنون آخرين جُرحت قلوبهم أيضًا، وينظمون شيئًا- بعناية، بآدمية، وبتواضع- ضد متآمرى المؤامرة الكبرى، طلب دكتور "فاين" من كل أصدقائه أن يحتفظوا بالمنتجات التى كانت حقيقية لهم، المنتجات التى هى مثل امتدادات أيديهم وأذرعتهم والتى مثل الشعر الذى يجعل أرواحهم مكتملة، "بكلمات أخرى، أى شىء يجعلهم كاملين" _ مثل أكواب الشاى الخاصة بهم التى على شكل الساعة الرملية، مباخرهم الزيتية، صناديق أقلامهم الرصاص، ألحفتهم _ كمقياس ليحول بين كوننا عديمى الحيلة مثل الأشياء الحمقاء الميئوس منها التى فقدت ذاكرتها الجمعية، التى كانت "كنزنا الأعظم"، لذلك فبرغم المعاناة خلال المأساة بأكملها والنسيان الملقى علينا، فقد ننشئ من جديد وبانتصار "سيادة تقاريرنا السنوية الكاملة عن الوقت الذى كنا فيه فى خطر التدمير." وقام كل شخص بكل ما فى وسعه بتخزين آلات قديمة، مواقد، صابون خال من الصبغة، شبكات للناموس، ساعات الأجداد، وما إلى ذلك، فى متاجرهم، وإذا كان الاحتفاظ بهذه المنتجات ممنوعًا فى المتاجر من قبل إرهاب الدولة الذى يدعى قانون البلاد، فليحتفظوا بها إذًا فى بيوتهم.. فى الأقبية، أو حتى فى حفر يحفرونها فى حدائق منازلهم.

بينما كان دكتور "فاين" يذرع المكان ذهابًا وإيابًا، فى أحيان كان يضع مسافة بيننا، ويختفى خلف بعض

الأشجار وسط أشجار القلعة، وكان الأمر يتطلب أن أنتظره. لكن عندما رأيته يمشى باتجاه تل كان يختفى وراء شجيرة طويلة وأشجار السرو، جريت لكى ألحق به. أولاً نزلنا منحدرًا خفيفًا مغطى بنبات السرخس ونباتات شائكة، ثم بدأنا نصعد التل، الذى كان منحدرًا نوعًا ما. تقدمنى دكتور "فاين"، وكان يتوقف فى بعض الأحيان لينتظرنى حتى لا يفوتنى شىء من كلامه.

باعتبار أن الأشخاص الذين يتم استغلالهم وأتباع المؤامرة الكبرى يعتدون علينا بعنف- سواء عن قصد أو دون قصد- من خلال الكتب والأدب، قال لأصدقائه، يجب علينا أن نتخذ احتياطنا وحذرنا ضد الأشياء المطبوعة.. سألنى: "ما الأدب؟"، وهو يقفز من صخرة إلى أخرى مثل فتى رشيق من فريق الكشافة.. "ما الكتاب؟" فكر فى الأمر.. ظل صامتًا لفترة، كما لو كان يستعرض كيف فكر فى الأمر بإتقان وبكل التفاصيل، وكم من الوقت أخذت هذه العملية منه؟ شرح لى الأمر بينما يساعدنى فى التخلص من نبات العليق الذى علق بثنية ساق سروالى، "ليس المذنب هذا الكتاب بعينه فقط- الكتاب الذى أوقع ابنى فى الفخ- لكن كل الكتب التى طبعت فى معامل الطباعة؛ كلها أعداء للكتب السنوية لزماننا.. ووجودنا السابق."

لم يكن دكتور "فاين" ضد الأدب الذى يُكتب باليد، الذى كان جزءًا أساسيًا لليد التى تمسك بالقلم- نوع

الأدب الذى يحرك اليد، وللتعبير عن الأحزان،الفضول وعواطف الروح، الذى يبهج وينير العقل، ولم يكن أيضًا ضد الكتب التى تخبر الفلاح كيف يتعامل مع الفئران، يوجه شخصًا ما مشتت الذهن فقد طريقه إلى الاتجاه الصحيح، الذى يذكر الضال بطريقه، أو يخبر ويعلم الطفل الساذج طبيعة العالم من خلال مغامرات مصورة؛ كان يحبذ كل هذه الأنواع من الكتب التى هى ضرورية فى الوقت الحالى كما كانت من قبل، وسيكون شيئًا جيدًا إذا كُتبت هذه الكتب بأعداد أكبر.. الكتب التى يعارضها دكتور "فاين" هى الكتب التى فقدت تألقها، وضوحها، والحقيقة لكنها تدعى أنها متألقة، واضحة، وحقيقية.. هذه الكتب التى وعدتنا بهدوء وسحر الجنة من بين الحدود التى وضعت من قبل العالم، التى ينتجها وينشرها أتباع المؤامرة الكبرى بوفرة _ عن هذه النقطة مر بنا فأر حقل وذهب فى غمضة عين _بجهدهم المكثف لكى يجعلونا ننسى شاعرية ومشاعر حياتنا. "أين الدليل؟" قال، وهو ينظر إلىّ بشك كما لو كنت أنا من طرح السؤال... "أين الدليل؟" كان يتسلق بسرعة وسط الأشجار الهزيلة والصخور المغطاة بمخلفات الطيور.

للحصول على الدليل، يجب أن أقرأ التقارير التى كتبها رجاله المنتشرون فى كل مكان فى البلد، الجواسيس الذى أرسلهم ليقوموا بالتحريات فى اسطنبول، بعد قراءة الكتاب، أصبح ابنه مشتتًا؛ ولم

يقم بإلقاء أسرته وراء ظهره فقط _ الأمر الذى يمكن إعزاؤه لتمرد الشباب _ لكنه أيضًا أغلق عينيه أمام ثراء الحياة، بكلمات أخرى، "تناغم الوقت غير المعلن"، منفعلاً بنوع من "العمى" ضد "اكتمال التفاصيل المختزنة فى كل غرض.." بعد أن استسلم لنوع من "رغبة الموت".

"هل يمكن لكتاب واحد أن يحقق كل هذا؟" سأل دكتور "فاين". "هذا الكتاب مجرد أداة فى أيدى المؤامرة الكبرى".

كان مازال يقلل من شأن الكتاب والكاتب معًا. كنت سأرى بنفسى، عندما أقرأ التقارير التى كتبها أصدقاؤه والجواسيس والتقارير التى احتفظوا بها، أن الفائدة التى ترجى من الكتاب لم تكن متفقة مع أهداف الكاتب. كان الكاتب بيروقراطيًا متقاعدًا فقيرًا، ذا شخصية ضعيفة لم يكن حتى يملك شجاعة معتقداته.. "نوع الشخصية الضعيفة التى يطالبنا بإنتاجها هؤلاء الذين نقلوا لنا عدوى وباء النسيان الذى يهب علينا مع الرياح القادمة من الغرب، لاغيًا ذاكرتنا الجمعية(وعينا الجمعى). شخص ضعيف، شخص بلا هوية، لاشيئًا! لقد رحل، دُمر، مسح من على وجه الأرض." جعل دكتور "فاين" الأمر واضحًا أنه لا يشعر بأقل أسف لموت الكاتب.

تسلقنا لبعض الوقت ممرًا للماعز. أضاءت ألسنة البرق والرعد الوهاجة سحب الأمطار التى ظلت تغير

أماكنها دون أن تقترب أو ترحل؛ ولكن دوى الرعد كان خافتًا لدرجة أنه يُسمع بالكاد، كما لو كنا نشاهد التليفزيون ولا نسمع الصوت. عندما وصلنا إلى قمة التل، استطعنا أن نرى ليس فقط أملاك دكتور فاين ولكن أيضًا المدينة التى تقف على الأرض الممتدة مثل مائدة أعدتها ربة منزل مجتهدة، الأسطح المغطاة بالقرميد الأحمر، المسجد ذو المآذن الرشيقة، الشوارع التى تنتشر بحرية، وخارج حدود المدينة، الحدود الخارجية الحادة لحقول القمح وأشجار الفواكه.

"فى الصباح الباكر استيقظ وأبعث بتحية للنهار قبل أن يجد النهار فرصة ليوقظنى." قال دكتور "فاين" وهو يتفحص المشهد.. "تشرق الشمس من وراء الجبال، لكن يعرف الفرد أن الشمس قد أشرقت فى أماكن أخرى منذ ساعات عن طريق طيور السنونو.. أحيانًا فى الصباح أمشى كل الطريق إلى هنا لكى أرحب بالشمس التى تحيينى.. الطبيعة ساكنة؛ النحل والثعابين لم تستيقظ بعد، نتبادل أنا والأرض نفس السؤال - لماذا نحن هنا فى هذه الساعة.. لأى غرض.. لأى غرض عظيم؟ عدد قليل جدًا من البشر يأخذ فى الاعتبار هذه الأشياء فى توافق مع الطبيعة، إذا كان البشر يفكرون على الإطلاق، فهناك فقط أفكار قليلة مثيرة للشفقة فى أذهانهم والتى يحصلون عليها من الآخرين، ولكنهم يعتقدون أنها أصيلة فيهم؛ فهم لا يكتشفون قط أى

شيء يتأمل الطبيعة بأنفسهم فكلهم ضعفاء، بلا هوية ولامبادئ.. هشين.

"حتى قبل أن أكتشف المؤامرة الكبرى التي جاءت من الغرب، كنت قد فهمت بالفعل حقيقة أنه لكي يبقى المرء منتصرًا يجب عليه أن يملك القوة والإصرار" قال دكتور "هاين". "شوارعنا الحزينة، الأشجار التي عانت طويلاً، الأضواء الشاحبة التي لم تعرض عليّ إلا اللامبالاة؛ لذلك وضعت أشيائي بالترتيب، جمعت مبدأ الوقت الخاص بي، رافضًا الخضوع ولا للتاريخ ولا لهؤلاء الذين يريدون أن يحكموه.. لماذا يجب أن أخضع؟ أنا أثق بنفسي، ولأني أثق بنفسي فإن الآخرين أيضًا يضعون ثقتهم في قوة إرادتي والعدالة الشاعرية لحياتي.. تأكدت أنهم كانوا متعلقين بي، وهكذا اكتشفوا أيضًا التقارير السنوية لزمننا. كنا متعلقين ببعضنا البعض، كنا نتواصل عن طريق لغة سرية، نتراسل مثل العشاق، عقدنا اجتماعات سرية.. مؤتمر التجار هذا الذي يعقد في جيودل- يا بني العزيز "علي"- هو ثمرة معاناة طويلة وصعبة، عملية مخططة بدقة التي تتطلب الصبر الذي يتطلبه حفر بئر بإبرة، ومنظمة تم تكوينها بدقة مثل شبكة العنكبوت، لا يهم ما يحدث، فالغرب لن يستطيع ردعنا بعد الآن".

بعد صمت أضاف هذه المعلومة: بعد ساعات من مغادرتي أنا وزوجتي الصغيرة الجميلة مدينة

جـيـودل". اندلعت النيران فى كل المدينة، لم تكن مـصـادفـة أن المطافئ لم تكن قـادرة على التـعـامل مع الوضع بالرغم من المسـاعـدة التى تلقـوهـا من الحكومة.. لا عجب أن الدموع، شعلات الغضب، التى شوهدت فى عـيـون أعـضـاء المقـاومـة، هذا الصـخب الذى أثارته الصحف، كانت الدموع نفسها التى تراها عند أصدقائه المحبطين الذين شعروا أن هناك من سرق أرواحهم، شاعريتهم، ذاكرتهم... هل عرفت أنا أن العـربات احـتـرقت، أن المسدسـات قـد أطلقت نيرانها، وأن شخصًا واحدًا- واحد منهم- قد فقد حياته؟ الحدث كله قد بدأ بواسطة حاكم المقاطعة بنفسه وبمساعدة الأحزاب السياسية المحلية، عندما منع مؤتمر التجار المحبطين من الاستمرار تحت حجة أنه يهدد القانون والنظام.

قال دكتور "فاين": "إنها صفقة مكتملة.. أنا لست على وشك الرضوخ، كنت أنا الشخص الذى طلب أن يطرح مـوضـوع الملائكة للمناقشة على الملأ، كنت أنا أيضا الذى طالبت ببناء جهاز تليفزيون يعكس قلوبنا وطفولتنا، كنت أنا الذى صنعت هذا الجهاز، كنت أنا من طلب أن كل الأشياء الشريرة- مثل الكتاب الذى أخذ ابنى بعيدًا عنى- يتم مطاردتها لتعود إلى المكان الذى ظهرت منه، إلى الحـفـرة الشيطانية حـيـث تضطرم وتتلوى.. أدركنا أن مـئـات من شـبـابنا قـد "تغـيـرت حـيـاتهم بأكـملهـا" من خلال هذا النوع من الخدع كل سنة، "عـالمهم أصـبح غـيـر متـزن" عن طريق

حصولهم على كتاب أو اثنين فى أيديهم.. أعطيت كل شىء اهتمامًا كاملًا، ليس من الصدفة أننى لم أحضر المؤتمر.. فكون المؤتمر قد أحضر لى شابًا مثلك ليس مجرد ضربة حظ أيضًا، فكل شىء يحدث كما خططت له بالضبط، عندما أُخذ منى ابنى فى حادث طريق، كان فى مثل سنك. اليوم هو الرابع عشر من الشهر، ولقد فقدت ابنى فى تاريخ الرابع عشر".

عندما فتح دكتور "فاين" قبضة يده الكبيرة، رأيت هناك النبتة ذات الأربع وريقات، التقطها من عنقها وتفحصها قبل أن يتركها تطير بعيدًا مع النسيم الخفيف، كان الهواء يهب من اتجاه السحب الممطرة ولكن بصورة غير ملحوظة حتى أننى شعرت به فقط من البرودة على وجهى. تلكأت السحب الرمادية اللون حيث كانت، كما لو كانت لا تستطيع اتخاذ القرار. بدا الضوء ذو الوهج الأصفر يتلألأ فى مكان ما على بعد وراء المدينة.. قال دكتور "فاين" إنها تمطر "الآن" على هذه المنطقة هناك. عندما وصلنا إلى المنحدرات الصخرية على الجانب الآخر من التل، رأينا أن السحب قد انتشرت فوق القبر. كان هناك صقر قد بنى عشه وسط الصخور التى كانت وعرة فى بعض الأماكن؛ وللحظة أدرك أننا نقترب، فرفرف بجناحيه فى انزعاج وبدأ يحلق صانعًا قوسًا واسعًا على أرض دكتور "فاين"... بهدوء، باحترام، وبنوع من الإعجاب، شاهدنا الطير وهو يسبح فى الهواء.

قال دكتور "فاين": "هذه الأرض لديها القوة والثروة، لتدعم الحركة العظيمة التى ألهمتنى بها فكرة مؤثرة ذات هدف واحد والتى راعيتها كل هذه السنوات، لو كان لدى ابنى القوة والإرادة القوية ليقاوم الخديعة التى ارتكبتها المؤامرة الكبرى ولم يسمح لنفسه أن ينخدع بواسطة مجرد كتاب بالرغم من ذكائه المذهل، لكان شعر بالقدرة على الإبداع والقوة التى أشعر بها اليوم، وأنا أنظر إلى الأرض من هذه المرتفعات، أعرف أنك اليوم قد أدركت بنفسك الإلهام نفسه، الأفق نفسه، عرفت منذ البداية أن ما وصلنى عن حزمك لم يكن مبالغًا فيه على الإطلاق، عندما عرفت عمرك، لم يبق لدى أى تحفظات؛ حتى أنه لم يكن من الضرورى أن أنبش فى ماضيك، وبالرغم من أنك فى السن نفسه الذى تم أخذ ابنى فيه بمنتهى القسوة والدناءة، فأنت قد فهمت بالفعل كل شىء بشكل كامل وكاف، جعلك ترغب فى أن تشارك فى مؤتمر التجار.. معرفتى بك لمدة يوم واحد أظهرت لى بالفعل أنه يمكن لمصير غير معلن أن ينتهى قبل الأوان فى فرد ما أن يحيا مجددًا من خلال شخص آخر، لم يكن الأمر عبثًا، إننى سمحت لك بالدخول إلى المتحف الصغير الذى أقمته على ذكرى ابنى. أنت وزوجتك.. الشخصان الوحيدان اللذان قاما بزيارة هذا المتحف باستثناء أمه وأخواته، كنت قادرًا على تقدير ذاتك هناك، ماضيك ومستقبلك، والآن أنت أصبحت على وعى بخطوتنا المقبلة أثناء تأملك لى، أنا دكتور

"فاين". فلتصبح ابنى.. خذ مكانه.. استمر فى تنفيذ عملى بعد موتى، فأنا تتقدم بى السن، لكن مشاعرى لم تتناقص على الإطلاق. أريد أن أتأكد أن الحركة ستبقى على قيد الحياة، لدى معارف فى الحكومة. وهؤلاء الذين يكتبون التقارير لى مازالوا نشطين. مازلت أتعقب آثار مئات الشباب الذين انخدعوا. سأجعل كل هذه الملفات متاحة لك- كلهم بلا استثناء - حتى تقارير أنشطة ابنى- فقط أقرؤهم - شباب كثيرون للغاية تم أخذهم خارج المسار الطبيعى لحياتهم! ليس من الضرورى أن تعلن عن اسم والدك، أو عائلتك. أريد أيضًا أن أريك مجموعة مسدساتى _ فقط قل "موافق"- قل نعم لقدرك.. أنا لست شخصًا منحطًا، أنا على وعى بكل شىء، لم يكن لدى وريث ذكر لسنوات انتهت، لقد عانيت؛ وعندما أخذوه بعيدًا عنى، عانيت أكثر؛ لكن لاشىء يمكن أن يكون أكثر ألمًا من أن أترك تركتى بلا شخص يرثها".

كانت السحب الرعدية تنتشر هنا وهناك، وغمر ضوء الشمس مملكة دكتور فاين كما تضىء الأضواء خشبة المسرح، عندما أضيئت قطعة من الأرض للحظة، تغيرت الألوان بسرعة على الأرض المستوية المغطاة بأشجار التفاح، القبر حيث أخبرنى أن ابنه مدفون، الأرض الجدباء حول حظيرة الماشية؛ ولاحظنا شعاعًا من الضوء مخروطى الشكل يتقدم بسرعة على الحقول مثل روح قلقة لا تحترم الخطوط الفاصلة، فقط لكى يختفى، عندما أدركت أننا

نستطيع أن نرى معظم المساحة التى قطعناها مشيًا من هذه النقطة، نظرت للخلف، راصدًا المنحدر الصخرى، ممر الأغنام، أشجار السرو، التل الأول، الغابات وحقول القمح، و- مندهشًا كراكب طائرة يرى منزله من أعلى للمرة الأولى- ميزت منزل دكتور "فاين". عندها كنت واقفًا فى منتصف الأراضى الشاسعة المحاطة بالأشجار؛ رأيت بوضوح خمسة أشخاص مصغرين يمشون تجاه غابة من أشجار الأناناس والطريق إلى المدينة، وتعرفت على واحدة منهم على أنها "جنان" بواسطة الفستان القطنى القرمزى اللون الذى اشترته أخيرًا _ لا.. لم أتعرف عليها عن طريق هذه الحقيقة فقط، لكن من مشيتها، من أسلوبها، رقتها، رشاقتها _ لا.. من خفقات قلبى، ثم فجأة رأيت قوس قزح رائع، يتجسد بعيدًا على مسافة خلف الجبال على حافة مملكة دكتور "فاين" الجميلة.

قال دكتور "فاين": " يتأمل الآخرون الطبيعة فقط ليروا فيها قصورهم، عدم كفاءاتهم، مخاوفهم، ثم- خوفًا من نقاط ضعفهم- يرجعون خوفهم إلى كون الطبيعة بلا حدود، إلى جمالها. بالنسبة لى، أرى فى الطبيعة أقوالاً قوية تتحدث إلىّ، مذكرة إياى بقوة إرادتى الخاصة التى يجب أن أتمسك بها؛ أرى هناك مخطوطًا ثريًا أقرؤه بصلابة، بلا رحمة، بلا خوف، مثل العصور العظيمة والبلاد العظيمة، الرجال العظام أيضًا هم الذين يستطيعون استجماع فى داخلهم قوة

كبيرة للغاية لدرجة أنها تكون على وشك الانفجار، عندما يحين الوقت المناسب، عندما تعلن الفرص عن نفسها، عندما تعاد كتابة التاريخ، تتحرك هذه القوة العظيمة بلا شفقة وبالتحديد كما يفعل الرجل العظيم الذى تم إعداده للحرب، ثم يبدأ القدر أيضًا فى التحرك بلا رحمة.. فى هذا اليوم العظيم، لن يتم إعطاء أى أهمية للرأى العام، أو للصحف، أو للأفكار الحالية، ولا للنزاهة التافهة والمنتجات الاستهلاكية غير المهمة، مثل زجاجات الغاز المعبأ الخاص بهم وصابون لوكس، كوكاكولا ومارلبورو التى خدع الغرب بها مواطنينا المثيرين للشفقة".

سألت " متى يمكننى أن أقرأ التقارير يا سيدى؟"

كانت هناك فترة صمت طويلة.. تلألأ قوس قزح ولمع على نظارة دكتور "فاين" المغبرة الثاقبة مثل قوسين قزح متساويين.

قال دكتور "فاين": "أنا عبقرى..!"

الفصل العاشر

عدنا أدراجنا إلى المنزل، بعد أن تناولنا غداء هادئًا مع الأسرة، قادني دكتور "فاين" إلى مكتبه، وفتحه بمفتاح يشبه إلى حد كبير المفتاح الذى فتحت به "روزاماند" حجرة طفولة "محمد" فى الصباح، أثناء ما كان يعرض عليّ الكراسات التى أخرجها من الأدراج والملفات التى أنزلها من الخزائن، أخبرنى أنه لم يتجاهل احتمالية أن الأمر الذى كلف به تقارير الاستخبارات والوثائق يمكن أن يتجسد فى يوم ما فى صورة دولة، لو كانت جهوده ناجحة- كما تم التصديق عليها من قبل شبكة التجسس التى نظمها- لنوى دكتور "فاين" لتأسيس دولة جديدة.

كانت التقارير فى الحقيقة مؤرخة وموضوعة فى ملفات بمنتهى الدقة، والذى جعل الأمر سهلاً عليّ لأدخل فى صلب الموضوع... أبقى دكتور "فاين" شخصيات المخبرين الذين قام بإرسالهم وراء ابنه سرًا على بعضهم البعض، معطيًا لكل عميل اسمًا حركيًا كان بمثابة ماركة ساعة مميزة لكل مخبر، بالرغم من أن معظم هؤلاء المخبرين تم تدريبهم فى الغرب، إلا أن دكتور فاين يعتبرهم ينتمون "لنا"، مفترضًا أنهم كانوا ينتظرون الوقت المناسب لمدة قرن.

قام أول مخبر، واسمه "زينث"، بوضع تقريره الأول منذ أربع سنوات فى مارس. كان "ناهيت" - لم يكن قد اتخذ هويته الجديدة بعد - وقتها طالب فى جامعة إسطنبول فى "سابا"، فى الفرقة الثالثة من برنامج لمدة ست سنوات من الدراسات التى تؤهل لدرجة الطب التى تبدأ فى تركيا مباشرة بعد المدرسة الثانوية. أكد "زينث" أنه منذ بدأت الدراسة فى الخريف، فإن طالب السنة الثالثة هذا لم يحقق إلا الفشل الذريع فى دروسه؛ ثم أكمل ليلحق تحرياته قائلاً: "إن فشل الشخص المقصود فى الدراسة خلال الثلاثة أشهر الأخيرة هو نتيجة مباشرة لخروجه النادر من حجرته فى المدينة الجامعية، لم يعد يحضر محاضراته، ولا حتى يظهر فى ساعات تدريبه العملى فى العيادة أو المستشفى." كان الملف ممتلئاً عن آخره بالتقارير، التى تظهر بالكثير من التفاصيل فى أى وقت غادر "ناهيت" المدينة الجامعية وإلى أى مطعم للوجبات السريعة ذهب، هل دخل محل للكباب أم للحلوى؟ مع أى بنك يتعامل ولأى حلاق يذهب؟ لم يكن "محمد" يتلكأ أو يتسكع فى كل مرة يقوم بقضاء مشاويره ولكن يعود بسرعة إلى حجرته، وفى كل مرة يختم "زينث" تقاريره الاستخبارية بطلب من دكتور "فاين" العزيز المزيد من النقود ليستمر فى "تحرياته".

كان العميل التالى بعد "زينث" الذى عينه دكتور "فاين" هو "موفادو"، الذى من الواضح أنه كان مشرفاً فى المدينة الجامعية فى "كاديرجا"؛ ومثل معظم

مشرفي بيوت الطلاب، كانت له صلة بالشرطة. تخيلت أن هذا الرجل الخبير- الذي كان قادرًا على إبقاء عينيه على محمد ساعة بساعة- من المحتمل أنه كتب تقارير فيما مضى عن طلاب آخرين لمصلحة الآباء القلقين في المقاطعات المختلفة أو للمكتب القومي للتحريات، وأنا أرى كيف وصف توازن القوة في المدينة الجامعية بمهارة وحنكة حتى تقييمه وحكمه له صبغة احترافية، حاد ومختصر. الخلاصة: لم تكن "ناهيت" أية صلة بالأحزاب الطلابية المعارضة الذين كانوا يكافحون ليحصلوا على السلطة في المدينة الجامعية؛ اثنان من هذه الأحزاب كانا متطرفين متعصبين، واحد كان له صلات بتنظيم "ناقشابند" الصوفي، أما الحزب الآخر فكان اتجاهه يساريًا، كان الشاب الذي يهمنا أمره مكتفيًا بذاته، ليس لديه أي احتكاك بهذه الأحزاب، يعيش بهدوء مع ثلاثة أشخاص يشاركونه الغرفة، وكان يقرأ ويقرأ دون حتى أن يرفع رأسه. لا يقرأ شيئًا سوى كتاب واحد بعينه كما لو كان شخص "يحفظ القرآن" (لو كان لي أن أستخدم هذا المصطلح، يا سيدي المبجل) مشغولاً من الصباح إلى الليل بحفظه. بقية العاملين بالمدينة الجامعية الذين يثق بهم "موفادو" تمامًا في فهمهم للمسائل السياسية والإيديولوجية، الشرطة، وزملاء شابنا في الحجرة أيضًا أكدوا أن هذا الكتاب لم يكن من النوع الذي يحفظه السياسيون والمتعصبون الشباب عن ظهر قلب.

ولكى يظهر أنه لم يأخذ الموقف بجدية زائدة، قام "موفادو" بإضافة ملاحظات قليلة مثل جلوس الشاب لساعات على مكتبه فى غرفته يقرأ ثم يحدق خارج النافذة بشرود، أو يبتسم بطيبة أو يقوم ببعض التعليقات اللامبالية ردًا على المداعبات الثقيلة التى يتعرض لها فى مطعم الجامعة، أو أنه لا يحلق كل صباح كالمعتاد؛ واستمر يطمئن ولى نعمته أن بحكم خبرته هذا النوع من خيال الشباب لا شىء سوى "مرحلة عابرة"، ليست مختلفة عن المشاهدة الدائمة لنفس الفيلم الإباحى، أو الاستماع إلى نفس الشريط ألف مرة، أو طلب نفس طبق الكرات المطبوخ مع اللحم دائمًا.

رأيت كيف أن "أوميجا" -العميل الثالث- الذى بدأ عملية التجسس فى مايو، كان يتعقب الكتاب أكثر مما كان يتعقب "ناهيت"، فمن المؤكد أنه تلقى أمرًا فى هذا الموضوع من دكتور "فاين". هذا يدل على أن والده كان يصر فى الواقع على أن ما أخذ محمد بالتحديد- الذى هو ناهيت- من سياق حياته هو الكتاب.

قام "أوميجا" باستجواب الكثير من بائعى الكتب فى إسطنبول بما فيهم كشك الكتب الذى باع لى نسختى من الكتاب بعد ذلك بثلاث سنوات ونصف السنة، كنتيجة لبحثه المدقق الصبور، صادف الكتاب عند بائعين مختلفين، فالمعلومة التى استنتجها من

بائعى الكتب أرسلته إلى مكتبة تبيع الكتب المستعملة، حيث قادته الحقائق التى تلقاها فى الوصول إلى هذه الاستنتاجات: تمت إتاحة عدد صغير من هذه الكتب- ربما مائة أو مائة وخمسون نسخة- من قبل مصدر غير معروف، على الأرجح تم بيعها بالوزن لتاجر خردة ما عندما تم إخلاء مخزن ما خبيث الرائحة أو لم يعد صالحًا للعمل، ومن هناك انتهى المطاف بالكتب إلى عدة باعة ومكتبة لبيع الكتب المستعملة، تشاجر الممول الذى اشترى الكتب بالوزن مع شريكه، وأغلق محله، وغادر اسطنبول، ولم يكن يمكن إيجاد ومعرفة الممول الأصلى، فكرة أن الشرطة يمكن أن يكون لها يد فى إعادة توزيع الكتاب طرحها على "أوميجا" مالك المحل فى ناحية متجر الكتب المستعملة، لقد تم نشر الكتاب فى وقت ما بطريقة شرعية، فقط لتتم مصادرته من قبل مكتب وكيل النيابة وتم وضعه فى مخزن يخص الأمن الداخلى، ومن هناك- كما يحدث غالبًا- سُرقت الكتب المصادرة على الأرجح بواسطة ضابط شرطة معدم، وقام ببيعها بالوزن لتاجر خردة، وهكذا رجعت مرة أخرى تدور دورتها.

عندما لم يصادف "أوميجا" المثابر أى أعمال أخرى للمؤلف نفسه فى المكتبة؛ والأكثر من ذلك أنه لم يجد اسمه فى دليل التليفونات، فقام بعرض هذا التخمين: "على الرغم من أن مواطنينا الذين لا يستطيعون تحمل مصروفات تليفون يملكون الجرأة لكتابة كتاب،

فأنا أدلي برأيي باحترام أن هذا الكتاب تم نشره تحت اسم مستعار".

كان "محمد" - الذي قضى الصيف كله يقرأ الكتاب مجددًا ومجددًا - قد بدأ تحرياته في الخريف التي قد تقوده إلى المصدر الأصلي للكتاب، كان اسم الرجل الجديد الذي أضافه أبوه إلى الثلاثة الذين يتتبعونه بالفعل على اسم ماركة ساعات سوفيتية الصنع كانت معروفة في إسطنبول خلال السنوات الأولى من الجمهورية التركية.. اسمه "سركيسوف".

بعد أن تأكد "سركيسوف" أن "محمد" قد انغمس كليًا في القراءة في مكتبة "بيازيت" القومية، قام بإعطاء دكتور "فاين" الأخبار الجيدة أن الشاب كان ببساطة يستذكر ليعوض عمله غير الكامل في الجامعة، ثم بعد أن أدرك أن الشاب كان يقرأ قصصًا مصورة للأطفال مثل "برنت وبيتر" أو "علي وماري"، ترك "سركيسوف" استنتاجه المتفائل وقام بقول الخلاصة بعد ذلك بطريقة التعزية: ربما كان الشاب يأمل أن يخرج من اكتئابه بالعودة إلى ذكريات الطفولة.

طبقًا للتقارير، خلال شهر أكتوبر قام "محمد" بزيارات إلى دور نشر "بابيالي" الذين قاموا مرة أو مازالوا يصدرون قصص الأطفال المصورة، بالإضافة إلى كُتاب عديمي الضمير _ مثل "نيساتي"، على سبيل المثال _ الذين يكتبون هراء لمجلات مثل هذه، قال "سركيسوف"-الذي اعتقد أن دكتور "فاين" كان يرسل

من يتحرى عن الشاب ليعرف ميوله السياسية والإيديولوجية- ما يلى عن أناس بعينهم " أقول لك يا سيدى مهما ادعوا مدى اهتمامهم بالسياسة، ولا يهم كم مرة تمسكوا طويلاً بالموضوعات السياسية والفكرية الحالية، فهؤلاء الجدليون ليس لديهم أى اعتقادات حقيقية، يكتبون من أجل المال، وإذا لم يستطيعوا الحصول على المال، فهم يكتبون ليضايقوا الناس الذين لا يحبونهم".

رأيت فى تقارير كل من "سركيسوف" و"أوميجا" أن فى صباح من الخريف قام "محمد" بزيارة قسم شئون العاملين بإدارة السكك الحديدية الحكومية فى "حايدر باشا"، من بين المخبرين - اللذين لا يعرفان بعضهما البعض - كان "أوميجا" هو الذى جاء بالمعلومة الصحيحة: "الشاب أراد أن يحصل على معلومات عن مفتش متقاعد".

فررت صفحات التقارير التى وُضعت فى ملفات بسرعة، كانت عيناى تبحث عن أسماء جيرانى، شارعى، طفولتى.. بدأ قلبى ينبض بسرعة عندما قرأت أن "محمد" قد مشى فى شارعى وقام بمراقبة نافذة فى الدور الثانى فى منزل ما ذات مساء، كان الأمر كما لو كان هؤلاء الذين قاموا بتنظيم العالم الرائع الذى سوف أذهب إليه سريعاً قد قرروا أن يجعلوا الأمور أسهل بالنسبة لى بعرض مهارتهم تحت يدى مباشرة، لكن طالب المدرسة الثانوية الذى كنت

عليه رجوعاً إلى هذا الوقت لم يكن يعرف أي شيء البتة.

قابل "محمد" العم "رفقي" في اليوم التالي. الأمر الذي استنتجته شخصياً من التقارير، كلا العميلين اللذين كانا يتتبعان "محمد" تأكدا من أن الفتى الشاب قد دخل في العنوان ٢٨ شارع "سيلفربوبلار" في إرينكوي" وبقي بالداخل خمس أو ست دقائق، ولكن لا أحد اكتشف من الذي قام "محمد" بزيارته وفي أية شقة، قام "أوميجا" - الذي كان الأكثر مثابرة بين المخبرين الاثنين- على الأقل باستجواب الصبي الذي يوصل الأشياء، الذي يعمل عند البقال على ناصية الشارع وتلقى معلومات عن عائلات الثلاث الذين يعيشون في المبنى، افترضت أن هذه هي المرة الأولى التي سمع فيها دكتور "فاين" عن العم "رفقي".

بعد لقائه مع الرجل المحترم الذي يدعى "رفقي"، مر "محمد" بأزمة حتى "زينث" نجح في أن يلاحظ ذلك، كتب "موقادو" معلقا أن الشاب لم يكن يخرج من حجرته على الإطلاق، ولا حتى لينزل إلى مطعم المدينة الجامعية، ولم يره أحد يقرأ الكتاب، ولو حتى مرة. طبقاً لأقوال "سيركيسوف"، فخروجه من المدينة الجامعية كان غير منتظم كما كان بلا هدف، قضى ليلة كاملة يذرع الشوارع الخلفية في "السلطان أحمد" وجلس يدخن في منتزه عام لساعات وفي مساء آخر شاهده "أوميجا" ومعه عنقود من العنب في كيس ورقي، وكان يخرج العنب واحدة بواحدة ليتفحصها

كما لو كانت حبات العنب جواهر قبل أن يمضغ كل واحدة ببطء شديد؛ استمر فى ذلك لمدة أربع ساعات قبل أن يعود إلى المدينة الطلابية، أطال ذقنه وشعره للغاية. لم يعد يعر مظهره أى اهتمام، كل المخبرين شعروا بأنهم محتاجون لمزيد من النقود متذمرين من الساعات غير المنتظمة التى يقضونها فى مراقبة الشاب.

فى ظهيرة يوم ما فى نوفمبر، أخذ "محمد" المعدية إلى "حيدر باشا"، ثم ذهب إلى حى "إرنكوى" بالمترو، حيث سار على غير هدى فى الشوارع لوقت طويل .. طبقًا لـ"أوميجا"، الذى كان فى إثره، مشى الشاب بتثاقل فى شوارع المنطقة كلها ومر بنافذتى ثلاث مرات _ على الأرجح بينما كنت أنا أجلس فى الداخل _ وبمرور الوقت بدأ الظلام يحل، فقام باستكمال محمده أمام البناية رقم ٢٨ فى شارع "سيلفر بوبلار" وبدأ يراقب النوافذ. ظل "محمد" يراقب لعدة ساعات فى الظلام تحت الأمطار الخفيفة دون أن يحصل على الإشارة التى أرادها من النوافذ المضاءة- وفقًا لكلام "أوميجا"- ثمل للغاية فى واحدة من الحانات فى كاديكوى" قبل أن يعود إلى مدينته الجامعية.. فيما بعد، ذكر كلا من "أوميجا" و"سركيسوف" أن الشاب قام بنفس الرحلة ست مرات أخرى؛ "سركيسوف"- الذى كان أكثر فى قوة الملاحظة- تعرف بطريقة صحيحة على الشخص الذى يراقبه الشاب فى الحجرة ذات النافذة المضاءة.

تمت المقابلة الثانية بين "محمد" والعم "رفقي" تحت عيني "سركيسوف" مباشرة، أعطى سركيسوف- الذي كان يختلس النظر إلى النافذة المضاءة من الرصيف المقابل في البداية ثم واقفًا على حائط الحديقة المنخفض- في العديد من الخطابات التالية تفسيرات بديلة للمقابلة _ التي كان يسميها أحيانًا "راندفو" _ لكن انطباعاته المبدئية كانت أكثر صحة، باعتبارأنها كانت مبنية على الحقائق وما شاهده فعلاً بشكل أقرب.

في البداية جلس الكاتب العجوز والشاب بدون حديث لمدة سبع أو ثماني دقائق على كراسي الصالون الوثيرة في مواجهة بعضهما البعض، وكان هناك جهاز تليفزيون بينهما يُعرض عليه فيلم لرعاة البقر، عند نقطة ما أحضرت لهم زوجة الرجل العجوز قهوة، ثم وقف "محمد" على قدميه، ملوحًا بعنف ومتحدثًا بثورة وغضب حتى أن "سركيسوف" اعتقد أن الشاب على وشك أن يرفع يده ليضرب الرجل العجوز، الرجل المحترم المدعو "رفقي"، الذي كان يبتسم في البداية بحزن وقف على قدميه هو الآخر ردًا على الحدة المتزايدة لكلمات الشاب، وقابل أفعال الشاب بالاندفاع نفسه، ثم جلس كلاهما في مقعديهما، وتبعهما ظلهما المخلصان اللذان قاما بتقليدهما على الحائط، واستمعا بصبر لبعضهما البعض قبل أن يصمتا بأسى وهما يشاهدان التليفزيون لبرهة، فقط لتبدأ المحادثة

مجددًا، تحدث الرجل العجوز طويلاً بينما يستمع الشاب إليه، ثم غرق كلاهما فى الصمت مرة أخرى ونظرا من النافذة دون أن يلاحظا وجود "سركيسوف".

لكن المرأة سيئة الطباع فى الشقة التى بجانبهم بدأت تصيح بكل قوتها عندما رأت "سركيسوف" يختلس النظر من النافذة، "النجدة! اللعنة عليك، أيها المنحرف الشرير"، مجبرة التحرى سيئ الحظ على المغادرة بأقصى سرعة، دون أن يستطيع مراقبة الدقائق الثلاث الأخيرة من المقابلة التى يشعر أن لها علاقة بمنظمة سرية، جماعة سياسية ذات أبعاد دولية؛ وافترض أيضًا نظرية تآمر، كما جاء فى خطاباته التالية.

يشير الملف الثانى إلى أن أثناء هذه الفترة أراد دكتور "فاين" أن يتم اتباع ابنه باهتمام بالغ، واستجاب التحريون بأن أمطروه بوابل من التقارير، بعد مقابلته مع الرجل المدعو "رفقى"، قام "محمد" - الذى بدا نصف مجنون بالنسبة لـ"أوميجا" وحزينًا" ومتجهمًا بشكل غير عادى طبقًا لـ"سركيسوف" - بشراء كل النسخ المتاحة من الكتاب، وحاول توزيع "العمل" فى كل أنواع الأماكن الممكنة فى كل أنحاء المدينة، مثلاً عند مدينة طلاب "لكاديرجا" (كما قال موفادو)، فى أماكن ارتياد الطلاب (زينث وسركيسوف)، وفى محطات الباصات، مداخل السينمات ومعابر المعدية

(كما قال أوميجا). كان ناجحًا جزئيًا فقط في هذه المهمة. كان "موفادو" واعيًا للغاية بأن الشاب الصغير كان متهورًا في جهوده للتأثير على الطلاب الآخرين في بيت الطلاب حيث يسكن؛ ومن الواضح أنه كان يحاول جمع شباب آخرين حوله وحول أماكن ارتياد الطلاب، ولكن لأنه كان متوحدًا منذ البداية، فلم يكن له تأثير كافٍ. قرأت لتوي أنه كان قادرًا على الحصول على بعض الطلاب الذين قابلهم في المطعم وفي الجامعة _ حيث ظهر فقط لهذا الغرض _ وأنه تملقهم لكي يقرءوا الكتاب، حين صادفت قصاصة الصحف التالية:

جريمة قتل في منطقة "أرنكوي" (وكالة أنباء أنقرة): "رفقي راي"، مفتش سابق متقاعد في إدارة السكك الحديدية، أطلق عليه الرصاص وقُتل في حوالي الساعة التاسعة من ليلة أمس على يد شخص مجهول، في طريقه إلى المقهى من شقته في شارع "سيلفر بويلار"، قام شخص ما بالتحرش به وقام بإطلاق النار عليه ثلاث مرات، غادر المهاجم مسرح الجريمة، والذي لم يكن من الممكن التعرف على هويته على الفور، وجد ميتًا في الموقع متأثرًا بالجروح التي تلقاها، خدم "راي"(٦٧ عامًا) بنشاط إدارة السكك الحديدية للدولة في عدة مناصب حتى تقاعد من منصبه الأخير كرئيس للمفتشين، تسبب موت "راي" في الشعور بالحزن والأسى في الدوائر، حيث كانوا يقدرونه كثيرًا.

رفعت رأسى من على الملفات، متذكرًا: لقد رجع والدى البيت متأخرًا جدًا، يبدو قلقًا إلى حد الجنون، يبكى كل شخص فى الجنازة.. كانت هناك إشاعة تقول: إن جريمة القتل كانت جريمة غيرة. من كان الشخص الغيور؟ أخذت أبحث فى ملفات دكتور "فاين" الدقيقة، حاولت أن أكتشف من هو؟ هل هو "سركيسوف" العملى؟ "زينث" الضعيف؟ أم "أوميجا" المنضبط؟

فى ملف آخر، اكتشفت أن التحريات التى صرف عليها دكتور "فاين" مصروفات هائلة قد وصلت إلى استنتاج مختلف، عميل يدعى "هاميلتون واتش" الذى فى جميع الاحتمالات عمل أيضًا لحساب المكتب القومى للتحريات قد أرسل خطابًا قصيرًا ليمد دكتور "فاين" بالمعلومات التالية:

كان "رفقى راى" هو مؤلف الكتاب، قام بتأليف الكتاب منذ اثنتى عشرة سنة مضت، لكنه كان حينها هاويًا خجولاً، لم يكن قادرًا على استجماع شجاعته لنشر الكتاب تحت اسمه الحقيقى. عملاء المكتب القومى للتحريات- الذين يملكون دائمًا آذانًا مدربة على القصص التى يحكيها آباء ومدرسون بحافز من الخوف على مستقبل أبنائهم وطلابهم خلال هذه الأوقات العصيبة- تناهى إلى أسماعهم أن الكتاب قد حاد ببعض الشباب عن الطريق القويم؛ وقاموا باستخراج هوية الكاتب من دار النشر، وتركوا المسألة

تأخذ مجراها فى أيدى وكيل النيابة المتمكنة المسئول عن الطبع. تحفظ وكيل النيابة على الكتاب بهدوء منذ اثنتى عشرة سنة، لكن لم يكن من الضرورى وضع الخوف من الله فى الكاتب الذى بلا خبرة بتهديده أن يتم مقاضاته، عندما تم استدعاء الكاتب - "رفقى راى"، مفتش متقاعد بالسكك الحديدية - ميدئياً لمكتب مدعى النيابة، قام بتأكيد - مستخدماً لغة تعبر بوضوح عن قناعته - أنه لم يكن فقط ضد مصادرة الكتاب، وأنه لن يعارض الفعل؛ إلى جانب أنه وقع على الوثيقة التى اقترح أن يكتبها بنفسه بدون أى مهاترات، ولم يكتب أى كتاب آخر بعد ذلك. تمت كتابة تقرير "هاميلتون" قبل أن يُقتل العم "رفقى" بأحد عشر يوماً.

بالأخذ فى الاعتبار ما كان عليه رد فعل "محمد"، كان من الواضح أنه اكتشف موت العم "رفقى" خلال فترة قصيرة، طبقاً لـ"موفادو"، "الشاب المهووس" الذى أغلق حجرته عليه وهو فى حالة سيئة، كما لو كان فى حالة تأمل دينى، بدأ يقرأ الكتاب باستمرار من الصباح إلى الليل، ثم كل من "سركيسوف" و"موفادو" - اللذين لاحظاه يغادر أماكن ارتياده، اتفقا إلى حد كبير أن نشاطات شابنا لم يكن لها أى مبرر أو معنى - فى يوم يقوم بالتجول فى الشوارع الخلفية فى "زيريك" مثل متشرد عاطل، ثم فى اليوم التالى يشاهد أفلاماً إباحية طوال فترة الظهيرة فى مسرح ما فى "بيوجلى". أشار سركيسوف إلى أنه كان يغادر المدينة

الطلابية أحيانًا فى منتصف الليل، لكنه كان غير قادر على تأكيد إلى أين يتجه؟ شاهده "زينث" فى حالة مريعة فى منتصف النهار؛ أطال شعره ولحيته؛ كان مظهره غير مرتب، وكان يحدق فى الناس فى الشارع "مثل بومة فزعت من ضوء النهار". ابتعد تمامًا عن معارفه، ابتعد عن أماكن وقاعات الطلاب فى الجامعة، حيث اعتاد أن يحاول نشر الكتاب، لم يكن له أية علاقة بالجنس الآخر، ولا بدا أنه حاول أن يفعل شيئًا فى هذا الاتجاه ووجد "موفادو" - مشرف المدينة الجامعية - مجلات إباحية عديدة عندما دخل إلى حجرة "محمد" أثناء غيابه، لكنه أضاف أن هذه الأشياء يقوم بها الطلبة العاديون لامتاع أنفسهم، فى ضوء أن "زينث" و"أوميجا" يعملان دون أن يعرفا بعضهما البعض، كان من الواضح أن "محمد" مر بفترة كان يشرب فيها كثيرًا، فيما بعد.. بعد مشاجرة عامة كان هو طرفًا فيها انفجر غضبًا من بعض المضايقات فى حانة للطلاب تدعى "الثلاثة غربان السعداء"، أصبح يفضل الحانات المنعزلة المتهالكة التى تقع فى الأزقة الخلفية. لفترة ما، حاول تجديد الاتصال مع الطلاب الآخرين والمجانين الذين يقابلهم فى الحانات، لكن كل هذا بلا فائدة، بعد ذلك كان يتلكأ منتظرًا لساعات أمام كشك بيع الكتب، باحثًا عن توءم روحه الذى يمكن أن يظهر ليشترى ويقرأ الكتاب. عرف مكان الشباب القليلين الذين نجح مرة فى أن يصادفهم ويقنعهم بقراءة الكتاب، لكن طبقًا لـ"زينث"

كان سيئ المزاج لدرجة أنه سريعًا ما يفتعل مشاجرة. تمكن "أوميجا" من التنصت على شجار حدث فى حانة تقع فى زقاق خلفى ما فى "أسكارى". ونجح فى سماع رجلنا الشاب- الذى لم يعد يبدو شابًا- يتحدث بحماس عن العالم الذى فى الكتاب، الوصول إلى هناك، البداية، الصمت، اللحظة الفريدة، المجازفة. لكن هذه التحمسات من المؤكد أنها كانت مؤقتة؛ لأن "محمد"- كما يشير "موفادو"- الذى كان غير مهندم، وقذر، وفى حالة من الفوضى حتى أنه أصبح مصدر إزعاج لأصدقائه _ لو بقى لديه بالفعل أى أصدقاء _ لم يعد يقرأ الكتاب.. "إذا سألتنى سيدى،" كتب "موفادو" وهو يرى تجولات وسير رجلنا الشاب التى تنتهى إلى لا مكان، "هذا الشاب يبحث عن شىء ما سوف يخفف عنه همه، وبالرغم من أننى لست متأكدًا كليًا أنى أعرف ما الذى يبحث عنه، ولا أعتقد أنه هو نفسه متأكدًا مما يبحث عنه."

فى أحد الأيام حينما مشى بلا هدف فى شوارع اسطنبول، وجد رجلنا الشاب - الذى كان يتبعه "سركيسوف" عن قرب- "الشىء" الذى يمكن أن يريح حزنه ويجلب السلام لروحه فى موقف الحافلات.. بمعنى آخر، لقد وجد الحافلة.. دون أن يحضر حقيبته، دون شراء تذكرة تشير إلى الاتجاه، قام بالركوب بتلقائية على متن إحدى الحافلات التى تغادر بعشوائية؛ و"سركيسوف"- الذى ارتبك للحظة- قفز

أيضا على حافلة تابعة لشركة "ماجيرس" وانطلق على الطريق ليتبعه.

ومنذ هذه اللحظة قاما بالسفر على نفس الحافلة لأسابيع بدون واجهة معينة، من مدينة إلى مدينة ومن موقف إلى موقف، من حافلة إلى أخرى، و"سركيسوف" دائمًا فى ملاحقة دائبة، كانت التقارير التى كتبت بخط ردىء ضيق من قبل "سركيسوف" الذى ظل يكتب أثناء جلوسه على مقاعد الحافلات المهتزة كانت أوسمة مخلصة للسحر والإثارة لهذه الرحلات غير الآمنة والتى بلا هدف، شاهدا مسافرين فقدوا أمتعتهم وفقدوا طريقهم وأشخاصًا خرفاء فقدوا إحساسهم بالوقت؛ قابلا أشخاصًا على المعاش يبيعون تقويم الحائط، فتيان متحمسين راحلون إلى الجيش، شباب يعلنون عن قيام القيامة، جلسا فى مطاعم الاستراحات وتناولا وجباتهما مع شبان مخطوبين، متدربين فى محل للإصلاحات، لاعبى كرة قدم، موردى سجائر ممنوعة، قتلة مأجورين، مدرسى ابتدائى، مديرين لدور عرض؛ وناما بجانب مئات الأشخاص متكورين فى مقاعد الحافلات وحجرات الانتظار، لم يقضيا ولو حتى ليلة واحدة فى فندق، لم ينشئا قط رابطة دائمة أو أى نوع من الصداقة، ولم يسافرا ولو مرة حيث يعرفان واجهتهما.

كتب "سركيسوف": كل ما نفعله - فى الواقع - هو النزول من حافلة والصعود إلى أخرى، كنا نتوقع شيئًا

ما، ربما معجزة، أو نوعًا من الضياء ربما ملاك، أو حادثة: أنا فقط لا أعرف ماذا، لكن كان هذا ما تراءى لي.... كما لو كنا نبحث عن علامة ما ستأخذنا إلى مملكة مجهولة، لكن إلى الآن لم يحالفنا الحظ. حقيقة أننا لم تواجهنا أدنى منغصات حتى الآن تشير إلى أنه ربما هناك ملاك يراقبنا، لا أستطيع القول إذا ما كان الشاب ظل على وعي بدوافعي. لا أعرف إذا كنت أستطيع البقاء إلى النهاية المريرة." لكنه لم يكن قادرًا على البقاء حتى النهاية. بعد أسبوع كتب "سركيسوف" الخطاب الفاصل، ترك "محمد" حساءه دون أن يكمله في استراحة حيث توقفوا في منتصف الليل واندفع إلى حافلة "الطريق الآمن الأزرق"، تاركاً "سركيسوف"- الذي كان يتناول نفس الحساء بملعقة من طبق عميق- ليحدق بدهشة بينما "محمد" يبتعد ويختفي، وهكذا أنهى حساءه بهدوء، وكتب تقريرًا لدكتور فاين، قائلاً في صدق تام أنه لم يكن محرجًا على الإطلاق. ماذا يجب عليه أن يفعل بعد ذلك؟

بعد ذلك، لم يستطع ولا "سركيسوف"- الذي أُمر أن يكمل تحرياته- ولا دكتور "فاين" أن يعرفا أي شيء أكثر عن أنشطة "محمد" لأسابيع عديدة، حتى مجيء اللحظة التي صادف فيها "سركيسوف" جثة الشاب الآخر الذي اعتقد أنه "محمد". كان يضيع الوقت لأكثر من شهر في مواقف الحافلات، مكاتب المرور، وأماكن ارتياد السائقين، يسرع إلى مواقع حوادث الطريق حيث تقوده غرائزه ليبحث عن رجلنا الشاب

وسط الموتى، فهمت من خطابات أخرى كُتبت فى حافلات أخرى أن دكتور "فاين" قد أرسل أيضًا مخبرين آخرين وراء ابنه؛ واحد من هذه الخطابات تمت كتابته عندما صدمت الحافلة التى كان "زينث" على متنها بمؤخرة عربة يجرها حصان، وتوقف قلب "زينث" المنضبط من جراء فقد الدماء؛ كانت إدارة شركة "الطريق الآمن" للحافلات هى التى أرسلت الخطاب الملطخ بالدماء لدكتور "فاين"، وظل هذا الخطاب غير منتهى.

أخذ من "سركيسوف" أربع ساعات للوصول إلى حادثة الطريق، حيث قام محمد بانتصار بإغلاق صفحة حياته كـ"ناهيت". اصطدمت حافلة "السرعة الآمنة" بمؤخرة شاحنة تحمل حبر طباعة، ولفترة كانت الحافلة- التى كانت مليئة بالصرخات- تتوهج تحت مادة سوداء، فقط لكى تنفجر فى منتصف الليل، وتآكلت بواسطة ألسنة اللهب المتوهجة، كتب "سركيسوف" أنه لم يستطع أن يتعرف مباشرة على "الفتى المهووس المسكين الذى احترق وتشوه حتى لم يعد من الممكن التعرف عليه"، والدليل الوحيد الذى حصل عليه فى يده هو البطاقة الشخصية للشاب التى- لحسن الحظ- لم تأكلها النيران، أكد هؤلاء الذين عاشوا بعد الحادث أن الشاب المتوفى كان يجلس على المقعد رقم ٣٧، لو كان "ناهيت" جالسًا فى المقعد رقم ٣٨، لكان نجا بدون أى خدش، بعد أن عرف "سركيسوف" من واحد من الناجين أن الشاب

الذى كان جالسًا فى المقعد رقم ٣٨ كان فى سنه تقريبًا، طالب هندسة معمارية يدعى "محمد" ويدرس فى جامعة التقنية فى اسطنبول، قام "سركيسوف" بتعقب ذلك الشاب وصولاً إلى بيته فى كياسرى ليعرف منه عن ساعات "ناهيت" الأخيرة، لكنه لم يستطع الوصول لهذا الشاب الذى يدعى "محمد". اعتقد "سركيسوف" أنه يجب أن يكون قد ذهب ليرى أبويه بعد الحادثة الرهيبة التى نجا منها، لكنه لم يفعل. استشف "سركيسوف" أنه من المؤكد أن الشاب "محمد" قد تأثر بشدة بالحادث المؤسف؛ ولكن لم تكن تلك هى مشكلة "سركيسوف" الراهنة. حاليًا الهدف الذى كان يتتبعه طوال كل هذه الأشهر قد مات، كان ينتظر أوامر أخرى ونقودًا من دكتور "فاين". بالرغم من كل شىء، كشفت تحرياته عن أن كل "أناتوليا" - بغض النظر عن الشرق الأوسط والبلقان- تفور بالشباب الغاضب الذى قرأ كتبًا من هذا النوع.

بعد خبر موت ابنه ثم وصول الجسد المتفحم للمنزل، كان دكتور "فاين" يجن من الغضب حتى أنه فصل المخبرين الناجيين، حقيقة أن العم "رفقى" قد قُتل لم تقلل من حنقه، ولكنها فقط بددت تركيزه، موزعة إياه ضد المجتمع كله. فى الأيام التى تلت الجنازة، قام دكتور "فاين" بتأجير سبعة تحريين جدد بمساعدة ضابط شرطة متقاعد له علاقات عديدة والذى يهتم بشئون دكتور "فاين" فى اسطنبول؛ وقام بإعطاء أسماء حركية للطاقم الجديد الذى أخذه من

كل أنواع المخبرين، بجانب ذلك، قام بتطوير علاقاته أكثر مع التجار المحبطين الذين كان عدوهم المشترك هو المؤامرة الكبرى؛ وبدأ يستقبل منهم نصائح من حين إلى آخر.. هؤلاء الأشخاص - الذين فشلت أعمالهم بسبب منافسة من قبل شركات عالمية معينة التي تعمل في أشياء مثل السخانات، الأيس كريم (جيلاتي)، الثلاجات، مشروبات المياه الغازية، الربا، والهامبرجر - يرتابون ويكرهون الشباب الذي قرأ ليس فقط كتاب العم "رفقي" ولكن- عمومًا- أي كتب بدت غريبة، مختلفة، أو أجنبية لهؤلاء التجار؛ وإذا ما تلقوا تشجيعًا من دكتور "فاين"، كانوا كلهم مهتمين بتعقب هؤلاء الشباب وإبقاء أعينهم عليهم، جاعلين من هذا محمدهم ليكتبوا بسعادة تقارير غاضبة واضطهادية.

فقط بمجرد أن يُرى إذا كان هناك شخص ما قرأ الكتاب في مدينة محلية، أو في بيت طلاب ذي هواء فاسد، أو في منطقة صغيرة مثل منطقتي، كان يتم إخبار دكتور "فاين" بواسطة واحد من جواسيسه، تصفحت هذه التقارير بينما أتناول العشاء الذي أحضرته "روزياد" على صينية، قائلة: "لم يعتقد أبي أنك تريد قطع عملك.." في الصفحات التي قررتها وأنا متحمس لأصادف توءم الروح، توقفت بالصدفة عند عدد من الحوادث المدهشة التي جعلت شعر رأسي يقف؛ لكنني لم أستطع أن أكتشف لأي حد كان هؤلاء الأشخاص توءم روحي.

نتيجة لقراءة الكتاب، توقف طالب طب بيطرى، على سبيل المثال- يعمل أبوه عامل منجم فحم فى "زورنجلداك"- عن عمل أى شىء سوى الاحتياجات الآدمية الأساسية كالأكل والنوم، ويقضى كل وقته فى قراءة الكتاب، كان هذا الشاب يقرأ فى بعض الأيام صفحة واحدة فقط مرات ومرات وفوق الألف مرة، وهكذا يفشل فى أن يفعل أى شىء آخر بوقته، وهناك مدرس الرياضيات السكير بمدرسة ثانوية- الذى لم يكن يخفى ميوله الانتحارية- كان يقضى الدقائق العشر الأخيرة من كل حصة - بمعنى، حتى يقف طلابه رافعين أيديهم _ ليقرأ مقاطع من الكتاب والذى كان يصاحبها موجة مستفزة من الضحك، أما بالنسبة للشاب من "إرزورم" الذى يدرس الاقتصاد، فقام بتغطية حوائط حجرته بصفحات من الكتاب، والذى نتج عنه مشاجرة عنيفة مع زملائه فى الحجرة، عندما ادعى أحدهم أن هناك إهانة ضد النبى "محمد" فى هذه الصفحات؛ ونتيجة لذلك قام واحد من سكان بيت الطلاب الذى كان نصف أعمى بالصعود على كرسى محاولاً قراءة ما فى الركن بين ماسورة الموقد والسقف بعدسة مكبرة، والذى نتج عنه أن الرجل الحزين الذى يقوم بالإصلاحات قد سمع عن الكتاب وكتب تقريراً عن الحادث لدكتور "فاين"؛ لكنى لم أستطع التأكد إذا ما كان الكتاب الذى دمر حياة طالب من "إرزورم" بمناقشات حول "إذا كان يجب أن يتم تسليمه إلى وكيل النيابة أم لا؟" هو فى الواقع كُتب بواسطة العم "رفقى".

كما اتضح بعد ذلك، كان الكتاب مثل لغم طليقة نتيجة لمائة أو مائة وخمسين نسخة يتم تبادلها بالأيدى بالصدفة، أو يتم ذكرها من قبل قراء نصف فضوليين، أو يجذبون الانتباه فى أكشاك بيع الكتب؛ أو كتب مشابهة لها نفس الوظيفة السحرية، كانت تنزع أحيانًا فى واحد من القراء تيارًا من الإثارة أو نوعًا من الإلهام، دخل البعض فى عزلة مع الكتاب، لكن عند بداية الانهيار الجاد كانوا قادرين على الانفتاح على العالم ونفض حزنهم، كان هناك أيضًا هؤلاء الذين حدثت لهم أزمات أو ثورات غضب عند قراءة الكتاب، متهمين أصدقاءهم وأحباءهم بكونهم غير واعين بالعالم الذى فى الكتاب، بعدم معرفتهم أو رغبتهم فى الكتاب، ولذلك ينتقدونهم بلا رحمة لكونهم لا يشبهون فى أى شىء الأشخاص الذين فى عالم الكتاب، كان هناك مجموعة أخرى من الطراز المنظم الذين قرءوا الكتاب ليوهبوا أنفسهم للبشرية وليس للنص، هؤلاء المتحمسون استقروا ليبحثوا عن آخرين مثلهم قرءوا الكتاب، ولو أنهم لم ينجحوا فى هذه المهمة - والذى كان الوضع دائمًا - فهم يقنعون الآخرين بقراءة الكتاب، آملين فى الانخراط فى نشاط يشاركون فيه الأشخاص الذين أدخلوهم فى المصيدة، لم يكن لدى هؤلاء النشطين ولا المخبرين الذين يبلغون عنهم فكرة عن أى نوع من الأنشطة يفعله هؤلاء الناس مشتركين.

أثناء الساعتين التاليتين، وبينما أقوم بتجميع الحقائق من قصاصات الجرائد والأخبار التى تم وضعها بدقة فى الملفات وسط خطابات المخبرين، عرفت أن خمسة من هؤلاء القراء الذين ألهمهم الكتاب قد تم قتلهم بواسطة مخبرى دكتور "فاين". لم يكن من الواضح أى مخبر منهم ارتكب أى من جرائم القتل ومتى تمت هذه الجرائم ولأى مبرر؟ كانت فقط أخبار قصيرة تم قصها من الجرائد ووضعها فى ترتيب منطقى وسط تقارير التنديد. كان هناك - بالرغم من ذلك- بعض التفاصيل المتاحة عن جريمتين من جرائم القتل، ولأن واحدًا من الأشخاص المجنى عليهم كان طالبًا فى الصحافة والذى يترجم لخدمة الأخبار الأجنبية لجريدة "الشمس"، ادعت منظمة الصحفيين للعمل الوطنى اهتمامها بالحادث، معلنة أن الصحافة التركية لن تنحنى قط للإرهاب المتوحش. تتضمن حادثة القتل الأخرى، نادل تم إطلاق الرصاص عليه عندما كانت يداه مليئة بزجاجات فارغة لمشروب زيادى شهير؛ معلنين فى مؤتمرهم الصحفى أن جريمة القتل تم ارتكابها من قبل عملاء المخابرات الأمريكية المركزية وكوكاكولا.

الفصل الحادي عشر

متعة القراءة- التي يشكو من قلتها في ثقافتنا السادة المهندمون الأكبر سنًا - يجب أن تكون في التناغم الموسيقي الذي سمعته وأنا أقرأ الوثائق وتقارير جرائم القتل في الأرشيف المجنون والمنظم لدكتور "فاين". شعرت بهواء الليل البارد على ذراعيّ، وسمعت في أذنيّ موسيقى الليل التي لم تكن تُعزف في الواقع؛ في هذه الأثناء، حاولت أن أفهم ماذا يجب أن أفعل لأتصرف مثل شاب صَغير قد قرر أن يكون قاطعًا في وجه العجائب التي صادفها في عمره الصغير. منذ أن قررت أن أكون شابًا مسئولاً يحضر لمستقبله، سحبت قطعة ورق من مخزون دكتور فاين وبدأت أكتب ملاحظات صغيرة ربما تكون ذات نفع.

تركت حجرة الأرشيف وأنا مازلت أسمع هذه الموسيقى في أذني. بعد ساعة شعرت بداخل أعماقي كم كان كل من العالم ورب المنزل المتحمس باردًا وماديًا. كان الأمر كما لو كنت أستطيع سماع التحريض المشجع لروح غير مكترثة. شعرت برجفة تجتاحني مثل هذا الإحساس العابث الذي يأتي للأشخاص أمثالي عندما نترك المسرح بعد رؤية فيلم مرح ومتفائل، إحساس خفيف مثل الموسيقى التي تمر

بإذهاننا، أنت تعرف ماذا أعنى: نحن نتعاطف مع البطل، كما لو كنا الرجل ذا النكات الماهرة، الخفة التلقائية، روح الفكاهة الحاضرة والرائعة.

"هل لى أن أحظى بهذه الرقصة؟" كنت على وشك أن أسأل "جنان"، التى كانت تراقبنى باهتمام.

كانت تجلس على مائدة العشاء مع الأخوات الثلاث، ناظرة إلى كرات الخيط من كل نوع ولون تخرج من سلة من الخوص على سطح المائدة مثل التفاح والبرتقال الناضج الذى يخرج من قرن الوفرة والسعادة، بجانب هذه الأشياء كان هناك أشكال من أشغال الإبرة والتطريز التى تأتى مع مجلة تدعى "البيت والمرأة" التى اعتادت أمى أن تنشغل بها فى وقت ما، أزهار للكنافاه، طيور البط الصغيرة اللطيفة.. قطط، كلاب، بجانب الرسومات المتكررة لمسجد من المؤكد أن الناشر قد وضعه، واقتبس الباقى كله من مجلة نسائية ألمانية وحشرها فى مجلة نسائية تركية. أنا أيضًا تفحصت كل هذه الألوان فى ضوء مصابيح الكيروسين، متذكرًا أن الدراما الحقيقية الحياتية التى كنت أقرؤها لتوى قد تم تكوينها بمثل هذه المواد الخام الزاهية الألوان، ثم اتجهت إلى ابنتى "روزامند" الصغيرتين اللتين جاءتا أمهما- غارقتين فى هذا المشهد للسعادة العائلية - تتثاءبان وتطرفان بعينيهما، قلت لهما: "ما الأمر، ألم تضعكما أمكما فى الفراش بعد؟"

تراجعتا للخلف وخافتا قليلاً عندما أراحتا نفسيهما في كنف أمهما. كان مزاجي يتحسن، حتى أنني استطعت أن أسلي "روزباد" و"روزابل" - اللتين كانتا تنظران إليَّ بارتياب - قائلاً "أنتما زهرتان لم تذبلا بعد".

لكنني لم أنجح في قول أي شيء إلى أن دخلت إلى الأماكن المخصصة لاستقبال الضيوف الذكور... قلت لدكتور "فاين": "لقد قرأت قصة ابنك بأسى شديد".

أجاب "إن كل شيء موثق".

قام بتقديمي لاثنين من الرجال نصف مختفيين في الحجرة المظلمة... لا، لم يكونا هذان مخبرين، وأنا أرى كيف أنهما لم يكونا عملاء، أحدهما كان مسجل عقود، لكن مادام عقلي لا يسجل أشياء في مثل هذه المواقف الكئيبة، فلم أفهم ماذا يعمل الآخر؛ كنت مهتماً أكثر بكيف قدمني دكتور "فاين": "أنا شاب مُقدر لي أن أفعل أشياء عظيمة، وأنني هادئ، جاد، وعاطفي؛ استطعت أن أجعله يعتبرني مقربًا جدًا له، لم يكن هناك شيء يفوح مني برائحة هؤلاء ذوي الشعر الطويل المستعار الذين يقلدون الشخصيات في الأفلام الأمريكية، لقد كان يثق في بدرجة كبيرة.. كبيرة جداً".

كم تعاطفت بسرعة مع كل هذا المديح! لم أكن أعرف ماذا أفعل بيدي، لكنني أردت أن أبدو مهذبًا، لذلك أحنيت رأسي لأسفل كما يليق بشاب متواضع

مثلى أن يفعل وغيرت الموضوع، وأنا واع تمامًا بأن تغييرى للموضوع ستتم ملاحظته وتقديره.

قلت: "يا له من مكان هادئ ها هنا فى الليل، يا سيدى!"

قال دكتور "فاين": "لكن شجرة التوت تصدر حفيفًا، حتى عندما يكون الليل هادئًا ولا يوجد حتى ولو نسمة هواء... اسمع".

استمعنا جميعًا، كنت أشعر بعدم الراحة بسبب الظلام المتجمد فى الحجرة أكثر من حفيف الشجرة بالخارج فى مكان ما هناك. بالاستماع إلى الصمت أدركت أنه منذ جئت إلى هذا المنزل لم أسمع الناس يتحدثون إلا همسًا.

أخذنى دكتور "فاين" جانبًا.. قال: "نحن نجلس لكى نلعب فقط عدة أدوار من الورق، الآن أريدك أن تخبرنى يا بنى، ما الذى تفضل أن تراه؟ مجموعة أسلحتى، أم ساعاتى؟"

قلت بلا تفكير: "أحب أن أرى الساعات ياسيدى".

فى الحجرة المجاورة، التى كانت أكثر ظلمة، شاهد ثلاثتنا اثنين من أطرزة المناضد القديمة "زينث" التى تصدر صوتًا كطلقات الرصاص، رأينا درجًا صنع بواسطة مستعمرة صانعى الساعات "جالاتا"، الذى كان مغطى بالخشب، تلعب نغمة من تلقاء نفسها، وتُملأ مرة واحدة فى الأسبوع؛ طبقًا لما قاله دكتور

"فاين". هناك مثلها فى الجزء المخصص للنساء "الحرملك" فى قصر "توبكابى". ثم عندما قرأنا بصعوبة كلمة "سمورنيه" على ميناء الساعة، كنا نحاول أن ندرك فى أى ميناء من موانى "ليفانت" عاش "سيمون س. سيمونيون" الذى صنع ووقع على ساعة البندول ذات الخزانة المنحوتة من خشب الجوز، لاحظنا أن الساعة العالمية تعرض قمرًا وتقويمًا يظهران الأيام التى بها قمر كامل. عندما أخذ دكتور "فاين" مفتاحًا ضخمًا ليملأ الزنبرك الخاص ببندول الساعة التى على شكل هيكل عظمى والتى تم تشكيل سطحها مثل عمامة بأمر من السلطان "سليم الثالث" شعرنا بالقلق، مدركين أن الأعضاء الداخلية للهيكل العظمى هى التى تتحرك، تذكرنا أننا رأينا وسمعنا فى أماكن كثيرة منذ طفولتنا بندول ساعات الحائط مازالت تتكتك مثل طيور الكناريا المحبوسة فى أقفاص فى منازل كثيرة، اجتاحتنا رجفة عند رؤية المحركات وتحتها كلمات "صنع فى الاتحاد السوفيتى" على ميناء ساعة من ساعات "سركيسوف".

"بالنسبة لشعبنا، دقات الساعة ليست فقط وسيلة لإخبارنا بالوقت، لكنها الرنين الذى يجعلنا على وفاق مع عالمنا الداخلى، مثل صوت سقوط المياه من النافورة فى باحة مساجدنا"، قال دكتور فاين. "نحن نصلى خمس مرات فى اليوم؛ ثم فى رمضان، يكون لنا وقت محدد للإفطار، تناول الطعام عند غروب الشمس، ووقت السحور، الوجبة التى نتناولها قبل

شروق الشمس. إن جداول مواعيدنا وساعاتنا هى أدواتنا للوصول إلى الله، وليست وسائل السرعة لنبقى على لحاق بالعالم كما عندهم فى الغرب.. لا توجد أمة على الأرض تكرس نفسها للمواعيد والساعات كما نفعل نحن: كنا أكبر عملاء لصانعى الساعات الأوروبيين. فالساعات هى المنتج الوحيد لهم الذى قبلته أرواحنا، لذلك فالساعات هى الأشياء الوحيدة بالإضافة إلى الأسلحة التى لا يمكن تصنيفها إلى أجنبية ومحلية، بالنسبة لنا هناك مكانان يقودان إلى الله: الأسلحة والعتاد هى أدوات الجهاد: أما الساعات فهى أدوات الصلاة، هم نجحوا فى أن يسكتوا أسلحتنا والآن يخططون لهذه القطارات لكى يسكتوا وقتنا أيضاً.. الكل يعلم أن العدو الأكبر لمواقيت الصلاة هو جدول مواعيد القطارات، كان ابنى المتوفى على وعى كامل بهذه الحقيقة، ولهذا السبب قضى أشهراً على متن الحافلات ليعوض وقتنا الضائع، هؤلاء الذين أرادوا أن يخلقوا العداء بينى وبين ابنى استخدموا الحافلة ليأخذوا حياة ابنى وورثتى، لكن دكتور "فاين" ليس بساذج لينخدع بواسطة مخططاتهم الدنيئة.. تذكر ذلك: عندما يحصل شعبنا على بعض المال، أول شىء يشترونه يكون دائماً ساعة". ربما كان دكتور "فاين" سيستمر يهمس بخطبته المطولة، إلا أنه تمت مقاطعته من قبل الساعة الذهبية اللون الإنجليزية الصنع من طراز "بريور" - التى بها مِيناء مزينة بالورود الحمراء

كالياقوت، ومحلاة بصوت عندليب – التى بدأت تعزف لحن أغنية عثمانية قديمة، "كاتبى".

بينما رفقاؤه فى لعب الورق ينصتون بكل آذانهم للأغنية العذبة عن رحلة الكاتب على "يسكودار"، همس دكتور "فاين" فى أذنى "هل اتخذت قرارك بعد؟"

فى اللحظة نفسها رأيت من خلال الباب المفتوح فى الحجرة المجاورة صورة لـ"جنان" المتلألئة فى المرآة على التسريحة، وتشتت ذهنى.

قلت: "أنا فى حاجة للعمل أكثر على الأرشيف، يا سيدى".

قلت ذلك لأتجنب اتخاذ قرار أكثر منه أملاً فى الوصول إلى قرار، كنت أمر أمام الحجرة المجاورة عندما شعرت بأعين الأخوات الثلاث علىّ، "روزباد" صعبة الإرضاء، "روزابل" سريعة الغضب، و"روزاموند" التى جاءت بعد أن وضعت ابنتيها فى الفراش، كم كانت عينا "جنان" العسليتان فضوليتين ومصرتين للغاية! شعرت وكأنى حققت شيئًا ذا أهمية، والذى أشك فى أن كثيرًا من الرجال يشعرون بذلك عندما يكونوا فى صحبة امرأة جميلة ومليئة بالحيوية.

ولكن كم كنت بعيدًا عن أن أكون هذا الرجل! هأنذا جالس، جالسًا فى أرشيف دكتور "فاين"، مع ملفات فوق ملفات من تقارير الاستخبارات أمامى، وأقوم بتخيل وجه "جنان" الذى كبرته المرآة على

التسريحة فى الحجرة الأخرى بغيرة، كنت أقلب الصفحات بسرعة على أمل أن غيرتى المتزايدة قد تحفزنى على اتخاذ قرار.

لم أكن بحاجة إلى الاستمرار فى البحث طويلاً. بعد جنازة الشاب عديم الحظ من كايسرى الذى دفنه دكتور "فاين" معتقدًا أنه ابنه، بدأ يتخلص تدريجيًا من المخبرين القدامى الباقيين وهم "موقادو"، "أوميجا"، و"سركيسوف"، أما "زينث" فقد مات. نجح "سيكو"- المخبر الأكثر ثقة والذى جاء فى وقته من بين المخبرين الجدد الذين عينهم دكتور "فاين" ليتتبعوا كل شخص قرأ الكتاب- فى وضع يده على شاب معين اسمه "محمد" وصديقته "جنان"، طالبان فى مدرسة الهندسة المعمارية، التقى بهما صدفة أثناء اقتحامه لبيوت الطلاب، المقاهى، الأندية، وأفنية المدارس على أمل العثور على شخص ما قد يتعرف على الكتاب. حدث اكتشافه هذا منذ ستة عشر شهرًا، كان هذا فى الربيع، كان "محمد" و"جنان" قد وقعا فى الحب، وكانا يحملان كتابًا يقرءانه لبعضهما البعض بالتفصيل، لم يكن لديهما أدنى علم بوجود "سيكو"، الذى استمر فى مراقبتهما لمدة حوالى ثمانية أشهر، لكنها لم تكن مراقبة دانية.

قام "سيكو" بتسليم اثنين وعشرين تقريرًا لدكتور "فاين"، مكتوبين فى فواصل عشوائية خلال الثمانية أشهر من الوقت الذى اكتشف فيه هو الزوجين حتى

قرأت أنا الكتاب وتم إطلاق النار على "محمد" فى محطة "المينى باص"، قرأت هذه التقارير مجددًا بصبر وغيرة متزايدة بعد منتصف الليل بكثير، محاولاً ابتلاع الاستنتاجات المسممة التى وصلت إليها نتيجة للمنطق الذى وفره لى الأرشيف حيث كنت أعمل.

١- ما أخبرتنى به "جنان" وهى تنظر من نافذة الغرفة رقم ١٩ حيث قضينا الليل فى مدينة "جيودل"، قائلة شيئًا ما بمعنى أنها لم يلمسها رجل من قبل قط، لم يكن صحيحًا، أكد "سيكو"- الذى تتبعهم ليس فقط فى الربيع ولكن أيضًا خلال الصيف عندما لاحظ أن الشابين دخلا إلى الفندق الذى يعمل فيه "محمد"- أنهما بقيا فى غرفته لعدة ساعات، ليس الأمر أننى لم أشك بذلك، ولكن عندما يشهد شخص آخر بما يمثل لك مجرد شك، ويكتبه على الورق، يشعر المرء بأنه أكثر حمقًا.

٢- لا أحد وبما فيهم "سيكو" قد ارتاب أن "محمد" قد يكون هوية جديدة لـ"ناهيت" يدعى أنه يملكها بعد إغلاق صفحة حياته السابقة، لم يشك والده، ولا إدارة الفندق حيث يعمل، ولا مكتب التسجيل فى مدرسة الهندسة المعمارية.

٣- لم يقم الحبيبان بأى شذوذ اجتماعى لجذب انتباه الآخرين، أكثر من كونهما واقعين فى حب بعضهما، لو تم حذف العشرة أيام الأخيرة من مراقبة "سيكو"، فلم يكونا حتى يحاولا تمرير نسختهم من

الكتاب للآخرين.. إلى جانب ذلك، فهما لم يقرءا الكتاب طيلة الوقت، والذى كان السبب وراء عدم اهتمام "سيكو" بما كانوا يفعلونه بالكتاب، كانا يبدوان كزوج من طلبة الجامعة يتوجهان لحياة زوجية عادية، كانت علاقتهما بزملائهما فى الصف متوازنة، درجاتهما جيدة، طموحاتهما متحفظة، لم يكن لهما أى علاقة بأى جماعات سياسية، ولا أى تورطات تحمسية لا تستحق شيئًا، حتى أن "سيكو" كتب ذلك، من بين كل هؤلاء الذين قربوا الكتاب، كان محمد الأكثر تعقلاً، والأقل هوسًا واندفاعًا من بين كثيرين، ربما لذلك تفاجأ "سيكو" فيما بعد: وربما يكون قد سُر بالطريقة التى تطورت بها الأمور.

٤- كان "سيكو" يحقد عليهما، عندما أجريتُ مقارنات بين تقاريره الأخرى، لاحظت فى البداية أنه وصف "جنان" بلغة تقديرية وشاعرية جدًا.. "أثناء قراءة الكتاب، عقدت الفتاة الشابة حاجبيها برقة، وارتسم على وجهها تعابير كرامة ورشاقة نقية." ثم قامت بعمل الإيماءة الخاصة بها، وهى تدفع بشعرها بحركة صغيرة وراء أذنها." "أحيانًا إذا ما كانت تقرأ الكتاب وهى تقف فى صف الكافيتريا، تمط شفتها العليا قليلاً، وتبدأ عيناها تلمعان، حتى يُخيل للمرء أن قطرتين كبيرتين من دموعها سوف تظهران فى أية لحظة على جانبى عينيها الجميلتين." وماذا عن هذه السطور المدهشة؟ "حسنًا ياسيدى، أصبح وجه الفتاة الشابة المنكب على الكتاب رقيقًا جدًا بعد نصف

ساعة من القراءة، وكان التعبير الذى على وجهها" غريبًا للغاية وليس له مثيل، حتى أننى تصورت للحظة أن الضوء السحرى لا يتدفق من النوافذ ولكن ينبعث من صفحات الكتاب وينعكس على الوجه الملائكى." على النقيض من صفات "جنان" السماوية كان يرى الفتى الشاب الذى بصحبتها على أنه دنيوى وينتمى جدًا لهذا العالم. "هذا الشىء ليس إلا قصة حب بين بنت عائلة محترمة وشاب معدم يتحدر من أجداد غير معروفين." الشاب هو دائمًا الشخص الأكثر حرصًا، قلقًا، وبخلاً." لدى الفتاة الشابة ميل للانفتاح مع الأصدقاء، لتقترب منهم، وحتى يشاركوها فى الكتاب، ولكن موظف الفندق يريد أن يضع حدًا لها." "من الواضح أنه يتجنب دائرة أصدقائها لأنه يأتى من عائلة من مستوى منخفض." "فكر فى الأمر، فمن الصعب أن تتخيل ماذا ترى الفتاة الشابة فى هذا الشاب الكئيب البارد." "إنه متكبر للغاية بالنسبة لكونه مجرد موظف فندق." "إنه واحد من هؤلاء الناس الماكرين الذين يتحجون فى أن يبدوا حكماء لأنهم ذوو شفاه مغلقة رفيعة وكتومون صموتون." "وصولى ضعيف" "لا يملك أى شىء ليعزز موقفه، يجب أن أقول." كنت قد بدأت أحب هذا الـ"سيكو"، لو أننى فقط أستطيع الاعتماد على دقته؛ بالرغم من ذلك، فهو قد أقنعنى بشىء آخر.

٥- كم كانا سعيدين! بعد المحاضرة، ذهبا إلى مسرح "بيوجلى"، وظلا ممسكين بأيدى بعضهما طوال

الفيلم الذى كان عنوانه "ليالى لا تنتهى". جلسا إلى منضدة فى الزاوية فى كانتين الطلاب، يشاهدان الناس ويتكلمان بحميمية مع بعضهما.. دائما معا، سواء كانا يتفقدان واجهات المحال، أو وهما فى الحافلة، أو ذاهبان إلى المحاضرات وفى نزهات خلال المدينة، أو جالسان على المقاعد فى كشك الشطائر، الساق إلى الساق، يشاهدان نفسيهما وهما يأكلان الشطائر فى المرآة؛ وها هما مرة أخرى، يقرءان الكتاب الذى أخرجته الفتاة من حقيبة يدها. ثم كان هناك يوم من أيام الصيف؛ "بدأ سيكو" فى اتباع محمد منذ اللحظة التى غادر فيها الفندق؛ ثم راقبه وهو يقابل "جنان"، التى كانت تحمل حقيبة بلاستيكية، افترض أن شيئًا ما قد طرأ وانطلق وراءهما. ركبا المعدية إلى "جزيرة الأميرة"، أجّرا قارب تجديف وذهبا للسباحة؛ وأخذا عربة تجرها الخيول، تناولا أكواز الذرة والجيلاتى؛ وعندما رجعا إلى المدينة، صعدا إلى غرفة الشاب، كان من الصعب قراءة كل هذه الأشياء، وكانت بينهما مشاحنات وجدال، وأحيانًا كان "سيكو" يفسر ذلك على أنه مؤشر سيئ، لكن حتى الخريف لم يكن هناك أى توتر حقيقى بينهما.

٦- من المؤكد أن سيكو هو الشخص الذى أخرج المسدس من الكيس البلاستيكى وأطلق الرصاص على محمد فى اليوم الثلجى من ديسمبر قرب محطة "الميني باص"، لكنى لم أكن متأكدًا تمامًا من ذلك، لكن

غضبه وغيرته يظهران ذلك، فيما أنا أتذكر صورة الشخص الغامض الذى رأيته من النافذة وهو يعدو مبتعدًا عبر الحديقة المغطاة بالثلج. تخيلت أن سيكو يجب أن يكون فى الثلاثينيات من عمره، ضابط طموح تخرج فى أكاديمية الشرطة، يقوم سرًا بعمل تحريات خاصة كوظيفة ثانية لكى يدعم دخله. شخص يعتبر طلاب الهندسة المعمارية "عقماء". حسنًا ثم، ماذا كان تقييمه لى؟

٧- كنت ضحية مهانة لمكيدة. توصل "سيكو" إلى هذا الاستنتاج بسهولة حتى أنه شعر بطريقة ما بالأسف لأجلى، ولكنه كان غير قادر على استنتاج أن مصدر التوتر بين الفتاة والشاب كانت رغبة "جنان" فى أن يكون لها علاقة بالكتاب. لكن بعد ذلك، من المؤكد أن ذلك كان تحت إصرار "جنان" أن قررا تجنيد شخص ما ليضعا فى يديه الكتاب. قاما بالنظر إلى الطلاب فى قاعات جامعة التقنية مثل صائدى الموظفين التابعين لشركة خاصة يتفحصون خلال مجموعة من الموجودين لاختيار المرشح المناسب ليشغل منصبًا شاغرًا. لم يكن من الواضح لماذا كنت أنا المختار. وسرعان ما أوضح "سيكو" بدقة أنهم كانوا بالفعل يراقبوننى، يتتبعوننى، ويتحدثون عنى. فيما بعد، تم مشهد وقوعى فى المصيدة بطريقة أكثر سهولة من اختيارى. كيف كان سهلاً؟ حسنًا، قامت "جنان" بالمشى بالقرب منى عدة مرات فى الطرقات، وهى تحمل الكتاب فى يدها، وابتسمت لى ابتسامة عذبة. ثم قامت- بمتعة كبيرة- بتنفيذ الخطة علىّ:

كانت قد أصبحت واعية بأنى أنظر إليها فى صف الكانتين، وادعت أنها يجب أن تضع ما تحمله فى يدها أرضًا لكى تتمكن من البحث فى حقيبتها عن محفظتها، وضعت الكتاب على المنضدة أمامى؛ وبعد عشر ثوان أو ما إلى ذلك، قامت يدها الرقيقة بخطف الكتاب بسرعة. وللتأكد أننى- السمكة المسكينة- قد أخذت الطعم، قام كلاهما بوضع الكتاب بدون مقابل فى كشك على الرصيف تأكدوا بالفعل أنه فى طريقى، لكى أرى الكتاب وأنا فى طريقى إلى البيت وأتعرف عليه بارتياك - آه، ها هو ذلك الكتاب! - اشتريه - وهذا ما حدث بالضبط - حزينا على الموقف الذى حدث رغمًا عنى، قام "سيكو" بكتابة هذه الملاحظة عنى: "فتى حالم بلا أى شىء مميز ليرشحه."

لم أهتم بما كتبه كثيرًا، طالما أن لديه نفس الحكم تقريبًا على محمد، حتى أننى وجدت فيه عزاءً كافيًا لاستجمع شجاعتى وأسأل نفسى هذا السؤال: "لماذا لم أعترف لنفسى قط أننى اشتريت وقرأت الكتاب كطريقة للتقرب من الفتاة الجميلة؟"

ما كان غير محتمل فى الواقع - بالرغم من كل شىء- حقيقة أنه بينما كنت أنظر إلى "جنان" بإعجاب واضح، وأحدق فيها مثل طائر سحرى مذعور - بكلمات أخرى، بينما أعيش اللحظة الأكثر سعادة فى حياتى - لم يكن فقط محمد يراقب كلينا، فعلى مسافة كان هناك سيكو، يراقب ثلاثتنا مجتمعين.

"المصادفة التى أحببتها وقبلتها بسرور، معتقدًا أنها كانت الحياة نفسها، اتضح أنها مجرد خيال تم بناؤه من قبل شخص آخر" قالها البطل المخدوع، متخذًا قراره بمغادرة الغرفة لرؤية مخزن أسلحة دكتور "فاين"، لكنه مازال يجب أن يفهم المزيد من أشياء قليلة ويجرى المزيد من البحث – بمعنى آخر- فهو يحتاج لساعة أخرى من العمل.

عملت بأقصى ما استطعت وخرجت بقائمة بكل الشباب الذين يحملون اسم "محمد" الذين شُوهدوا يقرءون الكتاب، العمل الذى تم عمله من قبل مخبرى دكتور "فاين" الذين يهتمون بالتفاصيل والتجار المحبطين من كل مكان فى "أناتوليا". عندما رأيت أن "سركيسوف" لم يكشف عن لقب "محمد"، انتهيت بقائمة طويلة نسبيًا لم أعرف بعد كيف أقوم بالحكم عليها.

كان الوقت متأخرًا، لكننى كنت واثقًا أن دكتور "فاين" كان مستيقظًا ينتظرنى، مشيت باتجاه الغرفة حيث كانوا يلعبون الورق على صوت دقات الساعات. ذهبت "جنان" وبنات دكتور "فاين" إلى حجراتهن، أما أصدقاؤه فذهبوا إلى بيوتهم، انزوى دكتور "فاين" فى أبعد ركن من الحجرة، حيث كان يقرأ وهو غارق بعمق فى كرسى كبير مكتنز كما لو كان يحمى نفسه من ضوء مصابيح الكيروسين.

عندما أصبح واعيًا بوجودى، وضع بخفة فتّاحة الخطابات المرصعة بالصدف فى الكتاب الذى كان

يقرؤه، ثم أغلقه وقام على قدميه، قائلاً إنه مستعد وكان ينتظرني، ربما أريد أن أستريح قليلاً أولاً، في حالة أن عينيّ كانتا متعبتين من كل هذه القراءة، لكنه كان متأكدًا أنني مسرور بكل ما قرأته وعرفته: أليست الحياة مليئة بالأوغاد المخادعين والأحداث غير المتوقعة؟ ولهذا قرر أن تكون مهمته هي إعادة النظام لكل هذه الفوضى.

قال: "الملفات والقوائم تم تحضيرها من قبل "روزابل" بعناية فتاة تعمل على تطريز إطار". "أما "روزاباد" فقمة السعادة بالنسبة إليها أن تكون مسئولة عن المراسلات كما يجب لفتاة مطيعة أن تكون، تكتب الخطابات للمخبرين المطيعين التابعين لي وفقًا لرغباتي واستجاباتي، كل يوم بعد الظهيرة نتناول الشاي ونستمع لصوت "روزامند" العذب وهي تقرأ لنا الخطابات التي تلقيناها أحيانًا نعمل في هذه الغرفة، أحيانا ننتقل إلى غرفة الأرشيف حيث كنت تعمل أنت، وفي أيام الربيع والصيف الدافئة، نجلس لساعات حول المائدة تحت شجرة التوت، بالنسبة لرجل يحب العزلة مثلي، أقضي هذه الساعات في سعادة حقيقية."

ظل عقلي يبحث عن كلمات مناسبة لأمدح كل هذا الحب والإخلاص، كل هذا الاهتمام والنقاء، وكل هذا السلام والنظام. عندما رأيت غلاف الكتاب الذي وضعه جانبًا حين رآني، عرفت أنه كان يقرأ عددًا من

"زاجور". هل لديه أى علم بأن العم "رفقى" - الذى أمر بقتله - حاول ذات مرة عمل نسخة وطنية من هذه القصة المصورة؟ لكن لم يكن لدى البال الرائق لأجادل فى النقاط الجيدة فى هذه المصادفات.

"هل من الممكن أن أرى الأسلحة الآن يا سيدى؟"

قال إجابته اللطيفة بنبرة متعاطفة أعطتنى ثقة: إنه يرحب بى أن أدعوه دكتور، أو حتى "أبى".

أرانى دكتور "فاين" مسدسًا نصف آلى بنى اللون تم استيراده من قبل قسم الأمن الداخلى من "بليجوم" عام ١٩٥٦ م بعقد مزايدة، مفسرًا أنه حتى وقت قريب كان يتم تزويد المناصب العليا فقط فى الشرطة بهذه المسدسات ثم أخبرنى عن المرة التى انطلق فيها المسدس الألمانى الصنع "بارابليوم" بطريق الخطأ - الذى يمكن أن يتحول إلى بندقية بواسطة الجراب الخشبى الذى يستخدم أيضًا كمقبض - ومرت الرصاصة عيار "٩ ميليمترات" بين اثنين من الخيول المجرية العملاقة، ثم دخلت من نافذة فى المنزل وخرجت من النافذة الأخرى، واستقرت فى شاحنة للتوت؛ وأكمل قائلًا إنه - بالرغم من ذلك - سلاح أخرق لتحمله، إذا كنت أريد شيئًا عمليًا ويُعتمد عليه، فهو يرشح لى "سميث ويسون" ذا المقبض الأمن ثم كان هناك مسدس لامع ماركة "كولت" الذى يحمس أى شخص مولع بالمسدسات، والذى لا يحتوى على صمام أمان، ولهذا حتى لو كنت متجمدًا فى مكانك، فما عليك إلا أن تتذكر أن تسحب الزناد؛ وبعد يمكن

للشخص أن يشعر أيضًا أنه مثل راعى بقر أمريكى وهو يحمل أحد هذه الأسلحة، وهكذا كان اهتمامنا موجهًا إلى سلسلة من الأسلحة الألمانية الصنع "والثر"، الذى تم امتصاصه بنجاح فى وعينا القومى، وشبيهه المحلى المرخص، موديل "كيريكال". كانت هذه المسدسات مميزة فى عينىّ أيضًا نتيجة لاستخدامها الواسع الانتشار فى الأربعين سنة الأخيرة، بعد أن تمت تجربته مئات آلاف المرات من قبل المولعين بالأسلحة من ضباط الجيش إلى رجال الحراسة الليلية، من صانعى الخبز إلى رجال الشرطة، على أجساد الكثير من المتمردين، اللصوص، أزيار النساء، سياسيين، ومواطنين جائعين.

بتأكيد من دكتور "فاين" أنه لا يوجد أى فارق بين "والثر" و"كيريكال" وبعد أن أكد عدة مرات أن كليهما كان جزءًا من أجسادنا بالإضافة إلى أرواحنا، استقر قرارى على مسدس "والثر عيار ٩ ميليمترات" ذى المطرقة، مسدس يمكن إخفاؤه بسهولة ولا يحتاج أن يتم تصويبه من مسافة قريبة ليقوم بالمهمة، وبالطبع، لم يكن هناك حاجة لقول أى شىء قبل أن يهدينى دكتور "فاين" المسدس بالإضافة إلى زوج من حافظات للطلقات، وهو يقبلنى فوق جبهتى، التى كانت لفتة مناسبة تشير بخفة إلى ولع أجدادنا بالبنادق والأسلحة. قال إنه مازال لديه المزيد من العمل ليتمه، لكن أنا حرى بى أن أذهب للفراش الآن وأحصل على قسط من الراحة.

كان النوم آخر شيء في ذهني، بينما كنت أسير السبع عشرة خطوة من حجرة الأسلحة إلى حجرتنا، مر برأسي سبعة عشر سيناريو مختلفًا، قمت بتخزينها جميعًا في ركن واحد من عقلي بينما أقرأ، واستقررت في اللحظة الأخيرة على المزيج الذي يتناسب مع المشهد الأخير، أتذكر أنني دققت ثلاث مرات على الباب الذي أغلقته "جنان"، مسترجعًا مرة أخرى الأعجوبة التي صنعها عقلي الذي كان ثملاً من كثرة القراءة، لكن لم يكن لدي أية فكرة عما يكون عليه هذا المزيج، حالما طرقت على الباب، قال صوت بداخلي كلمة السر! ربما لأنني اعتقدت أن "جنان" قد تسأل عن كلمة السر، لذلك أجبت بقوة "يحيا السلطان"!

عندما قامت جنان بفتح القفل ثم فتح الباب، أفقدني التعبير الذي على وجهها شجاعتي، كان تعبيرها نصف مرح، لا.. نصف حزين.. لا.. غامض كليًا، وشعرت كأني ممثل مغمور نسي السطور التي ظل يحفظها لعدة أسابيع في اللحظة التي خطا فيها إلى الأضواء، لم يكن من الصعب على الإطلاق أن تخمن أن شخصًا يستعد للتفكير بسرعة سيثق في غرائزه في موقف مثل هذا؛ فضلاً عن محاولة المجيء بمجموعة من الكلمات الخاوية التي يتذكرها بالكاد وهذا ما فعلته أنا، حاولت أن أنسى أنني كنت فريسة -على أحسن الفروض- وقعت في المصيدة.

قبلت "جنان" على شفتيها مثل زوج شاب رجع من رحلة طويلة، ها نحن أخيرًا، بعد كل الأخطار غير المتوقعة، في البيت في حجرتنا. أحببتها كثيرًا وفكرت أن لا شيء آخر مهم، لو قدمت الحياة موقفًا أو موقفين صعاب، لكنت أنا المسافر المتمرس الذى لديه الشجاعة ليتقبل ويتعامل معها، كانت رائحة شفتيها كالتوت البرى، أدار كلانا- كنا الشخصين اللذين قُدر لهما أن يتمسكا ببعضهما البعض- ظهره لنداءات الحياة صعبة المنال المتشددة وكل هؤلاء الذين حاولوا الضغط علينا بتضحياتهم الشخصية، كل هؤلاء الحمقى المحترمين العاطفيين الذين يحاولون ممارسة هوسهم على العالم، كل الأشخاص الذين ينحرفون عن مسار حياتهم، انجذبوا لأفكار جاءت من مكان بعيد جدًا. عندما يتشارك اثنان أحلامًا كبيرة، عندما يكونان رفقاء منذ الصباح حتى الليل لمدة أشهر لا تنتهى، عندما يغطيان كل هذه المساحات الشاسعة معًا، ماذا يمكن أن يكون عائقًا أن ينسوا العالم ليغيبا فى عناق، يا ملاكى؟ وفوق كل هذا، ماذا يمكن أن يوقفهما عن أن يصبحا نفسيهما ويجدا اللحظة الفريدة للحقيقة؟

شبح الحبيب الثالث،

أرجوك دعينى أقبلك مرة أخرى على شفتيك، من أجل الشبح الذى يبقى مجرد اسم فى كل هذه التقارير التجسسية ويتجنب أن يصبح شخصًا

حقيقيًا، ولكن أنا هنا و-انظرى- أعلم أن الوقت يمر ببطء، انظرى كيف كل هذه الطرق التى سافرناها موجودة كما هى دون أن تكون واعية بنا على الأقل عندما سافرنا عليها، تمتد وهى ممتدة بنفسها، مصنوعة من الأحجار والأسفلت ودفء ليالى الصيف تحت النجوم. دعينا نرقد معًا نحن أيضًا- هنا- بلا تأجيل لا داعى له..... أرجوك، يا حبيبتى، عندما تلمس يداى كتفيك الجميلين، ذراعيك الرشيقتين الهشتين، عندما أقترب منك، انظرى كيف نقترب من هذا الوقت الفريد ببطء، وسعادة الذى يبحث عنه كل المسافرين على الحافلة. عندما أضغط شفتى على هذه البشرة نصف الشفافة بين أذنك وشعرك، عندما تُفزع الكهرباء التى فى شعرك الطيور التى تمر فجأة أمام جبهتى ووجهى، مثيرة رائحة عطر الخريف فى الهواء، وعندما يتصلب صدرك مثل طائر عنيد يحاول الطيران فى راحة يدى، انظرى، أرى فى عينيك كيف أن الوقت صعب المنال استيقظ بيننا كامل وصحيح: الآن نحن لسنا هنا ولا هناك، ليس فى الأرض التى ظللت تحلمين بها، ولا على حافلة ما أو فى غرفة فندق معتم فى مكان ما، ولا حتى فى مستقبل ما الذى يمكن أن يوجد فقط خلال صفحات الكتاب. الآن نحن هنا فى هذه الحجرة، كما لو كنا موجودين فى زمن ذى نهاية مفتوحة، أنت بتنهداتك وأنا بقبلاتى المحمومة، نحن نتمسك ببعضنا البعض، فى انتظار معجزة قد تحدث. فى الوقت المناسب! احتضنينى، كى

لا ينساب الوقت بعيدًا، تعالى، احتضنيني، يا روحى، لكى لا تنتهى المعجزة.. أرجوكِ لا تقاومى، لكن تذكرى: الليالى فى مقاعد الحافلات عندما تفقد أجسادنا نفسها فى بعضها البعض، عندما تتشابك أحلامنا وشعورنا معًا؛ تذكرى قبل أن تبعدى شفتيك. تذكرى رؤية مداخل المنازل فى الشوارع الخلفية للمدن الصغيرة التى مررنا بها، رأسانا تضغطان على زجاج النافذة البارد المعتم؛ تذكرى كل الأفلام التى شاهدناها وأيدينا متشابكة: الرصاصات التى تنهمر كالمطر، شقراوات ينزلن السلالم، كل الرجال الجذابين الذين تعشقينهم. تذكرى كل القبلات التى شاهدناها فى صمت كما لو كنا نرتكب خطيئة، نسى جريمة، ونحلم بأرض مختلفة، تذكرى هاتين الشفتين تنسحبان معًا بينما تتحول العينان عن الكاميرا: تذكرى كيف كنا قادرين على الجلوس فى ثبات تام للحظة حتى أثناء ما كانت إطارات الحافلة تدور سبع مرات ونصف المرة فى الدقيقة. لكنها لم تتذكر، قبلتها بلا أمل للمرة الأخيرة، كان الفراش غير مرتب هل من الممكن أن تكون قد شعرت بجسد المسدس الصلب؟ تمددت "جنان" على السرير، محدقة فى السقف بعمق كما لو كانت تتأمل النجوم. على الرغم من ذلك، لم أستطع منع نفسى من قول: "جنان، ألم نكن سعداء فى رحلاتنا على متن الحافلات؟ لنعود ثانية لنركب الحافلات."

بالطبع، لم يكن هذا منطقيًا.

سألتني: "ماذا كنت تقرأ؟ ما الذى اكتشفته اليوم؟"

قلت: "أشياء كثيرة فى الحياة" مستخدمًا لغة الأفلام المدبلجة ونبرة صوت مسلسلات الدراما. "أشياء مفيدة للغاية فى الواقع. هناك الكثيرون ممن قرءوا الكتاب، كلهم أسرعوا إلى مكان أو آخر...... كل شئ مريك والضوء الذى يبثه الكتاب فى الناس يغشى الأبصار كالموت، إن الحياة مدهشة للغاية".

راودنى شعور أننى أستطيع الاستمرار على هذا المنوال؛ إذا كنت لا أستطيع خلق المعجزات من خلال الحب، أستطيع إذًا على الأقل أن أفعل ذلك عن طريق قول نوع الكلمات الذى يبهج الأطفال. اغفرى لى سذاجتى، أيتها الملاك، والخداع الذى لجأت إليه من حاجتى، ولذلك كانت هذه المرة الأولى فى سبعين يومًا التى شعرت فيها بهذا القرب من جنان، وأنا راقد بجانبها على الفراش؛ كما يعرف أى شخص قد قرأ قليلاً، فتقليد الدهشة الطفولية هو الخداع الفورى الذى يجربه أشخاص أمثالى انغلقت فى وجوههم أبواب الحب الحقيقى، فى ليلة أمطرت السماء سيولا أثناء ما كنا مسافرين من "افيون" إلى "كيوتاهاى" على متن حافلة يتسرب الماء متدفقًا من سقفها ونوافذها. كان الفيلم الذى رأيناه هو "الجنة الزائفة"؛ لكن "سيكو" أخبرنى مؤخرًا ـ أليس كذلك ـ أن "جنان" قد شاهدت نفس الفيلم من قبل فى ظروف أسعد وأكثر هدوءًا منذ عام، يدها فى يد حبيبها.

سألتنى الآن "إذًا من هو الملاك؟"

قلت "اتضح أنه مرتبط بالكتاب، لسنا نحن الوحيدين اللذين يعرفان به، هناك آخرون يلاحقون الملاك."

- "إذًا لمن يظهر الملاك؟"

- "لهؤلاء الذين لديهم إيمان بالكتاب، الذين قرءوه بعناية."

- "ثم ماذا بعد؟"

- "ثم تظلين تقرأين حتى تنتقلى، فى صباح ما تستيقظين ويراك الناس ويقولون، يا إلهى، هذه الفتاة قد تحولت إلى ملاك فى الضوء المنبعث من الكتاب، هذا يعنى أنه من المؤكد أن الملاك كان فتاة كل هذا الوقت، يجعلك هذا تتعجبين فكيف لملاك أن يستطيع اجتذاب شخص ما إلى مصيدة. هل يمكن للملائكة أن ترتكب أشياء سيئة؟"

- "لا أعرف."

- "وأنا أيضًا لا أعرف.. أنا أيضًا أُعمل عقلى فى التفكير، والبحث."

هذا ما قلته، أيتها الملاك، ربما لأنى كنت أكره أن أخطو خارجًا إلى مناطق من الخطر والاحتمالية، معتقدًا أن القطعة الوحيدة الأكيدة من السماء كانت الفراش حيث أرقد بجانب جنان، دع اللحظة الفريدة تخيم علينا، كانت هناك رائحة خشب واهية فى

الحجرة، وهناك أيضًا عطر جذاب ذكرني بنوع من الصابون واللبان كنا نشتريه عندما كنا أطفالا لكننا لم نعد نفعل لأن كمية العبوة أصبحت غير كافية.

شعرت أنني- لم يكن لدى القدرة على البحث بعمق في الكتاب ولا الارتقاء إلى مستوى "جنان" من الجدية - قد أستطيع في الساعات الأولى من الليل المجيء بالكلمات التي قد توصلنا إلى عدة نقاط؛ لذلك أخبرت "جنان" أن أكثر الأشياء رعبًا هو الوقت نفسه؛ دون معرفته، نحن بدأنا هذه الرحلة للهروب من الوقت، هذا هو السبب لماذا كنا في حركة مستمرة، باحثين عن اللحظة التي يتوقف فيها الوقت، والتي كانت اللحظة الفريدة من الرضا، عندما اقترينا منها، استطعنا أن نشعر بوقت الرحيل، بعد أن شهدت أعيننا - سويًا مع الموتى والمحتضرين- معجزة هذه المنطقة الرائعة، توجد بذور الحكمة التي في الكتاب أيضًا في الشكل الأكثر طفولة في القصص المصورة التي تصفحناها طوال هذا الصباح، وكان هذا الوقت المناسب لاستخدام عقولنا لنصل لفهم الأمور، لم يكن هناك شيء، في هذا البعيد كانت بداية ونهاية رحلتنا أينما صادف أن نكون، لقد كان محقًا: الطريق وكل الغرف المظلمة مليئة بالقتلة حاملي السلاح ويتسرب الموت للحياة من خلال الكتب.

أمسكت بها، قائلاً: حبيبتي، لنبق هنا، في هذه الحجرة الجميلة، فلنحتفظ بها ونبقى عليها، انظري،

منضدة، ساعة، مصباح، نافذة. عندما نستيقظ فى الصباح، ستكون شجرة التوت هناك لنعجب بها، وماذا فى أن يكون هو هناك ونحن هنا؟ ها هو إفريز النافذة، ساق المنضدة، الفتيل الذى فى المصباح، الضوء والرائحة، إن العالم بسيط للغاية! انس الكتاب. هو أيضًا يريدنا أن ننسى الكتاب يريد أن أكون هو وأن أحتضنك. لكن جنان لم تستوعب أيا مما أقول.

"أين محمد؟"

كانت تنظر إلى السقف فى اهتمام بالغ، كما لو كانت الإجابة على سؤالها محفورة هناك. عقدت حاجبيها، بدت جبهتها أعلى. ارتعشت شفتاها للحظة خاطفة كما لو كانت على وشك البوح بسر. اتخذت بشرتها وهجًا ورديًا تحت الضوء الأصفر فى الحجرة لم أره من قبل قط. بالتأكيد هذا نتيجة وجبات محترمة ومكان للنمو وسط بيئة محيطة آمنة بعد كل ليالى السفر على متن حافلة ما. أخيرًا استعادت جنان بعض اللون فى وجهها. ذكرت لها ذلك على أمل أن - مثل بعض الفتيات اللاتى يتزوجن فجأة مشتاقات بسعادة لحياة زوجية مستقرة- أن تتزوجنى.

قالت "إننى سأمرض، هذا هو السبب. كنت أرتجف فى المطر.. سأمرض بالحمى."

كم كانت جميلة! كانت تتمدد وتحدق فى السقف. وكنت أنا أرقد بجانبها، معجبًا باللون الذى فى وجهها، ومحتفظًا بيدى التى تضغط على جبهتها النبيلة

بعملية كالطبيب، ظلت يدى هناك كما لو كنت أتأكد أنها لن تهرب منى، كنت أقلب فى ذكريات طفولتى، كيف حولت تماماً أشياء عادية فى مجال متعة اللمس، مثل الأفرشة، الغرف، الروائح، كانت هناك أفكار وحسابات أخرى تدور فى رأسى.. عندما أدارت وجهها قليلاً، استجوبتنى عيناها، فسحبت يدى بعيداً عن جبهتها وأخبرتها الحقيقة.

- "أنت مصابة بالحمى بالفعل".

فجأة ظهر أمامى كثير من الاحتمالات التى لم تكن جزءًا من خططى، ذهبتُ إلى المطبخ فى الواحدة صباحًا وأثناء تعاملى مع الأوانى الثقيلة والخيالات فى الضوء الواهى، وجدت آنية صنعت الشاى فيها مع أزهار شجرة الليمون المخففة وجدتها فى برطمان، متخيلاً كيف سأخبر جنان بأن أفضل طريقة لطرد البرد هى الانزلاق تحت غطاء ثقيل مع شخص ما وبعد ذلك، بينما كنت أبحث بين زجاجات الدواء فى الخزانة حيث أرشدتنى جنان، باحثًا عن "إسبرين"، كنت أفكر أنه إذا أصبحت أنا أيضًا مريضًا، فلن نكون مضطرين لمغادرة الحجرة لمدة أيام، تحركت الستارة وسمعت خطوات أقدام على الأرض، ظهر ظل زوجة دكتور "فاين" أولاً ثم ظهرت بنفسها وهى قلقة. قلت: "لا سيدتى، لا شىء خطير؛ إنها مصابة بسعال لا أكثر".

أخذتنى لأعلى، وجعلتنى أحضر بطانية ثقيلة من مكان للتخزين، ووضعتها فى غطاء، وقالت: " الجميلة

المسكينة، إنها ملاك! لا تسبب لها أى كدر، أتسمع؟ اعتنى بنفسك." ثم ذكرت شيئًا آخر سوف يبقى دائمًا فى ذهنى: كم أن زوجتى لديها عنق جميل!

رجعت إلى الحجرة ونظرت لعنقها لمدة طويلة.. هل سبق أن لاحظت ذلك؟ نعم، لقد لاحظته وأحببته، لكن الآن بدا طول عنقها جميلاً جدًا، لم أستطع التفكير بشىء آخر لبعض الوقت، راقبتها وهى تشرب الشاى بأوراق الليمون ببطء ثم تأخذ الإسبرين، وتلف نفسها بالبطانية مثل طفل طيب القلب يتوقع ان "يتعافى".

كانت هناك فترات طويلة من الصمت، غطيت عينىّ بيدى، ونظرت خارج النافذة، اهتزت شجرة التوت بخفة شديدة. يا عزيزتى، شجرة التوت الخاصة بنا تصدر حفيفًا لأقل نسيم.. صمت، كانت "جنان" ترتعش، وكم كان الوقت يمضى سريعًا.

وهكذا لم يمض وقت طويل على حجرتنا حتى اكتسبت هذا الطابع المميز الذى يعرف بـ"الحجرة المريضة". كنت أذرع الدرج صعودًا ونزولاً، وأنا متوتر من أن المائدة، الزجاج، المنضدة بجانب الفراش أصبحت تتحول تدريجيًا إلى أشياء مألوفة للغاية، حميمية للغاية، دقت الساعة الثالثة، سألتنى هل ستجلس هنا بجانبى على حافة الفراش؟ أمسكت بقدمها من خلال البطانية. فابتسمت، مخبرة إياى أننى لطيف جدًا وأغلقت عينيها، مدعية أنها نائمة،

لا، إنها بالفعل غرقت فى النعاس، ونامت.. هل كانت نائمة؟ كانت نائمة.

وجدت نفسى أمشى ذهابًا وإيابًا، ناظرًا للوقت، أسكب الماء من البراد، أنظر إلى جنان، أعانى وأتخبط، آخذ الإسبرين لأتسلى بلا داع، أضع يدى على جبهتها لأقيس الحرارة مرارًا وتكرارًا حالما تفتح عينيها.

توقف الوقت الذى تدفق تحت ضغط الساعات عند نقطة محددة، والجلد الرقيق نصف الشفاف الذى كنت ملتفًا فيه قد انقطع وانفتح، وجلست جنان على الفراش، وجدنا أنفسنا فجأة نناقش بحرارة متعهدى الحافلات الذين كانوا فى الواقع مساعدين للسائقين؛ قال واحد منهم ذات مرة إنه فى يوم ما سيتملك مقعد السائق ويقود الحافلة إلى أرض لم تكتشف بعد ثم هناك الشخص الذى قال، أخدموا أنفسكم وتفضلوا اللبان- مبلغًا ركابنا المحترمين بتحيات شركة الحافلات؛ ثم لم يستطع أن يمسك لسانه، فأضاف، لكن لا تمضغوه كثيرًا- أخواتى- لأن اللبان مخلوط بمخدر لكى ينام الركاب مثل الأطفال، معتقدين أن نومهم الهادئ بفضل ممصات الصدمات الجيدة، مهارة السائق الذى لا يسير على اليمين قط، وجودة مركباتنا وشركة الحافلات ثم ماذا عن المتعهد الذى صادفناه على خطين مختلفين من الحافلات، جنان، هل تذكرين ماذا قال؟ - من الجيد أن تضحك

يا أخي، وقال، المرة الأولى التي وقعت عيناي عليكما عرفت ببساطة أنكما هربتما معًا لتتزوجا. الآن أرى من الخاتم أنكما تزوجتما، تهاني لكي أختي.

هل تتزوجيني؟ لقد رأينا مشاهد كثيرة تتحقق من روعة هذه الكلمات: عندما يكون العاشقان يسيران تحت الأشجار، أذرعهما حول بعضهما البعض، أو عندما يكونان تحت عمود إضاءة، أو في سيارة- في المقعد الخلفي، بديهياً، أو على الجسر الذي يعبر بحر البوسفور، أو في المطر الذي ينتج تحت تأثير الأفلام الأجنبية، أو عندما يُترك الفتى والفتاة فجأة وحدهما بواسطة العم الساحر أو الأصدقاء ذوي النيات الطيبة، أو عندما يسأل الرجل الغني الفتاة الجذّابة، أن تتزوجه بينما يقفز في حمام السباحة: هل تتزوجيني؟ طالما أنني لم أر قط مشهداً في حجرة المرضى حيث الفتاة ذات العنق الجميل تسأل السؤال. لم أعتقد أن كلماتي تستطيع أن توقظ في "جنان" مشاعر ساحرة مثل الكلمات التي في الأفلام. إلى جانب ذلك، كان ذهني يفكر في البعوضة الجريئة التي تطن في الغرفة.

نظرت إلى الوقت وأصبحت قلقاً، فحصت حرارتها وأصبحت متوتراً، قلت، دعيني أرى لسانك: مدت لسانها للخارج؛ كان وردي اللون ومدببًا، ملت فوقها وأخذت لسانها في فمي، ظللنا هكذا لفترة، أيتها الملاك قالت: "لا تفعل، يا عزيزي، أنت لطيف جداً"

ولكن دعنا لا نفعل." ثم غرقت فى النوم، رقدت على الفراش بجانبها، معلقاً على حافة الفراش، وبدأت أعد أنفاسها، فيما بعد، عندما كان النهار على وشك الطلوع، كنت أفكر فى أشياء كثيرة ثم أفكر ثانية: سأقول لها، جنان، أنا سأفعل أى شىء من أجلك، جنان، ألا تفهمين كم أحبك..... أشياء من هذا القبيل التى دائماً ما يكون لها نفس الفحوى، لفترة فكرت فى أن أختلق أى كذبة وأجرها عائداً إلى الحافلات، لكنى بالفعل عرفت تقريباً أين يجب أن أذهب؛ بالإضافة إلى، بعد أن أصبحت على معرفة بجواسيس دكتور "فاين" الذين لا يرحمون وقضيت ليلة فى هذه الحجرة مع جنان، كنت على وعى بأننى بدأت أخاف من الموت.

أنت تعرفين كل شىء جيداً، أيتها الملاك، الفتى المسكين كان راقداًبجانب محبوبته، منصتاً إلى تنفسها حتى انبلاج النهار، ناظراً إلى ذقن جنان المستقيم ولكنه مميز، ذراعاها الظاهران من الرداء الليلى الذى أعارته إياه "روزباد"، شعرها يشع على الوسادة، وشجرة التوت تصبح تدريجياً لامعة فى ضوء الصباح.

ثم تم كل شىء بسرعة كبيرة. كان هناك صوت ارتطام فى المنزل، صوت وقع خطوات تمر بحذر على بابنا، صوت غلق نافذة بقوة فى الرياح التى بدأت تهب مرة أخرى، صوت بقرة تموء، زمجرة سيارة، سعال، ودق على باب حجرتنا، شخص حليق الذقن فى منتصف العمر ومعه حقيبة طبية كبيرة، يبدو كطبيب

أكثر من أى شيء آخر، دخل الحجرة وتبعته رائحة خبز محمص. كانت شفتاه حمراوين كالدم كما لو كان قد قام بمص دماء مؤخراً، وكانت هناك قرحة قبيحة على جانب فمه. كان هناك خيال مسيطر على بانه سيجرد جنان من ملابسها- التى كانت تحترق من الحمى- ويستخدم هاتين الشفتين ليقبل عنقها وظهرها، كان يخرج سماعته من حقيبته الكريهة عندما أمسكت المسدس "والثر" حيث أخفيته وتركت المنزل دون أن ألقى انتباهًا للأم القلقة وهى تقف على الباب.

قبل أن يستطيع أحد أن يرانى أسرعت خارجاً إلى الأرض التى عرفنى عليها دكتور "فاين"، فى منطقة مهجورة محاطة بأشجار الحور حيث كنت متأكدًا أن أحـداً لن يلاحظنى ولن تحمل الرياح أى أصوات. أخرجت سلاحى وأطلقت الرصاصات فى تتابع سريع، كان هذا كيف استخدمت بعض الرصاصات التى كانت هدية دكتور فاين، مؤدياً تمرينًا قصيرًا على الهدف والذى لم يكن فقط محددًا ببخله، كان أيضاً أخرق للغاية حتى أنه كان مثيرًا للشفقة لم أنجح فى إصابة جذع شجرة الحور الذى صوبت ناحيته، ولا حتى إصابة واحدة من ثلاث تصويبات على بعد أربع خطوات، تذكرنى كونى مترددًا بطريقة ما، أحاول بيأس استجماع أفكارى معًا بينما أراقب السحب السريعة الآتية من الشمال، أحزان مسدس "والثر" صغير......

فى الأعلى كان هناك مجموعة من الصخور العالية بشكل كاف لتمدنى بنظرة عامة على عزبة دكتور فاين، صعدت لأعلى، وجلست، وبدلا من أن أغيب فى أفكار نبيلة متأملا عظمة وثراء المشهد، تساءلت فى أى مكان بائس ستنتهى حياتى، مر وقت طويل ولكن لا أحد من الملائكة، الكتب، الآلهة، أو الفلاحين الحكماء الذين يأتون فى أوقات المعاناة الشديدة لمساعدة الأنبياء، نجوم السينما، القديسين، والقادة السياسيين ظهروا ولو لوقت قصير لمساندتى.

لم يكن هناك مساعدة للوضع إلا أن أعود إلى المنزل، كان الطبيب ذو الشفاه الحمراء كالدم قد شرب بالفعل دم جنان باستمتاع وكان الآن يجلس مع الأم ويشرب الشاى الذى قامت بإعداده البنات الثلاث. عندما رآنى، التمعت عيناه على أمل إعطائى نصيحة.

بدأ قائلاً: "يا أيها الشاب! زوجتى التقطت بردًا، وهى تعانى من الأنفلونزا؛ والأهم من ذلك، أنها على حافة ضعف خطير نتيجة الإجهاد، والإهمال، وقلة النوم. ماذا كنت أنوى (ما الذى أريد الوصول إليه)، أن أجعلها متعبة للموت؟ كيف عاملتها بهذه القسوة؟ نظرت الأم والبنات إلى الزوج الصغير حديث الزواج بسخط ورفض.

قال الطبيب: "لقد أعطيتها دواء له مفعول قوى، سيجبرها ألا تغادر الفراش لمدة أسبوع كامل."

أسبوع كامل! كنت أفكر مع نفسى أن سبعة أيام أكثر من كافية بالنسبة لى، عندما كان الطبيب المدعى- الذى بعد أن تناول الشاى وحشر فى فمه قطعتين من فطيرة اللوز- أخيراً قد استعد للمغادرة. كانت جنان نائمة فى الفراش، لذلك أخذت بعض المتعلقات التى اعتقدت أننى ربما أحتاجها، الملاحظات التى أخذتها من الملفات، والنقود، قبلت جنان على عنقها وتركت الحجرة باستعجال كمتطوع فى طريقه لإنقاذ بلده. أخبرت "روزباد" وأمها أن لدى بعض الأعمال العاجلة التى لا يمكن أن تنتظر ومسئولية لا يمكننى التملص منها، وأنا أتمنكم على زوجتى. قالوا إنهم سيعتنون بها كما لو كانت عروس ابنهم. أشرت بإصرارخاص أننى سوف أعود أدراجى بعد خمسة أيام، ويدون أن أنظر خلفى- ولو حتى لمرة واحدة- لأرى أرض الساحرات، والأشباح، واللصوص التى تركتها خلفى، بدون حتى نظرة خاطفة على قبر الفتى الشاب الذى من "كياسيرى" الذى دُفن بدلاً من ابن دكتور فاين، قصدت المدينة وموقف الحافلات.

الفصل الثاني عشر

على الطريق مرة أخرى! مرحبًا هناك، يا مواقف الحافلات القديمة، أيتها الحافلات المتهالكة، يا أيها المسافرون الحزانى، أهلاً! أنت تعرف كيف تسير الأمور، عندما تكون محرومًا عادة من مراسم عادية كنت قد أصبحت مدمنًا عليها دون حتى أن تكون واعيًا بأن لديك عادة، فأنت مأخوذ بالحزن على شعور بأن الحياة ليست على ما كانت عليه، افترضت أنني سأكون حرًا من هذا الحزن عندما أركب على متن حافلة قديمة من حافلات شركة "ماجيرس" التي ركبتها من مدينة "ساتيك" التي كانت تحت حكم دكتور فاين سرًا، ومتجهة إلى بقية العمران. بعد كل شيء، هأنا على متن حافلة في النهاية، على الرغم من أنها كانت تسعل، تعطس، ولا تستطيع التنفس كأنها رجل عجوز يتأوه من الألم وهو يصعد الطرق الجبلية، ولكن في قلب أرض الحكايات حيث تركت جنان تحترق من الحمى في الحجرة حيث ترقد، وفي نفس الحجرة البعوضة التي لم أنجح في طردها، تختبئ، منتظرة حلول الظلام، راجعت أوراقي وخططي مرة أخرى، لكي أتمكن من الانتهاء من عملي في أسرع وقت ممكن وأعود منتصرًا لأبدأ حياتي الجديدة.

قرب منتصف الليل عندما فتحت عينى وأنا بين النوم واليقظة وأزحت رأسى من على النافذة المهتزة لحافلة أخرى، راودتنى أفكار سعيدة أنه ربما أتقابل هناك لأول مرة معك، يا ملاكى. ولكن كم كان ذلك الإلهام الذى يوحد نقاء الروح مع سحر اللحظة الفريدة بعيدًا عنى. عرفت أنه لن يكون قريبًا أن أراك خارج إحدى نوافذ الحافلات. تبع ذلك أشجار معتمة، وديان كئيبة، أنهار بلون الزئبق الفضى، محطات بنزين مهجورة، ولوحات إعلانات ذات أحرف ناقصة تعلن عن سجائر أو عطور، ولكن كل ما كان فى ذهنى كانت مخططات شريرة، أفكار دنيئة، موت، والكتاب؛ لم أر اللون الأحمر للضوء على شاشة الفيديو الذى ربما يكون قد غزا خيالى، ولا سمعت الغضيض المثير للشفقة لجزار قلق عائد إلى بيته بعد المذبحة اليومية فى المجزر.

فى مدينة "الاكالى" الجبلية- حيث أنزلتنى الحافلة قرب طلوع الشمس- كان الجو قد تخطى الخريف، وترك نهاية الصيف، وأصبح بالفعل شتاءً. فى المقهى الصغير حيث ذهبت أنتظر المكاتب الحكومية أن تفتح، سألنى الصبى الذى يغسل الأكواب، يصنع الشاى، والذى لا يبدو أن لديه جبينًا على الإطلاق لأن خط شعر رأسه يبدأ عند حاجبيه تقريبًا، إذا كنت واحدًا من الذين يأتون لسماع الشيخ. قلت له نعم، فقط لمجرد قضاء الوقت. خصنى بشاى قوى وأعطى نفسه شرف مشاركتى الحديث بأنه، بجانب المعجزات التى

يصنعها الشيخ- مثل شفاء المرضى وإعطاء الخصوبة للنساء العقيمات- فموهبته الحقيقية هي شي شوكة طعام بالنظر بعينيه إليها فقط، أو فتح زجاجة "بيبسي كولا" بلمس غطائها بكل بساطة.

عندما غادرت المقهى، كان الشتاء قد رحل، وتخطى الجو الخريف مرة أخرى، وبدأ يوم صيفي حار بالفعل ملىء بالحشرات الطائرة، ذهبت مباشرة إلى مكتب البريد، مثل شخص ناضج ومخلص يحل المشاكل بالتعامل معها مباشرة- وشاعرًا بإثارة غامضة- نظرت بحرص إلى الموظفين الرجل والمرأة الناعسين وهما يقرءان الصحيفة على مكاتبهما أو يدخنان ويشربان الشاي، وملت على المكتب الأمامي. قامت الفتاة الموظفة التي تبدو مثل الأخت والتي اعتقدت أنها مرشحة محتملة ليتضح أنها ساحرة حقيقية، جاعلة إياي أعرق بغزارة قبل أن تخبرني أن "محمد بولدم" قد غادر لتوه ليسلم البريد _ ما العلاقة التي تقول إنها تربطكما؟ لماذا لا تنتظر هنا؟ لكن، سيدي، هناك ساعات عمل، هل من الممكن أن تأتي فيما بعد؟ كنت مجبرًا على قول إنني زميله من الجيش جاء كل هذا الطريق من اسطنبول وأن لدى تأثيرًا كبيرًا في الإدارة العامة لخدمات البريد. في هذا الوقت، كان "محمد بولدم" الذي غادر _ لتوه، منذ وقت قليل، الآن _ قد وجد وقتًا كافيًا ليختفي في الأحياء والشوارع حيث ركضت هنا وهناك بلا أمل، واختلطت على أسماء الشوارع.

بالرغم من ذلك، أثناء استجوابى لكل واحد ولأى واحد - يا من هناك، هل كان محمد ساعى البريد هنا بعد؟ - ظللت أفقد الطريق فى الشوارع الضيقة للحى الرئيس، كان هناك قط مرقط يلعق نفسه بكسل فى الشمس، امرأة متزوجة صغيرة وجميلة نوعًا ما- خرجت إلى الشرفة لتضع الملاءات، الأغطية، والوسادات- تتبادل النظرات مع بعض العمال الحكوميين الذين تسلقوا سلمًا وقاموا بإمالته إلى مركز قوى. رأيت طفلاً ذا عينين سوداوين؛ عرف على الفور أننى غريب. قال بنبرة متعجرفة: "ما الأمر؟" لو كانت جنان معى لكانت أقامت على الفور صداقة مع هذا المتحزلق وبدأت معه مزاحًا ماهرًا، وتركتنى أنا لأفكر فى أن السبب الذى جعلنى أقع فى حبها كلية ليس فقط أنها جميلة جدًا، لا تقاوم، غامضة جدًا، لكن لأنها كانت لتتحدث مع هذا الطفل بمنتهى السرعة.

جلست على مائدة على الرصيف تخص مقهى "الإمبرالد" عبر الشارع أمام مكتب البريد، والتى كانت موضوعة تحت شجرة كستناء، فى مواجهة تمثال أتاتورك. بعد فترة قصيرة وجدت نفسى أقرأ "بريد الاكالى": أحضرت الصيدلية المحلية من اسطنبول عقارًا جديدًا ضد الإمساك، يباع تحت العلامة التجارية "ستلوب"؛ وصل إلى المدينة المدرب الذى التقطوه من فريق "بولوسبورت" لكرة القدم ليدرب فريق "الاكالى" للشباب، الذين يعتبرون أنفسهم

المنافسين الخطيرين للموسم القادم. إذًا فهناك أعمال بناء في المدينة، كنت أفكر في نفسي، عندما رأيت "محمد بولدم" يدخل مبنى المحافظة وهو ينهج ويزفر، وحقيبة البريد تتدلى على كتفه، أصابني الإحباط بشدة، هذا الكلب الثقيل اللاهث المدعو "محمد" لم يكن في شيء من محمد الذي لم تستطع جنان أن تخرجه من ذهنها.

كان عملي هنا قد انتهى، وباعتبار أن هناك الكثير من الشباب المدعوين "محمد" ينتظرونني على القائمة، حري بي أن أدع هذا المكان الآمن وشأنه وأخرج بسرعة من المدينة، لكن الشيطان جعلني أنتظر "محمد بولدم" أن يخرج من مبنى المحافظة.

كان يسير عبر الشارع إلى الرصيف الظليل بخطوات سريعة قصيرة لرجل بريد عندما استوقفته،متعرفًا عليه باسمه، وبينما ينظر إليَّ في تعجب، احتضنته وقبلته، عاتبًا عليه أنه مازال لم يتعرفني أنا أعز صديق له من الجيش، جلس معي على المائدة بدافع الشعور بالذنب، وانخدع بألاعيبي القاسية "على الأقل تذكر اسمي،" بدأ يختلق تخمينات بلا فائدة، أوقفته بحدة بعد فترة، وعرضت عليه اسم مستعار اخترته في نفس اللحظة، وجعلته يعلم أنني أعرف الأشخاص ذوي الشأن في إدارة خدمات البريد. كان من نوع الأصدقاء المخلصين، كما بدا الأمر أنه لم يكن حتى مهتمًا باحتمالية الترقية في خدمات البريد، كان متعبًا جدًا ويعمل بجهد حاملاً

حقيبة البريد الثقيلة فى حرارة الجو المرتفعة، ونظر بامتنان إلى زجاجة المياه الغازية المثلجة التى أحضرها النادل وفتحها بسهولة، لكنه كان راغبًا فى الهروب بأسرع ما يمكن من زميل الجيش هذا المشكوك فى أمره ومن الخجل الذى حط عليه من أنه لا يتذكر هذا الرجل البتة. ربما كان هذا نتيجة لقلة النوم، لكنى شعرت بإحساس صاف من الانتقام مر بذهنى بلطف.

"سمعت أنك قرأت كتابًا" قلت له، وأنا آخذ رشفة من الشاى بجدية كبيرة. "سمعت أنك كنت تقرأ هذا الكتاب، هل هذا صحيح؟ سمعت أنك لا تعير اهتمامًا لمن يراك وأنت تقرؤه."

تحول وجهه وأصبح شاحبًا ورمادى اللون. لقد فهم الموضوع جيدًا جدًا.

"من أين حصلت على الكتاب؟"

لكنه كان قادرًا على أن يلملم نفسه بسرعة.. كان يقوم باصطحاب قريب له إلى المستشفى فى اسطنبول، حيث رأى الكتاب فى كشك على الرصيف، وانخدع بالعنوان الذى جعله يعتقد أنه كتاب عن العناية بالصحة، فقام بشرائه؛ لكن بعد ذلك لم يستطع أن يلقيه بعيدًا، لذلك أعطاه لقريبه الذى فى المستشفى.

توقفنا عن الكلام لفترة، هبط عصفور على واحد من الكرسيين الإضافيين على المائدة ثم قفز إلى الآخر.

تفحصت رجل البريد، الذى كان اسمه مكتوبًا على جيبه فى حروف صغيرة منتظمة، كان فى مثل عمرى، ربما أكبر قليلاً. لقد جاء فى طريقه نفس الكتاب الذى أخرج حياتى عن مسارها وقلب عالمى رأسًا على عقب، فلقد شعر بتأثير، واخذ الصدمة - التى لم أكن أعرف الطبيعة الخاصة بها، أو لم أستطع تحديد إذا ما كنت مهتمًا بالمعرفة أم لا. كان بيننا شىء مشترك حولنا إما إلى ضحايا تابعين أو فائزين، وهذه الحقيقة أزعجتنى.

بعد أن لاحظت أنه لم يقلل من قدر الموضوع بإلقائه جانبًا باختصار كما فعل بغطاء المياة الغازية، شعرت أن للكتاب مكانة خاصة فى قلبه. من أى نوع من الرجال كان هو؟ كانت يداه جميلتين بشكل غير عادى، ذات أصابع طويلة رشيقة، يمكن أن تقول إن بشرته رقيقة تقريبا؛ كان له وجه حساس، وعينان لوزيتان تشيران إلى أنه أصبح بطريقة ما غاضبًا وقلقًا تدريجيًا. هل يمكن أن يقال إن الكتاب قد أوقعه فى الفخ مثلى؟ هل تغير عالمه كليًا هو الآخر؟ هل غرق فى الأسى والحزن فى بعض الليالى أيضًا عندما كان يجعله الكتاب يشعر بأنه وحيد وبائس فى هذا العالم؟

قلت: "على كل حال، أنا مسرور جدًا، يا صديقى، لكن حان الوقت لميعاد حافلتى."

اغفرى لى فظاظتى، أيتها الملاك، لأنى شعرت فجأة أننى قادر على فعل شىء ما لم يكن جزءًا من

خطتى. ربما كان يجب أن أريه مأساة قلبى الخاصة كما لو كنت أكشف عن جرح. فقط لأجعل هذا الرجل يبوح بمكنونات قلبه، لم يكن لأننى أكره طقوس الإخلاص التى تنتهى بأن نشرب ونسكر معًا، حزن، دموع، وشعور بالأخوة غير المقنع على الإطلاق ـ فى الواقع، أحب أن أفعل ذلك مع رفقاء من الحى فى حانة مظلمة ـ كان ذلك لأننى لم أرغب فى التفكير بأى شىء إلا جنان، كنت أريد أن أكون وحدى بأسرع ما يمكن لأغرق نفسى فى أحلام بالحياة الزوجية السعيدة التى يمكن أن أحصل عليها أنا وجنان فى يوم ما. قمت على قدمى من على المائدة فقط عندما قال صديقى من الجيش، "لا يوجد حافلة فى جدول المواعيد تغادر فى هذا الوقت من أى مكان حول هذه المدينة."

خذ هذه! إنه لم يكن أحمق! كان يفرك غطاء زجاجة المياه الغازية بيديه الجميلتين، مسرورًا بأنه كان محقًا تمامًا فى كلماته.

لم أستطع اتخاذ قرار إذا كان علىّ أن أخرج مسدسى وأصنع ثقوبًا خلال جلده الرقيق، أو أن أصبح صديقه المقرب، صديقه الذى يثق به، رفيقه القدرى. ربما استقررت على أمر وسط، مثل إطلاق النار على كتفه، فقط لأندم على ذلك وأسرع به إلى المستشفى؛ وفيما بعد فى الليل، وكتفه فى الضمادة، نقوم بفتح وقراءة كل الخطابات واحدًا واحدًا فى

حقيبة البريد الخاصة به، ونحظى بوقت ممل مجنون.

قلت أخيرًا: "لا يهم". تركت النقود لأدفع الفاتورة على المائدة بروح مرحة ثم استدرت وغادرت، لا أعرف من أى فيلم سرقت هذه اللفتة، لكنها لم تكن سيئة إلى هذا الحد.

مشيت بسرعة مثل رجل تعنيه الأعمال، مثابر؛ كان على الأرجح يراقبنى أمشى مبتعدًا، درت حول تمثال أتاتورك وعلى الرصيف الضيق الظليل، وباتجاه موقف الحافلات كان الموقف فقط معنى مجازيًا. إذ كانت هناك حافلة سيئة الحظ بدرجة كافية تجعلها تضطر أن تقضى الليلة فى مدينة "الاكالى" البائسة _ صديقى رجل البريد يدعوها "مدينة كبيرة" _ لم أعتقد أن يكون هناك حتى كوخ ما ليحمى الحافلة من الثلج والأمطار، رجل فخور حُكم عليه أن يبيع تذاكر فى خزانة فى حجرة لبقية حياته كان مسرورًا بإخبارى أنه لا يوجد حافلات قبل الظهر. من الطبيعى، ألا أزعج نفسى بإخباره أن رأسه الصلعاء كانت بنفس اللون البرتقالى بالضبط مثل ساقى الجميلة التى وراءه على تقويم "إطار العام السعيد".

لماذا أنا غاضب هكذا، ظللت أسأل؛ لماذا أصبحت متعكر المزاج للغاية؟ أخبرينى لماذا يا ملاكى، أيا كان من تكونى، أينما تكونين، أخبرينى! اعتنى بى، على الأقل، حذرينى كى لا أخفق فى تحقيق ما أريد بسبب

الغضب: دعيني أضع الأمور في نصابها الصحيح بأقصى ما أستطيع، مثلما تعتنين بالمرضى وسيئي الحظ في العالم مثل رب أسرة ينوي حماية عشه: اجعليني التقي ثانية مع جنان التي تحترق من الحمى.

لكن لم يكن الغضب بداخلي يعرف أي حدود. هل هذا ما يحدث لكل شاب في الثالثة والعشرين من عمره والذي بدأ يحمل مسدس "والثر" معه؟

ألقيت نظرة على ملاحظاتي: كان من السهل العثور على الشارع والمحل المقصودين: "مستلزمات الخلاص". مفارش للمائدة يدوية الصنع، قفازات، أحذية للأطفال، قماش الدانتيل، ومسبحة للصلاة في نافذة العرض الصغيرة- تشير بصبر إلى شعر من زمن آخر- التي كانت لتسعد قلب دكتور فاين، كنت على وشك الدخول عندما رأيت الرجل الواقف وراء المكتب الأمامي يقرأ "بريد الاكالي"، وشعرت أنني غير متأكد من مواجهته: لذلك رجعت أدراجي. هل كان كل شخص في مدينة "الاكالي" واثقًا من نفسه حقًا؟ أم أن هذا ما بدا لي فقط؟

جلست في مقهى ما شاعرًا بأني هُزمت قليلاً. شربت زجاجة مياه غازية محلية ونظمت جيوش عقلي، ذهبت واشتريت نظارة سوداء رأيتها في واجهة الصيدلية عندما مررت أمامها على الرصيف الظليل. قام صاحب الصيدلية العملي بالفعل بقص الإعلان الخاص بالملين في الصحيفة ولصقه على النافذة.

بمجرد ما ارتديت النظارة السوداء، كان من السهل عليّ المخاطرة بدخول محل "مستلزمات الخلاص"، بعد أن حولت نفسى لشخص من هؤلاء الرجال الواثقين. فيما أنا أتحدث بنبرة صوت منخفضة، طلبت أن أرى القفازات، هكذا كانت تفعل أمى، لم تكن تقول قط: "أنا أبحث عن قفازات جلدية مناسبة لى"، أو "أريد قفازات صوفية مقاس متوسط لابنى الغائب فى الجيش." كانت تقول: "أريد أن أرى القفازات" محدثة نشاطًا وحركة فى المتجر الذى يكون وافيًا لغرضها.

لكن من المؤكد أن طلبى كان كالموسيقى فى أذن الرجل الذى من الواضح أنه المالك والموظف فى نفس الوقت. بطريقة حذرة ذكرتنى بربة منزل متأففة، وتنظيم يقترب لهوس التسلسل الوظيفى الذى يصدر من جندى مُصر على أن يكون مساعد ضابط، عرض على خط إنتاجه بالكامل، الذى أخرجه من الأدراج، من حقائب يدوية الصنع، ومن نافذة العرض. بدا أنه فى الستينيات من عمره، كان هناك شعر قصير نام على وجهه، وكان صوته واثقًا بدرجة تكفى ألا يخون ولاءه للقفازات، أرانى قفازات نسائية صغيرة مصنوعة من الصوف المغزول يدويًا، كل أصبع من القفاز صُنع من ثلاثة ألوان مختلفة من الخيط؛ ثم قلب القفازات الصوفية الخشنة التى يفضلها رعاة الغنم من الداخل للخارج ليرينى ملمس شعر الماعز "الماراس" الذى يدعم ويقوى راحة اليد؛ لم تستخدم أى صبغات صناعية فى

الخيوط، التى اختارها بنفسه وقامت سيدات فلاحات بشغل الخيوط لعمل قفازات طبقاً لتعليماته، وقام بتبطين أطراف الأصابع، باعتبار أنها المكان الذى تتلف منه القفازات الصوفية بسهولة. إذا كنت أريد تصميم عليه زهور على الرسغ، فعلى أن آخذ الزوج الذى تم تزيينه بأنقى صبغة بالجوز وقماش الدانتيل على طول الحافة، أو هناك شيء آخر. إذا كان هناك شيء ما معين فى ذهنى، هل يمكن أن أخلع نظارتى السوداء والقى نظرة على هذه التحفة المصنوعة من جلد الكلاب المنحدرة من سلالة "سيفاس كانجال".

ألقيت نظرة ووضعت النظارة مرة أخرى.

قلت: "أوفان بانيك". - كان هذا الاسم المستعار الذى أستعمله فى الخطابات التى أرسلها لدكتور فاين يخبره فيها عن أشخاص." لقد أرسلنى دكتور فاين. فهو ليس مسرورًا منك على الإطلاق."

قال بنبرة هادئة: "لماذا؟"، كما لو كنت ببساطة أعترض على لون قفاز ما. "محمد رجل البريد مواطن مسالم. لماذا تريد أن تؤذى شخصًا كهذا، وتتجسس عليه؟"

قال: "ليس مسالمًا جدًا"، وبنفس الصوت الذى استخدمه وهو يعرض القفازات، أوضح: ظل الرجل يقرأ الكتاب، وكان يفعل ذلك بطريقة تلفت الانتباه. كان من الواضح أن ما لديه فى عقله أفكار سوداء

وقبيحة لها علاقة بالكتاب وبالشر الذى قصد الكتاب أن ينشره. فى مرة تم القبض عليه فى بيت أرملة حيث دخل بدون حتى أن يقرع الباب تحت حجة توصيل خطاب، فى مرة أخرى تمت رؤيته وهو جالس ساقًا إلى ساق، وخدًا إلى خد، مع تلميذ مدرسة فى مقهى، على الأرجح يقرأ للطفل كتابًا مصورًا، واحدة من هذه القصص المصورة، بالطبع النوع الذى يقيم قطاع الطرق، المنبوذين سيئى الخلق، واللصوص بنفس المقياس مثل القديسين والأنبياء. "أليس هذا كافيًا؟" سألنى.

شعرت بطريقة ما أننى لست متأكدًا، فظللت صامتًا.

"إذا كان اليوم فى هذه المدينة" _ نعم، لقد قال "مدينة" _ "فكرة العيش حياة زاهدة تعتبر شيئًا مخجلاً، ويتم احتقار السيدات اللاتى يضعن الحنة على أصابعهن، فكل هذا بسبب الأشياء التى جلبها الأمريكان للداخل بواسطة رجل البريد هذا، الحافلات، وأجهزة التليفزيون فى المقاهى. أية حافلة أحضرتك إلى هنا؟

أخبرته.

قال: "إن دكتور فاين بلا شك إنسان عظيم. أعطانى اتباعى لتعليماته سلام العقل، أحمد الله. لكن أيها الشاب، أذهب وأخبره ألا يرسل لى صبيًا مجهولاً ليهاجمنى مرة ثانية." كان يعيد القفازات إلى

مكانها. "أخبره أيضًا بهذا: لقد شاهدت ساعي البريد في مسجد "مصطفى باشا"، يقوم بإثارة نفسه في مرحاض عام.
"بهاتين اليدين الجميلتين أيضًا"، قلت ذلك وغادرت.

اعتقدت أنني سأكون في حالة أفضل بمجرد أن أخرج، لكن بمجرد أن وضعت قدمي على الشارع المغطى بالحجارة الذي يمتد تحت أشعة الشمس مثل طبق ساخن، تذكرت برعب أن مازال أمامي ساعتان ونصف لأضيعهما في هذه المدينة.

انتظرت، شاعرًا بنوع من الإغماء، متعبًا، ومحرومًا من النوم على الأخص، معدتي مليئة بأكواب الشاي المعتاد، شاي بالأعشاب، والمياه الغازية التي تناولتها، ذاكرتي مليئة بعناوين لأخبار قصيرة من بريد "الاكالي"، مجال رؤيتي مليء بسطح مبنى البلدية المغطى بالفخار الأحمر وألوان الأحمر والبنفسجي في اللافتة البلاستيكية اللامعة لبنك المزارعين التي تظهر وتختفي أمام عينيّ مثل السراب، أذناي مليئتان بالطيور التي تزقزق، أزيز مولدات الكهرباء، والسعال أخيرًا عندما جاءت الحافلة وتوقفت بهيبة، قبضت على الباب بحماس، لكن تم دفعي بعيدًا ومزاحمتي، سحبني الناس الذين ورائي للخلف ـ دون أن يشعروا بمسدس الـ"والثر"، حمدًا لله ـ ليقصوني عن طريق الشيخ المقدس، مر من جانبي يتمايل بعظمة، وعلى وجهه الوردي اللون تعبير حكيم، وهو يحمّل نفسه

بالكرامة كما لو كان محملاً بالحزن على من هم منا الذين يعيشون فى المعاصى والشر، لكنه بدا راضيًا للغاية عن نفسه لكل هذا الاهتمام الذى يتلقاه. ما نفع أن أصل لمسدسى؟ قلت لنفسى، شاعرًا بالمسدس فى حزامى يضغط على معدتى. صعدت على متن الحافلة لا أعترى أحد اهتمامًا.

راودنى شعور بأن الحافلة لن تغادر قط وسينسانى العالم كله وجنان وأنا جالس وأنتظر فى المقعد رقم ٢٨. فى هذه الأثناء لم أستطع عدم مشاهدة الزحام الذى يرحب بالشيخ، ورأيت النادل من المقهى عندما جاء دوره ليقبل يد الشيخ. كان قد انتهى لتوه من تقبيل يد الشيخ وكان يرفعها بعناية قصوى لأعلى إلى جبهته عندما بدأت الحافلة تتحرك. فيما بعد رأيت رأس بائع المتجر الحزين وسط الرءوس فى الحشد المتموج من البشر. كان يجتاز الطريق وسط الزحام مثل مغتال فرر أن يقتل قائدًا سياسيًا، لكن بمجرد ما ابتعدت الحافلة، أدركت أنه لم يكن فى الحقيقة يحاول الوصول إلى الشيخ، ولكن إلىّ.

كانت المدينة قد أصبحت وراءنا عندما قلت لنفسى: انساها. ظلت الشمس تتعقبنى فى مقعدى مثل تحرى مبدع بعد كل منعطف على الطريق أو لحظة من الظل آتية من شجرة، وكانت تحرق رقبتى وذراعى باستمرار وبشدة مثل رغيف الخبز. لكنى أخذت أردد، انسى الأمر، دعه يمر، بينما تسافر

الحافلة الكسولة، مصدرة أصواتًا خنفاء فى هذه الأرض الجدباء الصفراء حيث لم يكن هناك لا بيوت ولا مداخن، لا أشجار أو أحجار، وكان الضوء يغشى عينى الخاليتين من النوم، أدركت أن- بعيدًا عن النسيان- هناك شيئًا ما تغلغل بعمق داخل وعيى (ضميرى). أثناء الساعات الخمس التى قضيتها فى هذه المدينة، حيث ذهبت بسبب اسم صديقى ساعى البريد "محمد" الذى سلمه البائع الحزين، هناك شىء قد تحدد بالفعل - كيف سأتعامل معه؟ - أى مشاهد ملونة ومتسقة وأى أشخاص سوف أراهم فى كل المدن التى كنت على وشك زيارتها فى صورة تحرٍ هاوٍ.

بعد ست وثلاثين ساعة من مغادرتى لـ "الاكالى"- على سبيل المثال- كان منتصف الليل وكنت جالسًا فى المحطة أنتظر الحافلة التالية فى مدينة مغبرة وبها دخان تم بناؤها على قرية بدت وكأنها تأتى من حلم ما، وأنا أمضغ "بيدا" محشوة بالجبن لأوقف جوع معدتى بالإضافة إلى قتل الوقت الذى لم يكن يمر، عندما شعرت بظل حاقد يقترب منى من الخلف. هل كان البائع المولع بالقفازات؟ لا. روحه! لا. تاجر غاضب حزين؟ لا. كنت أفكر أنه ربما يكون "سيكو" عندما - بانج - تم غلق باب الحمام بقوة، وقد تحول الشبح تمامًا من "سيكو" الذى يرتدى معطف المطر إلى رجل ذى طابع أبوى مسالم يرتدى معطف مطر، وعندما انضمت إليه سيدة تقليدية ترتدى إيشاربًا على رأسها وابنتهما، تساءلت من أين أتيت بصورة لـ

"سيكو" فى معطف المطر ذى لون بنى باهت، هل كان هذا لأننى قد رأيت فى الزحام صديقى البائع الحزين الذى كان يرتدى معطفًا بنفس اللون؟

ظهر التهديد فى وقت آخر، ليس كشبح سيكو لكن فى هيئة طاحونة كاملة. نمت نومًا هادئًا فى حافلة هادئة نسبيًا ثم أكملت نومى كأحسن ما يكون فى حافلة ثانية لم تكن ثابتة فقط ولكن فيها ممصات أفضل للصدمات، ثم فى الصباح، عند طاحونة القمح حيث ذهبت مباشرة لأحصل على نتيجة سريعة وأقابل بائع الكتب الشاب الذى رفضه صانع حلوى "البقلاوة"، اختلقت كذبة بأننى صديقه من الجيش. طالما أن كل الذين أتتبعهم ويحملون اسم محمد كانوا فى نحو الخامسة والعشرين، فمن المؤكد أن حجة صديق الجيش التى كانت ذات نفع دائمًا مقنعة بالنسبة للعامل الذى تحدثت إليه أولاً، الذى كان أبيض من رأسه إلى أخمص قدميه من غبار الدقيق؛ لمعت عيناه بالود، الأخوة، والدهشة كما لو كان هو أيضًا قد أدى خدمته العسكرية فى نفس الوحدة، وذهب مباشرة إلى مكتب الإدارة. انزويت فى الركن، ولسبب ما شعرت بشعور غريب من الخطر فى الهواء، كانت هناك مطحنة تعمل بالمحرك الذى جعل الدقيق يدور بشؤم فوق رأسى، وأشباح العمال البيضاء المخيفة تتحرك ببطء شديد فى الضوء الأبيض الكئيب حاملة أطراف السجائر المضيئة فى أفواهها، شعرت أن الأشباح تنظر إلىّ فى عداء ويتحدثون فيما بينهم،

مشيرين إلىّ، ولكنى حاولت أن أدعى أننى لا أبالى حيث كنت واقفا فى الركن. بعد ذلك بقليل عندما اعتقدت أننى مهدد من قبل ساقية سوداء رأيتها من خلال فوارق فى حائط من أجولة الدقيق، جاء إلىّ واحد من الأشباح المنهمكة فى العمل- يعرج قليلاً- وتساءل من أنا حتى أصدر ريحًا هنا، لم يستطع سماعى من أزيز الآلات لذلك كنت مجبرًا على الصياح، مخبرًا إياه أننى لم أصدر أى ريح. قال، لا، فهو لم يقل سوى أى ريح أتت بك إلى هنا. فسرت مرة أخرى بصوت عال أننى كنت مغرمًا بصديقى من الجيش؛ محمد كان لديه حس فكاهى جميل وكان صديقًا مخلصًا، كنت أقوم بجولة فى "أناتوليا" أبيع وثائق تأمين على الحياة والطوارئ عندما تذكرت أن محمد يعمل هنا. سألنى الشبح المغطى بالدقيق عن أعمال التأمين: هل الأشخاص العاملون فى هذا المجال حفنة من اللصوص، محتالون وضيعون "أصحاب الثلاث ورقات"، ماسونيون، شواذ يحملون البنادق _ ربما أكون قد سمعته بشكل خاطئ بسبب كل هذه الضجة _ وأعداء آخرون للعلم والمسجد ذوو عقول شريرة؟ لم يكن هناك حل إلا أن أشرح له، والذى فعلته فى تطويل؛ أستمع ونظرة ودودة على وجهه. أخذنا الحوار إلى نظرية أن كل المجالات أو المهن بها السيئ والجيد: هناك أشخاص شرفاء فى هذا العالم، كما أن هناك النصابين الأوغاد الذين لا تعرف ما الذى يسعون وراءه. فقط عند ذلك، سألته

مرة أخرى عن صديقى محمد، ما الذى أخره؟ "ألق نظرة يا رجل!" قال الشبح لى، وسحب ساق بنطاله لأعلى، أرانى ساقه ذات الشكل الشاذ. "إن "محمد أوكر" ليس من نوع المخادعين الذى يفكر فى الذهاب إلى الجيش بساق كهذه، هل فهمت ذلك؟" إذًا، من أنا بحق الجحيم؟

لم يكن ما حدث من جراء عدم الحيلة ولكن من الدهشة حتى أننى للحظة لم أستطع المجىء بإجابة لهذا السؤال. قلت من المؤكد أنه حدث اختلاط فى العناوين ناتج عن ارتباك فى عقلى، وأنا على علم كامل أن هذا لم يكن مقنعًا على الإطلاق.

كنت محظوظا لهروبى دون أن يضربونى، وفيما بعد، أثناء ما كنت أتناول شريحة من "بوريك" أناتوليا الذى يذوب فى الفم فى فرن صانع الفطائر المحبط الذى هو مخبرنا، فكرت كم كان من الصعب تصديق أن محمد لم يبد كشخص قد يقرأ الكتاب، ولكن خبرتى علمتنى كم من الخطأ أن يفترض الشخص أنه يستطيع معرفة ما يكمن فى قلوب الرجال.

لنتخذ- على سبيل المثال- مدينة "إنسير باشا" حيث كل الشوارع تفوح برائحة التبغ؛ لم يكن فقط رجل الإطفاء الشاب محمد هو الذى قرأ الكتاب، ولكن فريق الإطفاء المحلى بأكمله قد قرأه بنوع من الجدية يثير الدهشة، كانت المدينة مشغولة بالإعداد لمهرجانات يوم التحرير بمناسبة اليوم حين تم طرد

الاحتلال اليوناني، عندما أتيحت لي الفرصة لأشاهد- في صحبة بعض الأطفال وكلب حراسة ودود- هؤلاء الأصدقاء من رجال الإطفاء يرتدون خوذات معدنية وعليها شعلة، وهم يرقصون عبر أرض التدريب وشعلات النار تندلع من قمة رءوسهم، ويغنون في تناغم واحد بلا أخطاء أغنية تقول "الحريق، الحريق، أرض الوطن تحترق." بعد ذلك جلسنا كلنا معًا لتناول وجبة من لحم الغنم المطبوخ. كان رجال الإطفاء-في زيهم اللامع ذي الأكمام القصيرة باللونين الأحمر والأصفر- يغمغمون بين الحين والآخر بعض الكلمات المأخوذة من الكتاب، إما كمزاح أو ليحيوا حضوري. أما بالنسبة للكتاب، فقد أروني لاحقًا أنهم يحتفظون به في كابينة شاحنة الإطفاء الوحيدة لديهم كما لو كان القرآن الكريم. هل كنت أنا من قرأ الكتاب بشكل خاطئ؟ أم أن رجال الإطفاء هم الذين آمنوا بأن الملائكة - ليس ملاكًا منفردًا - تتنزل من السماء في ليالي الصيف التي تضيئها النجوم بتألق، وتفوح برائحة التبغ، وترشد الحزين والمهموم لطريق السعادة؟

قام بتصويري مصور المدينة في مدينة ما: وفي أخرى، جعلت الطبيب يستمع إلى رئتيّ؛ وفي ثالثة، لم أقم بشراء الخاتم الذي جربته عند صائغ محلي: وفي كل مرة أترك هذه الأماكن الحزينة، المغبرة، والمتهالكة، أحلم باليوم الذي تأتي فيه جنان هنا وتؤخذ لنا صورة بالفعل، أو أجعل أحدًا يعتني برئتيها الجميلتين، أو

أشترى لها الخاتم الذى سيربطنا ببعضنا حتى يفرق بيننا الموت، وليس لمجرد أن نكتشف أمر المصور "محمد"، أو الطبيب "محمد"، أو "محمد" الصائغ، من هم حقًا هؤلاء، ولماذا قرءوا الكتاب بكل هذه العاطفة.

ثم كنت أذهب حول المدينة لبرهة من الوقت، ألوم طيور حمام المدينة لأنها تلقى بمخلفاتها على تمثال أتاتورك، أستشير ساعتى، أفحص مسدسى، ثم أقصد موقف الحافلات، وفى هذه اللحظة عندما يراودنى القلق أحيانا بأن أولئك الرجال الأشرار، الأشخاص الذين يرتدون معاطف للمطر، "سيكو" المنضبط وأشباح الجواسيس، كلهم كانوا يتتبعوننى. ربما كان هذا الظل الطويل النحيل هو "موفادو" من مكتب الاستخبارات القومى؟ لأن فى اللحظة التى رآنى، نزل من حافلة "أدانا" التى ركبها لتوه. نعم، يجب أن يكون هو؛ من يكون سواه، ومن الأفضل أن أغير وجهتى بسرعة، وهذا ما فعلته بالفعل اختفيت فى دورة مياه كريهة الرائحة، وتمنيت بلا أمل أن أرى الملاك من نافذة حافلة "الطريق الآمن الفورى" التى صعدت عليها خفية، شعرت بوجود زوج من العيون جعلت الشعر يقف على مؤخرة عنقى، مما جعلنى أستنتج أنه يجب أن يكون "سركيسوف" هذه المرة الذى أبقانى تحت مراقبته غير الشريفة. لذلك، فى المطاعم ذات الموائد المدعمة بالفورمايكا فى أماكن الاستراحة حيث توقفنا فى منتصف الليل، كنت أترك

كوب الشاى دون أن أنتهى منه وأقصد حقول الذرة لأنتظر حتى موعد رحيل الحافلة. أشاهد النجوم فى السماء المخملية الداكنة الزرقة؛ أو - أثناء النهار - كنت أذهب إلى أى متجر محلى مرتديًا زيًا أبيض ووجهى مبتسم، وأغادر المتجر وأنا أرتدى قميصًا أحمر، حاكتًا بنفسجيًا، سروالا من المخمل المضلع، ووجه متجهم؛ فى مرات عديدة أجد نفسى أركض فى الحر الشديد خلال الزحام باتجاه موقف الحافلات.

بعد كل الركض فى الجوار، عندما أقتنع بأن الشبح المسلح قد فقد أثرى، أو أصل إلى أنه لا يوجد مبرر محتمل لجواسيس دكتور فاين أن يحولونى إلى مصفاة بوابل نيرانهم، ثم تتبدل العيون الشريرة التى تراقبنى من بعيد بعيون أهالى المدينة الودودين ينظرون إلى بسرور لرؤيتى بينهم.

ذات مرة، فقط لأتأكد أن "محمد" الذى أبحث عنه والذى ذهب لرؤية عمه فى اسطنبول لم يكن محمد المقصود، صحبت سيدة ثرثارة فى طريقها وهى عائدة إلى بيتها بعد يوم من التسوق. كان هناك فى الحقائب المشغولة من الخيط والأكياس البلاستيكية التى حملناها سويًا، باذنجان كبير الحجم، طماطم طازجة، وفلفل مدبب يلمع بصحة تحت أشعة الشمس، وأخذت تتحدث عن.. كم من الرائع أن يبحث الشخص عن صديقه من الجيش، وكم أن الحياة جميلة، وألا أقلق على الإطلاق لأن زوجتى ترقد مريضة فى البيت.

ربما كانت الحياة كذلك. فى حديقة مطعم يدعى "وجبات لذيذة" فى مدينة كارا كالى، جلست على مائدة تحت شجرة ضخمة وتناولت الكباب الشهى الذى تفوح منه رائحة الزعتر، المُقدم على وسادة من الباذنجان المدخن المخفوق الكريمى. حملت الرياح الخفيفة- التى عبثت بالأوراق هنا وهناك- رائحة فطائر جاهزة للخبز من المطبخ كانت طيبة تمامًا مثل الذكريات العزيزة. فى مدينة قلقة بالقرب من "أفيون" لا أذكر اسمها، حملتنى قدماى بالرغم عن إرادتى، كما تفعلان فى كثير من الأحيان، لمتجر للحلوى حيث توقفت فجأة لرؤية أم كانت بضة ممتلئة فى استدارة كالبرطمانات اللامعة المليئة بالحلوى لها لون وردة عتيقة وقشرة يوسفى، واستدرتُ متجهًا إلى الخزينة وأنا أرتعش. نسخة الأم الأصغر سنًا والأكثر شحوبًا، ذات الستة عشر ربيعًا، جميلة لا يضاهيها جمال ذات يدين صغيرتين، فم صغير، عظام وجنتها عالية، وعيون مسحوبة قليلاً، تنظر لأعلى من تحت مجلة للصور الرومانسية التى كانت تقرؤها وتبتسم بصدق- غير مصدق أنها كانت- ناظرة إلىّ مثل المغويات المتحررات فى الأفلام الأمريكية.

فى ليلة، كنت أنتظر قدوم الحافلة فى محطة مضاءة بأضواء خافتة كما فى غرفة معيشة سالمة وهادئة لبيت عصرى فى اسطنبول، جالسًا هناك مع ثلاثة من ضباط الاحتياط كنت قد قابلتهم ونلعب لعبة ورق قاموا باختراعها وأضافوا إليها وطوروها

فيما بينهم ويسمونها "الشاه المختار". قاموا بقص كروت ورق اللعب من علب سجائر "بنيس" والتى رسموا عليها صورًا لشاه، تنينًا، سلاطين، جنيات، عشاقًا، ملائكة؛ والملائكة- اللاتى كن نظائر أنثوية للجواكر- كل منهن تمثل إما الفتاة التى تسكن فى الشقة المجاورة، أو الحب الأوحد لشخص ما، أو نجمة سينمائية محلية أو مطربة فى ملهى ليلى يمكن أن ينام معها هؤلاء الرجال فى أحلامهم المثيرة فقط، كما كان الحال بالنسبة للشخص فى وسطهم الذى كان أكبر المحبين للمزاح. سمحوا لى باختيار الملاك الرابع، وأظهروا أخلاقًا طيبة بعدم سؤالى حتى عمن كان يمثله. فحتى الأصدقاء الأذكياء والمراعين للشعور قلما يكونون قادرين على فعل شىء كهذا.

كان هناك مشهد واحد للسعادة ضغط على لأشاهده أثناء ما كنت أستمع إلى كل الهراء الذى زودنى به المخبرون المحبطون، أجمع ما أستطيع من كل الذين يحملون اسم "محمد"، كل واحد منهم مختبئ فى ركن صعب الوصول إليه، أبواب مغلقة، أسوار منيعة، حوائط مغطاة باللبلاب، وطريق به رياح هائجة _ أو أشياء أخرى، كنت أهرب بعيدًا لأتجنب كل معاطف المطر، جواسيس تخيلية شريرة تتبعنى فى موقف الحافلات، ميادين المدن، والمطاعم التى توجد فى المحطات.

كان اليوم الخامس لى على الطريق، شربت مشروب الـ"راكى" الذى عرضه علىَّ فى كوب شاى

ناشر صحيفة "كوريوم الحرة"، لكى يجعلنى أفهم بشكل أفضل قصائد الشعر الذى كتبها والذى كان يقرؤها لى؛ وعرفت أن الناشر لن يطبع بعد الآن مقتطفات من كتابه فى قسم "البيت والأسرة" لأنه فهم أنها لا تساعد فى مشكلة السكة الحديدية ولا فى تقدم البناء فى خط كورم-أماسيا"؛ ثم فى المدينة التالية، بعد أن قضيت ست ساعات أركض هنا وهناك باحثًا عن العناوين والآثار، استشط غضبًا لاكتشافى أن هناك مخبرًا ما قام باختلاق قارئ غير موجود للكتاب ووضعه فى شارع لا وجود له، من أجل أن يستنزف المزيد من النقود من دكتور فاين؛ ووصلت إلى "أماسيا" حيث حل الليل سريعًا، كانت المدينة تقع بين جبال وعرة ومنحدرة، كنت قد وصلت إلى منتصف قائمتى الخاصة بالذين يحملون اسم "محمد"، إلى الآن بلا فائدة (دون جدوى)، وكانت ساقاى ترتجف من القلق لتخيل جنان وهى مازالت تحترق من الحمى فى الفراش، لذلك كنت أخطط لاستقلال أول حافلة لساحل البحر الأسود فى الحال بعد الذهاب للعنوان المقصود فى المدينة، وأسال عن رفيقى من الجيش، فقط لأكتشف أنه لم يكن محمد المعنى.

عبرت جسرًا يمتد عبر مجرى مائى كئيب - اتضح أنه النهر الأخضر الشهير الذى لم يكن أخضر على الإطلاق - ودخلت فى منطقة تقع وراء الأضرحة التى نُحتت فى الصخر فى وجه جرف، أشارت المنازل

القديمة والكبيرة إلى أن فى وقت ما أن الناس الذين رأوا أوقاتًا أفضل - الذين يعرفون ماذا يعنى الباشاوات أو المواقد العتيقة الكبيرة الحجم - قد عاشوا ذات مرة فى هذا الحى المليء بالغبار. طرقت على باب أحد هذه المنازل وسألت عن رفيقى من الجيش؛ أخبرونى أنه كان بالخارج يقود سيارته، لكنهم سمحوا لى بالدخول وعرضوا علىّ مشاهد من حياة عائلية سعيدة ومرحة.

١- رب الأسرة،محام يتولى قضايا للصالح العام، ويوصل العميل الذى تثقله مشاكله إلى الباب؛ ويأخذ نسخة من علوم القانون من مكتبته الضخمة، ويجلس ليراجعها. ٢- عندما قدمتنى ربة الأسرة- التى عرفتنى على الوضع- إلى الأب المشغول البال، الأخت ذات العيون العابثة، الجدة التى ترتدى نظارة القراءة، والأخ الصغير الذى يفحص مجموعة طوابعه - سلسلة أرض الوطن - كانوا جميعًا متحمسين وفرحين للغاية، يمثلون كرم الضيافة التركى الحقيقى الذى يمتدحه كثيرًا المستكشفون الغربيون فى كتب الرحلات التى يكتبونها. ٣- سألتنى الأم والفتاة العابثة عدة أسئلة بود بينما تنتظران الفرن ليخبز "البوريك" اللذيذ الرائحة الذى أعدته العمة "سوفيد"، ثم تناقشنا حول رواية "كليماتس" لـ"أندريه موريس". ٤- أخبرنى ابنهم الدءوب الذى قضى اليوم بأكمله يعتنى بأشياء فى مزرعة التفاح الخاصة بهم أنه بصراحة لا يتذكرنى على الإطلاق من الوقت حين أدى خدمته العسكرية،

لكنه قضى بعض الوقت يبحث عن موضوعات للحديث ربما نتشارك فيها. وأخيرًا جاء على ذكر الموضوع، لذلك كان لدينا فرصة لمناقشة كيف كان إسقاط الحافز السياسى لبناء السكك الحديدية وتشجيع المزارع التعاونية للقرية من الاهتمامات يشكل ضررًا.

عندما غادرت المنزل السعيد لأغرق فى ظلمة الشارع، فكرت فى نفسى أن هؤلاء الناس لا يمارسون الحب قط، عرفت بمجرد أن طرقت على الباب ورأيتهم ان "محمد" الذى أبحث عنه لا يعيش هنا. فلماذا إذًا بقيت لتسحرنى هذه الصورة السعيدة التى تأتى مباشرة من الإعلانات التى تدعو لشراء البيوت بالتقسيط؟ بسبب المسدس "والشر"، قلت لنفسى، شاعرًا بوجوده فى حزامى. تساءلت إذا كنت يجب أن أستدير ببساطة وأطلق الطلقات التسعة ملليمترات على النوافذ الآمنة لهذا المنزل؛ لكنى عرفت أن هذا لم يكن فكرًا حقيقيًا، كان أكثر منه همسًا يجعل الذئب الأسود الرابض فى غابة عقلى المظلمة يهدأ وينام. نم، أيها الذئب الأسود، نم. نعم، فلتذهب للنوم. متجر، ثم متجر، نافذة، إعلان: كانت قدماى- الوديعة كحمل يخاف من الذئب- تأخذانى إلى مكان ما الآن. إلى أين؟ مسرح الزهور، صيدلية الربيع، محل الموت للفواكه المجففة والمكسرات. لماذا يدخن البائع الشاب ويحدق فىّ بهذه الطريقة؟ ثم متجر للبقالة، محل للمعجنات. وأخيرًا وجدت نفسى أنظر إلى ثلاجات

"هامبل-ستيل" فى واجهة للعرض ذات مقاس معقول، مواقد غاز "الهلال"، صناديق للخبز، مقاعد، أرائك، أدوات طبخ من الصلب المطعم بالمينا، مصابيح، مواقد من طراز حديث، وعندما رأيت الكلب المحظوظ ذا الفراء السميك، بكلمات أخرى، تمثال من الفخار لكلب يقف على راديو من طراز "هامبل- ستيل"، عرفت أننى لم أعد أستطيع التحكم فى نفسى.

هكذا كنت أقف أمام واجهة المتجر فى مدينة "أماسيا" المحشورة بين جبلين، أيتها الملاك، وبكيت، منتحبًا ومنهارًا، أنت تسأل طفل لماذا يبكى؛ هو يبكى لجرح عميق بداخله لكنه يخبرك بأنه يبكى لأنه فقد "برايته" الزرقاء؛ كان هذا نوع الحزن الذى اجتاحنى وأنا أنظر إلى كل الأشياء المعروضة. ما إحساسك بأن تتحول إلى قاتل من أجل لا شيء؟ أن تعيش بهذا الألم فى روحك لبقية حياتك؟ ربما اشترى بعض الحبوب المحمصة من محل الفواكه المجففة والمكسرات، أو أنظر إلى مرآة بقال ما لأرى نفسى، أو أن أعيش فى حياة النعيم المليئة بالثلاجات والمواقد، لكن مازال الصوت الملعون المهدد بداخلى- الذئب الأسود- يزمجر ويتهمنى بذنبى. لكن أنا- يا ملاكى- قد آمنت كلية فى الحياة ذات مرة وفى الأعمال الطيبة. الآن، متعثر بين جنان التى لا أستطيع الوثوق بها، ومحمد الذى سوف أقتله فى لحظة لو استطعت الوثوق به، ليس لدى ما أتمسك به إلا مسدسى والأحلام بحياة

سعيدة فوق السحاب التى تعتمد على خطط وأنظمة متشابكة وراء الإيمان ومشئومة إلى أقصى حد. صور ثلاجات، ماكينات لعصر البرتقال، المقاعد التى تتدفق فى ذهنى، مصحوبة بعويل بلا صوت.

جاء الرجل الكبير فى السن لمساعدتى على الفور الذى يظهر فى الأفلام المحلية ليهدئ من روع الفتى الصغير الباكى أو المرأة الجميلة التى تنتحب، أنا الديك القاسى. قال: "يابنى، لماذا تبكى، يا ولدى؟ هل هناك شىء؟ لا تبك."

كان هذا العم الماهر الملتحى فى طريقه إما إلى المسجد ليصلى، أو ليخنق أحدهم.

قلت: "سيدى، مات أبى أمس."

من المؤكد أنه ارتاب فى شىء ما. قال: "من هم أهلك، بنى؟ أنت بالتأكيد لست من هنا."

"لم يكن زوج أمى يريدنا أن نزوره." قلت وتساءلت إذا كان يجب أيضًا أن أقول: سيدى، أنا ذاهب إلى مكة فى رحلة للحج، لكنى لم ألحق بالحافلة. هل يمكنك أن تقرضنى بعض النقود؟

أثناء ادعائى كما لو كنت أموت من الحزن، مشيت وسط الظلام، وأنا أموت من الحزن، مازال هذا، قد ساعد فى اختلاق كذبتين على غير المتوقع. فيما بعد، هدأت كثيرًا على متن حافلة "الطريق الموثوق فيه" التى أستطيع أن أثق بها دائمًا، وأنا أرى على شاشة الفيديو سيدة متأنقة تقود سيارتها بلا شفقة وبدون

أى تردد وتدخل فى زحام من الرجال الأشرار، وصلت عند الصباح إلى شاطئ البحر الأسود، واتصلت بأمى من عند بقالة البحر الأسود وأخبرتها أننى على وشك إنهاء شئونى والرجوع إلى البيت مع زوجتى الملائكية. إذا أصررت على البكاء فلتبكِ من السعادة. جلست فى محل للمعجنات فى منطقة التسوق القديمة، وفتحت دفتر ملاحظاتى، وقمت بعمل بعض الحسابات لأنهى المهمة بأسرع ما يمكن.

كان قارئ الكتاب فى "سامسون" طبيبًا شابًا يؤدى مهام مهنته فى مستشفى "الأمن الاجتماعى". بمجرد أن تأكدت أنه لم يكن محمد المقصود، صدمنى شىء ما بلا مبرر واضح، ربما كان وجهه النظيف الحليق، أو لياقته الجسمانية وسلوكه الواثق. على عكس أمثالى الذين تخرج حياتهم عن الطريق، وجد هذا الرجل طريقة مناسبة ليمتص الكتاب فى نظامه واستطاع أن يعيش معه فى سلام وفى عاطفة أيضًا. كرهته على الفور. كيف يمكن للكتاب العظيم الذى غير عالمى وأربك مصيرى أن يؤثر على هذا الرجل كما لو كان قرص فيتامين؟ عرفت أننى سأموت من الفضول لو لم أسأله، لذلك أثرت الموضوع أمام الطبيب عريض المنكبين وممرضته- التى بدت مثل "كيم نوفاك" ولكن من الدرجة الثالثة بعينيها الكبيرتين وملامحها المنحوتة- مشيرًا إلى الكتاب القابع فى براءة خادعة تمامًا وسط كتالوجات الأدوية على المكتب، كما لو كان أيضًا شيئًا عن الصيدلة والأدوية.

"آه، فالطبيب يحب القراءة!" قالت كيم نوفاك الراغبة والقادرة وهى تضحك.

عندما غادرت الممرضة، أغلق الطبيب الباب وراءها، جلس فى كرسيه بترو رجل ناضج، وبينما ندخن رجلاً لرجل، شرح كل شىء.

كان هناك وقت فى أول شبابه عندما كان متديناً تحت تأثير من عائلته، كان يذهب إلى الجامع أيام الجمعة ويصوم أثناء شهر رمضان. ثم وقع فى حب فتاة؛ بعد فترة فقد إيمانه؛ وتبع ذلك، أن أصبح "ماركسيًا". شعر بخواء فى روحه بعد أن هدأت هذه العواصف، بعد أن تركت آثارها هناك. لكن عندما رأى الكتاب فى مكتبة صديق وقرأه، كل شىء وضع فى مكانه". لقد فهم الآن مكان الموت فى حياتنا، فقبل حقيقته مثل شجرة فى الحديقة لا يمكن نكرانها، أو صديق فى الشارع؛ وتوقف عن أن يكون متمردًا. فهم أهمية طفولته، تعلم أن يتذكر ويحب كل الأشياء الصغيرة من الماضى، مثل مسدس الفقاعات والقصص المصورة، والوقت المناسب فى حياته لحبه الأول بالإضافة إلى أول كتاب قرأه على الإطلاق. لقد أحب دومًا موطنه الأصلى البدائى على أية حال، وتلك الحافلات المجنونة والحزينة أيضًا. أما بالنسبة للملاك، ففهم وجوده الإعجازى لسبب ما وآمن به نتيجة لعواطفه. بعد كل هذا الخليط، عرف أن الملاك سوف يجده يومًا ما، وسوف يصعدان معًا إلى

السموات؛ فيمكنه- على سبيل المثال- أن يحصل على وظيفه فى ألمانيا.

أخبرنى بكل هذا كما لو كان يشرح لى كيف أصنع دواءً (أنفذ علاجًا) بإعطائى (روشتة) وصفة للسعادة. نهض الطبيب، بعد أن طمأن نفسه أن مريضه قد فهم الوصفة الطبية، وكل ما تبقى للمريض الميئوس منه هو أن يوصل نفسه إلى الباب، كنت على وشك المغادرة عندما قال، وكأنه ينصحنى بأخذ الأقراص بعد الوجبات، "أنا دومًا أضع خطًا وأنا أقرأ؛ أنصحك بأن تفعل بالمثل."

ركبت على أول حافلة متجهة جنوبًا، أيها الملاك، كما لو كنت أجرى مبتعدًا. قلت لنفسى ليس مرة أخرى؛ لن أغامر بالذهاب إلى ساحل البحر الأسود مرة أخرى قط، وكأن هناك صورة خيالية مميزة مرسومة بوضوح وسط مخططاتى التى تشمل سعادتى المستقبلية، قرى مظلمة، حظائر للماشية مظلمة، أشجار لا تموت، محطات الوقود الحزينة، مطاعم خاوية، جبال صامتة، وأرانب قلقة تمر أمام زجاج نافذتى، قلت لنفسى لقد رأيت أشياء مشابهة من قبل؛ فى الفيلم الذى كان يعرض على الشاشة، كان قد مر وقت طويل بعد أن اكتشف الشاب اللطيف ذو النيات الحسنة أنه انخدع بطريقة سيئة حتى أنه عنف الرجال الأشرار أولاً ثم وجه المسدس إليهم. قبل أن يقتلهم، قام باستجوابهم واحدًا واحدًا، جاعلاً

إياهم يتوسلون طلبًا للرحمة، فكر فى أن يسامحهم، تردد طويلاً بشكل كاف يعطيهم الفرصة لعمل أى شىء فيه خيانة؛ وكان بعد أن قررنا- نحن المشاهدين- أن الرجل الشرير كان وغدًا يستحق القتل لتنتهى معاناته حتى سمعنا طلقات الرصاص على الشاشة الموضوعة فوق مقعد السائق، هذا عندما نظرت من النافذة مثل شخص يجد رؤية سفك الدماء والقتل شيئًا كريهًا، شاعرًا كأننى أسمع كلمات أغنية غريبة صنعت من طلقات الرصاص، صخب المحرك والإطارات؛ وتساءلت- يا ملاكى- لماذا لم أسأل الطبيب الوسيم، عندما كان يصف لى الكتاب، عن هويتك.

كانت كلمات الأغنية على هذا الشكل: "دكتور، دكتور، أعطنى الأخبار......" من هو الملاك؟ يسأل المريض الشاب. الملاك؟ يقول الطيب الذى يعتقد أنه مهم، يأخذ خريطة، يفردها على المنضدة، وكما يعرض على المريض المثير للشفقة صور الأشعة لأعضائه الميئوس منها، يشير إلى جبل المعنى، ومدينة اللحظة الفريدة، وإذا كان هذا هو وادى السذاجة ، وهذه نقطة الحادثة، إذًا فهذا يجب أن يكون الموت. هل يجب على المرء أن يحب مواجهة الموت، يا دكتور، كما يحب مقابلة الملاك؟

وفقًا لملاحظاتى، كان التالى فى قائمتى بالأشخاص الذين قرءوا الكتاب هو موزع لصحيفة

محلية في مدينة "إكزبر". بعد عشر دقائق من مغادرتي للحافلة، رأيته يجلس في متجره في منتصف منطقة التسوق، وهو يحك جسده المكتنز القصير من فوق قميصه برضا _ لا يشبه حبيب جنان في أي شيء؛ كوني التحري المستعد والقادر الذي أنا عليه، كنت خلال عشر دقائق على أول حافلة تغادر المدينة. بعد أربع ساعات واستقلال حافلتين، وضعني المشتبه فيه التالي الذي في عاصمة المحافظة في مشكلة أقل وطأة؛ كان هناك في محل الحلاقة أمام موقف الحافلات مباشرة، ينظر إلى الركاب المحظوطين ينزلون من الحافلة وحزن عميق في عينيه، في يده جاروف وفي اليد الأخرى مريلة نظيفة تمامًا، منتظرًا رئيسه الذي كان يحلق بهمة لشخص ما. شعرت أنني أريد غناء بيت شعر مر بذهني، " تعال، يا أخي، تعال معنا/ هيا نركب الحافلة أنا وأنت/ نذهب إلى أرض رائعة." أردت أن أكمل للنهاية قبل أن تتركني ملكة الشعر. لذلك- في المدينة التالية التي كانت على بعد ساعة بالحافلة- معتقدًا أن المشتبه فيه العاطل كان مشتبهًا فيه حقًا، كنت مجبرًا على تفتيش أقفاص الطيور القديمة، كشافات، مقصات، ماسك سجائر مصنوع من خشب الورد، وبغرابة كافية، قفازات، مظلات، وكتاب لـ"براونينج" خبأه المخبر في بئر جافة في باحته الخلفية، هذا التاجر ذو القلب المجروح والسن المكسور قام بإهدائي ساعة "ركيسوف" كتعبير غير مهم عن احترامه وإعجابه بدكتور فاين. بينما

كان يشرح كيف التقى هو وثلاثة من أصدقائه بعد صلاة الجمعة فى الحجرة الخلفية لمحل العجائن ليناقشوا "يوم الاستقلال"، فكرت فى أنه لم يحل المساء فقط علينا فجأة ولكن أيضًا الخريف، كان عقلى معتمًا من السحب السوداء والمنخفضة عندما أضىء النور فى المنزل المجاور، وفجأة ظهر من وسط أشجار الخريف كتفان بلون العسل لامرأة نصف عارية معتدلة الجسم من النافذة، فقط لتختفى كالرجفة. بعد ذلك، رأيت أحصنة سوداء تركض عبر السماء، وحوشًا نافدة الصبر، مضحكات للغاز، أحلامًا بالسعادة، مسارح مغلقة، حافلات أخرى، أشخاصًا آخرين، مدنًا أخرى.

فيما بعد فى هذا المساء، شعرت بأنى متفائل عن كونى محبطًا وأنا أتحدث إلى تاجر شرائط كاسيت حتى بعد أن فهمت أنه لم يكن "محمد" المعنى، متنقلاً من موضوع إلى موضوع متحدثًا عن الروح الطيبة التى توفرها أغراضه للناس، عن أن موسم الأمطار قد انتهى، عن حزن المدينة التى جئت منها، عندما سمعت صفارة قطار بائسة وأصبحت قلقًا، اضطررت أن أغادر هذه المدينة على الفور، التى ليست لها اسم فى ذاكرتى، وأعود إلى الليل المخملى العزيز حيث ستأخذنى الحافلة.

كنت أمشى باتجاه موقف الحافلات، الذى كان فى اتجاه صفارة القطار، عندما رأيت نفسى فى مرآة

دراجة لامعة مركونة على الرصيف. هانا هناك، مع مسدسى الذى أخفيه، سترتى البنفسجية الجديدة، ساعة "سركيسوف" المهداة لدكتور فاين فى جيبى، الجينز الأزرق الذى أرتديه، يداى الخرقاوان، خطواتى السريعة: ثم ابتعدت المحلات والنوافذ وذهبت، وما رأيت فى الليل كانت خيمة سيرك على مدخلها صورة ملاك، كان الملاك هجينًا من رسم فارسى لشخص ونجمة أفلام محلية، لكنه مازال يجعل قلبى يقفز، هذا الطالب الذى انقطع عن دروسه لا يدخن فقط- يا سيدى- ولكن انظر أيضًا كيف يتسلل إلى خيمة السيرك!

اشتريت تذكرة ودخلت الخيمة، حيث كانت تفوح رائحة العفن، العرق، والتربة، جلست- بعد أن قررت أن آخذ راحة من كل شيء- وبدأت أنتظر سويًا مع بعض المجندين المجانين الذين فشلوا فى أن يعودوا إلى وحداتهم العسكرية، قليل من الرجال الذين خرجوا ليضيعوا الوقت، أشخاص حزانى وكبار فى السن، وبعض الأطفال وأسرهم التى بدت فى المكان الخطأ، لم يكن هذا مثل السيرك الذى رأيته على التليفزيون؛ لم يكن هناك لاعبو الأكروبات المهرة، ولا دببة تقود دراجات، ولا حتى بعض الحواة المحليين. سحب رجل قطعة قماش رمادية قذرة فظهر راديو، الذى ارتفع فى الهواء ليتحول إلى موسيقى. استمعنا إلى قطعة من موسيقى تركية، ثم ظهرت امرأة شابة كانت تغنى وغنت أغنية ثانية بصوتها الشجى

وغـادرت، كـانت تذاكرنا عليها أرقـام، سـيكون هناك سحب، كنا نجلس في صبر، هكذا تم إخبارنا.

ظهـرت المرأة التي غنت من قبـل في مظهـر آخر، هذه المرة كـانت مـلاكًا، كـانت قد رسـمت خطًا عند ركنى عينيها، والذي جعلهما يظهران في مظهر ضيق ومسـحوب، كانت ترتدي زيًا متواضعًا للسباحة من قطعـتين مـثل النوع الذي ارتدته أمي على شـاطئ "ثريا". ثم كـان هناك حـول عنقهـا قطعـة غـريبـة من القمـاش، شيء افترضت في البداية أنه شـال غريب حتى رأيت أنه كان ثعبانًا لفتـه حول عنقهـا، ملقيـة طرفيه على كتفيها الرقيقين، هل كنت أرى نوعًا من الضـوء غيـر العـادي الذي لم أره من قبل قط؟ أو هل كنت أتوقع ببـسـاطة مـثل هـذا الضـوء؟ أو ربما كنت أتخيله فقط. كنت سعيدًا جدًا أنني في هذه الخيمة أشـاهد الملاك والثـعبـان مع نحـو خـمسـة وعـشـرين شـخـصًا آخـرين، اعـتـقـدت أن الدمـوع سـتـنهـمـر من عيني.

فيما بعد، عندما كـانت المرأة تتحدث مع الثعبان، فكرت في شيء ما. أحيانًا تتذكر فجأة ذكرى بعيدة تبدو منسية منذ زمن بعيد، وتسأل لماذا من بين كل الأوقات تتذكرها الآن ويصبح عقلك مشتتًا (مرتبكًا) كليًا؛ هكذا شعرت،لكنه كان شعورًا بالسلام أكثر منه بالتـشـتت، كنت أنا وأبي ذات مـرة نزور العم رفـقي. "أسـتطيع أن أعـيش في أي مكان على الإطلاق، إذا

كانت القطارات تذهب هناك، حتى لو كانت مدينة ذات محطة اختيارية فى نهاية العالم." قام بإخبارنا بذلك. "لا أستطيع أن أتخيل حياة حيث لا يمكن للمرء أن يسمع قطارًا قبل ان يسقط نائمًا." أنا أستطيع أن أتخيل بسهولة قضاء بقية حياتى هنا فى هذه المدينة، مع هؤلاء الناس، لا شيء يستحق أكثر من السلام الآتى من النسيان. هذه هى الأشياء التى فكرت فيها بينما أنظر إلى الملاك وهو يتحدث إلى الثعبان.

خفتت الأضواء للحظة، انسحبت الملاك من على المنصة. عندما عادت الأضواء مرة أخرى، تم إعلان أنه سيكون هناك استراحة لمدة عشر دقائق، فكرت أننى قد أخرج وأتجول حول المكان مع أصدقائى من سكان المدينة الذين كنت سأقضى حياتى كلها معهم.

كنت أشق طريقى وسط الكراسى الخشبية عندما رأيت منْ يجلس على بعد ثلاثة أو أربعة صفوف من المنصة المزعومة التى لم تكن أكثر من قطعة مرتفعة عن الأرض، يقرأ بريد "فيران باج"، وبدأ قلبى يدق بعنف، كان هذا هو "محمد"، حبيب جنان، ابن دكتور فاين الذى افترض أنه مات: يعقد ساقيه - وهو يمتلك السلام الذى طالما كنت أشتاق إليه - ويقرأ صحيفته، غير واع بالعالم.

الفصل الثالث عشر

عندما خطوت خارج الخيمة، هبت رياح خفيفة على ياقتي، نزولا على ظهري ثم شملت كل جسدي، جاعلة إياي أقشعر، تحول أصدقائي المستقبليون المواطنون إلى أعداء لا أثق بهم، ظل قلبي يدق بعنف، شعرت بوزن المسدس في حزامي، ولم يكن دخان سيجارتي فقط هو الذي أرسله لأعلى ولكن العالم كله.

رن جرس، نظرت للداخل: مازال يقرأ صحيفته. رجعت إلى الخيمة مع باقي الجمهور، جلست خلفه مباشرة بثلاثة صفوف، بدأ "البرنامج". شعرت بدوار. لا أتذكر ماذا رأيت، وما لم أر، ما سمعت، وما لم أستمع إليه، كان عقلي يفكر في مؤخرة عنقه، كانت عنقًا حليقة نظيفة متواضعة تخص إنسانًا محترمًا.

بعد فترة شاهدتهم يسحبون الرقم الفائز من حقيبة جلدية بنفسجية اللون؛ ثم تم إعلان الرقم الفائز، صعد رجل مسن بلا أسنان أعلى المنصة، وهو سعيد للغاية. هنأته الملاك، التي كانت ترتدي نفس ثوب السباحة ذي القطعتين وطرحة العروس. وبلا أي تأجيل، ظهر الرجل الذي يبيع التذاكر ومعه نجفة كبيرة يحملها بين يديه.

صاح الرجل المسن الذى بلا أسنان، "يا إلهى! ثريا النجوم ذات سبعة أفرع!"

عندما سمعت الجمهور فى الخلف يصيحون باحتجاجاتهم، أدركت أن من المؤكد أن نفس الرجل يفوز بهذا السحب كل مرة، والنجفة هى نفسها التى تعاود الظهور كل مساء تحت أغطيتها البلاستيكية.

كان فى يدى الملاك مكبر صوت لاسلكى، أو نوع من مكبر صوت مزيف لا يكبر صوتها. قالت "ما مشاعرك؟ كيف تشعر وأنت محظوظ جدًا؟ هل أنت متأثر؟"

"أنا متأثر جدًا، سعيد جدًا، فليباركك الله!" قال الرجل المسن فى مكبر الصوت.

"إن الحياة شىء جميل. بالرغم من المشاكل والأحزان التى تتكاثف، فأنا لست خائفًا ولا خجلان من كونى سعيدًا للغاية."

قليل من الأشخاص شجعوه.

سألت الملاك: " أين ستقوم بتعليق النجفة؟"

"هذه ضربة حظ" قال الرجل كبير السن، منحنيًا على مكبر الصوت كما لو كان قادرًا على الحياة. "أنا واقع فى الحب، وخطيبتى أيضًا تحبنى كثيرًا، سنتزوج قريبًا وننتقل إلى منزلنا الجديد؛ حيث سأعلق هذه التحفة ذات السبعة أفرع."

كان هناك بعض التصفيق. ثم سمعت صيحات تقول "قبلة، قبلة."

أطبق الصمت على الجميع عندما قبلت الملاك الرجل على وجنتيه، انتهز الرجل العجوز فرصة الصمت وتسلل بعيدًا وهو يحمل النجفة.

قال صوت غاضب فى الخلف: "لكن بقيتنا لا يفوز بأى شيء أبدًا!"

قالت الملاك: "هدوء! الآن أنصتوا إلىّ." أطبق نفس الصمت الغريب الذى حدث أثناء القبلة مجددًا على الجمهور. "سيقع الاختيار على أرقام حظكم أيضًا فى يوم من الأيام، لا تنسوا ذلك! ساعة سعادتكم ستأتى فجأة أيضًا." قالت الملاك. "لا تكونوا متضجرين، توقفوا عن الحسد على الآخرين! إذا تعلمتم أن تحبوا حياتكم، فسوف تعرفون سلسلة الأحداث التى ستقود إلى سعادتكم. إذا كنتم قد فقدتم طريقكم أم لا، فسوف ترونى حينها." رفعتْ حاجبًا واحدًا فى إغراء. "وبالرغم من كل شيء، فملاك الرغبة سيبقى هنا كل مساء، هنا فى مدينة "فيران باج"!"

انطفأ الضوء السحرى الذى كان ينيرها، وأضيء مصباح عادى عار، غادرت مع الزحام، وأنا محافظ على المسافة بينى وبين طريدتى. هاجت الرياح. نظرت عن يمينى وعن يسارى؛ كان هناك اختناق فى المرور فى الأمام، لذلك وجدت نفسى أقف على بعد خطوتين خلفه.

"كيف كان الحال، يا عثمان؟ هل استمتعت به؟ قال رجل يرتدى قبعة.

"ليس كثيرًا،" قال هو. أسرع للأمام، والصحيفة مطوية تحت ذراعه.

لماذا لم آخذ فى الاعتبار قط احتمال أنه يمكن أن يتخلى عن هويته كـ"محمد" تماما كما هرب من كونه "ناهيت"؟ وماذا عن هذا الاسم المحدد الذى استخدمه لاسمه المستعار الجديد؟ إذا كنت قد فكرت فى الأمر، هل كنت سأفكر فيه؟ لم أفكر فيه حتى. بقيت خلفه، منتظرًا أن يبتعد لمسافة بيننا. بذلت مجهودًا وأنا أتفحص جسده المشوق ذا الانحناءة الخفيفة. نعم، كان هذا هو الشخص الصحيح تمامًا. الشخص الذى وقعت جنان فى حبه بجنون. بدأت أتبعه. كان فى مدينة "فيران باچ" شوارع مصفوفة بالأشجار أكثر من أية مدينة صغيرة ذهبت إليها. كانت طريدتى تتحرك للأمام مباشرة؛ عندما وصل إلى عمود إضاءة، بدا أنه خطا بداخل منطقة رديئة الإضاءة؛ ثم، مقتربًا من شجرة زيزفون أو كستناء، كان يختفى فى قلب الظلام حيث أوراق الأشجار والرياح فى هياج. ذهبنا إلى ما بعد ميدان المدينة، بعد مسرح "العالم الجديد". مررنا بمساحة ضيقة من أضواء النيون التى تخص محل العجائن، مكتب البريد، صيدلية، مقهى التى تعكس بتتابع وهجًا أصفر شاحبًا، ثم برتقاليًا نوعًا ما، ثم أزرق، ثم أحمر على القميص الأبيض التى تلبسه طريدتى؛ والآن نحن ندخل حارة. عندما أصبحت واعيًا بالصورة التى بلا أخطاء التى تمثل صفًا من المنازل ذات الثلاثة طوابق، أضواء الشارع، والأشجار

التى تصدر حفيفًا، ارتعشتُ من إثارة المطاردة التى تخيلت أنها كانت الشىء المثير بالنسبة لـ"سركيسوف"، "زينث"، و"سيكو" وكل الذين من طرازهم، وبدأت أقترب بسرعة من قميص طريدتى الأبيض غير المميز ومعى الشىء الذى سينجز المهمة.

ثم انفتحت أبواب الجحيم،كان هناك صوت تحطم؛ كنت مجبرًا على التخفى فى الركن، خذلتنى شجاعتى للحظة، خائفًا من أن يكون أحد هؤلاء الجواسيس يتتبعنى، لكن كان الأمر مجرد نافذة أغلقتها الرياح، فتحطم زجاجها؛ تلفتت الطريدة حولها فى الظلام وتوقفت قصيرًا: افترضت أنه كان سيتقدم دون أن يرانى عندما- قبل أن أستطيع حتى أن أسحب صمام مسدس "والثر"- أخرج فجأة مفاتيحه، وفتح الباب، واختفى فى واحد من المنازل المصطفة، انتظرت فى الجوار حتى أضىء النور فى نافذة فى الطابق الثانى.

ثم فكرت فى الأمر فى نفسى، شاعرًا بالوحدة كليًا فى العالم مثل قاتل، أو قاتل مأجور، شارع متفرع من الشارع الذى استسلم باحترام لقواعد المستقبل، تمايلت أحرف النيون المتواضعة للخلف والأمام مع الرياح التى تخص حانة "إيست إن"، توعدنى بقليل من الصبر، بقليل من النصائح، بقليل من السلام، فراش،وليلة طويلة أفكر فيها فى حياتى، فى قرارى أن أصبح قاتلاً، وفى حبيبتى جنان، لم يكن هناك شىء أفعله حيال هذا إلا المضى قدمًا فيه، طلبت

غرفة بتليفزيون لمجرد أن الموظف تساءل إذا كنت أريد واحداً.

دخلت الغرفة وأدرت التليفزيون؛ عندما ظهرت الصورة الأبيض والأسود، قلت لنفسى لقد قمت باختيار موفق. فلن أقضى الليلة مع مهانة قاتل سيئ، لكنى سوف أكون بصحبة أصدقائى على شاشة التليفزيون الأبيض والأسود نمزح معًا بسعادة لأنهم قاموا بقتل أشخاص كثيرين جدًا لدرجة أنهم يعتبرون الأمر تافهًا، رفعت الصوت، شعرت بالارتياح عندما بدأ الرجال ذوو الأسلحة يصرخون فى بعضهم البعض، بدأت سيارات أمريكية الصنع تزيد من سرعتها، تتمايل فى منحنيات على الطريق؛ نظرت إلى العالم خارج نافذتى، أشاهد بهدوء أشجار الكستناء المتشابكة فى الرياح.

كنت فى لا مكان وفى كل مكان؛ ولهذا بدا لى أننى كنت فى مركز العالم غير الموجود. من نافذة غرفتى اللطيفة المنعزلة فى الفندق التى كانت تقع فى هذا المركز، استطعت رؤية أضواء غرفة الرجل الذى أريد قتله، لم أستطع رؤيته بالفعل، لكنى كنت راضيًا أنه كان هناك فى تلك اللحظة، وكنت أنا هنا لهذه الليلة؛ إلى جانب ذلك، كان أصدقائى فى التليفزيون قد بدءوا بالفعل فى رش بعضهم البعض بالرصاصات. بعد أن انطفأت الأنوار فى غرفة طريدتى بفترة قصيرة، غرقت أنا أيضًا فى النوم دون التفكير فى

معنى الحياة، الحب، والكتاب، لكنى استمعت إلى أصوات طلقات البنادق.

فى الصباح نهضت، استحممت، حلقت، وغادرت دون أن أغلق جهاز التليفزيون، الذى كان يتوقع سقوط الأمطار على كل البلاد، لم أقم بفحص مسدسى ولم أنظر لنفسى فى المرآة بغضب مثل رجل شاب ما يقنع نفسه بأن يقتل من أجل الحب وحب كتاب، من المؤكد أننى بدوت فى سترتى البنفسجية مثل طالب جامعى متفائل، يسافر من مدينة إلى أخرى خلال إجازته الصيفية، محاولاً بيع موسوعة العالم الجديد من باب إلى باب، طالب جامعى ينطبق عليه الوصف يتوقع أن يجرى محادثة طويلة عن الحياة والأدب مع محب للكتب صادفه فى الضواحى، ألن يفعل؟ لقد عرفت بالفعل فى وقت ما أننى لا أستطيع قتله مباشرة بدون تأجيل، صعدت مجموعة من سلالم واحدة، ضغطت الجرس، ترررررن! لكن لا، ماكينة كهربائية ما صدر منها صوت زقزقة، مقلدة طيور الكناريا، إن آخر الصيحات تصل بطريقة ما إلى مدن مثل "فيران باج"، والقتلة يجدون ضحاياهم حتى لو وصلوا إلى آخر الأرض، فى مواقف مثل هذه فى الأفلام، يتبع الضحايا سلوكًا يوحى بأنهم يعرفون كل شىء ويقولون، "عرفت أنك ستأتى". لكن لم يتم الأمر كذلك.

كان مندهشًا، لكنه لم يكن مندهشًا لدهشته لكنه اختبرها كشىء غير عادى تمامًا، كان لوجهه ملامح

جميلة، حسنًا، بالرغم من أنها لم تكن ذات معنى عميق كما تخيلت أنها ستكون فى هذه المناسبة، وكان حقًا - حسنًا، على كل حال - وسيمًا.

قلت: "عثمان، لقد جئت."

صمت

ثم هدأ كل منا نفسه، نظر إلىّ للحظة ثم نظر إلى الباب بإحراج، كما لو كان ليس لديه أية نية فى السماح لى بالدخول، وقال، "دعنا نخرج معًا."

لبس سترته ذات اللون البنى الشاحب التى لم تكن مضادة للرصاص، وخطونا معًا إلى الخارج فى الشارع والذى كان عذر لشارع، نظر إلينا كلب بغيض على الرصيف وطيور الحمام البرى على قمة شجرة كستناء أبق عليها الصمت. انظرى، جنان، لقد أصبحنا نحن الاثنين صديقين جيدين! كان أقصر منى قليلاً وكنت أفكر أنه يجب أن يكون هناك شىء فى طريقة مشيتى مماثل لطريقة مشيته، التى كانت أكثر الخصال وضوحًا بالنسبة لشباب مثلنا - بمعنى آخر، التقاء طريقة الأكتاف وهى تتحرك لأعلى ولأسفل وحركة الخطوات للأمام - عندما سألنى إذا كنت قد تناولت أى شىء كإفطار. هل أريد شيئًا لآكله؟ هناك مقهى عند المحطة. ما رأيك فى تناول بعض الشاى؟

قام بشراء اثنتين من الفطائر الشهية من المخبز، توقف عند البقال وابتاع ربع رطل من جبنة "كاسار" تم تقطيعها ولفها فى ورق شمعى. الآن كانت صور الملاك

على مدخل السيرك تجذب انتباهنا وتنادينا.. دخلنا المقهى، حيث طلب كوبين من الشاى؛ خطونا خارجين من الباب الخلفى إلى باحة خلفية بها حديقة تطل على المحطة وجلسنا، طيور الحمام البرى، التى تبنى أعشاشها على أشجار الكستناء أو على حواف الأسطح، ظلت تتنفس دون إعطائنا أى اهتمام، كان هواء الصباح البارد ناعماً، كان هناك صمت، وعلى مسافة كانت هناك موسيقى تنبعث من راديو و بالكاد كانت مسموعة.

"كل صباح قبل أن أبدأ العمل، آتى هنا وأتناول الشاى." قال ذلك بينما يفض غلاف الجبن. "هذا المكان جميل فى الربيع، وجميل أيضًا عند نزول الثلج. فى الصباح أحب مشاهدة الغربان وهى تمشى فى الجليد على الرصيف، والأشجار المغطاة بالثلج، المقهى الجميل الآخر هو "الموطن الأصلى" فى الميدان.مكان ذو حجم مناسب لديه موقد ضخم يبعث الكثير من الدفء الحرارة، كنت أقرأ صحيفتى هناك، أستمع إلى الراديو لو كان مفتوحًا، وأحيانًا كنت أجلس فقط، ولا أفعل شيئًا.

"حياتى منظمة، ومرتبة، ومنضبطة.... كل صباح أغادر المقهى قبل التاسعة وأعود إلى منضدة عملى. عند حلول الساعة التاسعة، أتناول قهوتى لأتهيأ لعمل جاد بالفعل، وأكتب، ما أفعله قد يبدو بسيطًا، لكنه يتطلب عناية فائقة، أظل أعيد كتابة الكتاب دون أن أنسى فصلة واحدة.. حرفًا واحدًا، أو نقطة. أريد كل

شيء أن يكون مطابقًا، حتى لآخر نقطة وفصلة، وهذا يمكن تحقيقه فقط من خلال الإلهام والرغبة المماثلين لرغبة وإلهام المؤلف الأصلي، شخص آخر قد يسمي ما أفعله نسخًا، لكن عملي يتجاوز فكرة التكرار البسيط. حينما أكتب أشعر وأفهم كل حرف، كل كلمة، كل جملة كما لو كانت كل واحدة هي اكتشافي غير المسبوق. هكذا، كيف أعمل بدأب من التاسعة صباحًا حتى الواحدة، لا أفعل شيئًا آخر، ولا شيء يستطيع منعي عن العمل. فأنا عمومًا أنجز عملاً أفضل في الصباح.

"ثم أخرج لتناول الغداء. هناك مطعمان في المدينة. مطعم "آسيم" يميل لأن يكون مزدحمًا، الطعام في مطعم السكة الحديد ثقيل والمكان يقدم كحوليات. أذهب إلى واحد أحيانًا، وإلى الآخر أحيانًا أخرى. وهناك أوقات أتناول فيها بعض الخبز والجبن في أحد المقاهي، وأحيانا لا أغادر المنزل على الإطلاق. لا أتناول أي شيء كحولي قط عند الظهيرة. قد أغفو قليلا في بعض الأوقات، ولكن هذا كل شيء. الشيء المهم هو أن أجلس لأعمل بحلول الساعة الثانية والنصف، أعمل بلا توقف حتى السادسة والنصف أو السابعة، إذا كان العمل يمضي جيدًا، فربما أظل أعمل لوقت أطول. إذا أحب المرء ما يكتبه وكان راضيًا بقدراته، فيجب ألا يفوت الفرصة ليكتب كل ما يستطيع، الحياة قصيرة، هكذا تكون الأشياء، وأنت تعرف الباقي، لا تدع شايك يبرد الآن.

"بعد يوم من العمل، انظر برضا إلى ما فعلته، وأخرج مجددًا، أحب الحديث مع شخص أو اثنين بينما أتصفح الجرائد أو أشاهد التليفزيون قليلاً. فهذا ضرورى بالنسبة لى لأنى أعيش بمفردى وأنوى أن أستمر فى العيش بنفس الطريقة، أحب مقابلة الناس، أدردش معهم، أستمع إلى بعض القصص، وربما حتى أقص واحدة. ثم أحيانا أذهب لمشاهدة الأفلام، أو أرى برنامجًا ما على التليفزيون؛ هناك بعض الأمسيات عندما ألعب الورق فى المقهى، وأحيانًا أخرى أعود إلى البيت مبكرًا، وأحضر الجرائد اليومية معى."

قلت: "كنت فى خيمة المسرح أمس."

"هؤلاء الناس ظهروا منذ حوالى شهر وبقوا. فبعض سكان المدينة لايزالون يذهبون لمشاهدتهم."

قلت: "المرأة التى هناك، تبدو مثل ملاك تقريبًا."

قال: "إنها ليست ملاك، فهى تنام مع الأشخاص المهمين بالمدينة، وأى جندى صغير يأتى ويدفع نقودًا. هل فهمت؟"

كان هناك صمت. التعبير "هل فهمت؟" أطاح بى من على الكرسى المريح للغضب الساخر حيث كنت مسترخيًا سكيرًا بعريدة ووضعنى على مقعد خشبى صلب غير مريح؛ حيث كنت أجلس بتوتر فى حديقة تطل على محطة القطار.

قال: "كل ما قيل فى الكتاب وراء ظهرى الآن."

قلت: "لكنك مازلت تكتب الكتاب طوال اليوم."

"أنا أفعل ذلك من أجل المال."

قال ذلك دون أن يبدو أنه يشعر بنصر أو بخجل، لكن أكثر منه كما لو كان يعتذر عن اضطراره لشرح الموقف، كان يكتب الكتاب مجددًا ومجددًا فى كراسات مدرسة عادية بخط اليد. وطالما أنه يعمل من ثمانى إلى عشر ساعات يوميًا فى المتوسط، وينجز بمعدل ثلاث صفحات فى الساعة، فلقد أتم طبعه بخط اليد لكتاب ذى ثلاثمائة صفحة خلال عشرة أيام، فهذا سهل. هناك أشخاص هنا يدفعون أجورًا معقولة لهذا النوع من العمل، مثل الأشخاص المعروفين فى المدينة، التقليديين، الناس الذين يحبونه، هؤلاء الذين يعجبون بجهوده، معتقداته، تكريسه لوقته، صبره، أو يشعرون بنوع من السعادة بأنه أحمق يصر على غبائه يعيش بسعادة فى وسطهم...... والأكثر من ذلك حقيقة أنه قد كرس حياته لمثل هذه الخطة المتواضعة خلقت حوله بدون قصد - ولقد قال هذا بتردد كبير - نوع ردىء من "أسطورة هشة". كانوا يحترمونه، مدركين وجهة النظر فى عمله - قال هو أيضًا "كيف سأعبر عن ذلك؟" - الذى كان مقدسًا.

شرح كل ذلك تحت إصرار منى ردًا على أسئلتى الاستجوابية؛ فعلى النقيض، لم يظهر أنه يستمتع بالحديث عن نفسه على الإطلاق. بعد الكلام عن

امتنانه لعملائه، النية الحسنة للمتحمسين الذين يشترون النسخ المكتوبة بخط اليد من الكتاب، والاحترام الذى يكنونه له، قال، " على كل حال، فأنا أسدى لهم خدمة. أوفر لهم شيئًا حقيقيًا، كتاب مكتوب بخط اليد كلمة بكلمة، مكتوب باقتناع، الجسد والروح. وهم يعوضوننى بأجور يومية عن عمل يوم. وفى المحصلة النهائية، تسير حياة كل شخص على نفس المنوال."

كنا صامتين. أثناء تناولى الفطائر الطازجة مع شرائح الجبن، فكرت أن حياته الآن قد استقرت؛ كانت حياته- ليكرر ما فى الكتاب- على نفس المسار. مثلى، بدأ رحلته على الطريق التى بدأت بالكتاب، لكن خلال بحثه، الرحلات والمغامرات مليئة بالموت، الحب، والكارثة، لقد حقق ما عجزت عنه؛ وجد الاتزان حيث تبقى الأشياء فى السر للأبد؛ اكتشف سلامه الداخلى، كنت أتناول قطعات حذرة من شريحة الجبن واستمتعت بآخر رشفة من الشاى فى قاع الكوب، عندما شعرت أنه يجب أن يكرر يوميًا الروتين الخاص بإيماءاته مشتملة على يديه، أصابعه، فمه، ذقنه، ورأسه، الهدوء الذى يأتى من الاتزان الذى اكتشفه ضمن له وقتًا لانهائى، لكن أنا- حشرى وغير سعيد- كنت أؤرجح ساقىّ تحت المائدة.

تفاقمت الغيرة بداخلى فورًا، الرغبة فى أن أرتكب شيئًا شريرًا، لكنى أصبحت واعيًا بشىء أكثر كرهًا.

إذا سحبت مسدسى وأطلقت الرصاص عليه فى حدقة عينه. فسأظل لم أؤثر فى هذا الرجل الذى وصل إلى سكون الزمن الأبدى من خلال الكتابة. سيظل فقط يتقدم فى طريقه - ولكن فى هيئة مختلفة- خلال الوقت الذى فى حالة ثبات تام. كانت روحى القلقة التى لا تعرف الراحة تكافح لتذهب إلى مكان أو آخر. مثل سائق حافلة نسى وجهته.

سألته عن أشياء كثيرة. كانت ردوده بـ"نعم"، "لا". "عادة" قصيرة جداً حتى أننى أدركت مع كل مثال أننى عرفت الإجابة بالفعل بنفسى. كان مسرورًا بحياته. ولا ينتظر أى شىء أكثر من هذا. كان مازال يحب الكتاب ويؤمن به. لم يكن يشعر بأى حقد تجاه أى شخص. فلقد فهم معنى الحياة. لكنه لا يستطيع أن يشرح ماهيته. فمن البديهى أنه تفاجأ لرؤيتى. لم يعتقد أنه يمكن أن يعلم أى شىء لأى شخص. فكل شخص يملك حياته الخاصة ووفقًا لكلامه- كل الحيوات لها صلاحية متساوية. فهو يحب العزلة. لكن ذلك فى حد ذاته لم يكن أساسيًا لأنه يحدث أن يستمتع بالصحبة كثيرًا. أيضًا. كان قد أحب جنان جداً. نعم. لقد وقع فى الحب معها. لكن فيما بعد نجح فى الهرب منها. لم يكن متفاجئًا أننى نجحت فى العثور عليه. كنت لآخذ تحياته العميقة لجنان. كانت الكتابة هى النشاط الوحيد لحياته. لكنها ليست مصدر سعادته الوحيد. عرف أن عليه أن يعمل مثل كل شخص آخر. فهو يستطيع الاستمتاع بفعل عمل

آخر. نعم، فإذا كان يوفر الرزق، فيستطيع القيام بأى نوع من العمل. النظر إلى العالم، كما يمكن أن نقول- فى الواقع رؤية العالم فى هيئته الحقيقية- أعطاه ابتهاجًا كبيرًا.

كان هناك قطار يدخل إلى المحطة. شاهداه. تبعته راسانا وهو يذهب بعيدًا ويصدر أصواتٍ، ليخرج دوائر هائلة من الدخان، قديمًا، متعبًا، لكنه مازال يعمل جيدًا، مصدرًا ضوضاء معدنية وأصوات صفير مثل فرقة موسيقية قروية مضجرة.

عندما اختفى القطار فى طريق مصفوف بأشجار اللوز، كان هناك حزن فى عينى الرجل الذى أخطط لوضع رصاصة فى قلبه بعد قليل على أمل العثور فى جنان على الهدوء الذى وجده فى إعادة كتابة الكتاب مرارًا وتكرارًا. تورطت للحظة فى روح الأخوة، كنت الاحظ أن الاستغراق الطفولى فى هاتين العينين عندما فهمت لماذا أحبت جنان هذا الرجل لهذه الدرجة. بدت ملاحظتى صحيحة وحقيقية للغاية حتى أننى احترمت جنان لكونها أحبته؛ لكن بعد ذلك بلحظات، ترك الشعور الثقيل بالاحترام المكان لشعور من الغيرة سقطتُ فيه كما لو كنت أسقط منحدرًا فى بئر.

ثم سأل القاتل ضحيته لماذا استقر على اسم "عثمان"- الذى كان اسم القاتل كذلك- فى الوقت الذى قرر أن ينضم للنسيان فى هذه المدينة الصغيرة

الغامضة. "لا أعرف". قال ذو الاسم المستعار عثمان دون ملاحظة سحب الغيرة في عيني عثمان الحقيقي؛ ثم مبتسمًا بلطف أضاف، "لقد أعجبت بك في الحال عندما قابلتك لأول مرة، ربما كان هذا السبب".

نظر بانتباه يقترب إلى حد التقدير والاحترام للقطار الذي يعود من مزرعة اللوز على قضبان مختلفة، يستطيع القاتل أن يقسم إن ضحيته- الذي كان منغمسًا في مراقبة القطار الذي يلمع بشدة في ضوء الشمس- قد أصبحت غير واعية كليًا بالعالم بأسره، لكن ليس تمامًا. تم استبدال نسيم الصباح البارد بقسوة يوم دافئ ومشمس.

قال عدوي: "لقد تجاوزت التاسعة، وقت الذهاب للعمل بالنسبة لي... إلى أين ستذهب؟"

عالمًا تمامًا ما كنت أفعل، قلقًا وسيئ الحظ لكن ليس بدون أفكار، توسلت لشخص ما بكل إخلاص للمرة الأولى في حياتي: أرجوك، ابق لفترة أطول؛ دعنا نتحدث أكثر؛ دعنا نعرف بعضنا البعض.

كان مندهشًا وربما متوترًا قليلاً، لكنه فهمني، ليس المسدس الذي في حزامي، ولكن عطشي، ابتسم بتسامح حتى أن الشعور بمنزلة متساوية الذي اعتقدتُ أن "الوالتر" أعطاه لي كان يتحطم إلى شظايا. كيف كان المسافر غير المحظوظ قادرًا على الوصول بسهولة إلى حدود مأساته بدلاً من الوصول إلى قلب الحياة قد سيطر عليه قلق كاف ليستجوب

السيد الحكيم عند هذا الحد عن معنى كل شيء من الحياة إلى الكتاب، الوقت، الكتابة، والملاك؟!

ظللت أستجوبه عن كل ما يعنيه هذا، وظل هو يسألني عما أعني بـ"كل هذا". هذا عندما سألته عما قد يكون السؤال المبدئي، لكي أوجهه له. وظل يخبرني أن عليَّ أن أكتشف هذا المكان الذي ليس له بداية ولا نهاية. وبعد ذلك، ربما لم يكن هناك حتى سؤال لأطرحه عليه. لا، لم يكن. إذًا ماذا كان هناك؟ ما الشخص الذي يعتمد على كيف ينظر إلى الأشياء. أحيانًا كان هناك هدوء يحاول المرء أن يسترجع منه شيئًا ما. أحيانًا أخرى يجلس المرء ويتناول الشاي ويجري محادثة شيقة على المقهى في الصباح، كما نفعل الآن، نشاهد المقطورة والقطار، ونستمع إلى هديل الحمام البري. ربما كانت هذه الأشياء ليست كل شيء، لكنها لم تكن- بالرغم من كل شيء- لا شيء. حسنًا، هل كان هناك مكان أبعد، مملكة جديدة نراها بعد كل هذا السفر؟ وإذا كان هناك مكان أبعد، فهو خلال النص؛ لكنه أكد أنه من غير المجدي البحث عما اكتشفه هو في النص من خارج النص، في الحياة الواقعية. فبالرغم من كل شيء، فالعالم على الأقل بلا حدود، متدفق، وغير مكتمل كالنص.

في هذه الحالة، لماذا تأثر كلانا بشدة بالكتاب؟ أخبرني أن هذا السؤال يمكن فقط لشخص لم يتأثر على الإطلاق بالكتاب أن يسأله. فالعالم مليء بمثل

هؤلاء البشر، ولكن هل أنا واحد منهم؟ لم أعد أعرف أى نوع من الأشخاص كنت. كنت شخصًا أنفق بتبذير وفقد أصل روحه على الطريق، محاولاً أن يجعل جنان تقع فى حبه، محاولاً تحديد مكان هذه المملكة، وقتل منافسه. لم أسأله عن ذلك- يا ملاكى- سألته عمن تكونين.

"أنا لم أصادف الملاك الذى تحدث عنه الكتاب قط". قال ذلك لى. "قد يكون الأمر أنك ترى الملاك فى لحظة الموت، فى نافذة حافلة ما".

كم كانت ابتسامته جميلة، غير رحيمة. كنت لأقتله. لكن لم يحن الوقت بعد. أولاً يجب أن أخرج منه كيف يمكن أن أجد وأستعيد النقطة المركزية لروحى الضائعة. لكن المأساة التى وقعت فيها لن تسمع لى البتة بأن أسأل الأسئلة المناسبة. الصباح العادى فى "أناتوليا الشرقية" التى قالت عنه النشرة الإذاعية الجوية إنه ملبد بالغيوم جزئيًا مع أمطار متفرقة، الضوء المبهر فى محطة القطار الهادئة، زوج من الدجاجات يتجول بلا وعى عند نهاية الرصيف، زوج من الشباب يتحدث ويحمل حقائب من المياه الغازية من على عربة يد إلى بار للوجبات الخفيفة فى المحطة، مدير المحطة الذى كان يدخن سيجارة _ كل هذه الأشياء ضغطت على اليوم الحالى أثناء ما كان يتقدم فى وعيى بالكامل حتى لم يعد هناك مكان متبق فى عقلى المشتت لكى يسأل سؤالا مناسبًا عن موضوع الحياة أو الكتاب.

كنا صامتين لوقت طويل. ظللت أتساءل أى سؤال سأوجهه له. وربما كان هو يتساءل كيف سيتهرب منى ومن أسئلتى، بقينا برهة أخرى. الآن، حانت لحظة الاستنتاج أن تظهر، دفع ثمن الشاى، وألقى بذراعيه حولى وقبلنى على وجنتىّ. كم كان مسرورًا أنه رآنى! كم كرهته! حسنًا، لا. أنا أحبه. لكن لماذا يجب علىّ أن أحبه؟ فأنا أنوى قتله.

لكن ليس بعد. كان سيمر على خيمة العرض فى طريق البيت إلى الحجرة حيث يؤدى محمده المخبولة. فى عش الفأر فى الشارع الذى استسلم لأوامر وهدوء قواعد وجهة النظر، كنت سآخذ الطريق المختصر مع مسار الطريق الحديدى وألحق به، وأقتله تحت عين ملاك الرغبة التى قام بتحقيرها.

تركت الوغد الراضى عن نفسه يرحل، شعرت بالغضب من جنان لأنها جعلت نفسها تحبه. لكن بمجرد النظر إلى ظله البائس الحساس على مسافة كان كافيًا لأعرف أن جنان كانت على حق. كم كان عثمان هذا غير حازم، البطل الرئيسى للكتاب الذى تقرؤه! وكم كان هذا مثيرًا للشفقة! أنه عرف فى أعماق نفسه أن الرجل الذى يريد أن يكرهه كان "محقًا". عرف أيضًا أنه لن يستطيع أن يرغم نفسه على قتله بعد. جلست مستمرًا فى الحزن لساعتين على كرسى المقهى المهترئ، أؤرجح ساقىّ، أفكر فى ماهية المكائد الأخرى التى قد يكون العم رفقى وضعها لى فى بقية حياتى.

حول الظهيرة رجعت- وأنا محبط- إلى فندق "إيس إن"، باحثًا عن كل العالم مثل قاتل محتمل. كان الموظف مسرورًا بشكل كاف بالضيف من اسطنبول الذى سيقضى ليلة إضافية ليعرض عليه شايًا. لذلك استمعت لذكريات خدمته العسكرية لوقت طويل للغاية لأننى كنت خائفًا من الوحدة فى غرفتى؛ عندما تحول الموضوع إلىّ، كنت سعيدًا بإخباره بأن عندى "حسابًا لأصفيه" لكنى لم أستطع "إتمام المهمة بعد".

بمجرد أن خطوت داخل الغرفة، أدرت التليفزيون، الذى كان قد أُغلق، على الشاشة الأبيض والأسود. كان هناك ظل يمشى بجانب حائط أبيض، موجهًا بندقية، وعند وصوله للزاوية، أفرغ خزانة الرصاص فى الهدف. تساءلت إذا ما كنت أنا وجنان لم نر النسخة الملونة لنفس المشهد على متن حافلة ما. جلست على حافة الفراش، أنتظر بصبر لأرى بقية مشاهد القتل. الآن، وجدت نفسى أحدق خارج نافذتى فى نافذته. ها هو هناك يكتب. بالرغم من أننى لم أستطع أن أستوضح تمامًا إذا كان الظل الذى رأيته كان هو حقًا، ولكن ها هو يجلس فى سلام فقط ليشعرنى بالحزن. جلست وشردت فى مشاهدة التليفزيون لفترة، لكن عندما نهضت كنت قد نسيت بالفعل ما هذا الذى رأيته. ثم وجدت نفسى أنظر إلى نافذته ثانية، كان قد وصل إلى نقطة الثبات عند نهاية الطريق. وكنت أنا عالقًا وسط ظلال من الأبيض والأسود يطلقون النيران على بعضهم البعض. كان قد

وصل وعبر إلى الناحية الأخرى؛ كان يملك حكمة الحياة الجديدة التى كانت تختفى من عندى؛ ولم أعد أملك شيئًا إلا الأمل الغامض بأننى قد أمتلك جنان.

لماذا لا تعرض لنا هذه الأفلام قط كم أن هؤلاء القتلة أسفون ومثيرون للشفقة، يتخبطون فى متاهاتهم فى غرفة فندق ما؟ لو كنت أنا المخرج، لكنت عرضت أغطية الفراش غير المرتبة، طلاء إطار النافذة المتساقط، الستائر المتهالكة، القميص المتسخ المجعد الذى يرتديه الرجل الذى يدرس ليصبح قاتلاً، دواخل جيوب سترته البنفسجية الذى كان يخرقها باستمرار، الطريقة التى يجلس بها على حافة الفراش وظهره منحن، متسائلاً هل يثير نفسه ليمضى الوقت.

لفترة معقولة بدأت مناقشات مفتوحة مع الأصوات الكثيرة فى رأسى حول المواضيع التالية: لماذا تقع النساء الرقيقات والجميلات دومًا فى حب رجال متواضعين يعيشون حياة خرجت عن نطاقها الطبيعى؟ إذا نجحت فى أن أصبح قاتلاً وإذا أمكن لآثار القتل أن تكون دائمًا مقروءة فى عينى لبقية حياتى، هل سأملك مظهر رجل بائس، رجل حزين؟ هل يمكن لجنان أن تحبنى حقيقة أبدًا، حتى لو كان بمقدار نصف ما شعرت به تجاه الرجل الذى سوف أقتل؟ هل يمكننى أن أفعل ما فعله "ناهيت- محمد- عثمان"، أكرس نفسى كليًا لكتابة كتاب العم رفقى مرارًا وتكرارًا فى كراسات دراسية؟

بمجرد اختفاء الشمس وراء الشارع فى الأفق، حلت برودة المساء وبدأت الظلال الطويلة فى التجول فى الشوارع بخبث مثل قطة، بدأت أراقب نافذته بدون توقف، لم أستطع رؤيته، لكنى اعتقدت أننى أفعل، ركزت نظراتى على النافذة والحجرة التى وراءها دون أن أعير أدنى اهتمام للشخص الذى يأتى من حين لآخر فى الشارع، محاولاً أن أصدق أننى أستطيع حقًا أن أرى شخصًا هناك.

لا أعلم كم من الوقت استمر الوضع، لم يكن الظلام الدامس قد حل بعد ولم يكن ضوء حجرته قد أضيء بعد، عندما وجدت نفسى فى الشارع تحت نافذته، أنادى عليه. ظهر شخص من النافذة المتوارية واختفى فى حينها عند رؤيتى، دخلت إلى المبنى، صعدت الدرج بغضب: فتح الباب دون أن أضطر إلى جعل الجرس يزقزق؛ لكن للحظة لم أستطع رؤيته هناك.

دخلت الشقة، كان هناك قماش أخضر منشور على المائدة، رأيت عليه كراسة مفتوحة، والكتاب، أقلام رصاص، محايات، علبة سجائر، أعقاب سجائر، ساعة بجانب المنفضدة، أعواد ثقاب، كوب من القهوة التى أصبحت باردة، هناك، كانت أدوات التجارة التى تخص شخصًا مثيرًا للشفقة حكم عليه بالكتابة لبقية حياته.

خرج من مكان ما داخل الشقة، بدأت أقرأ ما كتبه لأنى كنت غير راغب فى النظر إلى وجهه. قال: "أحيانًا أنسى فصلة، أو أكتب حرفًا أو كلمة خطأ. وحينها أدرك أننى أكتب دون اقتناع أو إحساس، فأتوقف، والعودة للعمل بنفس التركيز أحيانًا ما تستغرق ساعات، وحتى أيام. أنتظر بصبر الإلهام أن يأتى لأننى لا أرغب فى كتابة كلمة واحدة لا أشعر بقوتها داخلى".

"استمع إلىّ"، قلت ببرود، كما لو كنت أتكلم عن شخص آخر بدلاً منى. "أنا لا أستطيع أن أكون نفسى. لا أستطيع أن أكون أى شىء. ساعدنى، ساعدنى فى أن أخرج هذه الحجرة، الكتاب، وما تكتبه أنت من عقلى، وبذلك يمكنى أن أعود إلى حياتى القديمة فى سلام".

مثل شخص ناضج ألقى نظرة خاطفة على ماهية العالم والحياة، قال إنه يعرف ماذا أعنى، أفترض أنه اعتقد أنه فهم كل شىء. لماذا لم أطلق النار عليه ببساطة هنا وهناك؟ حسنًا، لأنه قال، "فلنذهب إلى مطعم السكة الحديدية".

عندما جلسنا فى المطعم، أخبرنى أن هناك قطارًا عند التاسعة إلا الربع. بعد أن أغادر، سوف يذهب ليشاهد فيلمًا. هكذا قرر بالفعل أن يرسلنى لأحزم حقائبى.

قال: "عندما قابلت جنان، كنت قد فقدت الأمل بالفعل فى الاقتناع بالكتاب. مثل كل شخص آخر، أردت حياة، لكن يجب علىّ امتلاك كتب أكثر من أى شخص آخر. إلى جانب أن، كل ما مررت به وأنا على أمل أن أجد العالم الذى فتحه الكتاب أمامى أمدنى بمميزات إضافية، لكن جنان أشغلتنى، وعدتنى بأنها ستكشف لى الحياة، كانت مقتنعة بوجود الحقيقة التى أخفيتها أنا عنها، ولم أخبرها بالرغم من أننى عرفت أنها فى مكان ما ورائى، أو وراء إدراكى. طلبت مفتاح هذه الحديقة باقتناع حتى أنها أجبرتنى على الكلام عن الكتاب وأخيرًا أعطيتها إياه. قرأت الكتاب، وقرأته مرة أخرى، وأخرى. قامت بإغوائى بواسطة تكريسها لنفسها للكتاب، برغبتها المؤثرة للعالم الذى أدركته بداخل الكتاب. كنت غير واعٍ بالهدوء الذى فى الكتاب أو - كيف أعبر عن هذا؟ - الموسيقى الداخلية للنص، كما فى الأيام عندما قرأت الكتاب لأول مرة، كنت محملاً بغباء بالأمل فى سماع الموسيقى فى الشوارع، أو فى مكان ما بعيدًا، أو فى أى مكان فى العالم يصادف أن تكون، إعطاء الكتاب إلى شخص آخر كانت فكرتها حين ذاك، كنت خائفًا من كم السرعة التى قرأت بها الكتاب وشعرت به، كنت على وشك نسيان طبيعة الكتاب عندما - حمدًا لله - أطلقوا الرصاص علىّ".

سألته بديهيًا ما طبيعة الكتاب التى فكر بها.

قال: "الكتاب الجيد هوشىء يذكرنا بالعالم بأسره، ربما هكذا كيف كان كل كتاب، أو هكذا يجب أن يكون كل كتاب." توقف عن الكلام. "الكتاب هو جزء من شىء ما الذى شعرت بوجوده ومدته من خلال ما يقوله الكتاب، دون أن يكون موجودًا فى الكتاب." قال ذلك، لكنى استطعت أن أرى أنه لم يكن سعيدًا بالطريقة التى عبر بها. "ربما كان شيئًا قد تم لأخذه من هدوء (ثبات) أو ضجة العالم، لكنه ليس الهدوء أو الضجة فى حد ذاتها." ثم قال إننى قد أعتقد أن ما يقوله هراء، لذلك سيحاول أن يعبر عنه بكلمات أخرى. "الكتاب الجيد هو قطعة من الكتابة تلمّح بالأشياء غير الموجودة، نوع من الغياب، أو الموت... لكن من غير المجدى أن تبحث خارج الكتاب عن مملكة تقع وراء الكلمات." قال إنه أدرك ذلك بينما يكتب ويعيد كتابة الكتاب، حتى أنه تعلمه وتعلمه جيدًا، كان غير ذات نفع أن تبحث عن الحياة الجديدة والمملكة الجديدة وراء النص. فهو يستحق بالكامل أن يُعاقب على فعله ذلك فقط. قال: "لكن اتضح أن قاتلى كان أخرق، فقد جرحنى فى كتفى فقط."

قلت له إننى كنت أشاهده من نافذة فى قاعة "تاسكيسلا" عندما أُطلق عليه الرصاص فى باحة محطة "الميتى باص".

قال: كل أسفارى، رحلاتى، رحلات الحافلات أرتنى أن نوعًا ما من الحبكة (الخطة) وضعت ضد

الكتاب، رجل مجنون يريد أى شخص لديه اهتمام جاد بالكتاب قتيلاً. من هو ولماذا يفعل ذلك، لا أعرف ببساطة. كان الأمر كما لو أنه يفعل ذلك ليقوى عزمى بألا أتحدث عن موضوع الكتاب لأى شخص آخر. أنا لا أريد أن أجلب اللعنة لأى شخص، أو أن أتسبب فى أن تخرج حياة أى شخص عن مسارها، هربت من جنان، لم أعرف فقط أننا لن نجد المملكة التى نتمناها قط، ولكنى فهمت جيداً أنها قد تمس بأذى وهى معى من وهج الموت الذى يشع من الكتاب."

أتيت على ذكر العم رفقى لأفاجئه وآخذه على حين غرة للحظة، لكى أخرج منه المعلومات التى يخفيها عنى. قلت إن هذا الرجل قد يكون المؤلف، ذكرت أننى كنت أعرفه فى طفولتى عندما اعتدت أن أقرأ بجنون قصصه المصورة الخيالية. بعد أن قرأت الكتاب، تفحصت بدقة هذه القصص مرة أخرى، على سبيل المثال، "برتق وبيتر"، حيث رأيت أن كثيرًا من الموضوعات قد تم نشرها بالفعل.

"هل كان هذا محبطًا بالنسبة لك؟"

قلت "لا، حدثنى عن مقابلتك له."

عندما أخبرنى أكمل بطريقة منطقية المعلومات المتوافرة فى تقارير "سركيسوف". بعد أن قرأ الكتاب لآلاف المرات، بدا أنه تذكر شيئًا بذكره بقصص الأطفال المصورة التى قرأها، قام بتحديد مكان هذه القصص فى المكتبات، ووضع يده على التشابهات

المدهشة، واكتشف هوية المؤلف، لم يكن قادرًا على التحدث مع العم رفقى كثيرًا فى أول مرة. بعد أن بادرتنى زوجته، أثناء المقابلة التى حدثت فى المدخل، حاول "رفقى راى" أن يغلق الموضوع بمجرد أن أدرك أن الشاب الغريب الذى يقف على بابه كان مهتمًا بالكتاب، ردًا على توسلات محمد بقوله إنه لم يعد لديه عن نفسه أى اهتمام بالموضوع، كان من الممكن أن تتم مقابلة مؤثرة عند الباب هناك بين المعجب الشاب والكاتب العجوز، ولكن زوجة "رفقى راى" - التى هى العمة راتيب، أعطيت أنا ملاحظة بذلك - تدخلت، كما فعلت أنا لتوى الآن، وسحبت زوجها للداخل، وهى تغلق الباب بشدة فى وجه هذا الضيف غير المدعو الذى كان من المعجبين.

"كنت محبطًا للغاية، ولم أستطع تصديق ما حدث." قال خصمى الذى لم أستطع أن أقرر هل أدعوه ناهيت، أو محمد، أم عثمان. "لفترة ظللت أذهب رجوعًا إلى المنطقة وأتجسس عليه من مسافة. ثم فى نفس اليوم استجمعت شجاعتى ثانية ورننت جرس الباب."

هذه المرة استجاب "رفقى راى" له بإيجابية أكثر. قال إنه مازال لا يملك أى اهتمام أكثر بالكتاب، لكن الشاب المصر قد يبقى ويتناول بعض القهوة، تساءل من أين حصل الشاب على الكتاب الذى نُشر منذ سنوات عديدة مضت، وأراد معرفة لماذا اختار هذا الكتاب بينما هناك كتب كثيرة رائعة ليقرأها؛ أى

مدرسة يذهب إليها الشاب، وماذا يريد أن يفعل في حياته، إلخ...إلخ. "بالرغم من أنني طلبت مرات عديدة أن يكشف لي أسرار الكتاب، فلم يكن يأخذ كلامي على محمل الجد"، قال محمد. كان محقًا. على أي حال، الآن أعرف أنه لم يكن لديه سر ليكشفه."

لقد أصر لأنه لم يكن يفهم هذا حين ذاك. قام الرجل العجوز بشرح أنه تورط في مشكلة عميقة بسبب الكتاب، تم الضغط عليه من قبل البوليس ووكيل النيابة. "حدث كل هذا فقط لأنني اعتقدت أنه من الممكن أن أمد بعض البالغين ببعض اللهو والإمتاع كما أقوم بتسلية وإمتاع الأطفال". قال ذلك، ولو كان هذا ليس كافيًا، استمر العم رفقي ليقول: "لم أستطع بالتأكيد أن أدع حياتي بأكملها تتدمر من أجل كتاب كتبته لأسلي نفسي". لم يدرك ناهيت في غمرة غضبه حينها كم أصبح الرجل العجوز حزينًا للغاية عندما شرح أنه تنكر للكتاب ووعد وكيل النيابة أنه لن يطبع طبعة أخرى من الكتاب ولن يكتب قط أي شيء آخر على نفس المنوال؛ لكن الآن، عندما لم يعد ولا ناهيت ولا محمد، ولكن عثمان، فهم جيدًا حزن الرجل العجوز حتى أنه يشعر بالحرج كلما تذكر وقاحته.

كما قد ينتهي الأمر بأي شاب صغير على ارتباط بالكتاب بإيمان عميق، قام باتهام الكاتب العجوز بعدم تحمل المسئولية، تغيير الرأي، الخيانة، والجبن. كنت

أرتجف من الغضب، أصرخ فى وجهه وأهينه. لكنه كان متفهمًا ومتسامحًا.' عند نقطة معينة، قام العم رفقى أيضًا على قدميه وقال، 'ستفهم الأمر يومًا ما، لكنك قد تكون مسنًا جدًا حينها لتكون صالحا لأى غرض.' 'لقد فهمت الأمر.' قال الرجل الذى تحبه جنان بجنون. 'لكنى لا أستطيع القول إذا كنت ذات نفع أم لا. إلى جانب ذلك أعتقد أن الأشخاص الذين قتلوا الرجل العجوز كانوا من أتباع الرجل المجنون الذى كان يتتبعنى.'

سأل القاتل المحتمل الضحية المحتملة إذا كان التسبب فى قتل شخص هو حمل ثقيل بالنسبة له لأن يحمله لبقية حياته، لم يقل الضحية المحتملة شيئًا، لكن القاتل المحتمل رأى الحزن فى عينيه وخاف على مستقبله هو، كانا يشربان الراكى بوتيرة بطيئة مثل زوج من الرجال المحترمين؛ ووسط صور القطارات، مشاهد من أرض الوطن، وصور فوتوغرافية لنجوم الأفلام، صورة لوجه 'أتاتورك' كان يبتسم بثقة أنه قام بحماية الجمهورية بتركها فى رعاية الحشد السكران فى هذه الحانة.

نظرت لساعتى، كان هناك ساعة وربع الساعة قبل موعد الرحيل طبقًا لجدول مواعيد القطار الذى يريد أن يشحننى عليه، وكان هناك شعور بيننا بأننا نجحنا فى الحديث عن الأمور أكثر من اللازم؛ كما يقال فى الكتب، 'كل ما يجب أن يقال قد قيل'. ظللنا صامتين

لفترة مثل اثنين من الأصدقاء القدامى اللذين لا يزعجهما الصمت الذى يطبق عليهما. شاعران أنه قد يكون فارغًا؛ على النقيض، اعتبرنا الصمت - على الأقل فى اعتقادى الشخصى - الشكل الأكثر تعبيرًا للمحادثة.

على الرغم من ذلك، كنت أتأرجح بين الإعجاب به بدرجة كافية لأتطلع إليه والرغبة فى القضاء عليه لكى أملك جنان. فكرت للحظة أن أخبره أن الرجل المجنون الذى أراد المؤلف وقراء الكتاب قتله لم يكن سوى والده، دكشور فابين. أردت أن أغرس هذا الألم فيه، فقط لأنني أشعر بالحزن. هذا كل شيء. لكنى لم أخبره. حسنًا، حسنًا، فكرت فى نفسى: أنت لا تعرف أبدًا. بالطبع: لا تفسد عليه خطته.

من المؤكد كانت لديه فكرة بسيطة عن أفكارى، أو على الأقل التقط نوعًا من صدى الموت الغامض عن أفكارى، لذلك حكى لى قصة الحافلة التى قادته إلى نقض الرجـال الذين أرسلهم أبوه وراءه من حـولـه. أضاء وجهه للمرة الأولى، عرف على الفور أن الشاب الجالس بجواره فى الحافلة المغطاة بالحبر قد مات فى الحادثة، التقط بطاقة هوية هذا الشاب من جيبه والذى كان اسمه محمد وقام باستخدامها، عندما بدأت الحافلة فى الاشتعال. كان قد خرج، بعد أن خمدت النيران، جاءته فكرة نيرة، دس بطاقة هويته فى جيب الجسد المحترق، وقام بتحريكه إلى مقعده

هو، وانسحب بعيداً وذهب لحياته الجديدة. التمعت عيناه مثل عيني طفل عندما كان يخبرني بكل هذا! ولكني- بديهيًا- احتفظت لنفسي بمعلومة أنني رأيت نفس الوجه الفرح الآن كما في صور طفولته التي رأيتها في المتحف الذي أهداه والده إلى ذكراه.

صمت مرة أخرى، صمت، وتبعه صمت، أيها النادل، أحضر لنا بعض الباذنجان المحشي.

فقط لمجرد تمضية الوقت، أنت تعرف، لمجرد التسلية، دخلنا في تعميم موضوع موقفنا- بكلمات أخرى- حياتنا، عينه على ساعته، عيني على عينه، معبرًا بين الحين والآخر عن هذا النوع من الأشياء: حسنًا، الحياة كانت كذلك. في الواقع، كل شيء كان بسيطًا تمامًا، رجل عجوز متطرف كتب لمجلة السكة الحديدية وكان يحتقر السفر بالحافلة وحوادث الحافلات قام بكتابة كتاب من نوع ما، جاءه الإلهام من قصص الأطفال المصورة التي كتبها بنفسه. ثم، بعد عدة سنوات، رجال شبان متفائلون مثلنا قاموا بقراءة هذه القصص في طفولتهم حدث أن قرءوا الكتاب، وصدقنا أن حياتنا بأكملها قد انقلبت رأسًا على عقب، انحرفنا عن مسار حياتنا، السحر في هذا الكتاب! معجزة الحياة! كيف حدث هذا؟

ذكرت مرة أخرى أنني عرفت رجل السكك الحديدية "العم رفقي" في طفولتي.

قال: "يبدو سماع ذلك غريبًا، بطريقة ما."

لكننا عرفنا أنه لا يوجد شىء غريب، كل شىء كان مثل ذلك، وهكذا كان كل شىء.

قال رفيقى العزيز: "إن الأمر أكثر من ذلك فى مدينة "فيران باغ".

من المؤكد أن هذا نشط ذاكرتى. قلت، متعمدًا وأنا أضغط على كل مقطع وأحدق فى وجهه، "أوقات كثيرة كنت تحت تأثير انطباع أن الكتاب كان عنى. أن القصة كانت قصتى."

الصمت. صخب الموت لروح تحتضر. حانة، مدينة، عالم، صوت السكاكين والشوك، أخبار المساء على التليفزيون. خمس وعشرون دقيقة أخرى.

قلت مرة أخرى: "أنت تعرف، لقد صادفت حلوى كرامل "حياة جديدة" فى أماكن كثيرة أثناء إقامتى فى "أناتوليا". منذ سنوات عديدة، كانت متوفرة فى اسطنبول أيضًا. لكنها لاتزال هناك فى الأماكن البعيدة، فى قاع الصناديق وبرطمانات الحلوى."

"أنت بالفعل وراء السبب الأصلى، أليس كذلك؟" قال غريمى، الذى أخذ كفايته من المشاهد من الحياة الأخرى. "أنت تبحث عن الأشياء النقية، غير الفاسدة، والواضحة. لكن ليس هناك محرك رئيسى للأحداث. فمن غير المجدى أن تبحث عن المفتاح، الكلمة، المصدر، الأصل الذى نحن كلنا مجرد نسخ منه."

لذلك لم يعد السبب أننى أردت امتلاك جنان، لكن لأنه لم يكن يؤمن بك- يا ملاكى- حتى أننى فى طريقى إلى المحطة فكرت بعمق فى إطلاق النار عليه.

لمبرر ما قام بكسر فترات الصمت المشروخة بقول بعض الأشياء، لكنى لم أستطع حتى أن أعطى انتباهى الكامل لهذا الرجل البائس البهى الطلعة.

"عندما كنت طفلاً، بدت القراءة كمستقبل مهنى بالنسبة لى التى قد يمتهنها الواحد يومًا ما فى المستقبل سويًا مع المهن الأخرى.

"عرف "روسو"-الذى عمل كناقل للموسيقى- ماذا يعنى أن تكتب مرات ومرات ما أبدعه الناس الآخرون".

الآن، ليس فقط لحظات الصمت ولكن كل شىء آخر بدا مشروخًا أيضًا، قام شخص بإغلاق التليفزيون وأدار الراديو على أغنية حزينة بشدة عن لوعة الحب والفراق. كم مرة فى حياة الفرد يعطى الصمت المتبادل مثل هذا السرور؟ كان قد سأل لتوه على الفاتورة عندما أسقط ضيفًا غير مدعو فى منتصف العمر نفسه على مائدتنا وتطلع إلىّ. عندما فهم أننى صديق عثمان من الجيش "عثمان"، قال: "نحن مغرمون بعثمان كثيرًا"، محاولاً أن يجرى محادثة. "إذًا كنتما رفيقين فى الجيش؟" ثم بحذر، كما لو كان يكشف سرًا، ذكر اسم زبون ظهر ليحصل على نسخة بخط اليد من الكتاب. عندما أدركت أن

صاحبى الذكى يدفع عمولة لوسطاء مثل هذا الشخص مرة أخرى. للمرة الأخيرة- أدرك أنه كان من المحتم عليك أن تحبى هذا الرجل.

افترضت أن مشهد الفراق- بمنأى عن طلقة مسدسى "والثر"- سيكون مماثلاً لخطوط النهاية فى "برتف وبيتر"، ولكن اتضح أننى مخطئ. فى هذه المغامرة الأخيرة، عندما خاض الصديقان المقربان الكثير من المعارك معًا أدركا أنهما وقعا فى حب نفس الفتاة وبنفس الهدف. جلسا سويًا وقاما بحل المشكلة بود. "برتف"- الأكثر حساسية وصمتًا- يعرف أن الفتاة ستكون أكثر سعادة مع بيتر الذى يتمتع بطبيعة متفائلة ومنفتحة، لذلك قام بتسليم الفتاة بهدوء لبيتر؛ ويفارق الأبطال بعضهم البعض عند محطة القطار حيث قاموا بالاحتماء بها ذات مرة ببسالة، مصحوبًا بشهقات من القراء ذوى العيون الدامعة مثلى. فى حالتنا، لدينا عميل مولع بالأدب يجلس بيننا والذى لم يعط أى اهتمام للمشاعر المتدفقة للحساسية أو للغضب.

معًا، مشى ثلاثتنا إلى المحطة. اشتريت تذكرة، اشتريت اثنين من الفطائر اللذيذة مثل التى تناولناها فى الصباح. جعلهم "برتف" يزنون لى كيلو من العنب الأبيض الكبير الذى تشتهر به "فيران باج". بينما اخترت بعض المجلات الهزلية، ذهب هو إلى دورة المياه ليغسل العنب. حدق كل من العميل وأنا فى

بعضنا البعض، يأخذ القطار يومين ليصل إلى اسطنبول. عندما عاد "برتف"، أشار مدير المحطة بإشارة البدء بإيماءة حازمة ولكن رشيقة ذكرتني بأبي. تبادلنا القبلات على وجنات بعضنا البعض ثم افترقنا.

كانت بقية الأحداث تشبه أحداث التشويق فى أفلام الفيديو التى كانت جنان تحب مشاهدتها على متن الحافلة، أكثر مما تشبه قصص العم رفقى المصورة. الرجل الشاب المعتوه الذى رتب ذهنه ليقتل من أجل الحب طوح بالكيس البلاستيكى الملىء بالعنب المبتل والمجلات إلى ركن فى عربة القطار، وقبل أن يستجمع القطار سرعته، انساب خارجًا من العربة على أبعد جانب من الرصيف. بعد أن تأكد أنه لم يلاحظه أحد، يبقى على بعد ويراقب بعيون الصقر ضحيته والسيد الذى يأخذ عمولة ١٠٪. تحدث الاثنان لفترة ثم تسكعا معًا خلال الشوارع الحزينة والمهجورة قبل أن يفارقا بعضهما البعض أمام مكتب البريد. يراقب القاتل ضحيته وهى تدخل إلى مسرح "العالم الجديد"، ويشعل سيجارة. نحن لا نعرف قط فيما يفكر القاتل فى هذا النوع من الأفلام، لكننا نشاهده وهو يلقى سيجارته أرضًا بعد أن ينتهى من تدخينها - كما فعلت لتوى - ويدوس على عقب السيجارة، يشترى تذكرة للعرض المسمى بـ"ليالى بلا نهاية"، ويسير إلى داخل المسرح بخطوات بدت واثقة.

لكن قبل أن يدخل القاعة، تراه يتفحص الحمام، ويتأكد أن لديه مخرجًا للهرب.

بقية الأحداث كانت منشرخة مثل لحظات الصمت التى تصاحب الليل، سحبت مسدسى، حررت صمام الأمان، ودخلت قاعة المسرح حيث كان يعرض الفيلم. كان المكان حارًا ورطبًا، وكان السقف منخفضًا، ظهر ظلى حاملا المسدس على الشاشة وانعكس الفيلم الملون "تكنى كلر" على سترتى البنفسجية، انعكس الضوء القادم من آلة العرض السينمائى على عينىّ، لكن المقاعد كانت فارغة إلى حد ما، لذلك حددت مكان ضحيتى على الفور.

ربما كان مندهشًا، ربما لم يفهم، ربما لم يتعرف علىّ، ربما توقع ذلك، لكنه ظل جالسًا.

"تجد شخصًا على شاكلتى، تعطيه الكتاب وتتأكد أنه سيقرؤه، تتسبب فى أن يخرج عن مسار حياته". قلت ذلك، لكن لنفسى أكثر منه له.

لكى أتأكد تمامًا أننى أصبته، أطلقت الرصاص ثلاث مرات من نقطة قريبة فى صدره ووجهه الذى لم أستطع أن أراه. بعد صوت طلقة الـ"والثر"، أعلنت للمتفرجين الجالسين فى الظلام، "لقد قتلت رجلا".

بينما كنت أخرج من هناك، ظللت أشاهد ظلى على الشاشة وفيلم " ليالى بلا نهاية "يُعرض حوله، ظل شخص يصيح، "مشغل آلة العرض، مشغل آلة العرض".

ركبت على متن أول حافلة تغادر المدينة، حيث فكرت في كثير من الأسئلة حول الحياة والموت. تساءلت أيضًا لماذا في لغتنا نفس الكلمة المستعارة من الفرنسية، "ماكينيست"، تطلق على كل من الشخص الذي يشغل الأفلام والشخص الذي يشغل محركات السكك الحديدية؟

الفصل الرابع عشر

غيرت الحافلة مرتين، قاضيًا ليلة الاغتيال بلا نوم، ثم ألقيت نظرة خاطفة على نفسى فى المرآة المليئة بالشروخ فى دورة مياه فى استراحة ما، لن يصدقنى أحد لو قلت إن الشخص الذى رأيته فى المرآة يشبه شبح الشخص المقتول أكثر من الشخص القاتل، لكن السلام الداخلى الذى وجده الشخص الميت فى الكتابة كان بعيدًا حقًا عن الشخص الذى فى دورة المياه، الشخص الذى ركب فيما بعد بلا راحة، محمولاً على طول الطريق على مجلات الحافلة.

فى الصباح الباكر قبل الرجوع لبيت دكتور فاين ذهبت إلى حلاق المدينة وحلق الحلاق شعرى وذقنى، كى أقدم نفسى لجنان فى هيئة الشاب الجسور وحسن النية الذى من أجل بناء عش الأسرة السعيدة خاض بنجاح خلال تجربة مريرة، وأصبح وجهًا لوجه مع الموت، عندما وضعت قدمى على أملاك دكتور فاين ورأيت نوافذ المنزل، فكرة أن جنان تنتظرنى فى فراشها الدافئ جعلت قلبى يخفق، دوم - دوم، وطفق عصفور دورى يزقزق على شجرة الدُلب لفترة طويلة فى تناغم.

فتحت روزباد الباب، لم ألاحظ المفاجأة على وجهها، ربما لأنى منذ نصف يوم فقط قمت بقتل أخيها أثناء مشاهدة فيلم. ربما لهذا السبب لم ألحظها وهى ترفع حاجبيها المتوترين، لماذا كنت بالكاد أستمع لما كانت تقوله؛ بدلا من ذلك، كما لو كنت فى بيت والدى شخصيًا، مشيت مباشرة لحجرتنا، الحجرة حيث تركت جنان على فراش المرض، فتحت الباب دون أن أطرقه لكى أفاجئ حبيبتى. عندما رأيت أن الفراش كان خاويًا، لا يوجد عليه أحد، بدأت أفهم ما كانت تخبرنى به روزباد بينما أنا أدخل الحجرة.

احترقت جنان بالحمى لمدة ثلاثة أيام كاملة، لكنها تعافت بعد ذلك وعندما قامت من فراشها، ذهبت إلى المدينة وأجرت مكالمة هاتفية إلى اسطنبول، تحدثت إلى أمها، وعندما لم يكن هناك أى خبر منى لعدة أيام قررت فجأة الذهاب للبيت.

حدقت عينى إلى خارج نافذة الحجرة الخاوية على شجرة التوت فى الباحة الخلفية وهى تلمع فى نور الصباح، ولكن بين الحين والآخر لم أستطع منع نفسى من النظر إلى الفراش، الذى تم ترتيبه بعناية، نسخة جريدة "جيودل" التى كانت تستخدمها جنان كمروحة فى طريقنا إلى هنا موضوعة على الفراش المهجور. أعلن صوت بداخلى أن جنان قد فهمت بالفعل أننى قاتل سيئ، وأننى لن أراها مجددًا قط، لذلك فالمبرر

قوى أن أغلق الباب وألقى بنفسى على الفراش الذى مازال يفوح برائحة جنان وأبكى بكل عينىّ حتى يغلبنى النعاس. تكلم صوت آخر معارضًا الصوت الأول، قائلاً إن القاتل يجب أن يتصرف مثل قاتل ويتصرف بدم بارد وبدون قلق: جنان بلا شك تتطرنى فى منزل والديها فى "نيسانتاسى". قبل مغادرة الحجرة، رأيت البعوضة الخبيثة على حافة النافذة و- نعم- قتلتها بضربة واحدة من يدى. كنت على ثقة أن الدم الموجود فى معدة البعوضة الذى كان منتشرًا على خط الحب فى راحة يدى من المؤكد أنه دم حبيبتى جنان.

اضطررت أن ألحق بجنان عائدًا إلى اسطنبول، لكن قبل أن أغادر هذا المنزل وأنا فى قلب السيناريو المضاد للمؤامرة الكبرى، فكرت فى أن الأمر سيكون ذا نفع وفى مصلحة مستقبلى أنا وجنان معًا أن أرى دكتور فاين، كان جالسًا إلى منضدة موضوعة بعد شجرة التوت بقليل، حيث كان يأكل حفنة من العنب باستمتاع كبير، ناظرًا من فوق الكتاب أمامه على التلال التى تسلقناها سويًا.

هادئان كزوج من الأشخاص لديهم كل الوقت الذى فى العالم، تحدثنا أنا وهو عن قسوة الحياة، عن كيف تحدد الطبيعة فى الواقع قدر الإنسان بطريقة خفية، عن الطريقة التى كانت تزرع بها السكينة والهدوء داخل قلب الإنسان بواسطة الفكرة المختصرة التى ندعوها الوقت، عن كيف لا يستطيع الشخص أن

يستمتع بمتعة حتى هذا العنب المليء بالعصارة إلا إذا اختبر الشخص قوة الإرادة الكبيرة والحزم، عن المستوى العالى للضمير والرغبة الضرورية للوصول إلى مصدر الحياة الحقيقية الحالية من أى هزل. وإذا ما كان هذا علامة على النظام العظيم فى الكون أو الظهور الهزلى لمصادفة عشوائية ما التى جلبت فنقدًا متواضعًا ليندفع مارًا بنا وهو يصدر صوتًا كالخفيف. فمن المؤكد أن قتل رجل يمد الشخص بالنضج: كنت قادرًا على الربط بين الإعجاب الذى استمريت فى الشعور به تجاه دكتور فاين- لدهشتى كثيرًا-وبين الشعور بالتعاطف والتحمل الذى ارتفع فجأة من أعماقى مثل المرض الكامن. لهذا السبب، عندما اقترح علىَّ أن أصحبه فى زيارته لقبر ابنه المتوفى، كنت قادرًا على الرفض بحزم دون أن أجرحه: الأيام الطويلة للجهود المكثفة قد أرهقتنى حقًا: فيجب على أى حال أن أعود للبيت ولزوجتى وأستريح قليلاً، وأثناء ذلك الوقت يجب أن أستجمع شتات نفسى وأقرر إذا ما كنت سأقبل المسئولية الكبرى التى عرضتها علىَّ.

عندما استفسر دكتور فاين ما إذا كانت أتيحت لى الفرصة لأجرب الهدية التى أعطاها لى، فقلت له إننى وضعت مسدس "والثر" فى اختبار وكنت راضيًا تماما عن أدائه؛ ثم متذكرًا ساعة "سركيسوف" التى فى جيبى، قمت بسحبها للخارج، وضعتها بجانب الوعاء الذهبى الذى فيه العنب. ناقلا له أن هذا كان

تعبيرًا عن الاحترام والإعجاب من تاجر مكسور القلب والسن يشعر به ناحيته.

"كل هؤلاء الأشخاص غير المحظوظين الحزانى، هؤلاء التعساء، هؤلاء الضعفاء!" قال، وهو يلقى نظرة جانبية على الساعة. " إنهم يريدون أن يعيشوا الحياة التى اعتادوا عليها ويحتفظوا بأشيائهم العزيزة. لأجل هذه النهاية، ربطوا أنفسهم عاطفياً بشخص مثلى. فقط لأنى أعطيتهم أملا فى عالم عادل! كم كان قاسيًا أن تثبت القوى الخارجية كونها مصرة على تدمير حياتنا وذكرياتنا! قبل أن تتخذ قرارك بالعودة إلى اسطنبول، فكر كيف قد تكون قادرًا على مساعدة هؤلاء الأشخاص ذوى الحياة المحطمة."

فكرت للحظة فى فكرة وجود جنان فى اسطنبول بسرعة، وأقنعتها يحلو الكلام بالرجوع هنا إلى المنزل، حيث قد نعيش فى سعادة إلى الأبد فى قلب المؤامرة المضادة للمؤامرة الكبرى...

"قبل أن تعود لزوجتك الساحرة"، قال دكتور فاين، مستخدمًا لغة الروايات الفرنسية فى الترجمة، "تخلص من فضلك من هذا الجاكت البنفسجى الذى يجعلك تبدو كمغتال أكثر من كونك بطلا، هه؟"

وعلى الفور اتجهت عائدًا إلى اسطنبول على متن الحافلة، كانت صلاة الصبح يؤذن لها عندما فتحت أمى الباب؛ لم أمدها بأى كلمة تفسير عن "الجنة المنشودة" التى كنت أبحث عنها ولا عن زوجة ابنها الملائكية.

"لا تترك أمك هكذا ثانية أبداً!" قالت، وهي تشغل السخان الغازي وتملأ حوض الاستحمام بماء ساخن جارٍ.

تناولنا الإفطار معًا بهدوء كالأيام الخوالي كأم وابنها. أدركت أن أمي -مثل كثير من الأمهات اللاتي ينزلق أبناؤهن إلى تيارات سياسية ومتطرفة- كانت محتفظة بفمها مغلق، معتقدة أنني انجذبت إلى قطب مغناطيسي ما في أرض ما وراء النهر، وإنها إذا سألت، فقد أخبرها بأشياء تخيفها. عندما استقرت يدها السريعة الخفيفة للحظة بجانب برطمان العنب الأحمر، رأيت البقع على ظهر يدها، جاعلة إياي أعتقد أنني رجعت إلى حياتي القديمة. هل كان من الممكن لكل شيء أن يستمر كأن شيئًا لم يحدث؟

بعد الإفطار جلست إلى مكتبي ونظرت طويلاً إلى الكتاب، الذي كان مفتوحًا في نفس المكان حيث تركته. لكن ما كنت أفعله لا يمكن أن يدعى قراءة، كان شيئًا مثل التذكر، أو نوعًا من المعاناة......

كنت على وشك أن أغادر لأذهب وأجد جنان عندما اعترضت أمي طريقي.

"أقسم إنك سوف تعود بحلول الليل".

أقسمت؛ وظللت أقسم في كل مرة أغادر فيها البيت في الصباح لمدة شهرين كاملين. لكنى لم أستطع العثور على جنان في أي مكان.. ذهبت إلى "نيمانتاسي"، جبت الشوارع، انتظرت أمام بابهم،

رنت جرسهم، عبرت جسور، ركبت معديات، ذهبت لمشاهدة أفلام، أجريت مكالمات هاتفية، لكنى لم أتلق ولو كلمة واحدة، أقنعت نفسى أنها سوف تظهر فى "تاسكيسلا" عندما تبدأ المحاضرات فى نهاية أكتوبر، لكنها لم تأت، مشيت فى الطرقات فى المبنى طوال اليوم؛ أحيانا، معتقدًا أن ظلا يشبه ظلها قد مر بجانب النوافذ التى تطل على الردهة، أندفع خارجًا من الفصل وأبدأ فجأة فى الجرى، وأحيانا أذهب إلى قاعة فارغة وأضيع فى أفكار وأنا أشاهد المارة على الرصيف وفى الشارع.

كان فى اليوم الذى قام الناس فيه بتشغيل التدفئة المركزية لأول مرة وأشعلوا مدافئهم- مسلحًا بسيناريو قمت بتلفيقه بمهارة- رنت جرس شقة والدَىْ زميلتى فى الفصل المفقودة، ونجحت فى إهانة نفسى كلية بإلقاء الهراء الذى أعددته فى تفاصيل كثيرة عليهم، لم يقوموا فقط بعدم تزويدى بأى معلومات عن مكان وجود جنان، لكنهم أيضًا لم يلمحوا إطلاقًا من أين أحصل على أى معلومات، وبالرغم من ذلك، فى الزيارة الثانية التى قمت بها لمنزلهم فى ظهيرة يوم أحد عندما كان التليفزيون الملون يعرض مباريات كرة القدم بوفرة، عرفت من محاولتهم لإخراج المعلومات منى باستجوابى عن دوافعى بأنهم يعرفون الكثير ولكن لا يقولون، ذهبت إلى مكان مجهول محاولاً أن أستخرج معلومات من أقاربهم وجدت أسماءهم فى دليل الهاتف، النتيجة الوحيدة التى استطعت الوصول

إليها من المحادثات التى أجريتها مع كل الأعمام نافدى الصبر، العمات كثيرات الأسئلة، الخادمات الحذرات، وأبناء وبنات الأخ والأخت الوقحين إن جنان كانت فى الجامعة تدرس الهندسة المعمارية.

أما بالنسبة لزملاء فصلها فى مدرسة الهندسة المعمارية، فقد صدقوا الخرافات التى قاموا باختراعها بأنفسهم حول جنان وكذلك أخبار عن محمد الذى تم إطلاق النار عليه بالقرب من محطة "المينى باص". سمعت البعض يقول إن محمد ضُرب بالنار نتيجة لعملية تصفية حسابات بين تجار المخدرات الأغبياء فى الفندق حيث يعمل، وسمعت أيضًا همسًا أنه وقع ضحية للمتطرفين وهناك من قالوا إن جنان أرسلت إلى مدرسة فى مكان ما فى أوروبا، وأن هذه استراتيجية تلجأ إليها العائلات الراقية عادة مع بناتهن اللاتى يقعن فى حب شخص خبيث، ولكن أثبتت التحريات التى أجريتها فى مكتب التوثيق أن الأمر ليس كذلك.

من الأفضل ألا أتحدث عن التفاصيل الماهرة لعملية التجسس التى قمت بها لأشهر وسنوات، ولا عن المخططات القاسية التى تليق بقاتل، والألوان التى تشبه أحلام شخص سيئ الحظ، بطبيعة الحال لم تكن جنان فى أى مكان بالجوار، لم أتلق أى أخبار عنها، ولم أصادف أى شىء من آثارها، درست مواد الفصل الدراسى الذى فاتنى، ثم أكملت الفصل الدراسى الثانى، لم نعد لا أنا ولا أتباع دكتور فاين

على اتصال ثانية، فلم يكن لدى أى فكرة عما إذا كانوا لايزالون مشغولين بعمليات الاغتيال. سويًا مع جنان قاموا هم أيضًا بالتسلل مختفين من أحلامى كما اختفوا من كوابيسى ثم كان الصيف؛ ثم بدأت السنة الدراسية الجديدة فى الخريف، والتى أكملتها، وكذلك السنة التى تلتها ثم توجهت لأداء خدمتى العسكرية.

قبل أن أنتهى من واجبى الوطنى بشهرين، جاءنى خبر بأن والدتى توفيت. أخذت إجازة وقصدت اسطنبول فى الوقت المناسب للجنازة حيث كانت أمى تدفن. بعد الليلة التى قضيتها عند بعض الأصدقاء؛ ذهبت إلى البيت؛ وعندما شعرت بفراغ المكان أصبحت قلقًا. كنت أنظر للأوعية والأوانى المعلقة على حائط المطبخ عندما سمعت الثلاجة تتنهد بحزن وتعى خلال أزيزها المعتاد. لقد تُركت وحيدًا تمامًا فى هذه الحياة: رقدت على فراش أمى وبكيت قليلاً، ثم أدرت التليفزيون وجلست أمامه مثلما كانت تفعل أمى، وأنا أشاهد لبعض الوقت باستسلام للقدر ونوع من فرحة العيش. قبل أن أذهب لأنام أخرجت الكتاب من مكانه الخفى؛ وضعته على المكتب وبدأت أقرأ، آملاً فى أن أتأثر كما كنت أفعل عندما قرأته لأول مرة. بالرغم من أنى لم أشعر بأن هناك ضوءًا ينعكس على وجهى، أو أن جسدى ينأى بنفسه ويبتعد عن الكرسى حيث جلست أقرأ الكتاب، فإننى كنت أشعر بسلام داخلى.

هكذا بدأت أقرأ الكتاب بطريقة جديدة، لكنى لم أعد أتخيل مع كل مرة أقرؤه أن حياتى انجرفت بعيدًا بواسطة رياح قوية باتجاه مملكة مجهولة، كنت أحاول الاستيلاء على النمط الخفى لحساب طويل الأجل، أو النقاط الأفضل للقصة، المنطق الداخلى الذى لم أدركه بينما كنت أعيش خلاله... أنت تفهم بالفعل، أليس كذلك؟ حتى قبل أن أنتهى من واجبى العسكرى، كنت قد أصبحت بالفعل رجلًا عجوزًا.

هكذا وهبت نفسى لكتب أخرى على نفس الوتيرة، لم أكن أقرأ لأخفف من حدة الرغبة فى روح بدلا من الروح التى تتلوى بداخلى فى ساعة الغسق، أو لأزيد الفرح باتصالى بسعادة بالمهرجان السرى الذى يجرى فى عالم ما وراء الطبيعة، أو حتى _ آه، لا أعرف _ أسرع إلى حياة جديدة قد أتقابل من خلالها مع جنان؛ قرأت لأواجه قدرى فى الحياة بحكمة.. بيقظة، مثل رجل محترم، وأيضًا لأتحمل غياب جنان، الذى شعرت به بعمق، لم أحتفظ بأى أمل أن تعرض علىّ "ملاك الرغبة" قط شمعدانًا ذا سبعة أفرع كجائزة تعويضية لأزين بها بيتى مع جنان، فى بعض الأوقات، عندما أرفع رأسى من على كتاب أقرؤه فى الساعات الأولى من الليل بنوع من التوازن والهدوء الروحى، أصبح واعيًا بالصمت العميق فى الحى، وذلك عندما ظهرت صورة جنان أمام عينى فجأة وهى نائمة بجانبى فى إحدى رحلات الحافلات التى اعتقدت أنها لن تنتهى أبدًا.

فى إحدى هذه الرحلات، التى انتعشت فى مخيلتى بألوان زاهية مثل حلم بالجنة فى كل مرة أتذكرها، لاحظت أن جبهة جنان وصدغيها مغطيان بالعرق وكان شعرها مبللاً وملتصقًا بعضه ببعض بسبب الهواء فى الحافلة والذى كان ساخنًا بشكل غير متوقع، وكنت أجفف حبيبات العرق بمنديل "كيتهيا" اشتريته من مدينة تحمل نفس الاسم، عندما أدركت أن على وجه محبوبتى - شكرًا للضوء البنفسجى القادم من محطة الوقود الذى كان ينعكس علينا لفترة قصيرة - تعبيرًا للسعادة الشديدة والمفاجأة، فيما بعد فى مطعم الاستراحة، أشرقت جنان وهى تجلس مرتدية ثوبها القطنى المطبوع المبلل بالعرق الذى اشترته من متجر المقاطعة وتشرب أكوابًا عديدة من الشاى، وكانت تبتسم بملء فمها وهى تخبرنى بأنها حلمت بوالدها يطبع قبلات على جبينها، لكن بعد فترة أدركت أنه لم يكن والدها وإنما كان رسولاً من مملكة خُلقت من نور، بعد أن ابتسمت، سحبت شعرها خلف أذنيها كالعادة بحركة مرنة، فى كل مرة تقوم بها تذوب قطعة من قلبى، روحى، عقلى قبل أن تختفى فى ظلام الليل.

أستطيع تقريبًا أن أرى بعض قرائى يتجهمون بأسى، بعد أن فهموا أننى أسترجع ما تبقى من تلك الليالى فى ذهنى، قلبى، روحى.. أيها القارئ الصبور، القارئ المتعاطف، القارئ الحساس، ابكى من أجلى إذا استطعت، لكن لا تنس أن الشخص الذى تزرف الدمع من أجله ليس إلا قاتلاً. إلا إذا لم تكن كذلك، إذا

كانت هناك ظروف تخفف من جدية الجريمة فى المحاكم حتى للقتلة العاديين الذين يطلبون الشفقة، الشعور بهم، الرأفة، فإذاً أتمنى أن تضم هذه الأشياء فى هذا الكتاب الذى أنا متورط فيه.

بالرغم من أنى تزوجت فيما بعد، عرفت الآن أن كل شىء سأفعله حتى نهاية حياتى- التى لا أعتقد أنها بعيدة جداً- له علاقة كبيرة أو صغيرة بجنان. قبل أن أتزوج وحتى بعد أن استقررت أنا وعروسى بسنوات فى الشقة التمليك التى ورثتها عن والدى وأصبحت خالية بعد وفاة أمى، واصلت الذهاب فى رحلات ممتدة بالحافلات على أمل أن أقابل جنان صدفة، تأكدت من خلال هذه الرحلات على مر السنين أن الحافلات أصبحت أكبر فأكبر تدريجيًا، حتى أنها تفوح رائحة مطهرة بداخلها، وتم وضع أنظمة مائية (هيدرولية) للأبواب التى تفتح وتغلق أوتوماتيكيًا بلمسة على الزر، وأن السائقين قد خلعوا قمصانهم الباهتة المبللة بالعرق ويرتدون الآن زيًا ذات كتافات مثل الطيارين، حتى مساعدى الحافلات الأشداء تحولوا الآن إلى سادة مهندمين يحلقون ذقونهم كل يوم، والاستراحات كانت مضاءة بشكل أفضل وأكثر رفاهية ولكنها كانت متشابهة فيما بينها برتابة، والطرق السريعة الآن أوسع ومرصوفة بالكامل بالأسفلت؛ لكنى لم ألتق بأى أثر لجنان، فلندع جنان لحالها، كان كثيرًا أن أطلب أن أجدها وأجد آثارها. لكن ماذا كنت سأعطى لشىء ما جاء من تلك الليالى

الرائعة التى قضيتها فى صحبتها، أو سيدة عجوز تناولنا معها الشاى ذات مرة وتحدثنا معها، أو حتى قبس من الضوء كنت متأكدًا أنه ينعكس من وجهها على وجهى! لكن برؤية الطرق الجديدة التى كانت مليئة بإشارات المرور، الأضواء المتراقصة، ولوحات الإعلانات غير الرحيمة، وحيث أخفى الرصف الحديث ذكريات الشباب، بدا كل شيء منشغلاً لينسانا وينسى ذكرياتنا فى أقرب وقت ممكن.

عرفت بعد واحدة من هذه الرحلات المحبطة أن جنان قد تزوجت وغادرت البلاد، بطلكم المتزوج الذى لديه طفلة، رجل الأسرة الطيب والقاتل، كان عائدًا للبيت فى المساء من عمله فى مكتب تخطيط المدينة _ حقيبته فى يده، وبداخلها لوح من الشيكولاتة السويسرية للطفلة، سحب الكآبة فى قلبه، نظرة متجمدة من الإجهاد على وجهه _ وكان يقف على معدية "كاديكوى" المزدحمة عندما جاءت عيناه فجأة فى عينى زميلة دراسة ثرثارة من قسم الهندسة. "أما جنان" قالت المرأة الثرثارة، وهى تحصى مرة أخرى زيجات الإناث فى دفعتنا، "فقد تزوجت بطبيب من "سامسون"، واستقرا فى ألمانيا". عندما حولت عينى بعيدًا عن المرأة لأنظر خارج النوافذ المستديرة، آملاً فى أن أمنع المزيد من الأخبار السيئة التى قد تبثها بعد، لاحظت أن الضباب قد نزل على إسطنبول والبسفور، والذى كان حالة نادرة بالنسبة للمدينة.

"هل هذا ضباب؟" سأل القائل نفسه. "أم هل هو ركود روحي البائسة؟"

لم يكن من الضروري أن أتحرى طويلاً قبل أن أكتشف أن زوج جنان لم يكن سوى الطبيب الوسيم عريض المنكبين الذي يعمل في مستشفى "سامسون" للأمن الاجتماعي، الرجل الذي- على النقيض تماماً من القراء الآخرين- نجح في إيجاد طريقة معقولة لامتصاص الكتاب في نظامه والعيش في سلام وسعادة، حتى أنني بدأت أشرب لأمنع ذاكرتي القاسية من تذكيري باستمرار بالتفاصيل المزعجة لمحادثتي عن الكتاب والحياة التي أجريتها مع الطبيب منذ سنوات عديدة مضت في غرفة الكشف الخاصة به في المستشفى، ولكن أثبت الشرب أنه لم يكن فعالاً.

بعد أن هدأ كل من في البيت وكل ما تبقى من صخب اليوم كانت لعبة الشاحنة ذات الإطارين المفقودين الخاصة بابنتي، ودميتها الزرقاء كانت تقف على رأسها لتشاهد التليفزيون في وضع مقلوب. كنت أنا ومعي "الراكي" الممزوج بالصودا الذي مزجته بحرص بنفسي في المطبخ وأجلس بجانب الدمية بأدب. أدير التليفزيون، أخفض الصوت، وأستقر على سلسلة من الصور التي لا تبدو فاحشة جداً، أشاهد التليفزيون في حالة من التشتت، محاولاً أن أميز ألوان السحب التي في رأسي.

الا تشفق على نفسك! لا تصدق كم أن وجودك وهويتك فريدة في الواقع.. لا تشكي من كيف أن

الحب العميق الذي تشعر به لم يتم تقديره حق قدره، قرأت كتابًا ذات مرة. أنت تعرف؛ وقعت في حب فتاة؛ اختبرت ذات مرة شيئًا عميقًا. لم يفهموني... اختفوا... ماذا يفترض أن يفعلوا الآن؟ جنان في ألمانيا... في "باختوفستراس"... أتساءل كيف حالها... زوجها الطيب... لا تتحدث كثيرًا عن ذلك.. الزوج الأحمق: فلنفترض أنني أرسلت إلى ألمانيا كعضو في وفد للأبحاث. فلنفترض أنه في مساء ما جرينا إلى بعضنا البعض عند مبنى المجلي... حسنًا مرحبا... هل أنت سعيد؟... لقد أحببتك كثيرًا فيما مضى.. والآن؟ مازلت أحبك أكثر... أحبك... أنا على استعداد أن أتخلى عن كل شيء... سامحك في ألمانيا؟... أحبك كثيرًا... لقد أصبحت قاتلًا من أجلك... لا تقل ذلك... كم أنت جميلة... لا تتحدث عن ذلك كثيرًا؛ لا يستطيع أحد أن يحبك مثلما أفعل.. هل تذكرين عندما انفجر إطار الحافلة ذات مرة، عندما ظهر حفل زفاف سكير في منتصف الليل، وهكذا... لا تتحدث عن ذلك كثيرًا.

أحيانًا كنت أشرب حتى أدخل نفسي في غيبوبة، وعندما أصحو بعد ساعات وأجلس على الأريكة، ألاحظ أن الدمية الزرقاء الصغيرة التي كانت تقف على رأسها أصبحت الآن جالسة في وضع معتدل وتشاهد التليفزيون، وأكون مندهشًا: في أي لحظة ضعف قمت بوضعه بطريقة صحيحة على كرسيه؟ وأحيانًا أكون أشاهد بذهن غائب تصوير أغنية أجنبية

على الشاشة. وأتذكر أننى سمعت واحدة من هذه الأغانى عندما كنت أنا وجنان نجلس معًا على متن الحافلة، ينضغط جسدينا فى بعضهما البعض، وأشعر بدفء كتفها الهش على كتفى: انظروا إلىّ، انظروا إلىّ وأنا أجلس هنا وأبكى. مستمعًا إلى الموسيقى التى سمعناها معًا والتى تحولت متفجرة إلى ألوان على شاشة التليفزيون. فى وقت آخر، سمعت الطفلة تسعل، لسبب ما، قبل أن تسمعها أمها، واحتضنت الطفلة الصغيرة التى استيقظت بين ذراعى، وحملتها إلى حجرة المعيشة، وبينما كانت تشاهد الألوان على الشاشة، بدأت أفحص بتعجب يدها التى كانت نسخة مصغرة بلا شائبة ليد شخص كبير، حتى إلى آخر منحنى صغير ولكن مذهل لأصابعها وأظافرها، وكنت مشغولاً بالتفكير فى الكتاب المسمى بالحياة، عندما قالت ابنتى: "لقد أصبح الرجل "مسطحًا"!"

شاهدنا باهتمام الوجه اليائس للرجل التعس الذى انتهت حياته فى بركة من الدماء بعد ضرب عنيف.

يجب على القراء مرهفى الحس الذين يتابعون مغامراتى ألا يظنوا أننى أهملت فى نفسى، وأن حياتى أنا أيضًا انتهت بالفعل، وهم يرون كيف أبقى ساهرًا إلى منتصف الليل وأسكر. مثل معظم الرجال الذين يعيشون فى هذا الركن من العالم، أصبحت أنا أيضًا رجلا محطمًا قبل سن الخامسة والثلاثين،

ولكنى كنت قادرًا على أن أجمع شتات نفسى- نتيجة للقراءة- وأجلب بعض النظام لعقلى.

قرأت بنهم، ليس فقط الكتاب الذى غيّر حياتى كلها ولكن أيضًا كتبًا أخرى. لكن عندما كنت أقرأ، لم أكن أحاول قط أن أعطى معنى عميقًا لحياتى المحطمة، أو أن أبحث عن نوع من التعزية، ولا حتى أن أبحث عن مظهر جميل ومحط أنظار للحزن، هل يمكن أن يشعر الشخص بأى شىء سوى الحب والإعجاب لـ"تشيخوف". هذا الروسى الموهوب، المصاب بداء الرئة، المتواضع؟ لكنى أشعر بالحزن تجاه القراء الذين يحاولون إعطاء بعد جمالى لحياتهم المحطمة والبائسة بقيمة معنوية التى يدعونها "التشيخوفية". متباهين بمآسيهم بجهد ليجعلوها جميلة ومؤثرة؛ وأنا أحتقر الكُتاب المستغلين الذين يضعون مستقبلًا مهنيًا باستغلال حاجة هؤلاء القراء للتعزية. لذلك كنت أتوقف عن قراءة العديد من الروايات أو القصص المعاصرة فى منتصفها. آه، الرجل المسكين الذى يتكلم إلى حصانه ليخفف من وحدته! يالأسف. النبيل الضعيف الذى يظل يروى نباتاته التى هى حبه الوحيد. أشفق على الرجل المرهف الحس الذى يجلس وسط أثاثه القديم المستهلك، فى انتظار شىء ما لن يأتى أبدًا، فلتقل خطاب، أو حبيب قديم، أو ابنته المستهترة. الكُتاب الذين يختلسون المسودات الأولية للأبطال الرئيسيين لتشيخوف لكى يقدموهم فى بلاد أخرى ومناخ آخر،

كاشفين لنا عن جراحهم وآلامهم، ولدى كل منهم نفس الرسالة: انظروا إلينا، انظروا إلى كل الأسى والألم الذى نعانيه! انظروا كم نحن مرهفو الحس، مهذبون، مميزون! فالمنا رفعنا إلى حالة أكثر رهافة ونقاء منكم.. أنتم أيضًا تريدون تحويل تعاستكم إلى نجاح، أو حتى إلى نوع من الأفضلية. أليس كذلك؟ فى هذه الحالة، ثقوا بنا، وصدقوا الأمر عندما نخبركم أن آلامنا مرضية أكثر من متع الحياة العادية.

لذلك، أيها القارئ، لا تضع إيمانك فى شخصية مثلى، ليست مرهفة الحس على الإطلاق. ولا فى ألمى وعنف القصة التى أنا مضطر أن أحكيها؛ لكن صدق أن العالم مكان قاس، إلى جانب ذلك، هذه اللعبة المستحدثة التى تدعى رواية- التى تعتبر أهم اختراعات الحضارة الغربية- لا تخص حضارتنا فى شىء، فإن القارئ يسمع عدم لباقتى فى صوتى من خلال هذه الصفحات ليس لأننى أتحدث بصوت خشن من سطح مسطح تم تلويثه بالكتب وإفساده بالأفكار المسممة: ينتج إلى حد ما عن حقيقة أننى مازلت لم أدرك تمامًا كيف أسكن هذه اللعبة الأجنبية.

هذا ما أقصد قوله: أصبحت شيئًا مثل دودة الكتب من كثرة القراءة لكى أنسى جنان، لكى أفهم ما حدث لى، لكى أحلم بألوان الحياة الجديدة التى لم أحققها قط، ولكى أقضى الوقت بسرور وحكمة - على الرغم من أنه لم يكن بحكمة تمامًا طوال الوقت -

لكنى لم آخذ بأى ادعاءات فكرية، والأكثر أهمية، لم أنظر قط باحتقار إلى هؤلاء الذين يفعلون ذلك، كنت أحب القراءة فقط كما أحببت الذهاب لمشاهدة الأفلام، أو تصفح الجرائد والمجلات، لم أكن أفعل هذه الأشياء لأكتسب نوعًا من المميزات، أو للحصول على نتيجة ما، أو ربما لأفكر فى نفسى كشخص فوق العادى، أو أكثر معرفة، أو أكثر عمقًا من الآخرين، أستطيع حتى أن أقول إن كونى دودة كتب علمنى نوعًا من التواضع، استمتعت بقراءة الكتب لكنى لم أكن أحب مناقشتها مع أى شخص آخر، كما عرفت فيما بعد أن العم رفقى لم يكن يحب أن يفعل. فلو أيقظت الكتب فى نفسى رغبة فى التحدث، فتقوم المحادثة غالبًا بين الأصوات التى فى رأسى، وأحيانًا أشعر أن الكتب التى قرأتها فى تتابع سريع أقامت نوعًا من الهمهمة فيما بينها، محولة رأسى إلى فرقة موسيقية "أوركسترا" حيث تصدر مختلف الأدوات الموسيقية أصواتًا، وكنت أدرك أننى أستطيع تحمل هذه الحياة بسبب تلك العروض الموسيقية التى تلعب فى رأسى.

فلنفترض- على سبيل المثال- أنه حدث لى أن استطعت أن أضع مجموعة من الأشعار معًا التى ألهمتنى إياها الموسيقى التى تهمس لى عن موضوع الحب فى هذا الهدوء المغناطيسى والألم الذى بدأ بعد خلود زوجتى وابنتى للنوم، وتُركت أنا لأشاهد بتعجب وذهول الألوان المتدفقة المنبعثة من التليفزيون بينما أفكر فى جنان، الكتاب الذى جمعنا معًا، الحياة

الجديدة، الملاك، الحادثة، الوقت، أيًا كان ما قيل عن موضوع الحب في الصحف، الكتب، المجلات، في الإذاعة، التليفزيون، بواسطة كُتاب الأعمدة في الصحف، آراء المحررين، والروائيين فقد التصق سريعاً بعقلي لأن حياتي خرجت عن مسارها في سن صغيرة نتيجة للحب _ لو لاحظت أيها القارئ، فأنا يقظ الضمير كفاية لكي لا أدعي أن هذا حدث نتيجة للكتاب.

ما الحب؟ الحب هو الاستسلام.. الحب هو سبب الحب... الحب هو التفاهم.. الحب نوع من الموسيقى، الحب والقلب الرقيق شيئان متماثلان.. الحب هو قصيدة حزينة، الحب هو روح رقيقة تنظر في المرآة، الحب فان، الحب هو ألا تكون مضطرًا أن تقول إنك آسف، الحب هو عملية تبلور، الحب عطاء، الحب هو اقتسام قطعة من اللبان، فأنت لا تستطيع التحدث عن الحب، الحب هو كلمة خاوية، الحب هو إن تكون متوحدًا مع الله.. الحب مرير.. الحب هو مقابلة الملاك.. واد من الدموع، الحب هو انتظار التليفون أن يرن، الحب هو العالم بأسره، الحب هو تشابك الأيدي في السينما، الحب مُسكر، الحب هو وحش، الحب أعمى، الحب هو أن تستمع إلى قلبك، الحب هو الصمت المقدس، الحب هو موضوع الأغاني، الحب جيد للبشرة.

حصلت على هذه اللآلئ دون أن أترك نفسي بالكامل تحت سيطرة الإيمان الأعمى، لكن أيضًا دون

أن أنجرف بواسطة التهكم الذى قد يترك روحى بلا مأوى - بكلمات أخرى، بالتحديد الطريقة التى أرى بها التليفزيون، أنخدع بينما أنا واع تماما أننى أنخدع، أو كونى لست مخدوعًا لكنى أرغب فى أن أنخدع؛ لذلك هأنذا أضيف أفكارى الخاصة فى الموضوع الذى جاء من تجربتى المحدودة ولكنها مكثفة.

الحب هو الرغبة فى أن تتمسك بسرعة بشخص آخر وأن تكونا معًا فى نفس المكان؛ فهو الرغبة فى ألا تصبح مهتمًا بالعالم وأنت تحتضن الآخر. إنه رغبة ملحة فى العثور على مرفأ آمن لروحك الإنسانية.

أنت ترى، لم أكن قادرًا على قول شىء جديد، لكنى مازلت، قد نجحت بالفعل فى أن أقول شيئًا! لم أعد أهتم إذا ما كان جديدًا أم لا، على النقيض مما يعتقده المدّعون الحمقى، فمن الأفضل أن أقول عدة كلمات على أن أبقى ساكتًا، ما فائدة أن تبقى أفواهنا مغلقة، بحق السماء؟! لماذا نشاهد الحياة بسلبية وهى تطعن أجسادنا وأرواحنا مثل قطار قاس يتقدم ببطء إلى واجهته؟ عرفت رجلاً كان فى نفس عمرى لمح إلى أن الصمت أفضل من المحاربة ضد قوى الشر التى تتربص لنا وتدمرنا؛ أقول إنه لمح لأنه لم يصرح بقوله ذلك قط، كان جالسًا على مكتب مثل صبى مطيع، وظل يكتب فى كراسة من الصباح حتى الليل كلمات شخص آخر فى صمت، أحيانا أتخيل أنه لم يمت

ومازال يكتب، وأخاف من أن صمته قد يمتد بداخلى فى شكل رعب فظيع.

لقد أطلقت تلك الرصاصات على وجهه وصدره، لكن هل نجحت فى قتله حقًا؟ لقد أطلقت ثلاث طلقات فقط، والأدهى من ذلك، أننى كنت بشكل ما أعمى من الضوء القادم من آلة العرض فى ظلام دار السينما.

الأوقات التى أصدق فيها أنه لم يمت، كنت أتخيله مازال يطبع الكتاب فى حجرته، يا لها من فكرة غير محتملة! بينما أحاول خلق عالم كامل أعزى به نفسى، ما العيب فى زوجتى الطيبة، ابنتى الجميلة، تليفزيونى، الجرائد، الكتب، عملى فى مجلس المدينة، زملائى فى العمل وزملاء مكتبى، الشائعات، القهوة، السجائر، محاولاً حماية نفسى بإحاطتها بأشياء ثابتة. كان قادرًا على تسليم نفسه بإصرار للصمت المطبق، فى وسط الليل، كنت أفكر فى السكون الذى أعطاه لنفسه بإيمان وتواضع، عندما أتخيله يعيد كتابة الكتاب، ومعجزة المعجزات، أن أشعر بذلك بينما هو يفعل بصبر نفس الشىء مرارًا وتكرارًا على مكتبه، يبدأ الصمت فى الحديث معه، المعضلة التى لم أستطع الوصول إليها ولكنى حدست من خلال أمنياتى ومشاعرى أنها توجد وسط هذا الصمت والظلام؛ وطالما أن الرجل الذى أحببته جنان يظل يكتب فإنى أتخيل أن الهمسات الأصلية فى أعماق الليل- التى كانت غير مسموعة تمامًا لشخص مثلى- ستحصل على صوت خاص بها.

الفصل الخامس عشر

داهمتني ذات ليلة رغبة ملحة في أن أسمع الهمس حتى أنني أطفأت التليفزيون، ودون أن أوقظ زوجتي التي ذهبت إلى الفراش مبكرًا أزحت الكتاب بهدوء من على أباجورتي، وجلست إلى المائدة حيث نتناول عشاءنا كل مساء ونحن نشاهد التليفزيون؛ وبدأت اقرأ الكتاب بحماس متجدد، هكذا تذكرت قراءتي للكتاب لأول مرة منذ سنوات عديدة في نفس الحجرة التي تنام فيها ابنتي الآن، كانت رغبتي قوية جدًا في أن يشع نفس الضوء من الصفحات ويضيء وجهي، شعرت للحظة بصورة العالم الجديد تتضرم بداخلي، أحسست بحركة ما، نوع من الرغبة الملحة، فوران قد يكشف عن سر الهمس الذي قد يأخذني إلى قلب الكتاب.

مثلما حدث في الليلة التي قرأت فيها الكتاب لأول مرة، وجدت نفسي مرة أخرى أمشي في شوارع المنطقة، في هذه الليلة الخريفية، كانت الشوارع مظلمة ومبللة؛ على الأرصفة كان هناك بعض الأشخاص في طريقهم لبيوتهم، عندما وصلت إلى الميدان عند محطة "إرنكوي"، شاهدت واجهات عرض متاجر البقالة المألوفة، الشاحنات المتهالكة، الأغطية

المهترئة التي غطى بها بائع الخضر أقفاص البرتقال والتفاح على الرصيف، الضوء الأزرق الذي يشع من نافذة الجزار، المدافئ الضخمة قديمة الطراز في الصيدلية، وكنت مقتنعًا أن كل شيء كان في مكانه المعتاد. كان هناك اثنان من الشباب يشاهدان التليفزيون الملون في مكان لارتياد الطلاب حيث- في أيام دراستي بالجامعة- اعتدت أن ألتقي بأصدقائي من الحي. بينما مشيت في الشوارع، استطعت أن أرى الضوء الملون لنفس البرنامج التليفزيوني يتساب من خلال الستائر نصف المفتوحة في حجرات المعيشة للعائلات التي مازالت مستيقظة، الضوء الذي يكون أحيانا أزرق، أو أخضر، أو أحمر، أثناء انعكاسه على الأشجار، على أعمدة النور المبللة، وعلى القضبان الحديدية في الشرفات.

كنت أتقدم وعيني على ضوء التليفزيون المنبعث من خلال الستائر نصف المفتوحة عندما توقفت أمام مبنى العم رفقي القديم وحدقت لبعض الوقت في نوافذ الطابق الثاني، شعرت بإحساس لحظي أنني حر ومجازف، كما لو كنت أنا وجنان قد نزلنا بلا هدف من حافلة ما ركبنا على متنها بطريقة عشوائية، استطعت أن أرى من بين الستائر؛ الحجرة المضاءة بالضوء الصادر من جهاز التليفزيون، لكني لم أر أرملة العم رفقي التي استطعت تخيل هيئتها وهي تجلس في كرسيها، كانت الحجرة مضاءة بتوافق مع الصور على الشاشة، أحيانا الوردي الزاهي، وأحيانا أصفر

شاحب، سيطرت عليّ فكرة أن سر الكتاب وحياتي يكمن هناك في تلك الحجرة.

رفعت نفسي لأعلى بطريقة آمرة على الحائط بين الباحة الأمامية والرصيف، رأيت رأس العمة "راتيب" وجهاز التليفزيون التي كانت تشاهده، كانت قد جلست بزاوية خمس وأربعين درجة من كرسي "وجها الراحل الخالي، وكانت تشاهد التليفزيون ورأسها منكمش بين كتفيها تمامًا مثلما اعتادت أمي أن تفعل، لكن على غير عادة أمي لم تكن تشتغل الإبرة بل تدخن مثل مدخنة. راقبتها لفترة طويلة إلى حد ما، متذكرًا شخصين آخرين قاما بتسلق هذا الحائط فيما مضى واختلسا النظر من النافذة.

ضغطت على الزر عند المدخل المكتوب عليه "رفقي راي". نادت المرأة من النافذة التي فتحت على الفور.

- "من هناك؟"

- "هذا أنا، يا عمة "راتيب" قلت وأنا أخطو للخلف بضع خطوات لتتمكن من رؤيتي في الضوء المنعكس من مصباح الشارع. "إنه أنا، ابن رجل السكة الحديد "عاكف".. أنا "عثمان".

"يا للسماء، إنه أنت يا عثمان!" قالت، وانسحبت للداخل، ضغطت على الزر وانفتح الباب.

حيتني بابتسامات على باب الشقة وقبلتني على وجنتي قائلة: "فلأقبل قمة رأسك أيضًا". عندما

أحنيت رأسى لأسفل، قبلتنى، واستنشقت رائحة شعرى بمبالغة كما اعتادت أن تفعل عندما كنت طفلاً.

إيماءتها ذكرتنى أولاً بالحزن الذى شاركت فيه العم رفقى طوال حياتهما معًا، حقيقة أنهما لم يرزقا بطفل قط، ثم تذكرت أنه منذ أن ماتت والدتى، طوال السبع سنوات الأخيرة لم يعاملنى أحد كما لو كنت طفلاً، فجأة شعرت بالراحة عندما دخلت. أردت أن أقول شيئًا قبل أن تبدأ هى فى طرح الأسئلة.

"العمة 'راتيب'، كنت أمر عندما رأيت الضوء، أعرف أن الوقت متأخر، لكنى فكرت فى أن أتوقف لألقى التحية."

قالت: "هذا شىء جيد! اجلس على الكرسى المقابل للتليفزيون؛ فأنا فقط لا أستطيع النوم فى الليل، لذلك أشاهد هذه الأشياء. انظر إلى تلك المرأة عند الآلة الكاتبة، إنها أفعى حقيقية. أشياء مريعة تحدث باستمرار لبطلنا الشاب، هذا هو الشرطى، هؤلاء الناس سوف ينسفون المدينة بأكملها.... هل أجلب لك بعض الشاى؟"

لكنها لم تغادر فى الحال الحجرة لتصنع الشاى. شاهدنا التليفزيون لفترة معًا. "انظر إلى تلك المنحرفة." قالت، وهى تشير إلى جميلة أمريكية ترتدى الأحمر. خلعت الجميلة بعض ملابسها، تبادلت القبلات مع رجل ما لوقت طويل؛ وشاهدناهما يمارسان الحب خلال سحب دخان السجائر التى

كانت العمة "راتيب" وأنا نطلقها فى الهواء، الآن، اختفت هى أيضًا عن الرؤية سويًا مع السيارات العديدة على الشاشة، الكبارى، المسدسات، الليالى، رجال الشرطة، والجميلات، لم أكن أتذكر على الإطلاق أننى رأيت هذا المشهد مع جنان، لكنى شعرت بذكريات كل الأفلام التى شاهدناها معًا تدور بداخل وعيى، وتؤلمنى.

عندما ظهرت العمة راتيب بالشاى، أدركت أهمية أن أجد شيئًا ما أو آخر فى هذا المكان إذا كنت سأصل إلى حل أسرار الكتاب وحياتى المحطمة، وكذلك ربما أخفف بعض الألم الذى أعانى منه، هل كان طائر الكناريا الناعس فى القفص فى الزاوية هو نفس الطائر الذى كان يقفز لأعلى ولأسفل بدون صبر فى طفولتى عندما كان العم رفقى يستقبلنى فى هذه الحجرة؟ أم هذا طائر جديد تم شراؤه ووضعه فى القفص بعد موت الطائر الأول، والطيور التى تبعته؟ كانت الصور الموضوعة فى إطار بعناية لعربات السكك الحديدية والقطارات مازالت معلقة فى أماكنها القديمة، لكن فى طفولتى كنت أراها فى ضوء النهار المشرق، وأنا أستمع لنكات العم رفقى وأحاول أن أحل أحجياته، لذلك كنت حزينًا أن أرى هذه المركبات المنهكة التى تقاعدت طويلاً فى إطاراتها المهملة والمغبرة فى الضوء القادم من جهاز التليفزيون. فى نصف الرفوف التى بها مرآة كانت هناك مجموعة من عصائر الفواكه وزجاجة ممتلئ نصفها بشراب

التوت، بجانب هذه الأشياء تقف بين ميداليات خدمة الطرق الحديدية والقداحة التى على شكل عربة قطار؛ خرامة المحصل الخاصة بعم رفقى الذى اعتاد أن يتركنى ألعب بها عندما كنت أزوره أنا وأبى: عندما رأيت الثلاثين كتابًا تقريبًا فى النصف الآخر للرفوف حيث عربات القطارات المصغرة، منفضدة كريستالية مزيفة، جداول مواعيد القطارات لخمس وعشرين سنة كلها انعكست على المرآة التى فى الخلف، بدأ قلبى يخفق بصوت عال.

يجب أن تكون هذه هى الكتب التى كان العم رفقى يقرؤها أثناء السنوات؛ عندما كان يكتب "الحياة الجديدة". اجتاحتنى موجة من الإثارة كما لو كنت وقعت صدفة على أثر ملموس لجنان بعد كل هذه السنين وكل هذه الرحلات فى الحافلات.

كنا نتناول الشاى ونشاهد التليفزيون عندما سألتنى العمة راتيب عن ابنتى، ثم استفسرت عن شخص زوجتى، كنت أتمتم بشىء أو بآخر، شاعرًا بالذنب لأنى لم أدعوها لحفل زفافى، مخبرًا إياها أن عائلة زوجتى تعيش فى شارعنا، وتذكرت حينها أن عينى وقعت لأول مرة على الفتاة التى أصبحت زوجتى مؤخرًا خلال الساعات الأولى القليلة عندما قرأت الكتاب لأول مرة. أيًا من هذه المصادفات، كانت أكثر تأصلا وذهولاً حينها؟ هل كانت أننى رأيت أولاً تلك الفتاة البائسة التى تزوجتها بعد ذلك بسنوات فى أول

يوم قرأت فيه الكتاب على الإطلاق؟ أو أنني تذكرت المصادفة واكتشفت بعد زواجي بسنوات النمط المتخفي في حياتي بينما أجلس في مقعد العم رفقي؟ كانت ابنة العائلة التي انتقلت إلى الشقة الخالية المقابلة لشقتنا عبر الشارع، التي رأيت أفرادها وهم يتناولون وجبتهم المسائية ويشاهدون التليفزيون تحت ضوء مصباح قوي عار، تذكرت أنني لاحظت أن شعر الفتاة كان ذا لون بني فاتح، وشاشة التليفزيون كانت خضراء.

كنت قد انتقلت بارتياك لذيذ يتضمن الحياة، المصادفة، وذكرى، لكن ظللت أنا والعمة راتيب نتكلم عن شائعات الحي، محل الجزارة الجديد، حلاقي، الأفلام القديمة، وصديق لي ترك الحي بعد أن توسع في عمل والده للأحذية وفتح مصنعًا للأحذية وأصبح غنيًا. بينما نجري محادثة تقطعها فترات الصمت، تتركز حول موضوع "أن الحياة مليئة بالشروخ". التليفزيون مليء بطلقات البنادق، ممارسة الحب الحميمة، صرخات وصياح، طائرات تسقط من السماء، خزانات غاز تنفجر، كلها ترسل الرسالة. "مهما كان ما يحدث، فالأشياء يجب أن تتحطم وتتهشم" ولكننا نفترض أنها مهمة بالنسبة لنا.

في الساعات الأولى من الصباح عندما كانت أصوات الأنين، همهمة الليل، وآلام الموت المفاجئة تم استبدالها بفيلم تعليمي عن حياة سرطان البحر

الأحمر والأسود على جزيرة الكريسماس فى المحيط الهندى، اقتربت أنا- التحرى المحنك- من الموضوع بحذر مثل السرطون العاقل على الشاشة.

"كم كانت الأشياء رائعة رجوعًا إلى الأيام الخوالى السعيدة"، كانت لدى الجرأة لأقول ذلك.

"الحياة رائعة بالنسبة لصغار السن"، قالت العمة راتيب، لكن لم يكن لديها شىء جميل لتقوله عن شبابها الذى قضته مع زوجها _ ربما لأنى سألتها عن قصص الأطفال المصورة، روح رجل السكة الحديد، خيال العم رفقى وقصصه الرومانسية المصورة _ "لقد أخذ عمك رفقى السرور من فترة شبابنا بهوايته، وهو يرسم ويشخبط أشياء لا معنى لها".

فى الواقع، كان رد فعلها فى البداية إيجابيًا تجاه فكرة كتابته وبذل الكثير من الجهد فى نشرها لسبب ما، وبهذه الطريقة كان يتم إعطاء العم رفقى رحلات القطارات الطويلة التى يجب على المفتشين أن يقوموا بها، والعمة راتيب لم تكن مضطرة إلى أن تنتظر بمفردها لأيام لا نهاية لها، وعينها على الباب، زوجها يأتى للبيت، بعد ذلك بفترة قصيرة، جاء بفكرة تأليف مغامرات مصورة للأطفال فى نهاية مجلة المتحمسين للسكة الحديد، وبذلك يتسنى للأطفال أن يقتنعوا بسبب وجود السكك الحديدية التى هى بمثابة الخلاص لبلادنا. قالت العمة راتيب، وهى تبتسم للمرة الأولى: "بعض الأطفال أحبوها فعلاً، ألم

يفعلوا؟" لذلك أخبرتها كم كانت السعادة تملؤني، وأنا أقرأ المغامرات، وأنني حفظت سلسلة "برتف وبيتر" عن ظهر قلب تقريبًا.

قاطعتني قائلة: "لكن كان يجب عليه أن يتوقف عند هذا الحد! لم يكن عليه أن يأخذ الموضوع بجدية." فطبقا لكلامها، عندما لاقى ملحق المغامرات المصورة نجاحًا إلى حد ما، كان خطأ زوجها أنه قرر أن يطبع مجلة منفصلة للأطفال، بعد أن انخدع بالعرض الذي قدمه صاحب دار نشر (بابيالي) وكان رجلاً داهية. "ومنذ ذلك الحين، كان عليه أن يعمل ليلاً ونهارًا؛ كان يرجع منهكًا من التعب من جولة ما للتفتيش أو وظيفته في الإدارة، فقط ليتوجه فورًا إلى مكتبه حيث كان يعمل حتى طلوع النهار."

أصبحت قراءة هذه المجلات منتشرة لفترة، لكن بعد نجاحها المبدئي، فقدت على الفور جاذبيتها في مقابل تلك القصص الرومانسية التاريخية، مثل كان"، "كاروجلان"، و "هاكان"، التي تم تأليفها استجابة للولع بالمعارك بين المحاربين الأتراك والبيزنطيين. "أصبحت "برتف وبيتر" مشهورة لفترة، لذلك كسبنا بعض النقود"، قالت العمة راتيب. "ولكن الشخص الذي كون ثروة حقيقية كان- بديهيًا- ذلك الناشر قاطع الطريق." أصر الناشر المنتهز على أن ينحي العم رفقي قصصه عن الأطفال الأتراك الذين يلعبون كرعاة بقر ولصوص جانبًا ويكتب بدلاً منها عن السكك الحديدية الأمريكية، ويبدأ في رسم أشياء

على غرار كاراجلان"، أو "كان"، أو "نصل العدالة".

"لن أرسم أى مغامرة لا تشتمل على الأقل صورة واحدة تعرض قطارًا". استمر العم رفقى يعلن ذلك، وهكذا انتهت علاقته مع الناشر الخائن. لفترة كان يرسم القصص المصورة فى البيت ويبحث عن ناشرين آخرين، لكنه توقف بعد فترة من جراء تعرضه للرفض.

"وأين هذه المغامرات التى لم تنشر الآن؟" قلت، وأنا أمرر عينى على الحجرة.

لم تجيبنى، ركزت اهتمامها لفترة على الرحلة الصعبة التى يجب على أنثى سرطان البحر الأسود أن تقوم بها وهى تعبر الجزيرة بأكملها لتضع البيض المخصب فى بطنها فى أكثر اللحظات مناسبة أثناء المد العالى.

"لقد تخلصت من أكثرهم"، قالت. "الدواليب مليئة بالصور، المجلات، قصص رعاة البقر، كتب عن أمريكا وأبطال من الغرب، مجلات عن السينما والأفلام كان ينقل منها الأزياء، آه، وكل الأشياء عن "برتف وبيتر". الله يعلم ما كل.... لقد أحبهم ولم يحبنى."

- "لقد عشق العم رفقى الأطفال."

- "نعم، لقد فعل؛ لقد كان كذلك حقًا"، قالت. كان رجلا طيبًا، أحب الجميع... أين تجد رجلا مثله هذه الأيام؟

زرفت قليلا من الدمع، ربما شعرت بالذنب لأنها قالت عدة أشياء مريرة عن زوجها الراحل، بينما كانت تشاهد سرطانات البحر التى كانت قادرة على الرجوع إلى الشاطئ دون الوقوع كضحية لطيور البحر أو للبحر الهائج، جففت عينيها بمنديل أخرجته بخفة يد مدهشة، ومسحت أنفها.

قال المحقق الحذر عند لحظة معينة: "وهكذا يبدو أن العم رفقى قد كتب أيضًا كتابًا يدعى "الحياة الجديدة" للبالغين، ومن الواضح أنه قام بنشره تحت اسم مستعار."

"أين سمعت هذا؟" قاطعتنى قائلة. "ليس فيما تقول شىء من الحقيقة."

أعطتنى تلك النظرة واتخذت مثل تلك النبرة من الغضب الهادئ، وهى تنفث بقوة الدخان من السيجارة التى أشعلتها بشعور بالقهر، حتى أن التحرى الحذر كان مجبرًا على التوقف.

لم نتحدث لبعض الوقت ومازلت لا أستطيع أن أغادر بعد، منتظرًا شيئًا ما أن يحدث، آملا فى أن النمط المتخفى فى حياتى قد يعلن عن نفسه أخيرًا، انتهى الفيلم التعليمى الذى كان فى التليفزيون، وكنت أحاول تعزية نفسى بتخيل أن حياة سرطان البحر كانت أسوأ بكثير من حياة البشر، عندما قامت العمة راتيب من مقعدها بحركة حادة وحازمة، أمسكتنى من ذراعى وسحبتنى باتجاه الرفوف وقالت "انظر..!"

عندما أضاءت مصباحًا على شكل عنق أوزة، فظهرت صورة في إطار على الحائط.

كان هناك خمسة وثلاثون أو أربعون رجلاً يرتدون نفس السترات، نفس رابطة العنق، وسراويل متشابهة، ومعظمهم لهم شوارب متشابهة، يبتسمون للكاميرا حيث وقفوا على الدرجات التي تقود لمحطة قطار "حيدر باشا".

"مفتشو السكك الحديدية، كل شخص"، قالت العمة راتيب، "كانوا كلهم أكثر اقتناعًا بأن تنمية هذه البلاد تعتمد على السكك الحديدية." أشار أصبعها إلى شخص بعينه "رفقي".

بدا تمامًا مثلما أتذكره وقت طفولتي وتمامًا كما أتخيله لكل هذه السنين، كان أطول من المعتاد.. رشيقًا.. وسيمًا بطريقة ما، شاردًا بحزن، مسرورًا لكونه مع المجموعة كذلك مسرور لكونه يبدو مثل البقية.. مبتسمًا بخفة.

"لم يتبق لي أي شخص في هذا العالم، أنت تعرف"، قالت العمة راتيب. "لم أستطع الحضور لحفل زفافك، لذلك، خذ هذا على الأقل." وضعت في يدي طبقًا فضيًا للحلوى أخرجته من الرفوف. "منذ عدة أيام رأيتك مع زوجتك وابنتك عند المحطة، يا لها من امرأة جميلة، أتمنى أن توفيها حق قدرها."

ظللت أنظر إلى طبق الحلوى في يدي، إذا ادعيت أنني كنت مأخوذًا بمشاعر النقص والذنب، ربما لا

يصدقني القارئ: دعني أقول، تذكرت شيئًا _ دون أن أكون حقًا واعيًا بذلك الذي تذكرته، انعكاسات صورة العمة راتيب، أنا، والغرفة أصبحت صغيرة جدًا، مكتنزة ومستديرة، ومسطحة على السطح العاكس كالمرآة لطبق الحلوى الفضي، كم من الساحر أن ترى العالم ليس من خلال ثقبي المفاتيح التي ندعوهما أعيننا ولكن أن تراه للحظة من خلال منطق لنوع آخر من العدسات، يشعر الأطفال الأذكياء بذلك، ويجعل ذلك الكبار الأذكياء يبتسمون، كان نصف عقلي في مكان آخر- أيها القارئ- والنصف الآخر كان عالقًا على شيء آخر، لا أعرف إذا كان يحدث لك، لكنك على وشك أن تتذكر شيئًا، لكن قبل أن تدرك ما أنت بصدد تذكره، لسبب مجهول تقوم بتأجيل التذكر.

قلت متجاهلاً حتى أن أشكرها على طبق الحلوى: "عمة راتيب" وأشرت إلى الكتب في النصف الآخر للرفوف، "هل يمكنني أن آخذ هذه الكتب معي للبيت؟"

"لماذا؟"

"لأقرأهم". قلت. لم أذكر أنني لا أستطيع النوم في الليالي لأني كنت قاتلاً. "أنا أقرأ ليلاً، التليفزيون يرهق عيني حيث لا أستطيع مشاهدته لفترة طويلة."

قالت بشك: "آه، حسنًا، لكن عندما تنتهي من قراءتهم، يجب أن تردهم، لكي لا يبقى هذا الجزء من الرفوف فارغًا، لقد كان زوجي الراحل يقرؤهم طوال الوقت."

وهكذا، بعد أن انتهينا أنا والعمة راتيب من مشاهدة الفيلم في العرض المتأخر جداً عن بعض الرجال الأشرار في مدينة الملائكة التي تدعى "لوس أنجلوس"، ممثلات واعدات غير سعيدات لا يُمانعن ممارسة الحب، رجال شرطة دءوبون، وشباب جميلو الطلعة يمارسون الحب بلا مبرر (بمنتهى البساطة) مع أطفال أبرياء في الجنة ثم يقولون أشياء فظيعة ومخجلة عن بعضهم البعض من وراء ظهر بعضهم البعض، رجعت إلى البيت في ساعة متأخرة جداً ومعي اثنان من الأكياس البلاستيكية مليئة بالكتب في يدي، والطبق الفضي على قمة واحد من الأكياس يعكس كيس الكتب، العالم، أضواء الشارع، أشجار الحور الجرداء، السماء المظلمة، الليل الحزين، الرصيف المبتل، ويدي التي تحمل الكيس، ذراعاي، وساقاي اللتان تتحركان لأعلى ولأسفل.

صففت الكتب بدقة على المكتب الذي اعتاد أن يكون في الخلفية- حجرة ابنتي- عندما كانت أمي على قيد الحياة، لكنه الآن في غرفة المعيشة، نفس المكتب الذي أديت عليه واجبي في المدرسة والجامعة لسنوات وقرأت عليه لأول مرة "الحياة الجديدة" كان غطاء طبق الحلوى عالقاً ولم أستطع انتزاعه لفتحه، لذلك وضعته بجانب الكتب أيضاً؛ وأشعلت سيجارة ثم نظرت لكل شيء بسعادة، كان هناك ثلاثة وثلاثون كتاباً، من بينها مراجع مثل "مبادئ الصوفية"، "سيكولوجية الطفل"، "تاريخ قصير للعالم"، "فلاسفة

عظام وشهداء عظام"، "تفسير الأحلام بالأمثلة والملاحظات"، أعمال مترجمة لـ"دانتى"، "ابن عربى"، و"ريلكه" من سلسلة الكلاسيكيات العالمية التى تصدرها وزارة التعليم وأحيانا توزعها بدون مقابل على الإدارات والوزارات، مختارات مثل "أجمل قصائد الحب"، "قصص من الوطن"، تراجم لـ"جول فرن"، "شرلوك هولمز"، و"مارك توين" فى أغلفة ملونة لامعة، وبعض الأشياء مثل "كون- تيكى"، "العباقرة كانوا أيضاً أطفالاً"، "طيور محلية"، "أخبرنى بسر"، "ألف أحجية وأحجية".

بدأت أقرأ الكتب فى هذه الليلة، ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، ظللت ألاحظ أن بعض المشاهد فى "الحياة الجديدة"، بعض التعبيرات، وبعض الخيالات كانت مأخوذة إما من أشياء فى تلك الكتب أو تم اقتباسها بالكامل. لقد انتفع العم رفقى بهذه الكتب بينما كان يكتب "الحياة الجديدة" بنفس السهولة والروتين الذى كان الوضع عليه عندما اقتبس صوراً وكلمات من القصص المصورة مثل "توم مكس"، "بيكوس بيل"، أو "المقنع الوحيد" ليضعها فى القصص المصورة الخاصة به.

دعونى أستعرض بعض الأمثلة:

"كانت الملائكة غير قادرين على حل المعضلة فى خلق الخليفة الذى يدعى "الإنسان".

"ابن عربى، رموز الحكمة"

"نحن توائم الروح ورفقاء الدرب؛ فنحن الخلفاء غير المشروطين لبعضنا البعض."

"نيساتي أكالم، العباقرة كانوا أيضًا أطفالاً"

"هكذا رجعت إلى الوحدة فى حجرتي وبدأت أفكر فى هذا الشخص الطيب. بينما أفكر فيها غرقت فى النعاس وظهرت أمامى رؤية رائعة."

"دانتى، الحياة الجديدة، الجزء الثالث"

"هل نحن على تلك الأرض لنقول: منزل، جسر، نافورة، إبريق، بوابة، شجرة فاكهة، نافذة _ على أحسن الفروض: عمود، برج؟ لكن لتقول تلك الكلمات فأنت تفهم بقوة أن الأشياء نفسها لم تحلم قط بأنه سيتم التعبير عنها."

"ريلكهه، مراثى دوينو، المرثية التاسعة"

"لكن لم يكن هناك منزل فى الجوار، ولم يكن هناك شيء مرئى سوى بعض الأطلال، وبدا أن تلك الأطلال لم تكن بفعل الزمن لكنها نتيجة لسلسلة من الكوارث."

"جول فيرن، عائلة بلا اسم"

"قابلت كتابًا، إذا كنت تقرؤه، يبدو أنه جزء مغلف، ولكن إذا لم تكن تقرؤه، فيتحول إلى كومة من القماش من الحرير الأخضر... على الفور، وجدت نفسى أفحص الأرقام والحروف فى الكتاب، وعرفت من خط اليد أن النص كُتب بواسطة ابن سعادته "عبد الرحمن"، الحاكم الرئيس لـ"اليبو"، عندما عادت إلى

حواسى، وجدت نفسى أكتب الجزء الذى تقرؤه الآن، وفجاة عرفت أن الجزء الذى كُتب بواسطة ابن سعادته- الذى قرأته من قبل فى غيبوبة- كان مماثلاً للقسم الذى أكتبه فى هذا الكتاب."

"ابن عربى، الفتوحات المكية"

"تأثير الحب كان أن حتى جسدى- الذى كان حينها مخصصًا كليًا لحكمه- تحرك غالبًا مثل شىء ثقيل غير قابل للحركة."

"دانتى، الحياة الجديدة، الجزء الحادى عشر"

"لقد وضعت قدمى على هذا الجزء من الحياة الذى لا يمكن للمرء بعده أن يراوده أى أمل فى العودة."

"دانتى، الحياة الجديدة، الجزء الرابع عشر"

الفصل السادس عشر

افترض أننا وصلنا إلى قسم التفسير في كتابنا لأشهر لا تنتهي قرأت مرات ومرات الثلاثة والثلاثين كتابًا المصفوفة على مكتبي، أضع خطًا تحت كلمات وجمل في الصفحات المصفرة: أخذت ملاحظات في دفاتر وعلى قطع من الورق؛ ترددت على المكتبات حيث يحدق السعاة في القراء بنظرة تقول: "ماذا تفعلون هنا بحق الجحيم؟"

مثل الكثير من الرجال المحطمين الذين غمسوا أنفسهم لفترة من الوقت في قلب الصخب المسمى بالحياة، عندما قارنت الصور الخيالية والتعبيرات المتعددة في قراءاتي، تبينت الهمسات المشفرة بين السطور والتي من خلالها استطعت أن أتحرى أسرارها، وترتيب هذه الأسرار، بنيت روابط بينهم، وكنت فخورًا بتعقيد شبكة الروابط التي صنعتها، عملت بصبر مثل شخص يحفر بئرًا بإبرة، في جهد لكي أعوض إهمالي السابق كثيرًا في الحياة، بدلاً من أن أكون مندهشًا أن رفوف المكتبة في البلاد الإسلامية مليئة بالتفسيرات والتعليقات المكتوبة باليد، وكل الذي يجب أن يفعله المرء هو أن يلقي نظرة على عدد كبير من الرجال المحطمين في الشارع لكي تعرف السبب.

على الرغم من معاناتي، حينما أصادف جملة أو صورة أو فكرة جديدة تسربت إلى كتاب العم رفقي من مصدر آخر، أكون في البداية محبط، مثل الشاب الذي اكتشف أن ملاك أحلامه ليس ملاكًا كما يبدو؛ لكن عند ذلك، مثل العبد المنصاع للحب الذي كنت عليه، أريد تصديق أن ما لم يبد نقيًا من النظرة الأولى كان في الواقع علامة لسر ساحر بعمق أو لأهمية فريدة.

كنت أقرأ وأعيد قراءة "مراثي دوينو" بالإضافة إلى الكتب الأخرى أيضًا، عندما اتخذت قرارًا بأن كل شيء يمكن أن يُحل من خلال وساطة الملاك. ربما السبب أنني افتقدت الليالي التي قضيتها في صحبة جنان مستمعًا إلى كلامها عن الملاك، فضلاً عن الملاك الذي في المراثي الذي ذكرني بالملاك الذي ذكره العم رفقي في الكتاب. في سكون الليل بعد أن رحلت بوقت طويل القطارات المخيفة على الحي مصدرة أصواتًا بلا نهاية على القضبان في طريقها شرقًا، اشتقت إلى سماع نداءات ضوء، شيء مؤثر، حياة أحب أن أستحضر ذكراها؛ أدرت ظهري لطبق الحلوى الفضي الذي عكس صورة التليفزيون الذي كان يعمل كما أفعل وأنا جالس أدخن على مكتبي المكدس بالأوراق والدفاتر، ومشيت إلى النافذة حيث نظرت من بين الستائر إلى الليل المظلم. ضوء خافت ينبعث من مصباح الشارع أو واحدة من الشقق عبر

الشارع كان ينعكس على الفور على قطرات الماء وعلى زجاج النافذة.

من هو الملاك الذى تمنيت أن أدعوه إلى من قلب السكون؟ مثل العم رفقى نفسه، لم أكن أعرف أى لغة أخرى غير التركية، لكنى لم أعر أى اهتمام لحقيقة أننى محاط بترجمات فقيرة وغير دقيقة حُرفت بواسطة نزوات ولع عابرة فى لغة غامضة، تقدمت بنفسى لجامعات، وسألت أسئلة لأساتذة ومترجمين قاموا بالحديث معى بتأفف لكونى هاويًا؛ حصلت على عناوين فى ألمانيا حيث أرسلت خطابات؛ وعندما رد علىّ بعض الأشخاص الطيبين واللطفاء، حاولت إقناع نفسى بأننى كنت أحقق تقدمًا ما.

فى خطابه الشهير للمترجم البولندى، يقول "ريلكه": إن "ملاك" المراثى له علاقة أقل مع ملاك الجنة المسيحية من علاقته مع المخلوقات الملائكية فى الإسلام، التى كانت حقيقة استشفها العم رفقى من المقدمة القصيرة للمترجم، بعد أن عرفت- من خطاب كتبه لـ "لوى أندريه سالومه" من إسبانيا فى أول السنة التى بدأ فيها كتابة المراثى- أن "ريلكه" قد قرأ القرآن، الذى "أذهله، وأدهشه"، انغمست لفترة فى ملائكة الإسلام، لكنى لم أجد فى القرآن أيًا من الأشياء التى سمعتها من أمى، النساء العجائز فى الحى، ولا من أى من أصدقائى الذين يعرفون كل شىء، بالرغم من أن هيئة عزرائيل كانت متاحة لنا من

مصادر عديدة. فلتكن فى كاريكاتير الجرائد أو فى ملصقات المرور أو فى فصل العلوم الطبيعية، حتى أنه لم يذكر اسمه فى القرآن؛ كان يشار إليه فقط بملك الموت. لم أستطع العثور على أى شىء أكثر مما عرفت بالفعل عن الملاك الرئيس "ميكائيل" ولا عن "إسرافيل" الذى سينفخ البوق فى يوم القيامة. أغلق مراسل ألمانى الموضوع بإرساله لى كومة من الصور للملائكة فى المسيحية، تم نسخها من كتب الفن، ردًا على سؤالى عما إذا كان الاختلاف الذى ذكر فى بداية الصورة الثالثة والثلاثين فى القرآن من ناحية أن هؤلاء الملائكة يملكون "اثنين، ثلاثة، أو أربعة أجنحة" كانت مقصورة على الإسلام. فضلاً عن الاختلافات التافهة مثل أن القرآن يشير إلى الملائكة كطبقة منفصلة من الخلق، أو أن الطاقم القاسى فى جهنم يعتبر أيضًا من سلالة الملائكة، أو أن ملائكة الإنجيل يوفرون رابطة أقوى بين الرب ومخلوقاته. كان هناك القليل أيضًا ليثبت أن "ريلكه" على حق فى تمييزه الخاص بملائكة الإسلام أمام ملائكة المسيحية.

على الرغم من أننى اعتقدت أنه من الممكن حتى لو لم يكن "ريلكه" قد أشار إلى أن الملاك "جبريل" الذى كان يظهر للرسول "مُحمد" "بالأفق المبين"، "تشهد عليه النجوم" "التى تسبح فى الفلك المشحون" فى نفس اللحظة بين ظلام الليل وضوء النهار، كما فى بعض الآيات من سورة "التكوير"، فالعم رفقى- عندما كان فى مرحلة إعطاء كتابه الشكل الأخير-

يمكن أن يكون قد فكر فى الكتاب الذى أنزل من قبل الله الذى فيه "كل شىء مذكور". لكن كان ذلك أثناء الوقت الذى اعتبرت أن المؤلف الرفيع للعم رفقى قد جاء للوجود ليس فقط من الثلاثة والثلاثين كتابًا التى كانت فى حوذته، ولكن من كل الكتب الموجودة. كلما فكرت فى تلك التراجم الفقيرة المتكدسة على مكتبى، النسخ والملاحظات التى تذكر ملاك "ريلكه"، أو مبررات جمال الملائكة، الجمال المطلق الذى يفوق كل ما هو سيبى أو عرضى، فى ابن عربى، فى الخصائص الفائقة للملائكة التى تتعدى حدود وخطايا البشر، قدرتهم على أن يكونوا هنا وهناك فى الوقت نفسه، فى الزمن، الموت، والحياة بعد الموت. كلما تذكرت أننى قرأت من قبل عن تلك الأشياء ليس فقط فى كتاب العم رفقى الصغير ولكن أيضًا فى مغامرات "برتف وبيتر".

بحلول الربيع فى مساء ما بعد العشاء، كنت أقرأ واحدًا من خطابات "ريلكه" للمرة المليون _ الله وحده يعلم للمرة الكم _ حيث يقول: "حتى بالنسبة لأسلافنا، منزل، بئر، برج معروف، ملابسهم الشخصية، ستراتهم: كانوا فوق الإحصاء، كانت هذه الأشياء الأكثر شخصية ليتم إحصاؤها".

أتذكر أننى نظرت حولى لدقيقة وشعرت بدوار لذيذ، كانت مئات الظلال السوداء والبيضاء لملائكة تنظر لى ليس فقط من بين الكتب التى على مكتبى

القديم، لكن من أماكن أخرى حيث وضعتهم ابنتى الصغيرة الفوضوية، على إفريز النافذة، أعلى جهاز التدفئة المغطى بالتراب، السجادة، المنضدة الجانبية ذات الساق القصيرة، التى كانت تنعكس بعد ذلك على طبق الحلوى الفضى: كانت الصور مقلدات للوحات زيتية أصلية للملائكة، تم صنعها فى أوروبا منذ مئات السنين، اعتقدت أننى أحببت تلك النسخ أكثر من الأصلية.

"التقطى الملائكة"، قلت لابنتى ذات السنوات الثلاث. "هيا نذهب إلى المحطة ونشاهد القطارات."

- "هل يمكن أيضًا أن نشترى حلوى الكرامل؟"

حملتها بين ذراعى وذهبنا لنرى أمها فى المطبخ الذى كان يفوح برائحة مطهر وطعام مشوى. وأخبرناها أننا فى طريقنا إلى رؤية القطارات. رفعت رأسها عن الأطباق التى كانت تعدها وابتسمت لنا.

سرنى أن أمشى إلى محطتنا الحالية فى هواء الربيع البارد، ممسكًا بابنتى بالقرب منى، فكرت بانشراح أنه عندما نعود إلى البيت سأشاهد مباراة كرة القدم، ثم ألحق أنا وزوجتى بمشاهدة فيلم ليلة الأحد. كان متجر الحلوى الذى يدعى "الحياة" عند ميدان المحطة قد تخطى الشتاء بخفض نوافذ المتجر وأعد ثلاجة الآيس كريم التى تعرض قراطيس الآيس كريم، جعلناهم يزنون لنا مائة جرام من حلوى كرامل

"مابيل"، نزعتُ الغلاف عن واحدة ووضعتها فى فم ابنتى المتلهف، ثم صعدنا أعلى الرصيف.

تمامًا عند الساعة التاسعة والسادسة عشرة دقيقة، أعلن القطار السريع القادم من الجنوب عن نفسه ومر دون أن يقف أولاً بصوت المحركات الثقيل الذى يأتى من مكان ما عميقًا بالأسفل، كما لو كان يأتى من روح الأرض، وعلى الفور كانت أضواؤه تنعكس على حوائط الكوبرى وأعمدة الصلب؛ ثم- بينما كان يقترب من المحطة- بدا أنه أصبح أكثر هدوءًا، فقط ليثير ضجة بكل قوة محركاته المتنافرة والعنيدة، بينما مر بنا شخصان هزيلان يتمسكان ببعضهما البعض. داخل العربات المضاءة بتألق التى سحبها القطار معه وهى تصدر ضجيجًا آدميًا، رأينا الركاب الذين كانوا يميلون للخلف فى مقاعدهم، مائلين على النوافذ، معلقين معاطفهم، يشعلون سجائرهم، كلهم غير مدركين تمامًا أننا نشاهدهم وهم ينزلقون فى غمضة عين، وقفنا فى النسيم الواهى والهدوء الذى تركه القطار خلفه، محدقين فى الضوء الأحمر فى مؤخرة القطار لوقت طويل.

- "هل تعرفين إلى أين يذهب القطار؟" سألت ابنتى بتلقائية.
- "أين يذهب القطار؟"
- "أولاً إلى "إزمت"، ثم إلى "بيلسك"."
- "ثم؟"

- "إلى "إسكيسير"، ثم إلى "أنقرة".

- "ثم؟"

- "ثم إلى "قايصرى"، فـ"سيفاس"، فـ"مالاتيا".

- "ثم؟" قالت ابنتى ذات الشعر البنى الفاتح، وهى سعيدة بتكرار نفسها ومازالت تشاهد الضوء الأحمر المرئى بالكاد فى مؤخرة القطار (السبنسة) بشعور عابس وغامض.

ووالدها يستدعى طفولته وهو يقول أسماء المحطات التى يتذكرها حيث يقف القطار _ ثم، ثم _ بالإضافة إلى تلك التى لم يتذكرها.

من المؤكد أننى كنت فى الحادية أو الثانية عشرة من عمرى، ذهبت أنا ووالدى إلى منزل العم رفقى ظهيرة يوم ما، بينما يلعب والدى والعم رفقى الطاولة، تناولت بسكويت السكر الذى أعطته لى العمة راتيب فى يدى، وكنت أشاهد طائر الكناريا فى القفص، ثم طرقت على البارومتر الذى لم أتعلم قراءته بعد؛ كنت قد سحبت لتوى إحدى القصص المصورة القديمة على الرف وقد انغمست فى مغامرة لـ"برتف وبيتر" عندما نادانى العم رفقى، كما يفعل دائمًا عندما نزوره، وبدأ يسألنى.

"قل أسماء المحطات بين "بولساتى" و"كورتالان"".

بدأت بـ" بولساتى، بولوف، كيورك، سيفرايز، جيزن، مادن،" وقلت أسماء البقية دون أن أترك شيئًا.

وهؤلاء الذين بين "أماسيا" و"سيفاس"؟

قمت بتكرارهم بسرعة دون توقف لأنى قد حفظت جداول مواعيد القطارات الذى يزعم العم رفقى أن كل طفل تركى ذكى يجب أن يحفظها عن ظهر قلب.

"لماذا يجب على القطار الذى يرحل من "كيتايت" فى طريقه إلى "أوسال" أن يمر بـ"أفيون"؟"

عرفت إجابة هذا السؤال عن طريق العم رفقى وليس من جداول مواعيد القطارات.

"لأن الحكومة لسوء الحظ هجرت سياستها الخاصة بالطرق الحديدية."

قال العم رفقى، وعيناه تلمعان: "وها هو السؤال الأخير، نحن نذهب من "سيتكايا" إلى "مالاتيا"."

"سيتكايا، ديميرز، آكيديك، يوليجونى، هسانسيليبى، هيكمهان، كيسيكوبرى...." بدأت لكنى أخفقت قبل أن أتمهم.

"ماذا بعد؟"

كنت صامتًا، كان مع والدى حجر النرد فى يده، وكان يدرس القطع على الطاولة، باحثًا عن مخرج من مأزق شديد.

"ما الذى يأتى بعد "كيسيكوبرى؟"

طقطق طائر الكناريا فى القفص.

عدت أدراجى للوراء ثم بدأت مجددًا بأمل جديد، "هيكمهان، كيسيكوبرى." لكنى علقت مرة أخرى عند المحطة التالية.

"وماذا بعد؟"

كانت هناك وقفة طويلة. اعتقدت أننى على وشك البكاء عندما قال العم رفقى: "راتيب. اذهبى وأحضرى له واحدة من حلوى الكرامل؛ قد يتذكر عند ذلك".

عرضتْ علىّ العمة راتيب حلوى الكرامل. كما اقترح العم رفقى. تذكرت المحطة التالية بعد "كيسيكويرى" بمجرد أن دسستُ الكرامل فى فمى.

بعد خمسة وعشرين عامًا على هذا الموقف. ها هو وابنته الجميلة بين ذراعيه، وهما يشاهدان الضوء الأحمر فى ضجيج القطار السريع المتجه جنوبًا. ورجلنا الغبى "عثمان" لم يستطع تذكر نفس اسم المحطة مرة أخرى، لكنى أجبرت نفسى على التذكر لبرهة من الوقت، محاولاً تملق وتحفيز أفكارى، مخبرًا نفسى: يا لها من مصادفة! ١ - القطار الذى مر بنا لتوه سوف يمر غدًا خلال نفس المحطة التى لا أستطيع تذكر اسمها. ٢ - عرضتْ علىّ العمة راتيب حلوى الكرامل من نفس الطبق الفضى الذى أعطتنى إياه كهدية. ٣ - هناك واحدة من حلوى الكرامل فى فم ابنتى، وفى جيبى أقل بقليل من مائة جرام من الكرامل.

أيها القارئ العزيز، لقد حصلت على متعة من حيث علقت ذاكرتى حيث تقاطع ماضيى ومستقبلى فى هذه الأمسية الربيعية عند نقطة كانت بعيدة تمامًا

من كونها عن غير قصد حتى أننى تسمرت حيث كنت أقف، محاولاً استرجاع اسم المحطة.

بعد فاصل طويل، قالت ابنتى وهى بين ذراعى، "كلب".

كان أقذر وأكثر الكلاب إثارة للشفقة من بين كلاب الشوارع يشم ثنيات سروالى، ونسيم رقيق يهب باردًا على المساء المتواضع الذى خيم على المنطقة، عدنا سريعًا إلى البيت، لكنى لم أسرع فى الحال لطبق الحلوى الفضى، كان يجب أن أدغدغ ابنتى أولاً، وأهدهدها، ثم أضعها فى الفراش؛ ثم نجلس أنا وزوجتى معًا لنشاهد القبلات وجرائم القتل فى فيلم ليلة الأحد؛ ثم أقوم بجلب بعض النظام إلى الكتب، الورق، والملائكة على مكتبى قبل أن أستطيع البدء فى انتظار- وقلبى يخفق- ذكرياتى لتتكثف وتصل إلى الدرجة المناسبة.

الرجل ذو القلب العليل الذى وقع ضحية الحب كما وقع أيضًا ضحية لكتاب دعى لمبادئه: التحدث، الذكرى ورفعت طبق الحلوى بين يدى، إيماءاتى كانت بها شيء ما من ممثل مسرح محلى وهو يرفع جمجمة بيزنطى فقير معتقدًا أنها جمجمة "يوريك" المسكين، لكنك لو فكرت فى النتيجة، فهى لم تكن إيماءة مزيفة، كم كان مطيعًا اللغز المسمى "الذاكرة" بالرغم من كل شيء: تذكرت فى الحال.

هؤلاء القراء الذين يؤمنون بالصدفة والحادثة، بالإضافة إلى هؤلاء القراء الذين يؤمنون بالعم رفقي لن يتركوا الأشياء للصدفة والحادثة، وربما خمنوا بالفعل أن اسم المحطة كان "فيران باج".

تذكرت ما هو أكثر، عندما نظرت إلى طبق الحلوى الفضي وحلوى الكرامل في فمي منذ ثلاثة وعشرين عامًا ونطقت بالإجابة فجأة، "فيران باج"، قال العم رفقي: "مذهل، برافو!"

ثم.. ثم ألقى حجر النرد الذى أظهر رقمى خمسة وستة، ضاربًا قطعتين من قطع والدي بضربة واحدة، وقال: "عاكف"، ولدك هذا ذكى بشكل مذهل، هل تعرف ماذا أنوى فعله فى أحد الأيام؟ لكن والدي الذى كان اهتمامه مركزًا على قطعه المحبوسة لم يكن حتى يستمع، لذلك وجه العم رفقي الكلام لي مباشرة:

"سوف أكتب كتابًا فى يوم ما وأعطى البطل اسمك".

كتاب مثل "برتف وبيتر"؟ سألت، وقلبى يخفق.

"لا، ليس كتابًا مصورًا، لكن كتابًا سأحكى فيه قصتك".

ظللت صامتًا، غير مقتنع. لم أستطع أن أتخيل أى نوع من الكتب قد يكون.

كان ذلك عندما نادت العمة "راتيب": "هأنت تقوم بخداع الأطفال مرة أخرى!"

هل كان ذلك مشهدًا حقيقيًا؟ أو هل كان خيالا اخترعته ذاكرتي الطيبة ذات النية الحسنة في الحال لتعزية رجل محطم مثلي؟ لم أتمكن من الفهم قط، لكن لم يكن لدي رغبة في أن أسرع على الفور وأسأل العمة راتيب أيضًا، سرت باتجاه النافذة وطبق الحلوى الفضي في يدي، شردت في أفكار وأنا أنظر من النافذة إلى الشارع، على الرغم من أنني لا أعرف إذا كنت أستطيع أن أدعوه في الحقيقة تفكيرًا، أو حتى كلامًا أثناء نومي. ١ - أضيئت الأضواء في ثلاثة منازل مختلفة في نفس الوقت. ٢ - الكلب المثير للشفقة عند المحطة مر بي وهو يبدو متكبرًا. ٣ - ما الذي جعل أصابعي تجن خلال كل هذا التشوش العقلي، وتقوم بالتحكم في الموقف وتزيل - يا، انظر - الغطاء الملتصق بطبق الحلوى دون عناء شديد.

أعترف أنني فكرت للحظة أنه مثلما في الحكايات الخيالية قد ينتج طبق الحلوى تمائم، أو خواتم سحرية، أو عنبًا مسمومًا، لكن ما يحتويه كان سبع قطع من حلوى الكراميل "حياة جديدة" تذكرتها من طفولتي والتي لم تعد تظهر في محال البقالة ومتاجر الحلوى حتى في أكثر المدن المحلية انعزالاً؛ كان هناك على غلاف كل واحدة ملاك كعلامة تجارية - لتصنع في المجمل سبعة ملائكة - تجلس بأدب على حافة حرف الحاء في كلمة "حياة"، وسيقانها الجميلة تمتد بخفة في الفراغ بين كلمتي "حياة" و"جديدة"، وتنظر إليّ بامتنان وتبتسم بلطف لكوني حررتها من ظلام

طبق الحلوى الذى تحملته طيلة العشرين عامًا الماضية.

نزعت بعناية فائقة وبصعوبة الأغلفة عن حلوى الكرامل التى تحولت إلى رخام بفعل الزمن، وأنا على يقين ألا أؤذى الملائكة، كانت هناك أبيات شعر هزلية بداخل كل غلاف، لكن لا يمكن القول إنها قدمت أى مساعدة فى فهم الحياة أو الكتاب فعلى سبيل المثال:

وراء الكائنتين.

تنمو الحشائش الخضراء؛

ما أريد منك

هو ماكينة خياطة.

الأكثر من ذلك، أننى بدأت أكرر هذا الهراء غير المنطقى لنفسى فى سكون الليل، قبل أن أفقد عقلى تمامًا تسللت إلى حجرتى القديمة كملاذ أخير، وسحبت للخارج الدرج السفلى من التسريحة القديمة بهدوء، وجدت بواسطة اللمس الشىء البلاستيكى المتعدد الأغراض من طفولتى كان يستخدم كمسطرة من ناحية، ومن الناحية الأخرى فتاحة للخطابات، ذات نصل غير حاد وعدسة مكبرة؛ ومثل عميل وزارة المالية الذى يفحص النقود المزيفة تحت ضوء مصباح المكتب، تفحصت الملائكة على أغلفة حلوى الكرامل ذات الأربعة أجنحة الواقفين بثبات فى الرسومات الفارسية؛ لم يكن بهم أى شىء من الملائكة التى

توقعت رؤيتهم فى أى دقيقة من نافذة الحافلة منذ سنوات عديدة، أو نسخهم المطبوعة بالأبيض والأسود ذكرتنى ذاكرتى- فى محاولة لتبدو مشغولة- بلا فائدة أنه عندما كنت صغيرًا، اعتاد الباعة الذين كانوا أطفالاً بدورهم أن يبيعوا حلوى الكراميل هذه فى القطارات، كنت على وشك استنتاج أن شكل الملاك تم اقتباسه من مطبوعة أوروبية ما، عندما ركزت على اسم الصانع الذى ظل يبعث لى بإشارات من ركن الغلاف.

المكونات: لوكوز، سكر، زيت نباتى، زبد، لبن، فانيليا.

حياة جديدة (ت. م)(*) حلوى كراميل منتج لشركة الملاك

للحلوى والألبان، شركة محددة.

١٨ شارع بلوومينجدال

إسكيسير.

كنت فى المساء التالى على متن الحافلة المتجهة إلى "إسكيسير". كنت قد أخبرت رؤسائى فى مجلس المدينة أن قريبًا لى منعزلاً ووحيدًا يسكن بعيدًا سقط مريضًا؛ وشرحت لزوجتى أن رؤسائى المرضى عقليا قد أرسلونى إلى مدن بعيدة ومعزولة، هل فهمتنى، أليس كذلك؟ إذا لم تكن الحياة قصة تروى بواسطة

(*) Trademark ماركة مسجلة.

أحمق لا يعرف شيئًا، إذا لم تكن الحياة مجموعة عشوائية من الشخبطة على قطعة من الورق كتبها طفل يقبض على قلم رصاص كما تفعل ابنتى ذات الثلاث سنوات أحيانًا، إذا لم تكن الحياة مجرد سلسلة قاسية من الحماقات المجردة كليًا من أى شعور، ثم من المؤكد أن هناك نوعًا ما من المنطق لكل المتع والألعاب التى بدت مصادفة لكن العم رفقى قام بوضعها هناك عندما كتب "الحياة الجديدة" وإذا كان الوضع كذلك، إذًا فالمخطط العظيم كان ليضطر أن يقصد وضع الملاك فى طريقى، هنا وهناك، كل تلك السنوات العديدة، على كل حال لو نجح بطل عادى ومحطم مثلى فى اكتشاف من فم الشخص المعنى- كما يقال- بواسطة الكلام مباشرة مع رجل الحلوى الذى قرر وضع صورة الملاك على غلاف حلوى الكرامل التى أحبها البطل فى طفولته، ثم من المحتمل أن يكون قادرًا على إيجاد العزاء، فى أمسيات الخريف عندما ينزل الحزن على روحه، فى معنى ما تبقى من حياته، بدلا من الشكوى من قسوة المصادفات.

بالحديث عن المصادفات، كان قلبى الذى يخفق وليست عينى الذى عرف أولا أن سائق الموديل الأخير لحافلة "مرسيدس" التى أخذتنى إلى "إسكيسير" كان نفس السائق الذى قاد الحافلة بنا أنا وجنان منذ أربعة عشر عامًا من مدينة صغيرة ذات مآذن إلى مدينة حولتها سيول المطر إلى مستنقع، كانت عينى-

بالإضافة إلى بقية جسدى- منشغلة بمحاولة أن تعتاد على كل وسائل الراحة الحديثة المتاحة على الحافلات مؤخرًا، مثل هدير مكيف الهواء، أضواء القراءة الفردية فوق المقاعد، متعهدو الحافلات يرتدون زيا مثل خدم الفنادق، المذاق البلاستيكى للطعام المغلف فى كيس بلاستيكى ذى ألوان زاهية ويقدم على صوانى، وفوط المائدة التى تحمل شعار المجنح لوكالة السياحة، بمجرد لمسة زر يمكن للمقاعد الآن أن تتحول إلى أفرشة تميل على سيقان غير المحظوظين الجالسين فى المقاعد التى خلفها، الآن كان مخطط للحافلات "السريعة" أن تسافر مباشرة من موقف محدد إلى موقف آخر ولا توجد أى وقفات فى مطاعم يسكنها الذباب على طول الطريق، بعض الحافلات وُضع بها مكان للحمام الذى يذكرك بالكراسى الكهربائية حيث يكره المرء أن يعلق عند وقت الحادث. كان ما ظهر لنصف الوقت على شاشة التليفزيون إعلانات تعلن عن مركبات الوكالة السياحية التى تجرنا باتجاه قلب السهب المغطى بالأسفلت. فبينما يسافر الشخص على الحافلة غافيًا أو مشاهدًا التليفزيون، يستطيع مشاهدة لمئات المرات كم من المتع السفر على هذه الحافلة بينما يغفو أو يشاهد التليفزيون. فى الوقت الحالى كان السهب الموحش والمنعزل الذى شاهدناه أنا وجنان من نافذة الحافلة ذات مرة قد تم منحه لـ"أشخاص ودودين" ونتيجة لذلك أصبح مليئًا بلوحات الإعلانات التى

تعرض السجائر والإطارات، واتخذ السهب وهجًا لألوان متنوعة وفقًا للون طلاء نوافذ الحافلة الذي يحجب الشمس - أحيانا بلون الطين البني، أحيانًا الأخضر المميز للإسلام، أحيانًا لون الزيت الخام الذي يذكرني بالمقابر، لكن بالرغم من ذلك، بالاقتراب من أسرار حياتي التي انزلقت بعيدًا وبالاقتراب من المدن المنعزلة التي دفنت في طي النسيان كما تعتقد بقية الحضارة، شعرت أنني مازلت حيًا، مازلت أتنفس بغضب، ومازلت ألاحق - دعني أوضح الأمر بهذه الطريقة، مستعيرًا كلمة من الماضي - رغبات بعينها.

افترض أنكم خمنتم أن رحلتي لم تنته في مدينة "إسكيسير" في موقع حيث كانت توجد سابقًا مكاتب ومبنى الإنتاج لشركة الملاك للحلوى واللبان في ١٨ شارع بلوومينجدال، كان هناك الآن يقف مبنى من ستة طوابق يستخدم كبيت لطلاب "مدرسة الإمام الواعظ". أخبرني الرجل الأكبر سنًا في أرشيف الغرفة التجارية لمدينة "إسكيسير" - الذي عرض عليّ شايًا بنبات الزيزفون مضافًا إليه نكهة المياه الغازية - بعد قضاء ساعات أتصفح خلال الكتب أن شركة الملاك للحلوى واللبان قد أنهت أعمالها "إسكيسير" بغرض نقل أعمالها، والذي يسجل الآن في الغرفة التجارية لمدينة "كيتاهيا".

أصبح من الواضح سريعًا في "كيتاهيا" أن الشركة قد أوقفت أعمالها هناك بعد سبع سنوات من الإنتاج

ولو لم أكن فكرت في الذهاب إلى مكتب التوثيق العام في مجلس البلدية وتتبعت الأمر وصولاً إلى حي يدعى "منزل المنصة"، لما اكتشفت أن مؤسس الملاك للحلوى واللبان- سيد محترم يسمى "ثريا"- قد رحل منذ خمسة عشر عامًا عابرًا نصف البلاد إلى "مالاتيا"، والتي كانت البلدة الأصلية للرجل الذي تزوجت ابنته الوحيدة في "مالاتيا"، عرفت أن شركة الملاك للحلوى واللبان انتعشت في آخر سنواتها منذ أربعة عشر عامًا تقريبًا، وتذكرت أن جنان وأنا قد صادفنا حلوى الكرامل الأخيرة في موقف الحافلات.

عندما لاقت حلوى كرامل "حياة جديدة" مرة أخرى تشجيعًا في "مالاتيا" والأماكن المجاورة لها، قامت الغرفة التجارية- بجهد يشبه إلى حد كبير طبع آخر عملة لإمبراطورية منهارة- بنشر مقالة في خطاباتها للعملاء متضمنة تاريخ الشركة التي صنعت حلوى كرامل ذات مرة التي كانت تؤكل في كل تركيا، مذكرة كيف كانت كرامل "حياة جديدة" تستخدم بدلاً من العملات الصغيرة عند محال البقالة وأكشاك السجائر؛ ثم بعض الإعلانات تصور ملائكة ظهرت في "مالاتيا إكسبريس"؛ وبمجرد أن أصبحت حلوى الكرامل على وشك الرجوع إلى حالتها كالعملات في جيوب الناس مرة أخرى، انتهى كل شيء عندما تمت رؤية المنتجات بطعم الفاكهة التي تم الإعلان عنها بشكل جيد والتي أنتجتها شركة عالمية كبيرة على التليفزيون، وتقوم ممثلة أمريكية شابة ذات شفاه

جميلة بتناول هذه المنتجات، كان ذلك في قرية محلية حيث اكتشفت بيع البراميل، أجهزة التعبئة والعلامة التجارية، حاولت تجميع الأجزاء من المعلومات المتوفرة من أقارب زوج الابنة عن مكان وجود صاحب مصنع شركة كرامل "حياة جديدة"، السيد المحترم الذي يدعى "ثريا"، بعد أن غادر "مالاتيا". أخذتني تحرياتي بعيداً إلى الشرق، لمدن بعيدة غامضة لم تظهر حتى في أطلس المدارس الثانوية، مثلما اعتاد الناس الهرب من الوباء ذات مرة في الماضي، هرب السيد "ثريا" وعائلته بعيداً إلى مدن مغمورة،كما لو كانوا يحاولون الهرب من السلع الاستهلاكية المبهرة ذات الأسماء الأجنبية- شكرًا لدعم الإعلانات والتليفزيون- وصلتْ من الغرب وغزت البلدة بأكملها مثل مرض مميت معدٍ.

ركبت حافلات، ونزلت من حافلات، درت حول مواقف الحافلات، مشيت عبر مناطق التسوق، بحثت في دار الوثائق، قطاع المكاتب، الأزقة الخلفية، ميادين المنطقة التي تعرض النافورات، الأشجار، القطط، المقاهي. لفترة، في كل مدينة حيث أضع قدمي، مشيت على كل رصيف، توقفت في كل مقهى من أجل كوب من الشاي، اعتقدت أنني قابلت آثار مؤامرة لا ترحم تربط هذه الأماكن بالحروب الصليبية، البيزنطية، وبالعثمانيين، ابتسمت بتساهل لأطفال الشوارع المحتكين الذين يحاولون أن يبيعوا لي عملات بيزنطية مطبوعة حديثًا، معتقدين أنني سائح: تقبلت

الأمر عندما يلل الحلاق عنقى بكولونيا لها لون البول وتسمى "بورارتى الجديدة"؛ وكنت مندهشًا لأرى أن البوابة العظيمة لواحد من أرض المعارض التى تنفتح فجأة مثل فطر عُش الغراب فى كل مكان كانت قد تم تفكيكها وجلبها من أطلال "هيتايت" ولم يكن من الضرورى بالنسبة لى أن تصبح قوة خيالى ناعمة مثل أسفلت الرصيف الذى مشيت عليه فى حرارة منتصف النهار لأفترض أن هناك شيئًا ما من الغبار أثاره الفارس الصليبى الذى استقر على نظارة مناسبة الحجم التى تمثل شعار "زيكى" للنظارات.

لكن فى أوقات أخرى شعرت أن تلك المؤامرات التاريخية والمحافظة التى أعطت هذه الأرض التى قاومت للتغيير كانت تقلص، مدركًا أن أماكن الأسواق ومحال البقالة فى المنطقة والشوارع المعلق بها الغسيل، التى كانت تبدو لى ولجنان منذ أربعة عشر عامًا صامدة وثابتة مثل قلعة سلوقية، كانت تلفحها الرياح القوية التى تهب من الغرب، كل تلك أحواض الأسماك، بالإضافة إلى السمكة التى بداخلها، الصمت المتأمل الخاص بها الذى اعتاد أن يميز أماكن التشريفة فى المطاعم فى العواصم المحلية، قامت بالاختفاء فجأة كما لو كانت استجابت لأمر مختفى، من الذى قرر فى الأربعة عشر عامًا الأخيرة أن الأزقة الخلفية المغبرة تكون مليئة بالشعارات التى تصرخ على لوحات الإعلانات البلاستيكية اللامعة؟ من الذى قطع

الأشجار فى ميادين المدينة؟ أثناء تطلعى على المبانى السكنية الأسمنتية التى أحاطت بتماثيل أتاتورك مثل حوائط السجن، تساءلت من الذى أمر أن تكون القضبان الحديدية على الشرفات متماثلة برتابة ومن الذى علم الأطفال أن يمطروا الحافلات بالحجارة؟ من الذى جاء بفكرة استخدام بعض المطهر السام ليملأ به حجرات الفنادق؟ من الذى نشر فى كل البلاد تلك الروزنامات التى عليها صور لجميلات أنجلو ساكسونيات يمسكن بإطارات شاحنات بين سيقانهن الطويلة؟ ومن الذى أصر أن من الإجبارى على المواطنين أن ينظروا لبعضهم البعض نظرات عدائية لكى يشعروا بالأمان فى الأماكن الحديثة مثل المصاعد، صفوف تغيير العملة، حجرات الانتظار؟

أصبحت مسنًا قبل الأوان، أتعب بسرعة، أمشى أقل ما يمكن، ولم أكن أعى كيف كان جسدى يُجر لمسافة طويلة من قبل جموع الناس ويختفى تدريجيًا فى وسطهم، لم أنظر فى وجوه هؤلاء الذين يزاحموننى ويدفعوننى كما أزاحمهم على الأرصفة الضيقة، ناسيًا إياهم فى اللحظة التى أراهم فيها كما أفعل مع الأسماء التى لا حصر لها على اللافتات البلاستيكية للمحامين، أطباء الأسنان، والمستشارين الماليين المتدفقة فوق الرءوس. لم أستطع فهم كيف تحولت هذه المدن الصغيرة البريئة وشوارع الأحياء التى بدت وكأنها تخرج من رسومات مصغرة- حيث مشينا أنا وجنان نتجول شاعرين بالمرح والسحر كما

لو كان سُمح لنا بدخول الحديقة الخلفية لسيدة مسنة طيبة القلب- إلى مجموعة من المراحل المخيفة التي كانت نسخًا كربونية من بعضها البعض، مليئة بعلامات الخطر ونقاط التعجب.

رأيت حانات مظلمة وبارات تعمل في أكثر الأماكن غير المناسبة، بالقرب من المساجد وبيوت المسنين، ورأيت عارضة أزياء روسية مسحوبة العينين تتجول من مدينة إلى مدينة ومعها حقيبة ملابس في يدها وتعرض الملابس على الحافلات، في دور العرض العامة، أو أماكن التسوق، ثم تبيع الملابس التي عرضتها لنساء محجبات ومغطيات رءوسهن، رأيت أن المهاجرين الأفغان الذين اعتادوا أن يبيعوا مصاحف القرآن بحجم أصبعي الصغير تم استبدالهم على الحافلات لعائلات من الروس والجورجيين الذين يبيعون ألعاب شطرنج بلاستيكية، منظار مكبر من البلاستيك "باكيلايت"، ميداليات المعارك، والكافيار من بحر قزوين، قابلت رجلاً تخيلت أنه الأب الذي مازال يبحث عن ابنته، الفتاة ذات الجينز الأزرق التي ماتت ويدها تمسك بيد حبيبها الميت بعد حادث طريق عشته أنا وجنان في ليلة ممطرة، رأيت أشباحًا لقرى كردية مهجورة نتيجة لحرب ظلت غير معلنة، ورأيت كتيبة تتجول في الأماكن المظلمة في الجبال الوعرة البعيدة، في محل لألعاب الفيديو؛ حيث يتجمع المتسربون من المدارس، الشباب العاطل، وعباقرة المدينة ليختبروا قدراتهم، حظهم، وغضبهم، شاهدت

لعبة فيديو تتطلب الحصول على خمس وعشرين ألف نقطة ليظهر ملاك اللعبة الوردى اللون- الذى صممه مصمم يابانى ونفذه شخص إيطالى- ويبتسم بلطف وكأنه يوعدنا بحظ جيد - نحن سيئى الحظ - الذين يضغطون على أزرار فى ظلام غرفة مغبرة خبيثة الرائحة، رأيت رجلا تفوح منه رائحة صابون الحلاقة "أو بى"، يحرك شفتيه، وهو يقرأ بصوت عال أعمدة الصحفى الراحل "جلال ساليق" التى اكتشفوها بعد موته، رأيت لاعبى كرة قدم من ألبانيا والبوسنة منقولين حديثًا يجلسون ويشربون الكوكاكولا مع زوجاتهم الشقراوات الجميلات فى المقاهى فى ميدان المدن الثرية الحديثة حيث تم هدم المنازل الخشبية لبناء مبان سكنية من الصلب المسلح، رأيت أيضًا بقلق أشباحًا اعتقدت أنها "سيكو" أو "سركيسوف" فى حانات قذرة، فى أماكن التسوق حيث يتدفق الناس بغزارة مثل البراغيث، أو ينعكسون على نافذة الصيدلية حيث تعكس أيضًا واجهة المتجر عبر الشارع والتى تعرض فيها الضمادات المطاطة للذين يعانون من الفتق؛ وعند حلول الليل كنت أدفن نفسى فى أحلامى الملونة بالسعادة أو فى كوابيسى إما فى غرفة فى فندق ما أو على مقعدى فى حافلة.

بينما نحن نتحدث فى الموضوع، يجب أن أذكر أنه قبل أن ينتهى بى المطاف فى "سون بازار"- والتى كانت وجهتى الأخيرة- توقفت لوقت قصير فى مدينة معزولة تدعى "ساتيك" التى كان دكتور فاين يضعها

فى قلب البلاد، لكنى وجدت أن المدينة تغيرت جداً نتيجة للحرب والهجرة، بعض فقدان الذاكرة الغريب، حشود الناس، الخوف والروائح - من المؤكد أنك خمنت من عدم قدرتى على صياغة الموقف فى كلمات، كيف أن عقلى أصبح مشتتاً وسط الجموع التى تتجول فى الشوارع بلا هدف - حتى أننى أصبحت قلقاً، خائفاً أن ذكريات جنان- التى كانت كل ما بقى لى- قد تتحطم، اصطفت الساعات الرقمية اليابانية الصنع فى نافذة الصيدلية لتعلن- فى الحقيقة والخيال- أن مؤامرة دكتور فاين الكبرى المضادة ومنظمة المخبرين التى فى خدمته قد انهارت منذ وقت طويل؛ ولكى يزداد الأمر سوءاً، اصطف التجار أصحاب الأكشاك وبضائع مثل المشروبات الغازية، عربات، آيس كريم، وأجهزة التليفزيون فى المنطقة المخصصة للتسوق، عارضين لافتاتهم ذات الأسماء التجارية الأجنبية فى صفوف.

وبالرغم من ذلك، البطل الأحمق سيئ الحظ الذى كنته، محاولاً اكتشاف معنى الحياة فى هذه الأرض التى تعانى من الإفلاس، اعتقدت أننى قد أجد مكاناً ظليلاً لطيفاً وهادئاً يوفر لى ملاذاً سعيداً لأحلامى، حيث يمكننى تنشيط ما فى ذاكرتى من وجه جنان، ابتساماتها، والأشياء التى قالتها الذلك مشيت باتجاه المنزل الذى عاش فيه دكتور فاين ذات مرة مع بناته الجميلات، وشجرة التوت التى كانت موقع ذكرياتى، أسلاك الطاقة وأقضاب الكهرباء جاءت بالكهرباء إلى

الوادي. لكن لم يكن هناك أي منزل في الجوار، ولم يكن هناك شيء يُشاهد سوى بعض الأطلال وبدا أن هذه الأطلال لم تكن بفعل الزمن لكنها نتيجة لسلسلة من الكوارث. حدث ذلك عندما رأيت الأحرف تعلن عن بنك "آيه-كي" موضوعة بطريقة ملحوظة على واحد من التلال التي تسلقناها أنا ودكتور فاين ذات مرة حتى أنني بدأت أفكر- في تعجب- أنني صنعت عملا جيدًا بقتل حبيب جنان السابق، الذي آمن أنه يستطيع الحصول على سلام الزمن الأبدي وغموض الحياة _ أيًا ما تريد أن تسميها _ من خلال الكتابة وإعادة كتابة نفس السطور لسنوات لا تنتهي، لقد أنقذت ابنه- بالرغم من كل شيء- من أن يشاهد كل هذه المشاهد المتهالكة، من الغرق في طوفان من ألعاب الفيديو ولوحات الإعلانات، من الاضطرار إلى أن يصبح أعمى في عالم يفتقر للضوء والدفء، ولكن من يحيطني بالضوء وينقذني من هذه الأرض المحاطة بالغرابة والقوة المتحفظة؟ ذلك الملاك الذي استطعت ذات مرة أن أحلم بألوانه الرائعة البراقة على شاشة خيالي وكلماته التي استطعت سماعها في قلبي الآن لم يعطني أية إشارة.

تم إيقاف القطار المتجه إلى "فيران باج" نتيجة للمتمردين الكرديين، لم يكن القاتل ينوي العودة إلى مسرح جريمته، حتى بعد مضي كل تلك السنوات، لكن طالما أنه يجب أن آمر بـ"فيران باج" لكي أصل إلى "سون بازار" حيث- طبقًا لمعلوماتي- يعيش مع حفيده

السيد المدعو "ثريا" الذى فكر فى وضع مـلاك على حلوى الكرامل الخاصة به، كان الوضع حرجًا أننى أخذت حافلة النهار عبر هذه المنطقة حيث محاربى العصابات الكرديين كانوا نشيطين وبالمضى قدمًا كان ما استطعت رؤيته من "فيران باج" من نافذة الحافلة، هذا المكان أيضاً فقد كل ما قد يكون يستحق التذكر؛ ولكنى فقط فى حالة أن يرى أحد ما القاتل ويتذكر شيئاً، دفنت رأسى فى جريدة "ميليت" بينما أنتظر الحافلة أن تغادر.

عندما بدأت الحافلة تتجه شمالاً، أصبحت الجبال مدببة بحدة ويمكن ملاحظتها فى الضوء الأول للصباح، ولم استطع أن أقرر إذا كان الصمت بداخل الحافلة من جراء الخوف، أو لأننا جميعاً كنا- بطريقة مـا- نشعر بالدوار من الدوران والدوران حـول هذه الجبال القاسية، توقفنا من وقت لآخر نتيجة لنقاط التفتيش العسكرية حيث يتم التفتيش على بطاقاتنا الشخصية، أو لإنزال شخص ما سيضطر للمشى بصحبة السحاب فقط طوال الطريق إلى قريته المنعزلة عن الطريق حتى أن الطيور لا تتوقف هناك، لم أستطع التوقف عن التحديق بإعجاب فى الجبال التى كانت رابطة الجأش حتى أنها اعتادت على كل هذه القسوة التى شاهدتها على مدى قرون، قبل أن يلقى القارئ الذى رفع حاجبًا وهو يقرأ العبارة السابقة هذا الكتاب جانبًا فى اشمئزاز الذى يوشك على نهايته، اسمح لى أن أقول فقط إن قاتلاً أفلت

من العقاب مسموح له بكتابة هذا النوع من الجمل الوقحة.

افترضت أن "سون بازار" كانت تحت تأثير محاربى العصابات الكرديين، يمكن أن يقال إن المدينة كانت أيضاً تحت تأثير الحضارة الحديثة لأن فى اللحظة التى خطوت خارجًا من الحافلة، قابلنى صمت ساحر قادمًا من حكاية خيالية غامضة عن السلاطين السعداء والمدن المسالمة. لا يوجد شيء واحد يجعلنى أعتقد: "هنا سأتجول وأتجول". من الواضح أننى وصلت- كما كنت أفعل دائماً فيما سبق- فى نفس المكان حيث غُمرت بلوحات الترحاب من كل هذه البنوك، وكل تجار الجيلاتى، الثلاجات، السجائر، وأجهزة التليفزيون. هنا رأيت قطة. كانت تلعق نفسها بإيقاع متكاسل وبدت راضية عن نفسها للغاية فى الظل الآمن للحاجز الخشبى الملحق بالمقهى الذى يطل على التقاطع الذى من المؤكد أنه ميدان المدينة، جزاراً سعيدًا أمام محل الجزارة، بقالاً رائق البال أمام محل البقالة، بائعًا ناعسًا والذباب الناعس أمام كشك للسلع، كانوا جميعاً يجلسون فى ضوء الصباح الهادئ، يذوبون بسلام فى الضوء الذهبى فى الشارع كما لو كانوا على وعى تام أن أكثر الأنشطة العادية لكونك حياً هى ببساطة السعادة الكبرى، بالنسبة للغريب فى مدينتهم الذى نظروا إليه بطرف أعينهم، كان قد انضم فى الحال إلى هذا المشهد من الخرافات، متخيلاً أن جنان التى كان يحبها بجنون ذات مرة

سوف تظهر له من أقرب زاوية، حاملة فى يديها بعض الساعات التى تنتمى إلى أسلافنا، أو مجموعة من القصص المصورة القديمة، وعلى شفتيها ابتسامة تغيظنى.

عندما سرت بطول الشارع الأول أصبحت واعيًا بهدوء ذهنى؛ فى الشارع الثانى، شجرة صفصاف باكية لمستنى بحنان؛ وعندما قابلت طفلاً ذا جمال ملائكى ورموش طويلة فى الشارع الثالث، فكرت فى أن أخرج من جيبى قصاصة الورق التى عليها العنوان وأسأله عن الطريق. هل كانت أبجدية عالمى البالى أجنبية بالنسبة له؟ أو هل لا يستطيع الطفل القراءة؟ لم أكن أعرف، لكن عندما نظرت إلى قصاصة الورق التى نجحت أن أجعل موظفًا محليًا يكتب لى العنوان على بعد مائتى كيلومتر جنوباً من هنا، أدركت أن الخط بالكاد مقروء. حاولت استيضاح المقاطع بصوت عال، لكن قبل أن أستطيع قول شارع "راى هيل"، أخرجت سيدة عجوز رأسها من شرفتها وقالت: "هناك.. ها هو هناك، الشارع الذى يتجه لأعلى".

الفصل السابع عشر

يجب أن تكون نهاية الطريق أعلى التل، هذا ما كنت أفكر فيه عندما صدمتنى عربة تجرها الخيول تحمل حاويات معدنية مملوءة عن آخرها بالماء وهى تنحرف داخلة الشارع، افترضت أن الماء كان لبناية تحت الإنشاء فى مكان ما أعلى التل، أثناء ما كنت أشاهد الماء وهو يخرج من الحاويات بينما تصعد العربة، تساءلت لماذا صُنعت الحاويات من الحديد المغطى بالزنك المجلفن وليس البلاستيك، هل مازال البلاستيك لا يظهر فى هذا المكان؟ لم أتبادل النظرات مع السائق المنشغل ولكن مع الحصان وكنت خجلاً من نفسى، كان شعر رقبته مبللاً بالعرق؛ كان غاضبًا ويائسًا؛ وهو تحت ضغط ويجر وزنًا ثقيلاً، ما كان يبدر منه يمكن تسميته ألمًا صافيًا وللحظة رأيت نفسى فى عينيه الكبيرتين الحزينتين البائستين واكتشفت أن حالة الحصان كانت أسوأ بكثير من حالتى، تسلقنا شارع "راى هيل"، مصحوبين بصوت حاويات الماء المعدنية المزعج، العجلات تصدر صوتًا على الرصيف الحجرى، ونفسى المعتادة تلهث صعودًا على التل، انحرفت عربة الحصان إلى فناء صغير حيث يتم خلط المونة، ودخلت أنا- بمجرد أن اختفت الشمس وراء سحابة سوداء - الحديقة ثم البيت

المظلم والغامض الذى يخص المخترع الأول لحلوى كرامل "حياة جديدة". مكثت ست ساعات فى هذا المنزل الحجرى المحاط بحديقة.

كان السيد المحترم المدعو "ثريا" - صاحب مصنع حلوى كرامل "حياة جديدة" الذى قد يمدنى بالمفتاح لأسرار حياتى - واحد من هؤلاء الشيوخ - فى العقد التاسع من العمر - الذين يدخنون علبتين من سجائر "سامسون" فى اليوم كما لو كان التبغ يحتوى على أكسير يطيل العمر. حيانى كما لو كنت صديقًا فى عمر حفيده، أو كصديق حميم للعائلة: وكما لو كان يكمل قصة توقف عند منتصفها أمس. استمر ليخبرنى عن الجاسوس المجرى الذى جاء إلى مكان عمله فى "كيوتاهيا" فى يوم من أيام الشتاء ثم تحدث عن متجر للحلوى فى "بودابست"، عن القبعات المتماثلة التى ارتدتها كل النساء للذهاب لحفل راقص فى اسطنبول فى الثلاثينيات، على النقيض قامت النساء التركيات ببذل مجهود لبيدين جميلات، وهذا من الأسباب التى جعلت حفيده - الذى ظل يغادر الغرفة والذى كان فى نفس عمرى تقريبًا - يفشل فى أن يتزوج، داخلاً فى تفاصيل خطبتين باءتا بالفشل. كان سعيدًا لسماع أننى متزوج، موضحًا أنها علامة صحيحة على وطنية مندوب تأمين شاب مثلى راغبًا فى القيام برحلات طويلة تحرمه من زوجته وابنته لكى يتعرف على البلاد، منذرًا المواطنين وتهديدهم ليحموا أنفسهم ضد الكوارث.

كان فى نهاية الساعة الثانية حين أخبرته أننى لا أبيع تأمين على الحياة، ولكنى كنت فضوليًا بخصوص حلوى كرامل "حياة جديدة". تململ فى كرسيه، واستدار بوجهه ناحية الضوء الرمادى القادم من الحديقة، وسألنى على غير المتوقع إذا كنت أعرف الألمانية، ودون أن ينتظر إجابتى، قال: "شاسهات". ثم أوضح أن الكلمة "تشكمات" هى مزيج أوروبى صنع من الكلمة الفارسية للملك، "شاه"، والكلمة العربية "مات" كنا نحن من علم الغرب لعبة الشطرنج. فى ساحة الحرب المادية، تصارع الجيوش السوداء والبيضاء الخير والشر فى أرواحنا. وماذا فعلوا؟ لقد صنعوا ملكة بدلا من "وزيرنا" وأسقفا بدلا من "الفيل": لكن هذا لم يكن مهمًا فى حد ذاته. ما كان مهمًا، أنهم قدموا لنا الشطرنج مرة أخرى على أنه نصر لذكائهم ومفاهيمهم العقلانية فى عالمهم. اليوم نحن نكافح لنفهم أحاسيسنا الخاصة خلال طرقهم العقلانية، مفترضين أن هذا ما أصبحت تعنيه كلمة "متحضر".

هل لاحظت أنا - لقد لاحظ حفيده - أن طيور اللقلق القادمة إلى الشمال فى نهاية فصل الربيع والمهاجرة جنوبًا فى أغسطس رجوعًا إلى إفريقيا أصبحت تطير على ارتفاع أعلى مما اعتادت أن تفعل فى الأيام السعيدة؟ هذا لأن المدن، الجبال، الأنهار التى تطير فوقها كانت فى حالة يرثى لها حتى أن تلك الطيور لم تعد تريد النظر إلى مأساة كل تلك

الأراضي، بحديثه عن طيور اللقلق بمثل هذا الحنان تذكر فتاة "درابيزين" فرنسية ذات سيقان جميلة كانت تقدم عرضًا في اسطنبول منذ خمسين عامًا. ثم تحدث عن معارض وسيرك الأيام الخوالي، وهو يصف بتفاصيل دقيقة نوع الحلوى التي كانت تباع في هذه الأماكن، التي كانت تشتمل على لون محلى أكثر من الشجن.

قاموا بدعوتي إلى مائدتهم للغداء؛ وبينما نحن نأكل ونشرب بيرة "توبورج" الباردة، أخبرني السيد المسن قصة عن مجموعة من الفرسان علقوا في "أناتوليا" خلال الحرب الصليبية الثامنة ونزلوا إلى تحت الأرض عبر كهف في "كابادوشا". استمر تأثيرهم يزداد على مدى القرون؛ قام أولادهم وأحفادهم بتوسيع الكهوف وحفروا ممرات وطرقًا تحت الأرض، اكتشفوا كهوفًا جديدة، ووجدوا مدنًا تحت الأرض، أحيانا يظهر على السطح عملاء، متخفين في هيئة مختلفة من أرض المتاهات التي بلا شمس حيث عاش جموع من الصليبيين، مخترقين مدننا وشوارعنا ويبدءون في إلقاء الخطب علينا حول مجد الحضارة الغربية،وهكذا فأسلاف الصليبيين الذين يدمروننا تدريجيًا بالحفر تحت أراضينا يمكنهم ان يرتفعوا فوق الأرض بلطف ليدمروا أفكارنا، هل أعرف أن هؤلاء الجواسيس كانوا يُعرفون بـ"أو- بي"؟ وأنه كان هناك نوع من كريم الحلاقة أيضًا يدعى "أو بي"؟

لا أعرف إذا كان "ثريا" هو الذي أثار موضوع إدمان الحمص المحمص الذي اعتبره أتاتورك كارثة قومية كبرى، أو إذا كنت أتخيل ببساطة ذلك في لحظتها وهل هو الذي قاد المحادثة إلى دكتور فاين، أو كنت أنا الذي أشرت إليه من خلال فكرة ما؟ لا أستطيع أن أحدد. قال إن خطأ دكتور فاين أنه كان ماديا يضع ثقته في الأشياء، مفترضًا أنه يستطيع أن يمنع إهدار الروح الموروثة في الأشياء بواسطة حفظها، لو كان هذا صحيحًا، إذًا فأسواق البراغيث كانت تغرق في الإدراك الروحي- إدراك- ضوء- مشع- وهاج - منتجات عديدة تستخدم مثل هذه الكلمات، كلها مزيفة - مصابيح الضوء ، الحجر، ما لديك. أدرك دكتور فاين أنه لا يستطيع إنقاذ أرواحنا الضائعة بمنع فقدان الأشياء، فلجأ إلى الإرهاب.. بديهيًا، ناسب ذلك الأمريكان جدًا؛ فالمخابرات المركزية الأمريكية هي الأفضل في الخدع القذرة، اليوم تعوى الرياح حيث وقف منزله ذات مرة، وهربت بناته الجميلات واحدة بعد الأخرى، وكان ابنه قد قتل بالفعل، أما بالنسبة لمنظمته فقد انهارت؛ وربما كما يحدث عندما تسقط الإمبراطوريات الكبرى، يعلن كل قاتل نفسه كحاكم على إقطاعه المحكوم ذاتيًا، كان هذا السبب في أن الأرض العظيمة التي من خلال المخطط الماهر الخاص بالعبقري الاستعماري تمت تسميتها "بالشرق الأوسط" كانت تعج بمغفلي الأمراء الاستعماريين الحمقى الذين أعلنوا استقلالهم، أشار

بسيجارته ليس إلىّ ولكن إلى الكرسى الخالى الذى بجانبى موضحًا المتناقضة الاستعمارية التى شرحها: نحن فى نهاية تاريخ الحكم الذاتى الذى يتعلق بالأراضى المستعمرة .

كان المساء يحل على الحديقة الظليلة كما لو كان يحل على مقابر، مكبرًا هدوءها، عندما فتح الموضوع الذى كنت أنتظر لساعات أن أقترب منه فجأة، كان يخبرنى عن مبشر كاثوليكى يابانى قابله فى الأماكن المجاورة لـ"كايسرى" الذى حاول أن يجرى عملية غسيل مخ فى ساحة مسجد، لكنه غير الموضوع فجأة: لم يستطع تذكر من أين فى هذا العالم قد جاء بفكرة الماركة المسجلة "حياة جديدة" لكنه اعتقد أن الاسم السحرى كان مناسبًا لأن حلوى الكرامل لها ارتباطات بالنسبة للأشخاص الذين عاشوا على هذه الأرض مدة طويلة نسبيا من الوقت، الذين ربطوا ماضيهم المفقود بمذاق جديد ووعى جديد، على النقيض مما تم استنتاجه عمومًا، لم تكن كلمة الكرامل ولا الحلوى نفسها تقليدًا أو استيرادًا فرنسيًا بالرغم من كل شىء كلمة "كارا" _ كما أصبحت عندما انتقلت إلى لغات الهندية الأوروبية _ كانت أكثر الكلمات أهمية فى لغة الأشخاص الذين عاشوا هنا لآلاف السنين، وهى تمثل سابقة لكل الكلمات التى تأخذ صفحات عديدة فى القاموس، وهى تعنى الأشياء غامقة اللون، الحسنة والسيئة؛ لذلك قام بضم الكلمة لمدة اثنتين وثلاثين

سنة في كل غلاف لحلواه، التي كانت جيدة وغامقة اللون.

"نعم ولكن ماذا عن الملاك؟" استفسر مرة أخرى المسافر سيئ الحظ، مندوب التأمين الصبور، البطل التعس.

بدلاً من الإجابة، أخذ السيد العجوز يسرد ثمانية من عشرة آلاف من أبيات الشعر الهزلي السخيف الذي كان يضعه بداخل الأغلفة، أشارت الملائكة الصادقة التي لم تكن مخادعة أو مناسبة لذكريات طفولتي إليّ من بين سطور أبيات الشعر السخيف، حيث تعد مقارنتهن بأفضل الجميلات، وتشبيههن بالنساء الصغيرات الناعسات، الغارقات في سحر الخرافات، وتدريجيًا منحوهم سمات طفولية كانت كريهة بالنسبة لي .

اعترف السيد العجوز أنه هو بنفسه قد كتب الأشعار التي سردها، فلقد كتب تقريبًا ستة آلاف قصيدة من عشرة آلاف قصيدة وُضعت في حلوى كرامل "حياة جديدة" خلال هذه السنوات الذهبية عندما وصل الطلب على الحلوى إلى نسب غير معقولة، كان هناك بعض الأيام حين يأتي بأفكار عشرين من مثل هذه القصائد. " أناستسيوس"- الذي صك أول قطعة نقود بيزنطية- تم طبع وجهه على الوجه الأعلى للعملة، أليس كذلك؟ ذكرني صانع الحلوى العجوز كيف اعتادت الحلوى الخاصة به أن

تحفظ فى برطمانات زجاجية بين الميزان والخزينة، كيف كانت المنتجات التى تحمل بصمته موجودة فى ملايين الجيوب، كيف كانت ذات مرة تستخدم بدلاً من العملات المعدنية، مخبرًا إياى أنه تذوق كل الأشياء الفاخرة فى الحياة التى قد يستمتع بها إمبراطور ما اختلق ذات مرة نظام صك العملة الخاص به، مثل الثروة، القوة، الحظ السعيد، النساء الجميلات، الشهرة، النجاح، السعادة، كان هذا هو سبب عدم حاجته للحصول على وثيقة تأمين على الحياة، ولكن ليعوض الأمر لصديقه مندوب التأمين الشاب، يشرح لماذا وضع صورة لملاك على حلوى الكرامل الخاصة به وهو فى شبابه عندما كان يتردد على دور العرض، كان يحب مشاهدة- بشكل خاص- "مارلين دايتريش". لقد عشق بالفعل الفيلم الذى يسمى "ذا بلو أنجل" الذى كان يعرض هنا كـ "الملاك الأزرق"، المأخوذ عن رواية للكاتب الألمانى "هينريش مان". قرأ السيد العجوز الرواية الأصلية، التى كان عنوانها "الأستاذ أنرات". إن البروفسور "أنرات"- الذى جسد دوره الممثل "إميل جانينجيس"- مدرس متواضع فى مدرسة ثانوية يقع فى حب امرأة مومس بالرغم من أن المرأة تبدو ملائكية، فى الواقع....

هل كانت هناك رياح قوية بالخارج تصفر خلال الأشجار؟ أو هل كان عقلى يستمع لنفسه وهو ينجرف بواسطة الرياح؟ لبرهة لم أكن "هناك". كما يقول المدرسون الطيبون عن الطلاب الأبرياء الحالمين

المرتبكين كفاية ليكونوا مدللين، حلقت صورة شبابى التى غلفها الضوء المنبعث من كتاب "الحياة الجديدة" عندما قرأته لأول مرة وهى تمر أمام عينى مثل الأضواء الوهاجة لسفينة رائعة تختفى بلا أثر فى ظلمة الليل وفى صمت حيث تزلت، لم يكن الأمر وكأننى لا أعرف أن الرجل العجوز كان يحكى القصة الحزينة فى الفيلم والرواية التى أحبها فى شبابه، ولكن كانت كما لو كنت لا أسمع شيئًا، أو أرى شيئًا.

والآن جاء حفيده وأضاء الأنوار، فى هذه اللحظة أدركت ثلاثة أشياء فى الوقت نفسه : ١ - كانت النجفة التى تتدلى من السقف مماثلة تمامًا للتى تقدمها ملاك الرغبة فى خيمة المسرح فى مدينة "فيران باج" إلى الفائز المحظوظ كل ليلة بمصاحبة نصيحة فريدة عن الحياة. ٢ - أصبحت الحجرة مظلمة جدًا لدرجة أننى لم أعد قادرًا على رؤية صانع الحلوى العجوز لبرهة من الوقت- الذى كان يدعى "ثريا" التى تعنى " مجموعة النجوم " ، الدب القطبى- ٣ - لم يستطع أن يرانى أيضًا لأنه كان أعمى.

قبل أن يسخر قارئ عدائى ومحتقر من عقلى وانتباهى لأنى لم أدرك لمدة ست ساعات حقيقة أن الرجل أعمى، هل من الممكن أن أسأل بعدائية إذا ما كان هذا القارئ قد أعار اهتمامًا وذهنًا صافيًا لكل منحى فى هذا الكتاب؟ دعنى أرى إذا كنت تذكر الآن وصف المشهد- على سبيل المثال- عندما ذكر الملاك لأول مرة؟ أو هل تستطيع القول على الفور ما نوع

الإلهام وفرته قائمة العم رفقي للشركات في عمله الذي يدعى "أبطال الطرق الحديدية" الذي أمده بـ"الحياة الجديدة"؟ هل بدأت تفهم المفاتيح التي من خلالها أدركت أخيرًا أن محمد كان يفكر في جنان عندما أطلقت عليه الرصاص في دار العرض؟ في حياة الذين هم مثلي الذين خرجت حياتهم عن مسارها، يقدم الحزن نفسه في صورة غضب الذي يريد التعبير عن نفسه كمهارة والرغبة في أن تكون ماهرًا هي التي تفسد كل شيء في النهاية.

تخطيت أحزاني الخاصة، وأدركت أن الرجل المسن كان أعمى عندما لاحظت الطريقة التي نظر بها لأعلى إلى النجفة التي تلقي ضوءها علينا، وأنا أنظر إليه للمرة الأولى بنوع من التحفظ، نوع من الإعجاب والتقدير- أو بصراحة- نوع من الحسد. كان طويلاً، رشيقا ونحيفًا- بالأخذ في الاعتبار سنه- وكان لائقا إلى حد ما، عرف كيف يوظف يديه وأصابعه بمهارة. مازال عقله يتحرك بكثير من الطاقة، وكان قادرًا على التحدث لست ساعات دون أن يفقد اهتمام القاتل الحالم الذي يرفض بعناد أن يصدق أنه أي شيء آخر سوى مندوب تأمين، لقد كان قادرًا على تحقيق نوع من النجاح في شبابه الذي كان مليئًا بالسعادة والتحفيز؛ وعلى الرغم من أن نجاحه قد ذاب في معدة ملايين الناس، وحتى الستة آلاف قصيدة من الشعر الهزلي التي كتبها انتهى بها المطاف في صفائح القمامة. فقد منحوه الشهرة وفكرة متفائلة عن مكانه

فى العالم؛ والأكثر من ذلك، كان قادرًا على أن يدخن علبتى سجائر فى اليوم-باستمتاع كبير- حتى أصبح فى الثمانين ونيف من عمره.

فى الصمت أحس بحزنى خلال نوع من القدرة على الإدراك الذى يأتى مع الإصابة بالعمى، وحاول أن يعوضنى عنه: هكذا كانت الحياة: هناك الحادثة، هناك الحظ، هناك الحب، هناك الوحدة: هناك الفرح: هناك الحزن: هناك الضوء، الموت، وأيضًا السعادة التى كانت هناك ولكن غير واضحة؛ من الضرورى ألا يتجاهل المرء كل هذا. فى الثامنة كان هناك بث للأنباء على الراديو الذى أداره حفيده فى الحال؛ وهل يمكن أن أبقى وأشاركهم وجبتهم المسائية.

اعتذرت كثيرًا، مدعيًا أن كثيرًا من الناس كانوا ينتظروننى ليحصلوا على بوليصة تأمين فى مدينة "فيران باخ". وبسرعة كافية قبل أن يعرف أى شخص ما يجرى، خرجت من الباب نزولاً إلى ممر الحديقة ثم الشارع وبمجرد أن أصبحت بالخارج رأيت كيف كان الهواء متجمدًا فى هذه الأمسية الربيعية، خمنت كم يكون الشتاء قاسيًا هنا، ووجدت نفسى أقف فى وحدة أكثر من أشجار السرو الواقفة فى الفناء.

ماذا كنت سأفعل بعد الآن ؟ لقد عرفت ماهو ضرورى - كما عرفت ما ليس ضروريًا - وقد وصلت إلى نهاية كل المغامرات، الرحلات، والألغاز التى استطعت اختراعها بنفسى، كانت مرحلة الحياة التى

يمكن أن أدعوها مستقبلي مختفية في الظلام تمامًا مثل مدينة "سون بازار" وراء التل التي- بعض النظر عن بعض أضواء الشارع الكثيبة- كانت غارقة في الظلام، معزولة تمامًا عن الحياة الليلية المتلألئة، الزحام الملئ بالحياة، والشوارع المضاءة جيدًا، لكن عندما بدأ كلب ما يزمجر في جدية، نزلت من على التل.

أثناء انتظاري للحافلة التي ستأخذني مرة أخرى إلى مرح وصخب لافتات إعلانات البنوك، السجائر، المشروبات، أجهزة التليفزيون، تحولت بلا هدف في شوارع هذه المدينة الصغيرة التي تقع عند نهاية العالم: الآن لم يعد لدي المزيد من الأمل أو الرغبة في أن أصل لمعنى الحقيقة الموحدة للعالم، للكتاب، ولحياتي، وجدت نفسي وسط مظاهر حرة لا تصف ولا تلمح لأي شيء، شاهدت خلال نافذة مفتوحة أسرة مجتمعة حول مائدة يأكلون عشاءهم، هكذا كانوا، كما تعرفهم ببساطة، عرفت أن هناك دروسًا لتعليم القرآن من ملصق معلق على حائط المسجد، عند المقهى ذي الحائط الخشبي، رأيت بلا كثير من الاهتمام أن مياه غازية "برانش" لاتزال مثابرة ضد كل أنواع الهجمات من قبل كوكاكولا، بيبسي، وشويبس، شاهدت رجل الإصلاحات أمام محل الدرجات عبر الشارع وهو يصلح إطار دراجة في الضوء القادم من داخل المحل، وصديقه الذي يتسكع معه، يدخن ويثرثر بلا انقطاع.. لماذا اعتقدت أنهما صديقان؟

ربما كانا متورطين فى صراع ويفوران بالعداء لبعضهما البعض، فى حالتهم، لم يكونا ممتعين إلى حد زائد ولا مملين إلى حد زائد، بالنسبة لهؤلاء القراء الذين يعتقدون أننى متشائم جدًا، دعونى أوضح الأمر بطريقة صحيحة ففى أثناء جلوسى فى مقهى ذى تكعيبة خشبية رائعة، فضلت مشاهدتهما على عدم مشاهدتهما.

وصلت الحافلة وغادرت مدينة "سون بازار" بهذا الشعور، درنا حول جبال وعرة مرارًا وتكرارًا، ثم استمعنا بقلق إلى صرير الفرامل ونحن ننزل التل، توقفنا عدة مرات عند نقاط التفتيش حيث أخرجنا بطاقات هويتنا من أجل الدورية العسكرية كنا قد تخطينا الجبال، والمنطقة العسكرية ونقاط التفتيش عندما بدأت الحافلة تزيد من سرعتها كما تشاء، وسارت بجنون وبلا تحكم عبر الأرض المستوية، وبدأت أذنى تلتقط النغمات الحزينة فى الموسيقى المألوفة التى تصنعها زمجرة المحرك وصرير الإطارات

ربما لأن الحافلة كانت الأخيرة من الحافلات قوية التحمل، متينة ولكنها مزعجة لشركة "ماجيرس" القديمة التى اعتدت أنا وجنان أن نستقلها، ربما لأننا كنا فوق طريق أسفلتى خشن حيث تدور الإطارات ثمانى مرات فى الثانية مصدرة ذلك الصوت الأنينى المميز، ربما لأن ماضيى ومستقبلى ظهرا فى الألوان البنفسجية والرمادية على الشاشة حيث العشاق

الذين أساموا فهم بعضهم البعض ينتحبون فى فيلم من صنع "ستوديوهات يسليسام" - لا أعرف لماذا، ولم أعرف لماذا - ربما لأن غريزة ما قادتنى لأجد المعنى الذى لم أستطع إيجاده فى الحياة فى النمط الخفى للصدفة. جلست فى المقعد رقم ٣٧ _ ربما لأنى ذهبت إلى المقعد حيث كانت ستجلس. رأيت الليل المخملى المظلم والذى بدا غامضًا وجذابًا للغاية بالنسبة لنا حتى أنه بدا كما لو كان بلا نهاية مثل الوقت. الأحلام، الحياة، الكتاب وعندما بدأت الأمطار التى بدت أكثر منى حزنًا فى الطرق على النوافذ، رجعت للوراء فى مقعدى وتركت نفسى للموسيقى والذكريات.

بدأت السماء تمطر بشدة متزايدة، موازية للحزن الذى ازداد فى قلبى، ثم تحولت إلى سيل عند منتصف الليل، مصحوبة برياح تطيح بحافلتنا وبرق بنفس اللون البنفسجى لزهور الحزن التى تنمو فى عقلى. مرت الحافلة القديمة التى يتسرب إليها الماء من حول النوافذ بمحطة للوقود غير مرئية بسبب السيل والقرى الموحلة المليئة بأشباح من مياه، وهدأت من سرعتها لتأخذ المنحنى إلى استراحة، عندما غمرتنا اللافتة النيون التى تقول "مطعم شارع الذكريات" بالضوء الأزرق. أعلن السائق المرهق، "ثلاثون دقيقة، استراحة إجبارية".

كنت أنوى ألا أتحرك من مقعدى لأشاهد بمفردى الفيلم الحزين الذى أدعوه ذكرياتى: لكن الأمطار التى

تدفقت بغزارة على سطح الحافلة القديمة كانت تكثف الحزن الثقيل بشدة في قلبي. كنت خائفًا من أن أكون قادرًا على تحمل هذا؛ هربت مع بقية الركاب نقفز خلال الوحل، والجرائد والأكياس البلاستيكية تحمي رؤوسنا.

اعتقدت أن الاختلاط مع الزحام قد يكون جيداً لي: سوف أتناول بعض الحساء وحلوى المهلبية، وأنا ألهى نفسي بمتع مادية في الحياة، بدلاً من أن أصبح عاطفياً وأنا أقلب خلال الجزء الفائت من حياتي التي تركتها خلفي. قد ألملم شتات نفسي، محولاً الأفكار العقلانية الخاصة بعقلي على الجزء الممتد أمامي، صعدت درجتي السلم، جففت شعري بمنديلي، ودخلت الحجرة المضيئة بشكل جيد التي تفوح فيها رائحة الدهون والسجائر، سمعت بعض الموسيقى التي تركتني أرتجف.

مثل شخص عاجز خبير يستطيع أن يشعر بنوبة قلبية وهي تأتي، أتذكر أنني تعثرت بيأس في محاولة أن آخذ حذري لأبتعد عن الأزمة، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ لم أستطع أن أطلب - وهل أستطيع؟ - منهم أن يغلقوا الراديو، فقط لأنه عندما صادفت أنا وجنان بعضنا البعض بعد الحادثة، سمعنا نفس النغمة، وأيدينا متشابكة، لم أستطع الصراخ لأخبرهم أن يزيلوا صور نجوم السينما، لمجرد أننا قضينا- أنا وجنان- وقتاً طيباً ونحن ننظر إلى الصور، نضحك

ونتناول وجبتنا هنا فى هذا المطعم بالذات الذى يدعى "شارع الذكريات". وطالما أننى ليس معى فى جيبى أقراص النيتروجلسرين المضادة لأزمتى القلبية فقد وضعت على صينيتى طبقًا من حساء العدس وبعض الخبز، وكأس "راكى" مزدوجًا، ورجعت إلى مائدة فى الركن.. بدأت الدموع المالحة تسقط فى الحساء الذى قلبته بملعقتى.

لا تتركونى أستمر مثل أولئك الكتّاب الذين يقلدون "تشيخوف" محاولين استخراج من الملى كرامة كونى إنسانا التى يمكن لكل القراء المشاركة فيها؛ بدلاً من ذلك، بوصفى كاتبًا من الشرق،اسمح لى أن أنتهز الفرصة لأحكى قصة.. باختصار: رغبت فى أن أعزل نفسى عن الآخرين، شخص مميز كان لديه هدف مختلف تماماً، هنا فى الجوار، يعتبر هذه جريمة لا تغتفر. قلت لنفسى لقد تلقيت هذا الحلم المستحيل من قصص "العم رفقى" التى قرأتها فى طفولتى، لذلك فكرت مرة أخرى فيما كان يفكر القارئ الذى يجب أن يستخلص أخلاقيات القصة كل هذا الوقت؛ كان لأن الأشياء التى قرأتها فى طفولتى أنذرتنى مسبقاً أننى ساتأثر بشدة بـ "الحياة الجديدة". ولكن مثل الرواة الكبار القدماء للقصص التحذيرية، لم أصدق عبرة القصة بنفسى، لذلك ظلت قصة حياتى ببساطة حكاية فردية خاصة بى وفشلت فى أن تخفف آلامى، لقد خفق قلبى منذ وقت طويل لهذا الاستنتاج القاسى الذى تنزل على عقلى ببطء، كنت

انسحب بدون تحكم مع الموسيقى التى تنبعث من الراديو.

أدركت أن حالتى لم تعط انطباعًا جيداً على أصدقائى الركاب الذين كانوا يقلبون حساءهم ويزدردون أطباق الأرز، لذلك تسللت إلى دورة المياه، غسلت وجهى ببعض الماء الدافئ والغامق الذى نزل متدفقاً من الصنبور، مغرقاً ملابسى بالماء؛ مسحت أنفى، وأخذت وقتى، ثم رجعت إلى مائدتى.

بعد فترة، عندما نظرت إليهم من ركن عينى رأيت الركاب الآخرين يتأملوننى من ركن عيونهم بطريقة ما بدت مريحة. الآن ظهر بائع متجول عجوز كان ينظر إلىّ بدوره وهو يحمل فى يده سلة من الفراولة وينظر فى عينى مباشرة.

قال: "هوّن عليك! هذا أيضاً سوف يمر.. هيا، خذ بعض حلوى النعناع، فهذا جيد لكل ما يضايقك".

وضع على مائدتى حفنة صغيرة من حلوى النعناع التى تحمل اسم تجارى "بليس".

- "كم ثمنها؟"

- "لا، لا، إنها هدية منى".

كان ذلك بمثابة تعزية لى من هذا الرجل الطيب الذى يعطى بعض الحلوى لطفل يبكى فى الشارع ... حدّقت فى وجه رجل الحلوى الأبوى الطابع مثل هذا الطفل، وأنا أبدو مذنباً. دعوته بـ "العم" معنى مجازى، ربما لم يكن حتى أكبر منى بكثير.

قال: "اليوم نحن منهزمون كلية، لقد قام الغرب باستفادنا، وطأونا بأقدامهم عندما مروا، قاموا بغزونا حتى وصلوا إلى حسائنا، حلوانا، ملابسنا الداخلية، لقد دمرونا، لكن في يوم ما ربما بعد ألف سنة من الآن سوف ننتقم لأنفسنا؛ سننهي هذه المؤامرة بإخراجهم من حسائنا، من حلوى اللبان الخاصة بنا، من أرواحنا، الآن هيا تابع وتناول حلوى النعناع، لا تبكي على اللبن المسكوب".

هل كانت تلك هي التعزية التي كنت أبحث عنها؟ لا أعرف..! لكن مثل الطفل الذي يبكي في الشارع مستمعاً بجدية إلى القصة التي يحكيها الرجل اللطيف، فكرت لفترة في كلمات التعزية ثم فيما أنا أسترجع مفهومًا تكلم عنه كُتّاب النهضة الأوائل بالإضافة إلى "إسماعيل حقي" من "إرزورم"، وجدت فكرة لأعزّي نفسي واعتبرت أنهم قد يكونون على حق في اعتقادهم أن الحزن هو مادة تنتشر من المعدة إلى المخ، واتخذت قراراً أن أعير اهتمامًا أكثر لما أتناوله وأشربه.

قطعت الخبز ووضعته في الحساء ثم تناولته بالملعقة؛ تناولت رشفات حذرة من كأس "الراكي" وطلبت كأساً آخر مع شريحة من البطيخ مثل رجل عجوز حذر يهتم بما ينزل إلى معدته، شغلت نفسي بالطعام والشراب حتى حان وقت مغادرة الحافلة.

صعدت إلى الحافلة وجلست فى أى مكان. أتصور أنه من الواضح : أننى أردت أن أترك خلفى الرقم المعتاد للمقعد رقم ٢٧ .. حيث كنت أفضل الجلوس، سوياً مع كل شىء آخر مرتبط بماضيّ . ويبدو أننى سقطت نائماً.

بعد غفوة طويلة وبدون انقطاع حيث نمت مثل طفل رضيع، صحوت عندما توقفت الحافلة قرب الصباح ودخلت إلى إحدى الاستراحات الحديثة والتى هى مركز الحضارة، كنت مسروراً بطريقة ما لرؤية الفتيات الجميلات فى إعلانات الكوكاكولا والبنك على الحائط، المشاهد على التقويم، مزيج غير متناسق من الألوان الزاهية فى كلمات الإعلانات التى تدعونى بصوت عال .. "الهامبرجر المكتظ" الذى يخرج من الخبز المستدير فى الحافظة الزجاجية فى ركن منها كانت هناك لافتة تشير بحكمة بالإنجليزية "اخدم نفسك/ خدمة ذاتية" ، وصور الجيلاتى التى تأتى فى ألوان مثل لون طلاء الشفاه الأحمر، أصفر مثل زهور الربيع، أزرق حالم.

جلبت لنفسى بعض القهوة وجلست فى ركن فى الضوء الباهر للمكان، بينما هناك ثلاثة أجهزة تليفزيون مفتوحة، شاهدت فتاة صغيرة ذات ثوب أنيق لم تنجح فى وضع نوع جديد من "الكاتشب" على أصابع البطاطس المقلية الذى يأتى فى زجاجة بلاستيكية وتحتاج مساعدة أمها، كانت هناك زجاجة

بلاستيكية لنفس النوع "اللذيذ" من "الكاتشب" موضوعة على مائدتى، والحروف الصفراء الذهبية على الزجاجة توعدنى بأننى إذا قمت بجمع ثلاثين من أغطية تلك الزجاجات خلال ثلاثة أشهر - التى كانت صعبة الفتح حتى أنها تتبعثر على ثياب الفتيات الصغيرات عندما تنفتح أخيراً - ثم ترسلهم على العنوان التالى، كنت سأكون مناسبًا لدخول المسابقة التى ستأخذ الفائز فى رحلة لمدة أسبوع لعالم "ديزنى" فى "فلوريدا". الآن أحرز واحد من فرق كرة القدم هدفاً على شاشة التليفزيون الذى فى المنتصف.

شاهدت نفس الهدف يُحرز مجدداً فى حركة بطيئة مع كل الرجال الآخرين الجالسين إلى الموائد، أو المنتظرين فى صف "الهامبرجر"، شاعراً بالتفاؤل الذى لم يكن على الإطلاق على السطح لكنه كان متعقلاً كما لو كان مناسباً للحياة التى تنتظرنى، أحب مشاهدة مباريات كرة القدم فى التليفزيون، التكاسل فى المنزل أيام الآحاد، أسكر فى بعض الأمسيات، الذهاب إلى المحطة مع ابنتى لمشاهدة القطارات، تجربة أنواع جديدة من الكاتشب، القراءة، النميمة مع زوجتى وممارسة الحب، تدخين السجائر، والجلوس فى سلام وشرب القهوة فى مكان أو آخر، كما كنت أفعل الآن تماماً، وإلى جانب ألف شىء آخر، لو اعتنيت بنفسى ونجحت فى أن أعيش - فلنقل - طويلاً مثل صانع حلوى الكرامل العجوز الذى كان اسمه على

اسم مجموعة النجوم، فأنا لدى نصف قرن آخر أمامى لأستمتع بكل هذه الأشياء .... للحظة شعرت باشتياق قوى لبيتى، زوجتى، وابنتى، تخيلت كيف سألعب مع ابنتى عندما أصل للبيت عند الظهيرة يوم السبت، ماذا سأشترى لها من متجر الحلوى فى المحطة، وبينما تلعب هى بالخارج بعد الظهر .. كيف سنمارس الحب أنا وزوجتى بصدق، بعاطفة، وبدون إهمال، ثم كيف سنشاهد جميعاً التليفزيون فيما بعد، وأنا أدغدغ ابنتى ونضحك معاً.

أيقظتنى القهوة بالفعل، فى الصمت العميق الذى تنزّل على الحافلة قبل الصباح مباشرة.

كان الشخص الوحيد المستيقظ بخلاف السائق هو .. أنا، جالساً وراءه مباشرة، إلى يمينه قليلاً، كان هناك حلوى نعناع فى فمى، عيناى مفتوحتان على اتساعهما، محدقاً فى الطريق الأسفلتى الناعم الممتد عبر السهب، الذى بدا بلا نهاية، مركزاً على العلامات على الخط الأوسط والأضواء الأمامية للشاحنات التى تمر بنا من حين لآخر، كنت أنتظر طلوع النهار بفارغ الصبر.

لم يمض أكثر من نصف ساعة عندما بدأت أميز أولى علامات الصباح من النافذة التى على يمينى، مما يعنى أننا كنا نسافر فى اتجاه شمالى، أولاً الحدود الخارجية للأرض المقابلة للسماء بدت وكأنها

أصبحت مرئية بغموض، وبلا تمييز ثم الخط الخارجي للحدود بين الأرض والسماء وقد اتخذ لوناً قرمزياً حريرياً غزا السماء المظلمة فى ركن واحد ولكن دون أن يضيء السهب؛ لكن الخط الفاصل الوردى اللون كان دقيقاً جداً، ورقيقاً جداً وغير عادى .. حتى أن كل الحافلات التى لا تكلّ - التى انطلقت عبر السهب مثل حصان جامح يسرع باتجاه الظلام سواء رغبت أم لم ترغب- والركاب الذين عليها كانوا ينهضون فى حالة صياح آلى لا فائدة منه. لا أحد كان واعياً بذلك، ولا حتى السائق.

بعد بضع دقائق، ونتيجة للضوء الشاحب المنبعث من خط الأفق الذى تحول إلى اللون القرمزى قليلاً، بدت السحب الداكنة فى الشرق وكأنها مضاءة على طول الحواف. أدركت شيئاً وأنا أنظر إلى الأشكال الرائعة التى تصنعها السحب الحائفة فى الضوء الواهى التى ظلت تمطر بلا هوادة فوق سطح الحافلة طوال الليل: طالما أن السهب ما زال حالك الظلام، فى الضوء الواهى داخل الحافلة .. استطعت رؤية وجهى وجسدى منعكساً على زجاج النافذة أمامى مباشرة، وفى الوقت نفسه استطعت رؤية الحمرة القرمزية السحرية، السحب الرائعة، والخطوط المكسورة فى الطريق السريع التى تكرر نفسها بلا كلل .

أثناء النظر إلى الخط المكسور فى المنتصف فى أشعة أضواء الحافلة، تذكرت المقطع، نفس مقطع

الأغنية المتكرر والذى يرتفع من روح المسافر المرهق المكتئب الذى يركب الحافلة المتهالكة لإيقاع الإطارات التى تدور بنفس المعدل، المحرك الذى يئن بنفس الوتيرة، والحياة التى تعيد نفسها بنفس القدر، والتى تتكرر بواسطة أقطاب القوى على الطريق السريع: ما الحياة؟ فترة من الزمن. ما الوقت؟ حادثة .. ما الحادثة؟ حياة .. حياة جديدة .... وهكذا كانت مقطعى المتكرر، فى الوقت نفسه كنت أتساءل متى سيختفى انعكاس صورتى عن زجاج النافذة؟ ومتى سيظهر أول شبح لشجرة أو ظل لحظيرة ماشية فى السهب؛ فى تلك اللحظة السحرية حيث التوازن بين الضوء داخل الحافلة وخارجها حتى أن عينى أغشيت فجأة بضوء قوى.

فى هذا الضوء الجديد على الناحية اليمنى لزجاج النافذة، رأيت الملاك.

كان الملاك قريباً جداً منى ولكن .. كم كان بعيداً. بالرغم من ذلك كنت مازلت أعرف أن الضوء العميق، البسيط، والقوى كان من أجلى. بالرغم من أن الحافلة اندفعت خلال السهب بكل قوتها، فلم يقترب الملاك أو يتراجع، حجب عنى الضوء الساطع رؤية كيف يبدو الملاك بالضبط، لكنى عرفت من الإحساس بالحيوية، الإحساس بالخفة، الإحساس بالحرية الذى شعرت به بداخلى أننى تعرفت على الملاك.

لم يشبه هذا الملاك أيا من هؤلاء الذين فى الصور الفارسية، ولا يشبه الملائكة التى على أغلفة حلوى الكرامل، ولا يشبه البتة الملائكة المصورة والمطبوعة أو حتى الحضور فى أحلامى الذى اشتقت لسماع صوته كل هذه الأعوام.

للحظة رغبت فى أن أقول شيئاً، أن أتحدث مع الملاك .... ربما لأنى مازلت أشعر بالإحساس الغامض بالعبث والمفاجأة، لكنى لم أصدر أى صوت؛ أصبحت قلقاً، كان الشعور بالود والمحبة، التواصل، والرقة الذى شعرت به منذ اللحظة الأولى مازال حياً بداخلى؛ أملت فى أن أجد السلام فى ذلك، معتقداً أنها اللحظة التى كنت أنتظرها كل هذا الوقت، لكن لأخفف من حدة الخوف الذى نمى بداخلى أسرع من سرعة الحافلة، تمنيت أن تمدنى اللحظة بالأجوبة على الوقت، الحادثة، السلام، الكتابة، الحياة، والحياة الجديدة.

كان الملاك عديم الشفقة كما كان بعيداً ورائعاً، ليس لأنه تمنى أن يكون كذلك، ولكن لأنه كان شاهداً فقط ولم يكن يستطيع فعل شيء أكثر، فى الضوء الرائع لطلوع النهار، رآنى جالساً فى حيرة وقلق فى مقعدى فى الأمام ، راكباً على متن علبة الصفيح التابعة لشركة "ماجيرس" التى تندفع مسرعة خلال السهب نصف المضاء؛ وهذا كل شيء. شعرت بالقوة غير المحتملة لما هو قاس وحتمى.

عندما استدرتُ ناحية السائق بغريزية، رأيت الزجاج الأمامى باكمله يشع بضوء قوى غير عادى، كانت هناك شاحنتان تسابقان بعضهما البعض على بعد نحو ستين أو سبعين ياردة من حافلتنا، وكلتاهما توجه أضواءها العالية إلينا وتقتربان بسرعة فى وضع معاكس مع حافلتنا. عرفت أن الحادثة لا يمكن تجنبها.

تذكرت انتظار السلام الذى يتبع الحوادث التى عشت خلالها منذ سنوات .... الشعور بالتحول بعد الحادثة التى تبدو وكأنها مصورة بالحركة البطيئة؛ تذكرت الركاب الذين كانوا يتناثرون هنا وهناك، كما لو كانوا يتشاركون معًا الوقت الذى جاء من الجنة وسرعان ما سيستيقظ كل الركاب الناعسين، وسكون الصباح ستخترقه صرخات سعيدة وصيحات وقحة؛ وعلى العتبة بين العالمين، كما لو كنا نكتشف الدعابات الأبدية الموجودة فى فضاء بلا جاذبية، كنا سنكتشف - مجتمعين - بارتباك وإثارة وجود الأعضاء الداخلية المليئة بالدماء، الفواكه المسكوبة، الأجساد المسحوقة، وكل تلك الأمشاط، والأحذية وكتب الأطفال التى خرجت من الحقائب الممزقة.

لا .. لسنا مجتمعين، الأشخاص المحظوظون الذين قدّر لهم أن يعيشوا خلال اللحظة الفريدة التى تتبع الصخب الهائل للحادثة سيكونون وسط هؤلاء الركاب

الذين تركوا على قيد الحياة الجالسين فى المقاعد الخلفية، أما بالنسبة لى، جالساً بارتياح فى المقعد الأول فى الأمام، ناظراً إلى ضوء الشاحنتين القادمتين، أغمضت عينى فى ذهول وخوف، تماماً كما نظرت ذات مرة إلى الضوء الرائع المنبعث من الكتاب، سأنتقل على الفور إلى عالم جديد.

عرفت أنها ستكون نهاية حياتى .. ولكن أردت فقط أن أعود للبيت، لم تكن لدى أية رغبة فى الموت على الإطلاق، ولا فى العبور إلى الحياة الجديدة.

اسطنبول

١٩٩٢-١٩٩٤

الفهرس